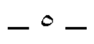
مشروع القومية العربية إلى أين؟

الطبعة الأولى : تموز ٢٠٠٦
عدد النسخ: ٢٠٠٠
التوزيع في سورية والوطن العربي
دار الفرقد بدمشق
هاتف:٠٠٩٦٣١١٦٦١٨٣٠٣
تلفاكس: ٩٦٣١١٦٦٦٠٩١٥+
ص.ب: ٣٤٣١٢

أ.د. حسين جمعة

مشروع القومية العربية
إلى أين؟

دمشق ـ ٢٠٠٦



مقدّمة

ما يزال السؤال الكبير يراود خلد كل مثقف حر ومفاده: لماذا أخفق العرب حتى الساعة في ابتداع نهضة حضارية معاصرة وأصيلة؛ ومن ثم لماذا عجزوا عن تحقيق مشروعهم القومي الوحدوي؟ ما الذي يختلفون فيه عن اليابان التي تحررت بعد عدد من الدول العربية، ولكنها أحدثت ثورة عالمية في العديد من المجالات؛ وبخاصة ما يتعلق بالتقنيات، بينما انكفأت الدول العربية على ذاتها عاجزة عن مواكبة التنمية الاقتصادية والاجتماعية، ولا تني ترفع عقيرتها للتحرر من القهر والتجزئة والعبودية والتخلف؟!! ما البرامج التي وضعتها كل دولة قطرية ــ في غياب التضامن العربي الحقيقي لما صعب تحقيق الوحدة ــ حتى أبقتها في هذا المستوى المتواضع من التقدم المعرفي والفكري والفني والتقني والاقتصادي....؟!

ومن هنا يبرز سؤال آخر: إلى أي مدى استطاع الواقع الراهن المفزع للعرب أن يتقدم إلى الأمام بعدما صار المشروع الصهيوني استعماراً سرطانياً استيطانياً يهدد الوجود العربي وتقدمه الحضاري؛ وقد شدد قبضته على فلسطين المحتلة، فقتل وشرد وخرّب؟!...

هل التقدم الحضاري مرتهن لدى العرب جميعاً بالتخلص من هذا الخطر الداهم، والشر المستطير الذي استظل بمظلة الإمبريالية العالمية الممثلة اليوم بالهيمنة الأمريكية؟! ولهذا، أخذ كثير من الناس يتساءلون: إلى متى ستبقى أولوية العربي مشدودة إلى تسخير كل شيء للمعركة المصيرية فقط، على إيمانهم بأهمية ذلك؟! إن كل ما يحيط بالعرب آخذ بالتطور السريع في شتى المجالات، والزمن لا يعبأ بالعجزة والجهلة والمتخلفين.. فهو لن يترك لهم الفرصة لالتقاط الأنفاس فهل يستطيعون تجاوز خلافاتهم لتحقيق مشروعهم القومي؟.

ولعل المراقب المنصف لما يجري في عالم اليوم لا يشك لحظة واحدة في أن التصور العلمي الدقيق عند العرب ما زال عاجزاً، لأنه ينتهي ــ غالباً ــ بردة الفعل الطبيعي كل يوم إلى الارتماء في أحضان ثقافة الآخر. فالمثقف العربي لا يملك حرية الإرادة المبدعة لإنتاج الفعل المبدع في صميم ما تقدمه

ــ اليوم ــ ثقافة العولمة التي طمست حتى اللحظة ما يقل عن أربعمئة من ثقافات العالم.. وهي تشدد النكير والحرب على الثقافة العربية والإسلامية التي يصفها أرباب العولمة في الدوائر الإمبريالية ولا سيما في أمريكا بأشنع الأوصاف، أقلها إنها إرهابية عُصَابية تنتهي بأبنائها إلى صراع حضاري حتمي مع الحضارات الأخرى.

وأنا واحد ممن يؤمنون بحيوية الأمة العربية وقُدْرتها على النهوض من جديد؛ على الرغم من أن ما أشرنا إليه في السطور السابقة قد دل ــ من دون ريب ــ على تدني التنمية الديمقراطية والاقتصادية والاجتماعية والمعرفية والتقنية.. إذا لم نقل: إنها متخلفة، فضلاً عن تدهور كثير من القيم والفضائل النبيلة، وترسيخ بدائل عنها.. فقد أخذت العولمة الجديدة تنتج أخلاقيات قائمة على مفهوم استهلاكي مادي صرف يبيح للإنسان إرواء غرائزه بغض النظر عن العادات والتقاليد الخاصة لمجتمعاتنا، وبغض النظر عن قيم الخير والفضيلة التي دعت إليها الديانات والشرائع.. وأسست لاتباعها في تعاليمها.

ولذلك كله فإن هناك تحديات متعددة وعظيمة الشأن واجهت المشروع القومي كينونة وجود قبل أن تواجه أبناءه كينونة تقدم حضاري في المستقبل على الصُعُد كلها؛ سياسياً واقتصادياً وعسكرياً واجتماعياً وفكرياً وثقافياً وأخلاقياً، معرفياً وتقنيا، وفنياً وأدبياً ولغوياً وجعلته يتراجع عن أهدافه حتى اليوم...

ومن هنا تنبثق أهمية الدراسة وأسبابها فهي تؤكد أن التحدي الأعظم الذي يواجه العرب إنما يتجسد بالمشروع الصهيوني والكيانات القطرية الهزيلة العاجزة، وحرص بعض أنظمتها عليها، إذ لا استمرار لهم من دونها.... على حين أن غير ما دولة تتجه إلى عملية دمج فيما بينها على صعد عديدة لتحقيق مصالحها.. وهذا ما نراه –مثلاً –في الوحدة الأوربية.. فإذا انتهى الأمر إلى العرب وجدنا الدوائر السياسية المتعددة دولاً وأحزاباً تحرص على الدولة القطرية العربية ما جعل الفكر السياسي يحل محل الفكر القومي؛ ومن ثم نشأ الخلاف الكبير لدى المفكرين والمثقفين حول الهوية العربية.. ولعل هذا خلق لديها تحدياً آخر على المستوى العسكري ثم المعرفي والتقني، ليس فقط في تراكم الأسلحة المتخلفة التي قذفها الغرب إلى كل دولة؛ وليس في برامج التدريب والتعاون المشترك مع الآخر غير العربي؛ بل في الانقطاع المعرفي والمنهجي والعسكري الحاصل بين العرب، على الرغم من وجود الجامعة

العربية، والمؤسسات الثقافية والعلمية الموحدة فضلاً عن وجود مجلس الدفاع المشترك.

فالواقع السياسي العربي يؤكد تمزق المشروع القومي؛ ويثبت أن الخطاب السياسي الشمولي المستند إلى الحوار الديمقراطي الفاعل والمنفتح على الآخر لم يتطور إذا لم نقل: إنه تراجع تحت وطأة عوامل عدة، فأبناء العربية يتعرضون – اليوم – ونحن في مطلع الألفيّة الثالثة لأعتى هجمة عدائية إمبريالية، وهي تتقوّى بحجج تفتريها عليهم كالإرهاب وغيره... وما هذا كله إلا لتبقى الأمة ممزقة لا إرادة لها ولا قوة، ولتستنزف مواردها وخيراتها وفي طليعتها الماء والبترول..

ولذلك كله يصبح الأمن القومي ملازماً للأمن السياسي والاقتصادي وكل منهما وجه للآخر؛ كالعملة الواحدة؛ وكلاهما توءم للتقدم الاجتماعي والفكري والثقافي والتقني.. فكل جائع أو عطشان لا يستطيع أن ينهض بتقدم الأمة وبناء نظامها بناء سليماً...... فالوجود الحر الواعي الفعّال إنما يتحقق بإصلاح حقيقي ديمقراطي لنظام الحياة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وأخلاقياً... نظام أصيل معاصر غير تابع ولا منحرف يشبع الحاجات والمشاعر والمعارف والفنون و...... ومن ثم فروح الأمة العربية لا تتجلى عظمة وشفافية إلا بما يحققه أبناؤها المميزون من أنموذج حضاري معرفي وتقني واقتصادي.. وفني ولغوي ونقدي.. وبهذا يستطيعون دفع عقول الأجيال إلى كَشف جماليات الحياة الجديرة بالعيش، وخلْق المواقف الكريمة والمبدئية، وتأجيج المشاعر السامية لصياغة الأخلاق الفضلى.. بعد أن تسلحوا بمنهج علمي موضوعي نزيه وسديد ..

ونرى أن هذا الفهم تعلق بما هو أشد خصوصية في الثقافة العربية؛ فارتبط باللغة العربية ونتاجاتها المعرفية، على اعتبار أن اللغة روح الأمة مهما تعرضت للغزو الثقافي من قبل الآخر؛ ومهما سعى إلى بلبلة الأفكار والرؤى حول التراث ولا سيما الديني منه، ولهذا كان القسم الخاص؛ الذي عُني بإشكالية وعي التراث الفكري والديني واللغوي وما يواجهه من تحديات ومعضلات. فقد رأينا أن الأمة مقطعة الأوصال، متفاوتة المستوى اللغوي والثقافي، ما جعل الأزمة تتفاقم بين أبناء العروبة، إذا أهملنا العديد من المثقفين التابعين للآخر ثقافةً، والمتبنين لمصطلحاته كيفما أتت... إيماناً بتخلفهم أو بعقدة الخواجة.

ولعل فيما أشرنا إليه يبرز أهمية الأسباب الداخلية التي أعاقت تحقيق المشروع القومي؛ ما يجعلنا نقف عندها واحداً إثر الآخر. فدراستنا تحاول أن

تعالج ما تمر به الأمة العربية من واقع ثقافي متخلف ومنكفئ على الذات؛ إما بسبب التنازع بين المثقفين والأدباء والكتاب والمفكرين على مفهوم الهوية أو العروبة، وإما بسبب وجود الأنظمة الفاسدة التي حرصت على الدولة القطرية، أو بسبب عدم قدرة الأحزاب الإيديولوجية على حل الأزمة الكامنة وراء إخفاق المشروع القومي، وإما بسبب أرباب دعاة الإقليمية الذين انحازوا إلى المسالك الضيقة في مساحات صغيرة جرياً وراء أوهام خاصة بهم، وإما بسبب إشكالية وعي التراث التي اتخذت أشكالاً مرضية منها ما اتجه نحو الانغلاق وفق مزاعم شتى، ولا يكمن وراءها إلا الخوف من الآخر قبل الخوف من الذات، ومنها ما اتجه إلى الغرب تابعاً إياه إلى كل جحر.

ولهذا اشتملت الدراسة على الآراء التي نعتقد أنها تقدم فوائد كبيرة للقارئ العربي، وتثير ذهنه على الحقيقة الناصعة التي غفل عنها كثير من الناس. فالفصل الأول الذي يتناول الأسباب الداخلية يوضح أن الجرح النازف من أوصال الجسد العربي الممزق لا يوحي بالبُرْء والشفاء القريب؛ لأن العرب لم يستطيعوا حتى الساعة أن يهزموا عوامل القهر والتجزئة من نفوسهم؛ بل ربما زادت عند بعض الكيانات لأنها تحقق مصالحهم الضيقة والأنانية..

وما من مثقف محايد ونزيه وقف في محراب الحقيقة إلا عاش نفحة التّصور المبدع للعرب لحل مشكلات واقعهم والتخلص من أزماته والتطلع نحو المستقبل. فكل فرد من أبناء الأمة يسكن في طموح الآمال العريضة لتعميق الانتماء القومي الصحيح، وبناء الإنسان العربي الواعي القادر على تجاوز كل ما يعترضه من مشكلات وصعاب، وهموم وآلام.. ولكن الأسباب الخارجية الموضوعية كانت ــ على الدوام ــ تعيق تحقيق المشروع القومي النهضوي الحر والموحد، علماً أن الأحرار والشرفاء منهم كانوا يسعون بكل ثقة وحزم إلى خَلْق رؤية عربية شمولية وموحدة لكل ما تواجهه الأمة في واقعها، والعمل على بناء تصور ناجع مستقبلي لكل قضاياها، فقد حاولوا جاهدين تبني مواقف الأمة الثابتة والمبدئية دون قهر أو إكراه؛ وكانوا يدعون إلى هذا كله على أساس الحوار الموضوعي الخلاق بين أبناء العروبة والآخر؛ الحوار المفتوح والقادر على إعادة الأمل بمستقبل الأمة العربية وأخذ مكانتها الراقية من جديد في الدورة الحضارية، ومن ثم ريادتها، لكيلا تبقى متلقية أو مستهلكة لإنتاجاتها.. فالدورة الحضارية لا يمكن أن تتوقف إلى الأبد عند أي أمة من الأمم كما يعززه المفهوم الحضاري التاريخي للأمة العربية.

وبناء على ذلك فإن دراستنا التزمت بأن تقدم كل ما يتصل بهموم العربي واقعاً وتطلعاً إلى إقامة المشروع القومي العربي، والالتصاق بأهدافه الواقعية المستندة إلى الهوية العربية الإنسانية التي واجهت الاستشراق الاستعماري والاستعمار الأوربي وهي التي تواجه ــ اليوم ــ العولمة الأمريكية المهيمنة؛ وتتصدى للمشروع السرطاني الصهيوني الذي يحارب المشروع القومي.. علماً أن التاريخ أثبت على الدوام أن الهوية العربية هوية سامية في الفعل واللسان باعتبارها تحمل نورانية النزوع الروحي والصفاء الديني الذي يضيء الدرب للأجيال...

وفي هذا الاتجاه حاولت هذه الدراسة تقديم صورة جادة لما ينبغي مواجهته في مجال التصدي للأسباب الخارجية وثقافة التغيير المرسومة بدقة من قبل الدوائر الغربية؛ وأهمها ما يتعلق بالمناهج وتوحيد المفاهيم والمصطلحات باعتبارها الحامل الاجتماعي والمعرفي والتقني. وقد برز في هذا الاتجاه أن التحدي الذي يواجه الأمة لا يكمن في مواردها الطبيعية والمائية فحسب؛ وإنما ينطلق ــ أيضاً ــ من وجوه تحدي الكينونة السياسية القطرية والقومية على السواء؛ إذ لا تستطيع دولة عربية بمفردها أن تستقل بمواردها البشرية والطبيعية وتستثمرها أحسن استثمار فهي بحاجة شديدة إلى أخواتها العربيات قبل حاجتها إلى غيرها لاعتبارات التاريخ والجغرافية والعقيدة واللغة.. وقبل هذا كله لوجود التكامل المُيَسَّر للحاجات من أقرب الأمكنة، فلا تجبرها على دفع النفقات الكبيرة لجلب حاجاتها من دول بعيدة..

ونقول: حينما سعت دراستنا إلى وضع تصور للخلاص من حالات إخفاق المشروع القومي للأمة؛ فإنها ــ وفي ضوء التحديات الكبرى التي تواجهها واقعاً ــ تبنت مفهوم الدراسات الفكرية المستقبلية لاستشراف الآمال في استباق الزمن لبناء نهضة عربية حضارية طموح وفاعلة تأخذ من الآخر وتعطيه ما يحتاج إليه؛ وبخاصة بعد أن صمد المشروع القومي العربي أمام كل الهجمات المعادية.

ومن هنا انتقل البحث إلى الفصل الثالث (آليات تحقيق المشروع القومي وتصورات نجاحه) فتوقف عند الهوية القومية والحكومة الإلكترونية وعند حرية التعبير والمشروع القومي وعرض لأشياء أخرى عديدة.

ونرى أن هذه الدراسة تبرز بكل وضوح ودقة مدى الفجوة الحضارية بين العرب وبين الغرب المتقدم؛ ولا سيما أننا ما زلنا نعاني من التخلف

المعلوماتي في الانترنت والاتّصالات؛ واستعمال كل ما يتعلق بالتقنيات الرقمية في مجالات التنمية خاصة... ولعل الوقوف عند هذه المعلومات يكشف معنى الانحراف والتضليل في الدوائر الرسمية القطرية، ويوطد في نفوس أبناء الأمة ملامح القلق والتوتر والاضطراب... بيد أنه لا يدفعنا إلى العجز والتباكي. فنحن ممن يؤمن بأن الآلام المبرحة تولد حياة مفرحة إذا توافر لها عزائم قوية وعقول واعية وحكيمة. وهذه تستطيع أن تعيد التوازن الحي إلى تكوين الشخصية الفاعلة المؤثرة وتنمي قدراتها المعرفية والتقنية والاقتصادية.. لتواكب هذا العصر كثير التغيّر، والسريع في التطور، ومن ثم السريع في إنتاج معلومات كبيرة وراقية على مختلف الصُّعد. ومن هنا تصبح مواجهة المشروع الصهيوني ضرورة ملحة لأبناء العروبة جميعاً؛ وهو المشروع الذي أخذ يتطلع إلى تحقيق ما يسمى بمشروع (الشرق الأوسط الكبير) الساعي إلى الهيمنة على المشروع القومي العربي.

وقد أكون أطلت عليكم أعزائي القراء في هذه المقدمة؛ وهذا يدعوني إلى أن أتوجه إلى كل فرد منكم ، أينما كان موقعه في إرث المجد الفكري والأدبي واللغوي كي يمارس قولاً وفعلاً مهمة البحث عن السبل التي تحقق وجودنا القومي وفي طليعتها توحيد المفاهيم وحرية التعبير المسؤولة، لأنه لا مكان لنا بين الأمم إلا بتحقيق ذلك كله، وعسى أن تكون الجهود كلها مفيدة متمنياً أن تقدموا لنا كل ما يقيل عثرتنا.

والله من وراء القصد

حسين جمعة

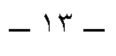
❑❑

الفصل الأول
الأسباب الداخلية لانكسار المشروع القومي

أ ــ الفئة الأولى: المثقفون والأدباء والكتاب.

ــ القسم الأول: المثقفون والكتاب والمفكرون القوميون.
ــ القسم الثاني: من جمع بين العروبة والإسلام.
ــ القسم الثالث: من يرى أن الإسلام هو الأمة.
ــ القسم الرابع: إشكالية وعي التراث بين المثقفين:
تقديم ــ في إطار وعي التراث ــ مفهوم الوعي.
أولاً ــ ماهية التراث: إشكالية المفهوم وحدوده
ثانياً ــ اتجاهات إشكالية توظيف التراث:
١ ــ إلغاء التراث.
٢ ــ الحفاظ على التراث وإحياؤه.
٣ ــ استلهام التراث.
٤ ــ إعادة إبداع التراث وتوظيفه.

ب ــ الفئة الثانية: الأنظمة والدولة القطرية.
ج ــ الفئة الثالثة: الأحزاب.
د ــ الفئة الرابعة: أرباب الدعوات الإقليمية.



الأسباب الداخلية لانكسار المشروع القومي

تتركز مهمة هذا الفصل في استخلاص الرؤية الفكرية لعدد من التيارات الفكرية والسياسية والاجتماعية العربية حول مفهوم الهوية العربية ولم يوضع للتفصيل في نشوئها وبنيتها ومصادرها وأعلامها تاريخياً وفلسفياً، على اعتبار ما انتهت إليه من اختلاف ملحوظ حول مفهوم العروبة والقومية، فضلاً عن الاختلاف حول الهم الوطني ــ وإن تحدثت بلغة عربية واحدة ــ غالباً ــ باعتباره المستوى الأهم الذي يقوم عليه المشروع القومي، على وجود التماهي الثقافي المشترك بين العرب كافة. ولهذا نشأ تشتت عجيب في مفهوم الهوية ووعيها، وهو ما أدى بالمشروع القومي إلى الانزلاق تحت وطأة الاختلاف الذي أعاق قيام هذا المشروع؛ على الرغم من وجود التجارب الوحدوية العديدة هنا وهناك، سواء منها تلك التي سقطت أو تلك التي ما زالت تتعثر في الطريق. وعلى الرغم من وجود العناصر القومية الجامعة للهوية الواحدة بين العرب كالتاريخ والجغرافية واللغة والعقيدة والثقافة الواحدة والعادات والتقاليد المتماثلة، والتطلع إلى العيش المشترك. وهي عناصر تتعلق بالوجود المادي والروحي للعربي منذ زمن بعيد؛ فضلاً عن استنادها إلى ما طرحته النظريات الفرنسية حول مفهوم (العقد الاجتماعي) من خلال إرادة العيش المشترك.

ونرى أن تحقق المشروع القومي منوط بالتوحد حول مفهوم الهوية العربية والمفاهيم المعرفية العديدة؛ وإذا تحقق الثاني تحقق الأول. وقد ناقش مثل هذا التوجه عدد غير قليل من المفكرين العرب فضلاً عن الكتاب والأدباء، ومن أبرزهم محمد عابد الجابري وحسين مروة، وإلياس مرقص، والطيب تيزني، وعلي حرب؛ وعبد الله العروي وجلال صادق العظم، وحسن حنفي، وغيرهم كثير ممن سنعرض لبعض آرائهم؛ أو ممن لا يتسع المجال لذكرهم.

ومن ثم إذا تساءلنا عن الفهم الجامع للهوية القومية بين الفئات المنتمية إلى العروبة لتبين لنا أنه ينقسم تبعاً لانقسامها إلى فئات عدة، وهي:

أ ــ الفئة الأولى: المثقفون والكتاب والأدباء:

القسم الأول؛ المثقفون القوميون.

القسم الثاني؛ من جمع بين العروبة والإسلام.

القسم الثالث؛ من يرى أن الإسلام هو الأمة.

القسم الرابع؛ إشكالية وعي التراث بين المثقفين.

ب ــ الفئة الثانية: الأنظمة والدولة القطرية.

ج ــ الفئة الثالثة: الأحزاب.

د ــ الفئة الرابعة: أرباب الدعوات الإقليمية.

إذن الأسباب ليست دائماً خارجية؛ وإخفاق المشروع القومي لا يرتبط فقط بمفهوم المؤامرة على أهميته، إذ تتساوى بالأهمية مع الأسباب الداخلية التي تنبثق من داخل المشروع القومي ماهية وطبيعة ووظيفة. ويمكن تناولها واحدة إثر أخرى؛ كما يأتي:

أ ـ الفئة الأولى: المثقفون والأدباء والكتاب:

وقع المثقفون والمفكرون والأدباء والكتاب العرب على تعدد طبقاتهم، وبنيتهم الاجتماعية والفكرية والسياسية في اختلاف معلن وواضح حول فهم مفهوم الهوية والعروبة والقومية العربية المشكلة لوجود الأمة؛ ما حدودها؟ ما وظيفتها؟ وإن اتفقوا ــ غالباً ــ على ماهيتها من جهة الوجود التاريخي؛ فضلاً عن تداخل كثير من الأفكار التي رفدت رؤاهم للهوية العربية سواء انحدرت من التراث العربي أم من الثقافة الغربية الوافدة. ولهذا تصدعت رؤاهم فلم يؤمنوا جميعهم بأن العروبة " حقيقة نابعة من أعماق الذات العربية ومن تفكير كل عربي وشعوره، أينما كان منزلــه. وهي تعبير عن شخصية الأمة العربية وأمانيها وحاجاتها ومصالحها. وما هو قائم بين أبناء العروبة من أواصر التاريخ والتراث الثقافي واللغة الواحدة والمصير المشترك"[١] أكبر بكثير مما لدى أي أمة أخرى.

وأرى أن هؤلاء جميعاً قد انقسموا إلى أقسام عدة هجينة وأصيلة، علاوة على إشكالية وعي التراث فيما بينهم على اختلاف انتماءاتهم ومذاهبهم، ودرجات ثقافتهم ونوعها، وعلى افتراض أن يملك المثقف الأديب والمفكر منهم القدرة

---

(1) أعمــال المــؤتمر الثالــث للأدبــاء والكتــاب العــرب ــ ص ٢٩٣ ــ القــاهرة ــ ٩ ــ ١٩٥٧/١٢/١٥م. وانظر الأعمال القومية ٢٦٧ ــ٢٧٢، وراجع ما يأتي في (الهوية العربية وثقافة العولمة).

العقلية والصحة النفسية، والثروة المعرفية والأداة المنهجية التي تؤهل للنظر والنقد والتحليل المنطقي البعيد عن التشوه والانحراف، والتبعية والاستلاب والاختلاط في المواقف وازدواجها. إنه المثقف الذي يختلف كل الاختلاف عن المتعلم الذي اختزنت ذاكرته جملة من المعارف والفنون والآداب والعلوم التي يوظفها لغرض من الأغراض عند الحاجة. وسأبدأ بالقسم الذي آمن بمفهوم العروبة المشكلة للمشروع القومي باعتبار العرب أمة ذات كيان محدد وواضح، يعبر عن الوجود والتميز.

١ ـ القسم الأول؛ المثقفون والكتاب والمفكرون القوميون:

كل من يرجع إلى حقبة الدعوة إلى القوميات يدرك أن أرباب القومية العربية منذ نشأتهم في نظام ثقافي تعليمي غارق في الجزئيات ومتقيد بأنساق معرفية محددة تراثية ومعاصرة رأوا أن العروبة تملك كل عناصر الرؤية النظرية لتشكيل القومية طبيعة ووظيفة. لهذا اعترفوا بالإسلام وقيمته في التاريخ العربي؛ وأعجبوا بعهد النبوَّة الكريم لأنه نقل شبه جزيرة العرب المنعزلة تاريخياً وجغرافياً إلى قلب الأرض؛ لتشرق من جنباته رسالة الإسلام التي وَحّدت القبائل المبعثرة، ونقلت لغتها وثقافتها إلى مشارق الدنيا ومغاربها. ثم أعجبوا بالدور الريادي للعهد الراشدي الذي حمل فيه العرب أمانة تبليغ الرسالة إلى المجتمعات الأخرى بكل صدق وإيثار، ما جعلهم يعبرون عن كثير من التقدير للعهد الأموي لأنه كان عهداً عربياً أعرابياً، أما العصر العباسي فلم يكن عندهم إلا امتداداً للعهود السابقة من جهة توحد الرقعة الجغرافية تحت راية الإسلام؛ وإن حدث فيها كلها ما حدث من نزوع مذهبي أو اختلاف اجتماعي لتمايز الأعراق الداخلة فيه، ولا سيما بعد ظهور نزعة الشعوبية في هذا العصر. ثم جاء العهد العثماني الذي امتد أربعمئة سنة ظهرت في أواخرها ما عرف بظاهرة التتريك. ولكنَّ هذا التصور أو ذاك لم يكن إلا في إطار سيرورة الوجود التاريخي العربي، ولهذا غالى كثير من المثقفين والمفكرين والكتاب في انتمائهم القومي، وقدموه على غيره. وربما أدت هذه المغالاة إلى تطرف عدد منهم فرفضوا الآخر، فانتهوا إلى عجز حقيقي في التواصل معه، لأنهم لم يستوعبوا حركة الأحداث الكبرى المتسارعة في تغيرها، فأصيبوا بحالة انكسار تجاهه ولا سيما الغربي المغاير؛ ما جعل الهوية القومية تخسر كثيراً من عناصرها المكونة لها نتيجة تأثير النظريات الثقافية الغربية، بما في ذلك تلك التي ترتبط بالعقيدة والعادات والتقاليد. وهذا ما لمسناه عند عدد غير قليل منهم؛ مثل شبلي شميّل(١٨٥٠ ــ١٩١٧م)الذي يعد أحد

رواد التيار العلماني المستند إلى قراءة جديدة للإسلام ولتراث العلماء المسلمين. وكذلك كان عند فرح انطوان (١٨٧٤ ــ ١٩٢٢م) ويعقوب صروف (١٨٥١- ١٩٢٧م) وأديب اسحق (١٨٥٦- ١٨٨٥م) وسلامة موسى (١٨٨٧- ١٩٥٨م) وأحمد لطفي السيد (١٨٧١- ١٩٦٣م) وفارس نمر (١٨٥٦- ١٩٥١م) وطه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣م) وفرنسيس مراش (١٨٣٥ ــ ١٨٧٤م) وإسماعيل مظهر وزكي نجيب محمود ونيقولا حداد وغيرهم...[١]

فطه حسين مثلاً أجرى توافقاً مثيراً بين الثقافة العربية والغربية في كتاب (مستقبل الثقافة في مصر) الصادر سنة (١٩٣٨م)، فجعل أوربا فضاءً غير محدود لتجاوز الفقر والجهل والتخلف الذي تعيش فيه مصر والأمة العربية. ولهذا لا يجوز للأمة العربية أن تنكفئ على ذاتها وتراثها الأصيل؛ بل عليها الانفتاح على الحضارة الأوربية. وعلى الرغم من أن دعوة طه حسين كانت تتجه إلى مصر أكثر مما اتجهت إلى الأمة العربية فإنه كان يتبنى فكرة قبول الغَرْب واتباعه في كل شيء، ويرى " أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب.... وأن جيشنا يجب أن ينظم تنظيماً أوربياً" [٢].

أي إن اعترافهم بالإسلام وبنيته ليس لــه معادل موضوعي سواء على صعيد الفكر الذي يملكونه أم على صعيد العُرْف السياسي وتطبيقاته؛ وإن رأوا أن الجنس العربي ممتد في جذوره وتاريخه حتى البابليين والسومريين والكلدانيين وغيرهم كما رأيناه في دراسات علي فهمي خشيم، ومحمد نجيب البهبيتي، وعزَّة دَرْوَزَة، وعمر فروخ وغيرهم. ولكنهم في الوقت نفسه كانوا ينظرون إلى العروبة من خلال نشوئها الحديث باعتبار نشاط القوميات في القرن التاسع عشر وفهمهم لها. وهذا ما جعلهم يفصلون بين الدين والسلطة، والمساواة بين الناس بغض النظر عن عقائدهم ومذاهبهم، وإطلاق حرية الفكر، ويرون أن هناك استحالة لإقامة وحدة دينية بين العرب لاختلاف دياناتهم، ما يعني لهم أن اللغة العربية تعدُّ أهم عنصر من عناصر القومية، باعتبارها أهم

---

(1) انظر بعض قضايا الفكر العربي المعاصــر ٧٧ ــ ١١٨ و ١٢٧ ــ ١٣٣ ونــدوة مــشروع النهضة العربية ١/١٣٨ــ ١٥٩.

(2) انظر مستقبل الثقافة في مصر ٣٩ وانظر ص ٣٤و ٤٠ ــ ٥٠ وانظر رأي عبد الله العــروي وصدقي إسماعيل في (بعض قضايا الفكــر العربــي المعاصــر) ٤٦ ــ ٥٢ و ٥٤ ــ ٦٠ ولماذا أخفقت النهضة العربية ٥١ ــ ٦٤..

العوامل الموحدة، فضلاً عن كونها وعاء للتفكير. فاللغة مثلت لهم الهوية المكتوبة والمنطوقة؛ بل الوعاء الثقافي التاريخي للشخصية القومية؛ على حين تراجعت بقية العناصر القومية المجتمعة؛ ولا سيما المعرفية والعلمية التي اتجهت اتجاهاً قطرياً أو اتجاهاً توافقياً يفضل الحلول الوسطية. وفي ضوء هذا الفهم طفقوا ينظرون إلى اللغة بأنها قادرة على استيعاب علوم العصر وتقنياته؛ على اعتبار أنها كانت ذات يوم لغة العلم والرياضيات؛ وليست قصيدة حافظ إبراهيم عنا ببعيدة؛ وفيها تغنى باللغة العربية القادرة على استيعاب التقانات الحديثة.

وإذا كانت مفاهيم رواد عصر النهضة متقدمة في هذا المجال، فإن ثقافتنا اللغوية والنقدية والعلمية ــ مثلاً ــ ظلت تابعة للموروث تارة ولما يفد من الغرب تارة أخرى، ما انتهى بها إلى الانكسار أو العزلة، أو فقدان الدفع الجماهيري الشعبي. وبمعنى آخر انتشرت ثقافة التقليد في إطار الشروط الثقافية الخارجية دون أن تلبي عملية الريادة والاستكشاف من داخل الثقافة العربية وطبيعة أدبها وعلومها، ولم ترتق إلى مرتبة الكينونة المتحولة في التعبير عن الوجود المعرفي في سياق التطور الاجتماعي، وفي إطار سلوك الوعي النقدي الذي يمزج بين الواقع والفكر، ويطور آلياتهما، ما جعل الثقافة العربية تقع في مطب النقل، في مجالات شتى، ولا سيما في مجال المصطلح والتقنيات. لهذا بدؤوا يميزون أنفسهم بخصائص الهوية العربية العلمانية متأثرين بما جرى في أوربا وتبعاً للموقف والظرف الآني لنشوء النظريات الفكرية هنا وهناك؛ علماً أن قسماً منهم تبنى مبدأ القطيعة الكبرى مع التاريخ وجعله أساس النهضة، على اعتبار أن التاريخ العربي لديهم يجسد كثيراً من التخلف في عدد من الاتجاهات. ومن ثم كان عليهم أن يقوموا بعملية انتقاء واختبار لأن الناس أبناء الحاضر، وهم لا يعيشون الماضي مرتين.

وقد مارس هذا الفعل عدد من المثقفين والمتعلمين والجامعيين ولكن بأسلوب نخبوي وحيد الاتجاه قائم على وحدة العقل والتكوين النفسي والاجتماعي؛ وبخاصة من ذهب إلى الغرب ونهل من معين فلسفته وثقافته فرجع متغرباً في أغلب الأحيان إذ سار على نهج مثقفيه في الإصلاح والتغيير، وطلب إلى الآخرين أن يسيروا وراءه وإلا فهم متخلفون جهلة. إنه نوع من التقدير المبالغ فيه للذات النرجسية والذات المتغربة. ويتجلى ذلك كله على نحو ما عرض لــه العديد منهم مثل: ساطع الحصري (ت ١٩٦٨م) الذي وضع نفسه في خدمة العروبة كما في كتابه (العروبة أولاً) الصادر في القاهرة عام (١٩٥٥م) وقسطنطين زريق كما في كتابه

(الوعي القومي)[1] وجورج أنطونيوس كما في كتابه (يقظة العرب)[2] وعبد الإله بلقزيز؛ ولاسيما ما ورد في كتابه (من العروبة إلى العروبة ــ أفكار في المراجعة)[3].

وفي ضوء ذلك تجلت أزمة الفكر العربي " من خلال أزمة المثقفين، والمطلوب هو ثورة على العقلية السائدة، ثورة تؤدي إلى تحديث العقلية وإلى نشوء فكر عربي على مستوى العصر وتحدياته"[4].

ولا يشك أحد في أن التيارات الفكرية قد ازدادت قوة في الخمسينيات والستينيات نتيجة وجود الأحزاب القومية وظهور شخصيات عربية كبيرة مثل الرئيس الراحل جمال عبد الناصر التي أثرت في الساحة القومية والدولية أيّما تأثير أو ظهور بعض الأحزاب والحركات القومية مثل حزب البعث العربي الاشتراكي. ففي هذه المرحلة تأسس مفهوم الصحوة بالانتماء إلى أمة عربية واحدة والدعوة إلى نهوض عربي شامل على الصُّعد كلها السياسي والاقتصادي والاجتماعي؛ وإن ظلت تلك الصحوة شعبية أكثر منها نظاماً فكرياً وسياسياً عربياً متكاملاً. وإذا كان هذا التيار أو ذاك قد تراجع إثر إخفاق المشاريع الوحدوية؛ وعقب هزيمة عام (١٩٦٧م) ثم وفاة عبد الناصر في (١٩٧٠/٩/٢٨م) [5] وما شهدته الساحة القومية من تمزّق بعد حرب الخليج الثانية، ومن ثم انكسار بعض الأحزاب القومية؛ فإن المشروع القومي ما يزال يشكل الهاجس الأول لدى كثير من المثقفين والمفكرين والكتاب باعتبار العروبة إنجازاً قومياً إنسانياً غير عنصري ولا متعصب لذاته؛ وإن ظل عدد منهم متأثراً على نحو كبير بالأفكار الغربية التي طرحت حول القوميات ولم يتخلص منها، أو أنها اتصفت بالانفعال والسذاجة فضلاً عن أن كثيراً من هذه الأفكار قد ارتبط بمفهوم القوة بكل تجلياتها؛ علماً أننا نؤمن بأن الثقافة الغربية ليست متماثلة؛ وإن تماثلت في أحايين كثيرة في المنهج؛ لأن التنوع والاختلاف ينبثق من التكوين البشري في أوربا؛ ما

---

(1) الوعي القومي ــ دار المكشوف ــ ط٢/ ١٩٤٠م وانظر ندوة مشروع النهضة العربية ١٤٨/١ ــ ١٥١ وبعض قضايا الفكر العربي المعاصر ١١٩ ــ ١٢٦ والآلهة التي تفشل دائماً ٨١– ٩٨ والأعمال القومية ٧١.

(2) يقظة العرب ــترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس ــ دار العلم للملايين ــ ط ٧/ ١٩٨٢م

(3) من العروبة إلى العروبة ــ أفكار في المراجعة ــ العالمية للكتاب ــ ط١ ــ ٢٠٠٣م

(4) انظر بعض قضايا الفكر العربي المعاصر ٥٤ وما بعدها.

(5) انظر الأمة العربية ٨٥ ــ ١١٩ والأعمال القومية ١١٣ ــ ١٢٥.

جعل الثقافة الألمانية ــ مثلاً ــ تفترق في وجوه عديدة عما هي عليه في فرنسا أو بريطانيا. ولهذا ظهرت في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين دعوات إلى توحيد العرب بالقوة العسكرية، مذكّرين ــ أيضاً ــ بارتباط الفهم للعروبة بمفاهيم ليبرالية أخرى أو بمفاهيم ماركسية ولينينية. ولعل هذا يوحي بأن عدداً من أرباب هذه المفاهيم كانوا أساتذة سيئين لبعض المفاهيم القومية العربية؛ ونظرياتها ولا سيما تلك المفاهيم التي تتعلق بالإلغاء، وأحادية الاتجاه؛ فجذور القومية العربية الحديثة التي ابتليت بالتعصب إنما استمدت إيديولوجية الكراهية والاختلاف من أوربا. وبهذا قد يصدق ما ذهب إليه الباحث (شميدينغر) حين قال: ((برزت القومية العربية كحركة قومية مناهضة للاستعمار؛ اقتبست المفهوم القومي من أسيادها وطبقته ضدهم))[1]. وفي هذا المقام علينا ألا ننسى أن التيارات القومية لم تكن ذات إيديولوجية واحدة؛ ولا ينتمي أربابها إلى طبقة اجتماعية واحدة، ما جعل الرؤية القومية المتماثلة تنعدم في كثير من الأحيان، إن لم تكن تزرع الأوهام حول المشروع القومي؛ ولا سيما تلك التي ارتبطت بالطبقة البرجوازية أو الإقطاعية، أو التي تصارعت حول مفهوم القومية ذي البعد الاشتراكي أو الليبرالي، فضلاً عن وقوف بعض التيارات القومية في وجه الخصوصية الوطنية، على الرغم مما جاء في كتاب (فلسفة الثورة) لجمال عبد الناصر؛ أو في أدبيات بعض الأحزاب القومية، حول تكامل الانتماء بين الوطني والقومي والإسلامي والإفريقي. فالوهم الذي آلت إليه هذه التيارات جعلها تسير وراء ما كانت عليه البرجوازية الغربية أو الاشتراكية الشيوعية في الاتحاد السوفييتي السابق. ولهذا لم تصل بالمقهورين من أبناء العروبة إلى المستوى الاجتماعي والاقتصادي الذي كانت تنشده، في الوقت الذي لم يستطع المثقفون أن يشكلوا كتلاً ثقافية متجانسة ولو كان هذا في صميم المصلحة الواحدة. ومن ثم فإن الحكومات العسكرية التي تماثل الحكومات البرجوازية العربية؛ إن لم تكن ــ قد حلت محلها ــ جعلت دعوتها إلى النهوض القومي مغلفة بالتنمية الاقتصادية؛ والسياسية والاجتماعية؛ بيد أنها لم تحقق إلا مصلحتها هي، ومن ثم لم تنجز أي تقدم في بناء المشروع القومي. ولهذا نرى أن " ما توصلت إليه النخب النهضوية من ضرورة التفاعل مع الآخر يعدّ مكسباً حضارياً لا غنى عنه ..." بيد أن " المماهاة مع الآخر أثبتت

---

(1) د. خالد الناشف: الاختراق الصهيوني للعراق ص ١٩٥ وانظر الأعمال القومية ١٩ ــ ٢٤ و ٣٣ ــ ٣٧ و ١٢٩ و ٣٨٣ــ ٤٠٠ ولماذا أخفقت النهضة العربية ١٩ ــ ٢٣ والآلهة التي تفشل دائماً ٤٤ ــ ٤٧..

فشلها في مستويي السلوك والوعي ولم تُفْضِ إلا إلى التبعية والتشويه" [1]. ومن ثم فالتجربة القومية استندت إلى المفهوم السياسي سواء تجلّى هذا المفهوم في الحكومات أم في الأحزاب أو الحركات القومية؛ علماً بأن كثيراً من هذه أو تلك اعتمدت ديمقراطية شكلية في صيغ دستورية تلبي أهدافها السياسية. ولم ترتق إلى جعل المفاهيم السياسية للقومية ذات مضمون اجتماعي فكري موحَّد؛ ما انتهى بالتيارات القومية إلى حالة من الاختلاف ثم الاصطراع؛ لاختلاف منطلقاتها ومناهجها؛ وإن توافقت أهدافها حول الوحدة العربية. وفي ضوء ما تقدم كله ندرك أن المشروع القومي عند هذا التيار أو ذاك انتصر للمشروع السياسي على حساب بقية المشاريع القومية الأخرى وأحلَّ المفاهيم السياسية مقام المفاهيم الفكرية.

٢ ـ القسم الثاني: من جمع بين العروبة والإسلام

لم يكن هذا القسم مغايراً في كثير من آرائه للقسم السابق، ولكنه كان يرى في الإسلام ما لا يراه سابقه؛ فدعا إلى الجمع بين مفهومي العروبة والإسلام والتوفيق بينهما على الأرض العربية في إطار النشأة التاريخية والبنية الثقافية والاجتماعية العربية؛ وحاول وضع الإسلام في قلب المفهوم القومي على اعتبار أن وحدة المجتمع العربي تكمن غالباً في وحدة الدين والعادات والتقاليد التي أنتجها[2]. فالهوية العربية تزداد ألقاً بما انتهى إليه الإسلام من توحيد لديار العرب وتشكيل بنية ثقافية اجتماعية متجانسة على نحو ما، ثم جعل اللغة العربية العنصر الجامع والأهم في تشكيل الهوية العربية. وأعتقد أن من تبنى هذا التوجه حاول الجمع بين فصائل المثقفين القوميين والإسلاميين في وقت واحد، ولكنه وقع ــ أحياناً ــ في تصادم فهم حقيقة الهوية حين عجز عن استلهام العلاقة بين العروبة والإسلام؛ سواء أكان هذا في صيغ الحكم أم في جلسات الحوار والمناقشة. ولهذا كثرت الأفكار التي تناقش قضية العروبة والإسلام، وهل هي قضية متعلقة بالعرب وحدهم أم أن لها امتداداً ثقافياً وسياسياً يشمل غير العرب من المسلمين؟. ومن خلال هذا النقاش المستمر أدرك أرباب هذا القسم أن الإسلام جوهر والعروبة مادة وامتداد تاريخي ولغوي وثقافي، وأن أي صدام بينهما يمكن أن يزول على أساس هذه القاعدة.

---

(1) لماذا أخفقت النهضة العربية ١٥.

(2) انظر الأعمال القومية ٣٩ و ٦٤ ــ٧٠. ولماذا أخفقت النهضة العربية ١٤ ــ ١٨ و ٢٤ و ٦٤ ــ ٧٤.

ولهذا قام بعض التيارات القومية بمصالحة بعض التيارات الإسلامية والعكس صحيح، لأنه لا يمكن لأحدها أن يلغي الآخر؛ على اعتبار أن المشروع النهضوي القومي مضمون عربي حضاري ذو محتوى ثقافي إسلامي.

ثم وَفَّق كثير من أرباب الفكر القومي والإسلامي بينهم وبين مفهوم القوميات الداخلة في الإسلام، على أساس الجنس قبل الدين؛ بل اعترفوا للآخر الأوربي بقوميته ولم ينكروا عليه مغايرته الفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية، وانفتحوا عليه يتعاونون معه أو يتعلمون منه كما وجدناه في عصر النهضة عند رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١- ١٨٧٣م) مؤسس الليبرالية الحديثة في الثقافة العربية التنويرية ولا سيما كتابه (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) الذي لخص فيه القانون الفرنسي تلخيصاً مفيداً، وكذلك كان خير الدين التونسي (١٨٢٠ ــ ١٨٩٠م)في كتابه (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك) وأحمد فارس الشدياق (١٨٠٤- ١٨٨٧م) في كتابه (كشف المخبا في فنون أوربا) وعبد الحميد الزهراوي (١٨٥٥ ــ ١٩١٦م) في (رسالة الإمامة وشروطها) ومقالاته العديدة التي نشرها في (المؤيد، والجريدة) ومحمد الخضر حسين (١٨٧٠- ١٩٥٨م) في كتابه (مدارك الشريعة الإسلامية) وكتابه (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) ومقالة (الخلافة الإسلامية) في مجلة (البدر التونسية ــ مجلد ــ ١) وأحمد أمين (١٨٨٦ ــ ١٩٥٤م) في كتبه العديدة مثل (فجر الإسلام) و(ضحى الإسلام) ومحمد الطاهر بن عاشور (١٨٧٩ ــ ١٩٧٣م). ولا شك في أن كتب هؤلاء الرواد عبَّرت عن فهمهم لطبيعة أوربا، وأظهرت تقدم مدنيتها، بيد أن هدفهم تركز حول نهضة العرب والإفادة فيها من التقدم الغربي مع إقامة توازن بين العقيدة والعروبة من جهة وبينهما وبين الإفادة من الغرب من جهة أخرى، وفق مبادئ اعتماد العقل والحرية والعدل السياسي والاجتماعي.

ولم تحقق هذه الحركة الإصلاحية التنويرية في مشروع العرب القومي تقدماً يوازي طموحاتها؛ على شدة الحماسة التي يتصف بها أربابها؛ لأنهم أرادوا إصلاح نهضة الأمة بإصلاح الأنظمة الحاكمة فقط إذ أرادوا ترشيد القرار السياسي قبل أن يقوموا بعملية وعي منهجي يربط بين الأنظمة ومصالح شعوبها. لهذا فإن الخلافات السياسية بين الأنظمة العربية بعد ذلك قد أدت إلى تنازع المصالح، ولم تستطع الجامعة العربية أن تؤدي الدور المنوط بها لتأسيس

المشروع القومي، وظلت الآليات التي اتخذتها عاجزة عن إدراك الغاية ابتداءً بمجلس الدفاع المشترك وانتهاءً بالوحدة الاقتصادية؛ وظل التمايز الطائفي قائماً في كل دولة، فضلاً عن تأسيس بعض الأقطار العربية طائفياً ومذهبياً، مثل لبنان الذي شكله الدستور المقر سنة (١٩٢٣م).

ومن أبرز مفكريه بعد عصر النهضة:

١ ــ نقولا زيادة كما في كتابه (المسيحية والعرب)[١]

٢ ــ ميشيل عفلق وبخاصة كتابه (البعث والتراث)[٢]؛ وفيه حاول أن يجعل التيار الفكري العلمي ــ العلماني شكلاً من أشكال القومية العربية المستندة إلى كثير من معطيات التراث الإسلامي، ومثله فعل زكي الأرسوزي كما رأيناه في الأعمال الكاملة التي جمعت آراءه. فعفلق يتحدث عن حركة البعث التي " أعطت الدين دوره المشروع في حياة البشر وتاريخهم، وأعطت الإسلام الدين العربي، الدين الإنساني، أعطته المكانة الأساسية في تكوين قوميتنا". فالإسلام تراث روحي يحفز الأمة ويلهمها في حركة البعث الثورية؛ فالإسلام " هو تاريخنا، وهو بطولاتنا، وهو لغتنا وفلسفتنا ونظرتنا إلى الكون" كما قال عفلق.[٣]

٣ ــ محمد عابد الجابري كما هو في كتابه (إشكاليات الفكر العربي المعاصر)[٤].

٤ ــ حسن حنفي ــ حاول هذا الباحث في العديد من كتبه مثل (من العقيدة إلى الثورة) و (من النقد إلى الإبداع) أن يجعل التراث وسيلة إلى فتح نوافذ مضيئة بينه وبين الغرب من أجل بناء مشروع ثقافي قومي. ولهذا فهو يسعى إلى إعادة بناء المشروع القومي، تكون الثقافة الإسلامية فيه أساساً، وإن أثبت هو وغيره فيها أبعاداً اشتراكية، أو ليبرالية؛ وجعلوا الشورى أساس الديمقراطية، على الرغم من أنها شورى للنخبة ليس غير. ولعل هذا يشي بأنه كان يرفض القراءة الليبرالية، والقراءة القومية الخالصة للإسلام؛ لأنه المكون الرئيسي للقومية، في الوقت الذي يقوم على محاورة التيارات

---

(1) المسيحية والعرب ــ قدس للنشر والتوزيع ــ دمشق ــ ط٢/٢٠٠٠م).
(2) البعث والتراث ــ دار الحرية ــ بغداد ــ ١٩٧٦م
(3) انظر صحيفة تحولات ــ دمشق ــ العدد ٤ ــ تشرين الأول ٢٠٠٥م ــ ص ٦.
(4) إشكاليات الفكر العربي المعاصر ــ مركز دراسات الوحدة العربية ــ ط٤ ــ ٢٠٠٠م وانظر كتابه الخطاب العربي المعاصر ١٧ ــ ٢٠ و ٣١ ــ٣٢.

الأخرى،[1] ومثله يَرى الباحث محمد عمارة وفهمي هويدي ومحمود عكام.

ومن هنا برزت مشكلة المثقف الخاصة وفق ما ذهب إليه المفكر إدوارد سعيد؛ حين قال: " إن مشكلة المثقف خاصة، في كل حال، هي أن لغة جماعة ما، في كل مجتمع؛ تهيمن عليها عادات تعبير موجودة مسبقاً؛ إحدى وظائفها الرئيسية هي الحفاظ على الوضع القائم؛ وتأكيد أن الأشياء تجري على نحو هادئ لا تتغير"[2].

٣ ـ القسم الثالث؛ من يرى أن الإسلام هو الأمة:

يرى قسم من المثقفين والكتاب والمفكرين أن العرب لم يكونوا شيئاً مذكوراً قبل مجيء الإسلام، فهم قبائل متناحرة ليس لها هدف إلا أن تعيش، ولهذا كان نزاعها على الكلأ والماء نزاعاً قاتلاً على ما عرفته من تراحم فرضته الحياة عليها.

فهذا القسم ينطلق من مسلمات ثابتة لدى كثير من المثقفين وغيرهم؛ فالإسلام هو الذي كوَّن مفهوم الأمة، منطلقاً فيها من مفهوم اللسان تصديقاً للحديث الشريف وملخّصه (ليست العربية من أحدكم بأب أو أم وإنما هي اللسان). ثم الثقافة الدينية الواحدة بدليل الحديث الشريف (لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى). فالدين الإسلامي صهر عناصر الاختلاف بين أبناء العروبة ثم صَهَر عناصر الاختلاف فيما بين العرب وغيرهم من الأمم الداخلة فيه. ولهذا كان الإسلام سمة فارقة للعرب، في الوقت الذي جعل لهم فضاء خارجياً يحتمون به، ويتمثل بكل من دخل في الإسلام من الأمم الأخرى. فالتراث الديني يعدُّ وثيقة تاريخية حضارية حقق للأمة العربية إنجازات شتى في الحياة الروحية والمادية والمعرفية والعلمية والفنية، وقدم من التجارب والمعارف ما لم يقدمه تراث آخر لأمة من الأمم في الطب والكيمياء والرياضيات والفيزياء والفلك والجغرافية والتاريخ والأدب والنقد والفن.. فصاغَ الحياة النفسية والاجتماعية والخلقية والفكرية أحسن صياغة.. فكل ما في تاريخنا الإسلامي عامل نهضة لنا في تحقيق مشروع الأمة وليس المشروع القومي فقط، إنه دين ودولة. ولهذا: فما بال بعض التيارات الفكرية والسياسية في الأمة العربية اليوم تحاكمه تلك المحاكمة الظالمة، وتحوك المؤامرات حوله؛

---

(1) الخطاب الإسلامي المعاصر ــ وحيد تاجا ــ ٥١- ٥٨.
(2) الآلهة التي تفشل دائماً ٤١.

وتضعه في دائرة الشك والاتّهام والتخلف..؟ ما الذي يبقى لها من إنجازات عظيمة إذا هي تنكَّرت لـــه؟؟! ألم تستطع بهذا التاريخ الذي يمتد ما يزيد على أربعة عشر قرناً أن تكون رائدة عصرها؛ وأضحت حواضرها قِبْلةً للناس في المعرفة؟! أو ليس العقل الثقافي والاجتماعي والعلمي الواعي مؤسساً على معطيات الإسلام ومبادئه؟!!(١).

ومن هنا تغدو مسؤولية مثقفي الأمة عظيمة في تطبيق مبادئ الإسلام وإخراج نصوصه التراثية المتنوعة والمتعددة من دائرة الظلام إلى دائرة النور لإحيائه ومن ثم العمل به.. ويرى أصحاب هذا القسم أن الإسلام وحده هو السبيل إلى نهوض أمتنا، فضلاً عن كونه العاصم لها من الانصهار في الآخر.

لهذا كله وجدنا كثيراً من المختصين في مؤسساتنا الثقافية يرتدون إلى كل ما هو قديم فيقدسونه لقدمه؛ ويخرجون كل نصوصه؛ فيحققونها ولا يرون غَيْرها جديراً بالعناية والدرس، والتقدير والثناء، ومن حادَ عنها ضَلّ طريقه في بعث الأمة وصناعة مجدها حاضراً ومستقبلاً. ثم أخذوا يسقطون من حسابهم الصلة بينهم وبين العروبة على نحو كبير؛ إذا لم يكيلوا لها التهم الكبيرة والنيل منها ظناً منهم أنهم يقدمون فضيلة لقيم الإسلام؛ إذا أحسن الظن.

إن مفهوم بعث الإسلام بهذه الصيغة المؤسسة على تصور أحادي ومثالي يذكرنا ــ قديماً ــ بنشأة الخوارج الذين انبثقوا من رفضهم لمسألة التحكيم في عهد الإمام علي (رضي الله عنه) ثم تكفيرهم لكل من خالفهم (٢)؛ كما يذكرنا ــ حديثاً ــ بنشأة التيار الإصلاحي الذي لبس أصحابه "أول الأمر لباس حركة دينية وسياسية إصلاحية ومتفتحة" مع جمال الدين الأفغاني (١٨٤٩- ١٩٠٢م) المؤسس الحقيقي لها؛ حركة تنادي بالتجديد وترك التقليد وتبني مواقفها على التحرر من السلطة. إن ترك التقليد يكتسي هنا معنىً خاصاً؛ إنه إلغاء لكل الفكر القومي أياً كان زمنه من عصر حمورابي حتى الجاهلية؛ إذ يعيش أربابه في انفصال حقيقي عن واقعهم للعيش في الماضي الإسلامي وحده،(٣) مشيرين إلى أن الأفغاني كان يستند إلى كثير من أفكار أحمد بن حنبل (ت ٢٣١هـ) وابن تيمية (ت ٧٢٨هــ / ١٣٢٧م) وابن القيم الجوزية (ت٧٥١هــ /١٣٥٠م). أما

---

(1) انظر لماذا أخفقت النهضة العربية ٤١ ــ ٥٠.
(2) انظر شرح نهج البلاغة ١٩٢/١ ــ ١٩٣و ٢٠٦ و ٢١٦ لابن أبي الحديد.
(3) انظر نحن والتراث ــ ص ١٣.

التجديد فيعني بناء فهم جديد للدين؛ عقيدة وشريعة، انطلاقاً من الأصول مباشرة، والعمل على تحيينه؛ أي جعله معاصراً لنا وأساساً لنهضتنا.

ومن أهم مفكريه في عصر النهضة ــ أيضاً ــ وما بعده ولي الدين يكن (١٨٧٣- ١٩٢١م)، وسليم سركيس (١٨٦٧- ١٩٢٦م)، ومحمد عبده (ت ١٩٠٥م) ومحمد رشيد رضا (١٩٦٥ ــ ١٩٣٥م) وعلي عبد الرازق (١٨٨٨ ــ ١٩٦٦م) والآلوسي (ت ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤م) ومحمد بن عبد الوهاب (ت ١١١٥ هـ / ١٧٠٣م) ومحمد علي السنوسي (ت ١٢٧٦هـ / ١٨٦٠م)[١]. ويعدُّ بعض الأحزاب الإسلامية كحزب الإخوان المسلمين أبرز من يمثل هذا التيار؛ ومن أعظم مفكريه حسن البنا (١٩٠٦ ــ ١٩٦٦م)؛ دون أن ننسى ما يسهم فيه بعض الكتاب والمثقفين؛ من المعاصرين مثل:

١ ــ هشام جعيط كما في كتابه (أوربا والإسلام)[٢].

٢ ــ يوسف شويري كما في كتابه (القومية العربية)[٣].

إنها السلفية التي رفَعت "شعار الأصالة والتمسك بالجذور والحفاظ على الهوية.. الأصالة والجذور والهوية مفهومة على أنها الإسلام ذاته (الإسلام الحقيقي) لا إسلام المسلمين المعاصرين"[٤].

ومن ثم فإن أرباب التيارات الإسلامية المتشددة في تفسير الهوية العربية وفق مبادئ الإسلام السياسي يتمسكون برؤيتهم الخاصة في تفسير النصوص وفق الدلالة الظاهرية؛ وكل مَنْ خالفهم في رؤيتهم ربما كفروه وأهدروا دمه.

وكأني بهم يقتدون بمنهج الخوارج، فالخوارج جعلوا فكرة الاختلاف في الرأي اختلافاً في العقيدة؛ لهذا سلُّوا السيوف ضد التيارات القومية والإسلامية الأخرى التي خالفتهم في الرأي.

إنهم بذلك كله قتلوا مفاهيم التعدد في الاجتهاد الذي نراه مؤسساً في الشريعة الإسلامية وفق مبدأ (اختلاف أمتي رحمة)[٥]. فالتيار السلفي أو ما يسمى بالإسلام السياسي الذي ينتمي إلى التشدد قتل روح التسامح الذي أصلّه

---

(1) انظر لماذا أخفقت النهضة العربية ١٥٧ ــ ٢٢٧.

(2) أوربا والإسلام ــ ترجمة: طلال عتريسي ــ دار الحقيقة ــ بيروت ــ ١٩٨٠م وانظر لماذا أخفقت لنهضة العربية ٢٩ ــ ٣٤.

(3) القومية العربية ــ مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٢م.

(4) نحن والتراث ــ ص ١٣.

(5) الجامع الصغير ٩/١ ــ رقم الحديث ٢٨٨.

الإسلام في الأمة الإسلامية مثلما قتل روح الانتماء القومي؛ المنفتح على الآخر، ما أدى به إلى الإسهام في تفكيك الهوية القومية ومشروعها النهضوي، في الوقت الذي أثار فتنة هوجاء حول ثقافة الأمة لأنه حاول تغيير الواقع بالعنف.

وهذا لا يعني أن طرائق الإسلام السياسي كانت متماثلة أو أنها لا تتصف إلا بالسلبيات، فأي تيار فكري تتوافر فيه الإيجابيات والسلبيات في آن معاً؛ وتتعدد طرائقه في عرض أفكاره. فقد رأى الأفغاني أن حل مشكلات واقع الأمة يكون بوسائل سياسية قبل أي وسيلة أخرى؛ وأساسها الإسلام؛ بينما رأى محمد عبده أن الحل يكمن في العقيدة الإسلامية ذاتها والرجوع إليها وتطبيق تعاليمها..

أما حركة الإصلاح في الجزائر بريادة عبد الحميد بن باديس فقد ظهرت على أنها أقرب إلى الواقع ولم تعد مجرد كلام.. ولكنها لم تنل حظها من التطبيق، لأنها هي الأخرى ركنت إلى تفكير غير منهجي وإلى تصورات منظريها المثالية؛ إذ جعلوا قوانين وعي الأشكال الحضارية السياسية والاجتماعية والثقافية تفقد الانتماء العربي الأصيل والمكوّن للأمة الإسلامية..

وفي هذا المقام لا يمكننا أن نغفل أطروحات المفكر الإسلامي مالك بن نبي (١٩٠٥ ــ ١٩٧٣م) وتلاميذه، وهي أطروحات بنيت على أولويات محددة، فمالك بن نبي يرى أن القابلية للاستعمار والتخلف إنما تكمن في ذواتنا وواقعنا وتحت قباب مساجدنا وكنائسنا. ولهذا يرى ــ وقبل كل شيء ــ أن نتخلص من القابلية المتخلفة والمقهورة في ذواتنا؛ وكل مشكلات الواقع العربي إنما تنبثق من هذا الواقع ومن ذواتنا قبل أن تنبثق من الآخر. وهذا المنهج هو الذي تبناه المفكر الإسلامي جودت سعيد وأمثاله، ومن ثم يدعمها بالعديد من النصوص القرآنية[1].

ونرى أن القابلية الأساسية للوعي الفاعل تتحدد بفهم الوعي النفسي والاجتماعي والفكري والتقني للتغيير المحيط بالواقع، ومن ثم السعي إلى تغيير ما هو سلبي فيه دون أن ينفصل عن وعي التراث.

ثم إن القراءة السلفية قراءة تكرر ذاتها؛ لأنها تفهم بناء الكيان القومي للأمة بالتراث وحده، وكأنها لا تملك من فضيلة إلا تأكيد الذات والهوية، وما

(1) انظر ندوة مشروع النهضة العربية ٩٤ ــ ٩٩ والخطاب الإسلامي المعاصر ــ٦٧ ــ ٧١ــــ محاورات فكرية ــ حوار وحيد تاجا ــ فصلت للدراسات والترجمة والنشر ــ حلب ــ سورية ــ ط١/٢٠٠٠م.

عدا ذلك تبدو قراءة مشوهة، وقاصرة عن مواكبة الحضارة الحديثة.. إن إعادة بناء الحضارة العربية وبث الروح فيها يكمن في التفاعل بين الماضي والحاضر بكل صورهما؛ لا أن يكون تمركزاً حول فكرة معينة فقط؛ ولو كانت جوهرية كما هو عليه التراث الإسلامي..

فالقراءة الأحادية للإسلام السياسي ظلت عاجزة عن تصور المستقبل لأنها ما زالت تفسر الغائب (وهو المستقبل) بالشاهد الذي تملكه وهو مبادئ الإسلام؛ أيّاً كانت طرائق توظيفها لدى أربابها نقلاً واستنساخاً، أم استلهاماً وتأويلاً.. فضلاً عن أنها تحمل جملة من التناقضات في داخلها؛ لأنها قامت على أدلجة الدين وتسييسه لصالح آراء خاصة بهم، وربطت الممارسة بهذه الآراء. فإذا كان التاريخ لا يرجع إلى الوراء فإنه يؤكد أن القراءة السلفية للتراث وتبنيها للمبادئ التاريخية تجعل السلطة الثقافية والسياسية ذات اتجاه أحادي ، وهي مشدودة إلى الماضي وذات نزوع سلطوي واحد يتركز في رؤية أصحابها، إذا تجاوزنا التفاوت الطبقي الاجتماعي الذي يشكل أفكار أصحاب التيار السلفي السياسي. وإذا تجاوزنا انقسام هذا التيار إلى تيار تقليدي وتيار سياسي؛ وتيار تعبدي... فإننا نذهب إلى أن التيار السياسي يعتمد مبادئ صارمة في مواجهة التيارات السياسية المعارضة تصل إلى حد التكفير والاقتتال.

ونعتقد بأن هذه القراءة بآلياتها المتعددة للإسلام – على الرغم من تطور الخطاب التراثي بعد السبعينيات – لم تتخلص كثيراً من إشكاليتها؛ فلا زال أصحابها غير قادرين على إيصال خطابهم للناس كافة؛ ولا زال أكثرهم منفصلين عن الواقع وحل مشكلاته بصور موضوعية لضعف أدواتهم المنهجية في قراءته. ومن هنا ندرك أهمية ما قاله ت. س إليوت: "لو اقتصر معنى التقاليد على اتباع الطرق التي اتبعها الجيل السابق على استحياء، أو محاولة عمياء لإحراز النجاح الذي سبق وأحرزه لكان من الواجب قطعاً عدم تشجيع التقاليد.. والإنسان لا يرث التقاليد. وعليك أن تبذل مجهوداً كبيراً إذا ما أردت اكتسابها وهي تتضمن أول ما تتضمن الحاسة التاريخية.. ولا تتضمن الحاسة التاريخية إدراك ماضي الماضي فحسب، بل حاضره أيضاً"[١].

وكذلك فإن ما يجري على الأرض الثقافية يغاير في أجزاء كثيرة ما يذهب إليه أصحاب التيارات الإسلامية المتشددة. فهناك ــ على نحو ما ــ تململ

---

(1) مقالات في النقد الأدبي ــ ص ٧ ــ ت. س. إليوت ــ ترجمة لطيفة الزيات ــ مكتبة الأنجلو المصرية ــ القاهرة.ــ د./ت.

طائفي من بعض الأديان الأخرى في صميم الحراك الثقافي للتيارات الفكرية الإسلامية التي تلجأ إلى العقيدة الإسلامية الغالبة على الأمة المشار إليها، ومن ثم فإن هناك اصطفافاً مذهبياً موروثاً للعديد من الفئات الاجتماعية؛ وقد أثبتت الأحداث أن هذا الاصطفاف الطائفي المذهبي كان ينتصر ــ في بعض الأماكن والأزمان ــ على الانتماء الديني بصورته العامة...

ونحن نقدر للجماعات السلفية من المثقفين غَيْرتها على تراث الأمة؛ ومحاولة الحفاظ على هويتها من الذوبان في الآخر؛ والسعي إلى بقاء التفرد لها في تحقيق بناء المشروع الإسلامي؛ ولكن خطأ هذه الجماعات لا يقل عن خطأ الجماعات التي سبقتها؛ إن لم نقل: إنها تجاهلت مسيرة التراث العربي الإسلامي نفسه؛ أو تغافلت عن سُنّة الكون التي أرساها الله تعالى في قوله: (تلك أمة قد خلَتْ؛ لها ما كَسَبَت ولكم ما كسَبْتُمْ؛ ولا تسألون عمّا كانوا يعملون) (البقرة ٢/١٣٤).

فالاعتقاد بالتراث الديني لا يعني أن يصبح صنماً نتعبد لــه ونقدسه، إنه لم يُخْلَق ليحنط في زوايا الذاكرة والسجود لــه في محراب المعرفة والثقافة.. فالاعتزاز به يعني أن نفتح عيوننا على الواقع والآخر كما فعل أجدادنا حين أخذوا معطيات ثقافية وفنية ومدنية كثيرة من اليونان والفرس وغيرهم وطوروها لحسب مشروعهم الفكري.. إن إحياء التراث الديني لا يقصدُ منه أنه حقبة تاريخية حضارية ممتدة في الزمن المطلق لإلغاء الواقع الحقيقي للأمة.

فهو ليس قيداً للأمة من جهة، ولا يمكنه أن يماثل واقعنا من جهة أخرى؛ وإنَّما هو إنجاز ثقافي حضاري للأجداد لتتعظ به الأجيال؛ وتفيد من دروسه؛ ومن أخفق في تعلم عبَره كُتب عليه تكرارها.. فعلينا أن نعتبر به أولاً وأن نستحلب منه العطر ثانياً، وأن ننفتح عليه بكونه جزءاً من مقومات شخصيتنا القومية والثقافية التي تحرك أبناءها، وتدفعهم إلى الارتقاء ثالثاً.. فالتراث بهذا التصور يغدو هدفاً أصيلاً في المثاقفة الفاعلة والمؤثرة غير المكررة أو المشوهة أو المنقولة كما هي..

وأياً كان هذا القسم أو ذاك فقد غدا كل منهما عاملاً أساسياً في تقطيع أواصر القربى بين أبناء الأمة العربية والإسلامية؛ ثم انتهى إلى قَتْل حقيقي للمشروع القومي. وما ينبغي لنا القيام به كما يراه علال الفاسي " تربية التفكير الشامل الذي يعانق كل الموضوعات التي تتوقف عليها نهضة الأمة والذي يستحضر في الوقت نفسه كل الأجزاء التي تتكون منها البلاد، والعناصر التي

تتركب منها الأمة نفسها"[1]. ثم يؤكد هذا الرأي مرة أخرى فيقول: " يجب أن نتناول بالنظر مجموع المسائل والجوانب التي لها علاقة بقضية النهوض بأمتنا فلا نغفل عن ناحية منها، ولا نعير التفافنا الكامل إلى جانب منها دون الآخر حتى لا نقع في عدم التوازن" [2]. ولعل هذا كله ينقلنا إلى إشكالية وعي التراث بين المثقفين والمفكرين وهو القسم الرابع.

القسم الرابع؛ إشكالية وعي التراث العربي بين المثقفين:

يمثل التراث لدى أي أمة من الأمم مكوناً نفسياً واجتماعياً وفكرياً للمشروع القومي، فضلاً عن أنه يبرز ملامح كبرى من شخصيتها الحضارية بما يختزنه من معارف وتجارب وفنون.. و.. تسهم في بناء تاريخها الوطني والقومي.

لذا تعاقبت أقلام الباحثين شرقاً وغرباً، عرباً وغير عرب على دراسة التراث العربي والإسلامي، واتفقت الآراء فيه واختلفت. فهناك جماعة جعلته عبئاً على التقدم والارتقاء في تكوين المشروع القومي للأمة.. إذا لم يكن إلاَّ مصدر قلق لها؛ لأنه استعبد أبناء الحاضر وقيدهم برؤاه فلم يكتفوا بقيد الواقع المجزأ المتخلف والمأزوم الذي نرزح تحت ثقله، حتى أضافوا إليه تراثاً تراكمياً يتصف بالركود والهزال، وبسلطة قسرية مهيمنة على كل شيء.

وهناك جماعة أخرى رأت فيه الخلاص الوحيد مما تعاني منه الأمة في حياتها وعلومها وثقافتها.. وفنونها. فالتراث لديها منزه عن كل عيب، ومنفتح على ماضٍ عريق منذ وجود الجنس العربي؛ ثم هو ممتد وأصيل، ولا سيَّما أن الإسلام يجسد وجهه الأبهى، والعروبة أو القومية تحقق لــه الجسد الأقوى، وقد صنعته على عين منها بوعي عالٍ؛ وهي تتطلع بطموحه الخلاَّق إلى إعلاء عالمية الإنسان والارتقاء به روحاً وجسداً.. إنه تراث حضاري منغرس في الذات دينياً وقومياً، تاريخياً وحضارياً، فهو ألصق بالكون الإنساني الذي يبحث دائماً عن الحق والحقيقة، ولهذا فهو وحده العنصر المُشَكِّل للمشروع القومي والهوية العربية.. ومن ثم لا بدَّ من أخذه دفعة واحدة لحل كل ما يجابهنا في واقعنا ولتحقيق مشروعنا المنشود..

---

(1) النقد الذاتي (المعطيات السابقة نفسها) ــ ٢١.

(2) المرجع السابق ٢٦.

وهناك من يرى أن التراث لا يمكن أن يتحرك دفعة واحدة في الزمان المطلق أو في الفكر الإنساني ووجدانه، أيًّاً كانت خصائصه المميزة له.. وإنما يتحرك بشكل حُرّ فيها على الصعيد النفسي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والأدبي.. و.. يتحرك فيها تبعاً لرغبات من يتفاعل معه، مسخراً إيَّاه لواقعه وحل مشكلاته..

ولهذا فالتراث عند هذه الجماعة يملك قيمة اعتبارية عصيَّةً على الإطلاق؛ لأنها ذات تركيب انتقائي نفعي واتفاقي.. ما يجعله مادة للاستلهام كيفما يشاء المثقف ويرغب فيها لتحقيق المشروع القومي.

ونرى أن للتراث أهمية متعاظمة في بناء الهوية العربية وتمييزها من غيرها؛ وهي قيمة تكمن في بنيته شكلاً ومضمُوناً، وهي بنية تفرض علينا أن نتفاعل معه لنعيد إليه تجلياته الباعثة على نهوضنا واستيعاب واقعنا، والاندماج في حضارتنا والمشاركة في صناعتها لجعل مشروعنا القومي مشروعاً إنسانياً. فالتراث لدينا ليس صنماً للعبادة، وليست نظرتنا إليه نظرة الإحساس بالجامد؛ وإنما هو اعتقاد الانتماء بالأصول المتجذرة بالماضي الطامحة لبناء المستقبل.

إنه اعتقاد ثابت ثبات الحس المرهف بالحق، فهو ــ بهذا الوعي ــ فعل التاريخ المعمق للوجود القومي والمؤثر فيه، وليس مجرّد حركة في التاريخ الممتد، ما يجعل الإحاطة به استمراراً لتجديد حياة الأمة وهويتها العربية الحضارية، ويفرض في آن معاً قراءته قراءة مبدعة واعية؛ منهجية وعلمية.

فالتراث العربي والإسلامي ــ بهذا الفهم ــ كتلة حضارية في مجالات شتى ما زال يملك القدرة على توجيه العديد من شؤوننا في الحياة والفكر والفن.. ويبني تصوراتنا الأصيلة لتحقيق مشروعنا القومي.

وإذا كنا نبادر إلى إيضاح مفهوم وعي التراث باعتباره العنصر المشكل للهوية العربية المميزة لنا، فلكي لا نسقط في مهاوي التبعية لتجارب السلف، ولكي لا تستبدُّ بنا معارفه.. و.. وفي آن معاً حتى لا ننفتح على الفكر الآخر في إطار المثاقفة وكأننا ننطلق من أفكار مسبقة وجاهزة..

فكل مثقف حرّ يرفض القهر والاستبداد، ويأبى الخضوع لأي سلطة مسبقة مهما كان نوعها شكلاً ومضموناً.

إن حرية المثقف أو الكاتب كامنة في فهمه لتراثه وحاضره في ضوء فعل ذاتي تأملي وخصوصي وفي ضوء استيعابه لمكوناته؛ وسط تحاور

النّصوص الكثيرة والخبرات العظيمة التي قدّمها لنا الأجداد..وهي التي تدفع بنا إلى ثقافة الآخر لنشاركه بفعالية في تكوين الحضارة الإنسانية.

فالتراث ـــ بهذا الوعي ـــ يؤكد ذاته كسلطة فاعلة قوية وناضجة، لأنه أكد الاعتراف بالآخر في العديد من المواقف والتجارب والعلوم في إبان ازدهار الحضارة العربية؛ ومن قبل في عملية الفعل الإبداعي التاريخي لمجيء الرسالة الإسلامية.

فالعرب كانوا أنموذجاً حيَّاً في القديم حيث تجلت لديهم صورة الوعي للآخر وللذات؛ وحين برز الماضي بكل وجوهه انتماءً وثقافة ليتفاعل مع الأُفق الثقافي آنذاك، أيَّاً كانت رياحه التي أتت به من الهند أو اليونان أو غيرهما فقد استوعب العرب جملة التوافقات والاختلافات لتأكيد بناء صورة الواقع الحضاري لديهم وهم أحوج إليه اليوم من أي شيء آخر لتكوين مشروعهم الثقافي القومي.

فالتراث يتقدم بين أيدينا ليس كمدونات تنطوي على الإعجاب؛ وإنما لتغدو وثيقة حضارية تشهد على مراحل تطور الأمة والخلاص من مشكلاتها. وما يفرضه علينا هذا التطور أن نعيه وعياً كبيراً لما يشكله فينا من معرفة الهوية الثقافية المتميزة؛ ولما يعززه فينا من آليات الانخراط في الحضارة.

بهذا يكتسب التراث وجوده الشرعي، ويؤسس لأفكارنا الوطنية والقومية التي تتركز في عملية فهم الواقع واستيعاب التحولات التي تجري فيه.. ومن ثمة إجراء حوار حقيقي ثقافي مع الآخر غير قائم على الصراع يستند إلى الاحترام والاختلاف الإيجابي الذي طبعت عليه الخليقة وتطورت في ضوئه على مدى التاريخ الإنساني.

وهذا الوعي للتراث يجنبنا الوقوع في مزالق الحديث عن الملابسات التاريخية للتراث وما وقع فيه من صدامات؛ مثلما يجنبنا الوقوع في صدام حضاري جديد مع الآخر ونحن نسعى إلى تحقيق مشروعنا القومي..

أي إنه يجنبنا الوقوع في مطب مذهب الشرح والتفسير لإنجازات الماضي لمجرد الشرح.. وكسب الاطلاع. فإذا وقعنا في مثل هذه الحال فسوف ننتج صوراً مكرورة لـــه تضعنا جنباً إلى جنب مع المثقفين الذي أرادوا إحياء التراث ونقله أو استحضاره كما هو في صورته الجامدة أو القديمة.

ولهذا نقول: إذا كان الفكر يغفل أحياناً عن توجيهات العقل ـــ على صُعُد عدة ـــ فإن قوة الوعي تسدد اتجاه الفكر ومساره. ولعل الفكر القائم على

التصور النفعي المسبق يخلق إشكاليات لا متناهية للتراث ولفهمه، ومن ثم للواقع واستيعابه.. فوعي بناء المشروع القومي إنما يبتدع لنفسه منهجيات جديدة نظرية وتطبيقية مستفيداً فيها من ثقافة الآخر؛ وقادراً على أن يوظف التراث في الوجه الذي يراه.. لا أن يخلق لــه إشكاليات أخرى.

وفي ضوء ما تقدم كله يتضح لنا أن آراء المثقفين والمفكرين والأدباء لم تتفق على فهم واحد للتراث العربي ولم تتفق على منهج واحد لتوظيفه في حل مشكلاتهم ومشكلات واقعهم؛ وإيجاد تصور دقيق لبناء مستقبلهم. فهناك من جهد في عملية إلغائه، وهناك من ناضل للحافظ عليه ومن ثم إحيائه كما هو، وهناك من جعله مادة استلهام لــه في بعض حاجاته ومواقفه.

فالتراث اصطدم أو انصدم بقراءات متعددة لا متنوعة، متخالفة لا متحاورة أو متعاونة.. انتهت على مدى قرنين من الزمن في القرن التاسع عشر والعشرين إلى إشكاليات حقيقية في وعيه؛ فإمّا أنها حاكمته في ضوء النظريات المعاصرة، أو في ضوء المرجعيات الفكرية المحددة لاتجاه ما، وإما أنها وضعته في قفص الاتهام والشك؛ وإما أنها تطاولت عليه أو على بعض رموزه وطفقت تفسّره تفسيراً يتفق مع نزعاتها، وأهوائها.

وفي ضوء ذلك نرى أن التراث العربي والإسلامي ابتلي بما لم يبتلَ به تراث أمة أخرى؛ ابتلي بتشويه وفوضى فكرية مستشرية، أو بعقوق وإنكار لأعظم ما أنجزه الأجداد؛ أو بتفاخر وهمي زائف لا يملك أصحابه المحدثون من المقومات إلاّ أنهم أبناؤه ما جعلهم يسهمون ــ شاؤوا أم أبوا ــ في إخفاق المشروع القومي.

ومن هنا نقول: إذا كان الانتماء للعروبة ليس شرطاً للثقافة وبناء الأمة؛ فإن الوعي المعرفي والعلمي بالتراث شرط للانتماء الأصيل؛ ومن ثم هو جزء أساسي في تكوين مشروع نهضوي قومي طموح لاستيعاب ثقافة العصر الحديث، وبناء تقدم الأمة الحضاري. ففَهْم التراث واستيعابه وشرحه، وإعادة إبداعه شرط للانتماء الوطني والقومي وبناء الحضارة الإنسانية؛ باعتبار الحضارة العربية والإسلامية جزءاً منها.

إننا حين ندرس التراث إنما نؤسس منهجاً لحل جملة من مشكلات واقعنا. فهو مثلاً يعزز الحفاظ على خصائصنا الذاتية؛ وفرادتنا الفكرية والقومية، وهو في وقت واحد يجنبنا مزالق شتى قد نقع فيها؛ لأن أحداثها جرت من قبل..

ولكن كيف ندرس هذا التراث ونعيه لنصنع مشروعنا القومي النهضوي وقد أنتجت المرحلة التي نعيش فيها إشكاليات عديدة في فهمه وكيف نجعل هذا التراث حيًّاً فاعلاً في عالم مادي صناعي تقني يتفجر كل يوم بعلم جديد، ومعرفة عظيمة؟ بل كيف نواجه نحن هذا العالم وثقافتنا مأزومة، وحياتنا متخلفة؛ ران عليها الخمول والكسل ولم نستخلص الدروس والعبر لا من تراثنا ولا من تراث الآخر؟

إن هذه الأسئلة وغيرها هي التي توجب على المثقف أو المفكر أو الأديب أو الكاتب قبل غيره أن يعي التراث؛ بما يملكه من استعداد وذكاء ومعرفة وأدوات ومناهج وتقنيات قديمة وجديدة.

فالقوة الواعية هي التي تدفع التراث دائماً إلى أن يغدو مادة للتنوير والتثوير، وتبصير الأجيال بالمفاهيم الدقيقة والحقائق الصحيحة.. أي إن صاحب هذه القوة هو الذي يدفع عن مشروعه النهضوي غلواء الانحراف والزيغ والضلال دون أن يُصاب بالغرور والأنانية، والهوى والعصبية؛ ودون أن تتجاذبه نوازع الانتهازية والتبعية لسلطة ما أو لمنفعة ذاتية. فالمثقف الذي يتصف بالأنانية ونوازع الانتهازية يفقد إرادته وحريته على الإبداع، وقدرته على التغيير، وريادته للفكر، لأن الرغبة الصادقة في النهوض تلح علينا لكي يملك المثقف جسده ونوازعه الشهوانية، وليجعل سلطان الوعي الحرّ الفاعل سيده، وليسمو بروحه إلى مرتبة إنسانية قادرة على التأثير في التحولات التي تحيط به في عالم معاصر لا يسمح لــه أن يظل مخدوعاً أو واهماً..

فالعربي الواعي حر وقادر على أن يختار طرائق حياته وعيشه بالشكل الذي يجعله قائداً لحركة التغيير في المفاهيم وفي كل نشاط إنساني ليحقق ذاته وإنسانيته؛ أولاً؛ وليحقق لأمته مشروعها القومي الحضاري لا أن يزيدها أزمة ثانياً..

والمثقف العربي؛ مفكراً كان أم كاتباً وأديباً وفناناً وعالماً؛ ــ بهذا المفهوم ــ أكثر الناس إصغاء لصوت العقل وقوانينه؛ وأعظم فهماً لما يستحدثه الفكر الإنساني من معارف ومفاهيم واختراعات..

ولسنا الآن في معرض الحديث عن مفهوم العقل والفكر، ولكننا في معرض ذكرهما لأنهما صفتان متلازمتان للمثقف العربي الواعي الذي يدرك تراثه على أحسن وجه للوصول إلى تحقيق مشروعه القومي الحضاري دون أن

يقع في إشكالية فهم الوعي، ولكننا نرى أن الإشكال ــ حقاً ــ قد تجسد في مفهوم الوعي ذاته؛ في كينونته وماهيته الملبية لأهداف الأمة.

ومن هنا كان علينا تحديد مفهوم الوعي ــ لغة ــ قبل أن نوضح كيفية وعي التراث وما انتهى إليه من اتجاهات إشكالية أدت إلى إخفاق المشروع القومي.

فالوَعْيُ: حفظ القلبِ الشيءَ؛ وَعَى الشيءَ والحديث يعيه وعياً؛ وأَوْعَاه: حفظه وفهمه وقبله؛ فهو واعٍ.. وفلان أوعى من فلان: أي أحفظ وأفهم. وفي الحديث الشريف:[[نَضَّرَ اللهُ امرأً سمع مقالتي فوعاها؛ فَرُبَّ مُبَلِّغ أوعى من سامع]][1].

وهو من الوُعاء؛ والوعاء يقال لصدر الرجل، لأنه وعاء علمه واعتقاده؛ تشبيهاً لــه بالوعاء.. والوِعَاء: ظَرْف الشيء، وجمعه أَوْعية. وأوعيْتُ العلم والشيء: إذا أدخلته في الوِعاء. وقال أبو هريرة: "حفظت عن رسول الله (ع) وعاءين من العلم. أراد الكناية عن محل العلم وجمعه؛ فاستعار لــه الوعاء".

والوَعِيُّ، والواعي: الحافظ الكيِّس الفقيه..[2].

بهذا أكدت اللغة أن الإنسان المثقف هو من يتّصف بالوعي ويدرك أبعاد العلم والمعرفة والحاجات والأشياء بما يحمله من عقل وفكر، ويتمتع بثقافة تمثل قوة الوعي ودرجاته؛ وبآليات اكتسابه للخبرات والمعارف التي تجعله يتميز بالقدرة على التكيف والتصرف بما يملك؛ وبإرادته التي تجسد النفع المطلق للقديم والجديد..

فالوعي لا يتلقى التراث تلقياً سلبياً أو جامداً، ولا يجعل المثقف أو المفكر أو الأديب أو الفنان واقعاً تحت ضغط التراث وتأثيره، وإنما يحرضه على التفاعل معه وقد انتفع من التطور العلمي والتقدم المعرفي والتقني والفني وارتقاء مناهجه تنظيراً وتطبيقاً.

ولعل الوعي بتعاظم أهمية التراث عند بعض المثقفين والمفكرين والكتاب العرب قد أدى إلى فِعْل تواصلي حضاري مع الآخر؛ وهو ما عزز عندنا فكرة

---

(1) النهاية في غريب الحديث ٢٠٨/٥ ــ ٧١/٥ لابن الأثير ــ تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود الطناحي ــ مؤسسة إسماعيليان ــ قم ــ إيران ــ ١٣٤٧هـ. ــ الجامع الصغير من حديث البشير النذير ــ (رقم٩٢٦٣) ــ للسيوطي ــ حققه محمد محيي الدين عبد الحميد ــ دار خدمات القرآن ــ القاهرة ــ د/ت.

(2) لسان العرب ــ (وعى) لابن منظور ــ دار صادر ــ بيروت (١٩٥٥-١٩٥٦م).

الحديث عنه؛ علماً أن وعي التراث نفسه لديهم قد انتهى إلى إشكاليات عديدة كادت تستعصي على الحل، وإن استقبلته الأجيال بكثير من الخوف والاحتراز؛ ولاسيما حين ابتعدت شيئاً فشيئاً عن تحقيق طموحاتنا العديدة وفي طليعتها حُلم الوحدة العربية ومن هنا نتحدث عن مفهوم التراث وماهيته.

أولاً ـ ماهية التراث: إشكالية المفهوم وحدوده

لا مراء في أن التراث العربي قد حوى شيئاً غير قليل من المعارف والتجارب التي أظهرت حيوية وفعالية في بناء فكرة القومية العربية في النفوس على مدى عقود طويلة من السنين.

ولكن النظرة التراكمية التأثرية لــه لم تؤد بالعرب إلا إلى ردة فعل تراكمي، وربما خلقت في نفوسنا ونفوس مثقفينا أزمة نفسية، واجتماعية، بل حضارية..

فكيف تتهيأ أمتنا لبناء مشروعها القومي وقد جهلت فهم ماضيها، ومن ثم لم تحسن التفاعل معه والإفادة منه؟!.

لهذا كله علينا في هذا الصدد أن نحدد مفهوم التراث ومكوناته؛ لأن الاختلاف حول طبيعة مفهوم التراث خلق جملة من الإشكاليات واللبس والإبهام؛ إذ اختلط في فكرنا، ولم يظهر على وجه واحد.. فهناك من توسع في إدخال كل ما أنتجته الحضارة العربية الإسلامية في التراث العربي، فضلاً عن أنه أدخل فيه القرآن الكريم والحديث القدسي الشريف، وهناك من امتد به إلى جذور تاريخية قديمة جداً.

ونحن في فهمنا للتراث لن ننطلق من المواقف التي برزت للمثقفين العرب في زمانية التراث ومضمونه وأشكاله. فمنهم المؤمن به والرافض لــه ومنهم الموفق بين الطرفين.. وإنَّما سنجعل همنا في تحديد مفهوم التراث في إطار اللغة ومن ثم الاصطلاح دون أن ننكر زمانيته الضاربة في أعماق التاريخ منذ وجود الجنس العربي.

فالتراث في اللغة مستمد من دلالته السياقية في كلام العرب؛ وهو يقابل لفظ الإرْث أو الورْث، والمِيْراث، وعليه قول عمرو بن كلثوم[1]:

لِيَهْنِئْ تُرَاثي تغلبَ بْنَةَ وائلٍ إذا نَزَلوا بين العُذَيبِ وَخَفَّانِ

(1) ديوان عمرو بن كلثوم ــ ص ٧٢ ــ صنعة د. علي أبو زيد ــ دار سعد الدين ــ دمــشق ــ ط ١ ــ ١٩٩١م ــ والعُذَيب: ماء على قرب من القادسية. خفان: موضع قبل اليمامة.

وقول المتنبي[1]:

ولَستُ أُبالي بعد إدراكيَ العلى   أكان تراثاً ما تناولتُ أم كَسْبَا؟

وقيل: إن أصل التاء (واو) ثم قلبت تاءً؛ ومثله همزة الإرث؛ أما الوِرْث فهو مصوغ دون قلب، وعلى ذلك قول الشاعر:

فَإنْ تكُ ذا عزٍّ حديثٍ فإنهم   لهم إرثُ مَجْدٍ لم تخنهُ زَوَافِرُهْ

وهناك من قال: الوِرْث والوَرْث والإرْث والوِرَاث والإراثُ والتُّرَاث واحد.

أما الميراث فأصله موْراث؛ وقُلبتْ الواو (ياءً) لكسر ما قبلها.. وقيل: الورْث والميراث في المال، والإرث في الحَسَب.. وقيل: الورث في المال، والإرث في الحَسَب، والميراث في ذلك كله.. ومثله التراث[2].

وقد ورد لفظ التراث مرة واحدة في القرآن بما يدل على المال في قوله تعالى: (وتأكلون التراث أكلاً لمًّا) (الفجر ١٩/٨٩) بينما دلَّ حديث الدعاء على الحَسَب: "وإليك مآبي ولك تراثي"[3].

أما لفظ الميراث فقد ذكر مرتين في القرآن الكريم ودل على الأمور المادية في قوله تعالى: (ولله ميراث السموات والأرض) (آل عمران ١٨٠/٣ ــ وسورة الحديد ١٠/٥٧). فالله (سبحانه) الوارث للخلائق لأنه الباقي الدائم، فهو يبقى بعد فنائهم، والله يرث الأرض ومن عليها؛ ولكنه لا يرث شيئاً من أحد كما يدل عليه لفظ الميراث بين البشر.

ويُقال في ذلك كل: وَرِثَ يَرِثُ ورْثاً ورِثَة ووِرَاثة وإراثة ومِيْرَاثاً ومَيْراثاً.. وتُرَاثاً وإرثاً.. والفعل فيه مجرد (وَرِث).

ويستعمل الفعل مزيداً أو مَضَعّفاً، فيقال: أَوْرث يُوْرِثُ إيْرَاثاً كقوله تعالى: (ثم أورثنا الكتاب الذي اصطفينا من عبادنا) (فاطر ٣٢/٣٥ وانظر الزمر ٧٤/٣٩) وقوله تعالى: (إن الأرض لله يُوْرِثها من يشاء من عباده) (الأعراف ١٢٨/٧ وانظر مريم ٦٣/١٩).. وهذا كله في المزيد بالهمزة، ونقول: أورثه الشيءَ أبوه؛ وهم وَرَثَةُ فلان..

---

(1) ديوان أبي الطيب المتنبي ــ ٣١/١/ ــ صححه مصطفى السقا وزميلاه ــ دار المعرفة ــ بيروت –

(2) لسان العرب ــ مادة (ورث).

(3) لسان العرب ــ مادة (ورث).

وقد يزاد الفعل بغير الهمزة كالتضعيف وغيره؛ فنقول: وَرَّث يُوَرِّث توريثاً؛ أي أدخله في ماله على وَرَثته، وفي الحديث الشريف: [[أنه أمر أن تُوَرَّث دورَ المهاجرين النساءُ]]. فخصَّهن بالدور[1]. وورَّث القومُ المالَ وتوارثوه: أي تناقلوه كابراً عن كابر.. وفي الحديث الشريف: [[ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه يورِّثه]][2].

واستعمل الفعل (توارَث) في معنى (وَرِث وورَّث) ومضارعه (يتوارث) فهو للمال والحسب والأمور المعنوية، وعليه الحديث الشريف: [[الوُد يُتوارث؛ والبغض يُتوارَث]][3]. وقال الشاعر[4]:

ولقد توارَثني الحوادثُ واحداً ضَرْعاً صغيراً، ثم لا تَعْلُوني

فالحوادث تتداولـــه كأنها تَرِثه هذه عن هذه. وتوارثنا المال: ورثه بعضنا عن بعض قِدْماً.. وفي الحديث الشريف؛ في دعاء النبي الكريم: [[اللهم أمتعني بسمعي وبصري واجعلهما الوارث مني]][5].

أما (الموروث) فهو اسم مفعول من (وُرِث) وكذا (المُتَوارَث) من (تُوُورِث)؛ وهما بمعنى الميراث والتراث؛ ولهذا ندر استعمالهما وشاع استعمال التراث والميراث.

أما (الوارث) فهو اسم فاعل من (وَرِث) وعليه الحديث الشريف: [[لا تجوز الوصيّة لوارث إلا أن يشاء الورثة]][6]. وقد ورد اسم الفاعل مجموعاً في قوله تعالى: (ونحن الوارثون) (سورة الحِجْر ١٥/٢٣).

واستعملت صيغة (وَرِيث) بمعنى الوارث، والجمع (الوَرَثة) أما المواريث فهو جمع للميراث والموروث. وجاء لفظ الورثة في قوله تعالى: (واجعلني من وَرَثة جنة النعيم) (الشعراء ٢٦/٩٥).

وإذا كان لفظ (ورث) وما اشتقّ منه من الميراث والتراث قد دخل في مفهوم ظاهرة الاشتراك اللغوي؛ كقولنا: أورث المرضُ الإنسان ضَعْفاً،

---

(1) لسان العرب ـــ مادة (ورث).
(2) الجامع الصغير ـــ رقم (٧٩١٤) رقم (٧٩١٣)
(3) الجامع الصغير ـــ رقم (٩٦٦٨) رقم (٩٦٦٧ و ٩٦٦٩).
(4) لسان العرب ـــ مادة (ورث).
(5) لسان العرب ـــ مادة (ورث).
(6) الجامع الصغير ـــ رقم (٩٧٥١).

أي أعقبه[1] فإن المعنى الأصلي ظل ثابتاً لــه حتى صار اصطلاحاً فيه.. فالورْث والإرث والميراث والتراث؛ كل ما يخلفه الرجل لورثته، أو القوم من مَجْد ومال.. وهذا ما ثبت لنا من الآيات القرآنية، ومنها قوله تعالى: (يَرِثني ويَرِث من آل يعقوبَ واجعله رَبِّ رَضيًّا) (مريم ٦/١٩) وقوله تعالى: (ونرثه ما يقول؛ ويأتينا فرداً) (مريم ٨٠/١٩).

هكذا تؤكد لنا اللغة وما ورد من استعمالات لفظ (التراث) في الشعر والقرآن الكريم والحديث الشريف أن مفهوم التراث – اصطلاحاً – هو كل ما تركه السلف للخلف من مال وعادات وتقاليد ومعارف وتجارب، ومجد وسؤدد.

فكل ما تشكل من عناصر مادية ومعنوية، وضَربت جذورها في تاريخ الأجداد ينتمي إلى التراث العربي والإنساني للأبناء..

فالتراث امتداد أزلي لثقافة الأمة وحضارتها في الحاضر والمستقبل من جهة و يُؤكد أنه من إبداعات الإنسان من جهة أخرى.. فهو مُنْجز إنساني صنَعه المُورِّث الإنسان للورثة بعده من أبنائه وذويه وقومه..

ونرى أن وعي هذا المفهوم يزيل أول إشكالية لمفهوم التراث؛ فهو إنجاز إنساني ليس غير.. أما القرآن الكريم والحديث القدسي فهما أمر مغاير تماماً عمَّا اتضح لنا من مفهوم التراث.. فهما أصل لــه ومنبع ثري للاستمداد منه.. وهما من لدن حكيم خبير.

فالله ــ سبحانه وتعالى ــ لم يرث القرآن والحديث القدسي من أحد، ومن ثم فإن الإنسان لم يرث ذلك عنه – عز وجل – فالتراث حالة إنسانية خالصة.. وما أنزله الله شيء آخر.

وقد يقول قائل: ماذا تعني مسألة استخلاف الإنسان في الأرض؟ وقد وردت في قوله تعالى: (وهو الذي جعلكم خلائفَ الأرضِ) (الأنعام ١٦٥/٦، وانظر سورة يونس ١٤/١٠ و ٧٣ وفاطر ٣٩/٣٥). وقوله تعالى: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفةً) (البقرة ٣٠/٢ وانظر سورة الأعراف ٦٩/٧ و٧٤ والنمل ٦٢/٢٧، وسورة ص ٢٦/٣٨).

والإجابة على ذلك تكمن في تفسير مسألة الاستخلاف التي تعني إعمار الأرض، والكشف عن علم الحقائق من جهة أن الإنسان عالم بالخير والشر، والحُسْن والقبح.. فقد كانت الجن في الأرض قبل بني آدم"فأفسدوا وسفكوا

---

(1) لسان العرب ــ مادة (ورث).

الدماء، فبعث الله إليهم قبيلاً من الملائكة قتلهم.. وجعل آدم وذريته خليفة" و"سمى الله بني آدم خليفة لأن كل قرن منهم يخلف الذي قبله؛ الجيل بعد الجيل"(١).

وبهذا كله يتضح لدينا مفهوم التراث والعلاقة بينه وبين ما هو مُقدَّس؛ فقد نشأت الاختلاطات بينهما من عملية إدخال القرآن الكريم والحديث القدسي في السُّنَّة النبوية المطهرة؛ وفيما عرفته الأذهان من ربطهما بالكتب المقدسة كالتوراة والإنجيل باعتبارهما كتابين كتبا في مرحلة لاحقة من نزولهما وقام الأحبار والرهبان بكتابتهما، أو ربطهما بالدراسات الإسلامية كالتفسير والفقه وغير ذلك.. وفي الوقت نفسه نشأت الإشكالية من مفهوم الاعتقاد بإلهية القرآن أو بشريته عند المفكرين والمثقفين العرب وغيرهم. فمن يعتقد بإلهيته يرَ أنه وَحْي إلهي مجاوز للتاريخ؛ وما ينتجه الإنسان فيه من تراث ليس وحياً إلهياً وإنما هو إبداع إنساني. فعلوم القرآن أو الفقه أو أصوله إنجاز بشري، أما القرآن فهو قرآن كريم موحىً به.

وفي هذا المقام بقي علينا أن نشير إلى التوهم بين ما هو مُقَدّس وما هو بشري في لغة القرآن الكريم. فلغة القرآن هي اللغة العربية التي نُسج بها الشعر والنثر؛ وكل إنتاجات المعرفة المتعلقة بالقرآن وبغيره.. ومن هنا وقع الاختلاف في فهم لغة القرآن وصلتها بالتراث.

ولعل النظرة إلى اللغة على ما توحيه من امتداد للتجربة الإنسانية تختلف بمفهومها البشري عمّا هو عليه في لغة القرآن. فاللغة القرآنية؛ لغة الوحي؛ أي كلام الله؛ ولهذا نستذكر مجدداً تعريف القرآن، فهو "كلام الله تعالى، المنزل على محمد (ع) المتعبد بتلاوته"(٢). فكل من يعتقد بقدسية القرآن من المفكرين والمثقفين يؤمن بأن لغة القرآن لغة رحمانية لا يجوز فيها التبديل أو التغيير أو التطوير. فهي ثابتة مقدسة على الوجه الذي نزلت فيه؛ وإن كانت منسوجة من جنس كلام العرب، بينما يجوز لنا التبديل والتغيير والتطوير في لغة البشر؛ كما يجوز الحذف والإضافة فيها. فاللغة في القرآن الكريم أداة وغاية في آن معاً؛

---

(1) تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) ٢٢٧/١ – تحقيق عبد الله إبراهيم الأنصاري وزملائه – الدوحة – قطر – ط١ – ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٧م.

(2)علوم القرآن – ص ٤٦ – الدكتور عدنان محمد زرزور – المكتب الإسلامي – بيروت/ دمشق – ط٢ – ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

بينما هي في المفهوم الإنساني وسيلة لوظيفة من الوظائف التي يبتغيها أصحابها، وفيها يتفاوتون في الإبداع وجمالياته.

ونحس في ضوء ما تقدم اختلافاً كبيراً بين المثقفين والمفكرين؛ فهناك من يرى أن لغة القرآن تخرج هي الأخرى من دائرة التراث؛ وإن منحت اللغة العربية فوائدَ جمّة لا تحدّ؛ لعل أهمها أنها صارت لغة مقدسة؛ وحافظت لغة القرآن على بقائها وانتشارها. وإذا كان هذا كله قد أسهم في الحفاظ على الشخصية العربية، وقوّى النزوع القومي للاستمرار والإحياء في كل زمان ومكان؛ فإن الاختلاف حول ذلك أدى إلى بلبلة في العقول والاضطراب حول أهم عناصر الهوية العربية. ولهذا نقول: إن لغة القرآن تخرج من دائرة التراث ليس باعتبار مادتها أو جنسها وأسلوبها؛ وإنما باعتبار أبعاد دلالتها على الوجه الديني الذي نزلت فيه وبترتيبه.

ومن ثم فكل ما هو ديني – عدا القرآن ولغته، وعدا الحديث القدسي ــ من منجزات الإنسان الثقافية والاجتماعية والتاريخية. ومن ثم يصبح الإسلام بما أنتجه من تجارب معرفية جزءاً أصيلاً من التراث العربي؛ إن لم يكن الوجه الأنصع فيه. أما الوجه الثاني للغة فهو الوجه القومي العربي الممتد في أعماق التاريخ؛ وهو ما ينبغي أن نتمسك به لتحقيق مشروعنا القومي .

وبهذا الوعي ندرك أن التراث بوجهيه الديني والعربي لم يكن تراثاً مُنْعزلاً أو ضيقاً؛ فهو تراث عربي كوني إنساني يخاطب الإنسان أينما كان.. ومن ثم فهو يشكل إنجازاً قومياً لأمتنا في شؤون شتى على الصعيد الاجتماعي والنفسي والفكري والعلمي والأدبي واللغوي، ويغدو في طبيعته ووظيفته إرثاً للأجيال ودافعاً لها لبناء كيانها العربي النهضوي وفق أسس سليمة. فالتراث ــ بهذا الوعي ــ محرك فعَّال لبناء العلاقة معه بشكل صحيح، والانطلاق منه وإليه بمنهج علمي سديد والإفادة منه في كل ما تحتاج إليه أُمتنا في عملية التطوير والبناء. إن التمسك به والاعتزاز بإنجازاته ــ على هذا النحو ــ يعد تجسيداً لذاكرة الأمة الواعية لتاريخها وحضارتها، وعاملاً قوياً يسهم في بناء نهضتها الحديثة بشكل فاعل ومستمر. فالوظيفة القومية للتراث ليست مجرد عرض لحدث تاريخي يستهوي هذه الجماعة أو تلك من المثقفين والمفكرين والأدباء، وإنما هو فعل زماني قائم على التحليل والفهم لتجديد الطموحات؛ وتطوير أنماط الحياة والمعرفة..

فالتراث ممتد في الحاضر والمستقبل، وليس معزولاً عن جسم الثقافة العربية؛ وحين تدعونا وظيفته لندرسه ونعتز به فإننا نفعل هذا من موضع الثقة به لا من موقع اتهامه أو رفضه أو تغييره، أو الاستهزاء به والحط منه..

ولا بأس أن نعود – هنا – إلى تلخيص الإشكالية الأعظم في مفهوم التراث الديني، قبل أن نتناول الاتجاهات الإشكالية الأخرى، وهي إشكالية تهم العرب قبل غيرهم، لمنزلته الكبرى في تحقيق المشروع القومي..

فالإشكالية في مفهوم التراث الديني الممثل بالقرآن الكريم والحديث القدسي خاصة ليست قائمة على الوهم؛ لأن الوهم ينتج من خطأ التصور، على وجوده عند بعض المثقفين والكتاب العرب.. ولكن نسبة القرآن والحديث إلى محمد بن عبد الله (ع) قائمة على تصور اعتقادي مسبق وواع عند من جحد معجزتهما الإلهية؛ فهما عنده ليسا وحياً وإنما هما نتاج بشري صرف في طبيعتهما وماهيتهما عند كثير من المفكرين والمثقفين. وهذا ما أسهم أيضاً في بلبلة الفكر الموحد للعرب.

وفي ضوء ما تقدم تبين لنا أن الاختلاف الذي وقع بين المثقفين العرب في ذلك أكد عمق الإشكالية في تصور المفاهيم تبعاً لاختلاف الثقافة وتباين الاعتقاد ما جعل المشروع القومي بعيد المنال. ومن ثم أدى بنا إلى وجود حياة مأزومة؛ وثقافة منكودة أساسها الخلاف والافتراق لا الاتفاق والتوحد وهو أقسى ما واجهته الأمة من قبل مفكريها ومثقفيها والعديد من التيارات السياسية والفكرية. وكأن هذه المعضلة تقول: ليس بوسع المرء الذي يؤمن بسيادة العقل وقوانينه والفكر وسلطانه إلا أن يسلم بأن العقل نفسه غير مدرك ولا ملموس إلا بنتائجه..

وعلى الرغم من ذلك نقول: إن تقدم الحياة وديمومة ارتقائها تكمن أولاً وأخيراً في قوة وعي المشروع القومي في الماضي والحاضر، والتراث جزء من الماضي أو التاريخ. فهو وعاء تجارب الأجداد وخبراتهم ومعارفهم؛ أيًّا كانت طبيعتها وماهيتها مع التفريق بين كل ما هو إنساني وبين ما هو إلهي.. فالمتأمل في الساحة الفكرية والثقافية على امتداد الوطن الكبير يدرك أن الاختلاف والافتراق أساس حياة الأمة، بيد أنه يتوجب على المثقفين والمفكرين أن يدركوا كيف يتفقون، وليس كيف يختلفون وأن يدركوا في الوقت نفسه أن عملية الاتصال بالتراث قد أصابها تشوهات شتى، وأدت إلى قلق واضطراب نفسي عَبَّرا عن تواصل هش معه ثم انقلبت آليات قراءة التراث وأشكال توظيفه

إلى قوة ضاغطة على فكرنا وحياتنا. فبدلاً من أن يبتكر العديد من المثقفين العرب مفاهيم موحدة، وأفكاراً متطورة تلبي حاجة الأمة وتحل مشكلاتها، وتتوافق مع الواقع، وتبني تصوراً صحيحاً لبناء المشروع القومي كانوا يستحدثون كثيراً من الأنماط السيئة وربما المأساوية في فهم التراث وغيره، ما جعلهم يتمزقون مزقاً شتى..

وبكلمة أخرى إنهم انحرفوا عن مفهوم الوعي وأسسه العلمية الدقيقة لأنهم كانوا ينظرون إليه من وجهة نظر محددة تلبي غايات مدروسة لديهم؛ فانتهى بهم الأمر وبنا معاً إلى الوقوع في إشكال حقيقي في فهم التراث واستيعابه، ومن ثم توظيفه.. فعاشوا عزلة وتشتتاً فيما بينهم؛ وعانوا غربة قاتلة وهم يعيشون بين أبناء جلدتهم. ولعل أعظم إشكال وقعت فيه الأمة يتمثل في الإشكال الذي تجسد في هدم وحدة وعي المثقف لمشروعه النهضوي، قبل الإشكال الذي وقع فيه في فهم التراث واستيعابه وتحليله. فتعميق الوعي وارتقاؤه يخلق التجانس في ذات المثقف أو المفكر أو الكاتب، لكي يقوم بعملية تفاعل حقيقي بينه وبين واقعه الذي يمثل شخصيته من جهة، ويحقق مشروعه القومي من جهة أخرى.

ونرى أنه لن يفعل ذلك إلاَّ في إطار آلية وعي الهوية والثقافة وإعلاء شأنهما لا من باب الهوى والتعصب ولكن من سبيل تعزيز الدور القومي الذي يؤكد مفهوم وحدة الوعي وتجانسه والارتقاء به في توظيف التراث..

ونقول أخيراً في هذا المقام: إن الذي جرى في هذا الشأن بين المثقفين والكتاب والمفكرين يؤكد أن تفاوت الكفاءة الفكرية؛ والتنوع الثقافي بينهم أدى إلى إشكال واضح في آلية توظيف التراث، ولم يوصل أيًّا منهم إلى تعميق روح الحوار على قاعدة الاعتراف الثقافي بالآخر لخلق روح التجانس لخلق المشروع القومي قبل التفاعل الخلاَّق لإعادة إبداع التراث..

لهذا كله سوف نتحدث عن اتجاهات إشكالية توظيف التراث، وهي إشكالية أسهمت في إخفاق المشروع القومي حين تبلبلت وحدة فهم التراث وتوظيفه.

ثانياً ـ اتجاهات إشكالية توظيف التراث

تتطلب الحداثة من أبناء الأمة جميعاً وممن يتمتع بالحرية والوعي الانفتاح على التراث القديم؛ في الوقت الذي ينبغي لهم أن ينفتحوا على حضارة الآخر قديماً وحديثاً لبناء المشروع القومي.

فالفكر العلمي النقدي الحر والأصيل يسلك طريق المثاقفة المبدعة ومواجهتها بكل ثبات دون أن يقع في صراع سلبي بين الذات والآخر.

فالحداثة بهذا المحتوى تعطي التراث بعناصره المكونة لـــه مكانته الطبيعية نفسياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وفكرياً وجمالياً، وتفجر طاقاته الكامنة فيه لتتجاوز زمانها إلى الزمن المطلق، ولتحرر العربي من القيود والتقليد، والتبعية والضعف والتخلف..

ولعلّ التجربة الثقافية الحضارية لأمتنا في السنوات المئة الماضية قد أفرزت جملة من الإشكاليات في وعي التراث وتوظيفه؛ إذ تشعبت الآراء شعباً قد تكون متباينة أحياناً، وكلها أدت إلى تناقضات مخيفة في المشروع القومي..

فالتجارب الواقعية والتاريخية في العقود السابقة حققت لنا على نحو ما الممارسة الفعلية في التعامل مع التراث؛ وأنجز لنا عصر النهضة تطلعاً عميقاً لإدراك ذاتنا وتميز هويتنا، وحقق لنا تواصلاً عملياً بين الحاضر والماضي؛ وبين ثقافتنا وثقافة الآخر؛ ولكنه في الوقت نفسه زرع فينا شيئاً غير قليل من الشك في تراثنا وفي ما يرتبط بعاداتنا وتقاليدنا ومعتقداتنا خاصة؛ فزاد أزمة الهوية العربية أزمة في النفوس..

وليس هناك من يشك في أن تراثنا يمتد في كثير من شؤوننا الذاتية والوطنية والقومية؛ فنحس به في كل نفَس من أنفاسنا؛ ويؤثر فينا تأثيراً عظيماً؛ فتنتشي القلوب لذكره؛ وتتلقفه العقول بشَغف، وقد عمّق فعله الخُلقي والثقافي والاجتماعي فينا رسم حدود حياتنا، وطبيعة فهم قوميتنا..

وعلى الرغم من هذا فهناك من حاكم التراث محاكمة قاسية؛ ووضَعه في قفص الاتهام أو الانتقاص؛ فمنهم من رفضه، ومنهم من رغب في الإفادة منه في بعض زوايا حياتنا وثقافتنا لا كلها، فقراءتهم لـــه قراءة انتقائية تلفيقية نفعية..

وقد أدى هذا كله إلى إشكالية حقيقية على مستويات عدة في الاختلاف حول توظيف التراث للنهوض بالمشروع القومي، وأولها إلغاء التراث برمته.

١-إلغاء التراث:

يملك العربي طاقات خلاَّقة؛ وعليه أن يفجرها في حركة تتجاوز التراث والماضي كله لا أن يكون أسيراً ومقيداً بذلك.. فالعربي حرّ طموح عاقل سخرت لـــه الحياة لا ليكون عبداً يقدس التراث لمجرد أنه من نتاج الآباء

والأجداد.. وبدلاً من أن نعود إلى الماضي لنقلده كله أو بعضه، أو لنستلهم منه ما يعيننا على بناء حياتنا وثقافتنا؛ علينا أن نتوجه بكليتنا إلى الحضارة الحديثة أينما كانت. فالعودة إلى التراث واستحضاره يؤدي إلى أزمة بيننا وبين ثقافة عالم اليوم وحضارته.. ونحن لا خيار لنا في تبنيها منهج حياة وفكر..

إن أصحاب فكرة إلغاء التراث ممن ينتمون إلى أوساط المثقفين أو المفكرين والكتاب و... قد تشبعوا بنظريات الغرب وأفكاره وفلسفته الاجتماعية والمادية، ورهنوا بها تطور الأمة العربية وبناءها في حاضرها والارتقاء بها نفسياً واجتماعياً وسياسياً وعسكرياً واقتصادياً، فكل شيء موجود في مدنية الغرب وصيدليته. فالتفجر المعرفي والتقني والإعلامي والمادي الذي يجري بين ظهرانينا لا صلة لــه بالتراث؛ بل إن التراث مقيد لــه.. ويغدو إلغاؤه، أو عدم التطلع إليه فضيلة لا رذيلة، على اعتبار أن الثقافة الغربية بكل عناصرها ومعطياتها نمط متطور في كل جانب من جوانب الحياة والمعرفة والتقنية، لم تنجح هذا النجاح الباهر إلا عندما قطعت صلتها بالتراث..

ولهذا كله فالحضارة تؤخذ بشكلها المتكامل ولا تتجزأ في السلوك والفكر والفن والأدب والنقد والعلم والتقنية والمعتقد والاقتصاد.. واللغة. ولما كانت الثقافة الغربية جوهر الحضارة الحديثة صارت هي الملجأ والمنجاة من كل ما نعاني منه فهي تقوم على العقل فتحرره من كل قيد، وتبيح للجسد تحقيق رغباته؛ وتعيش الروح فيها حالة سرمدية بين العقل والجسد. فالثقافة الغربية بكل اتجاهاتها تمثل منهج حياة وفكر، ولن نستطيع أن نطور أنفسنا إلاَّ إذا تبنينا تلك الثقافة برمتها واتبعناها منهج حياة ومعرفة وفكر.. ولهذا فليس العرب بحاجة إلى أي نمط من أنماط التراث؛ فالتراث كله عائق حقيقي في وجه التقدم.. فضلاً عن أننا في وَضْعية لا تسمح لنا بالاختيار. ولعل الباحث الدكتور محمد عابد الجابري يقترب من هذا الاتجاه في مفهوم إلغاء التراث على نحو من الأنحاء كما يشير إليه قوله: "هل نحن العرب في وَضْعية تسمح لنا بالاختيار ما بين ما نسميه بالنموذج الغربي، وبين ما نحلم به من نموذج أصيل نستفيده أو نستوعبه من تراثنا الفكري الحضاري؟!

يجب الاعتراف بأننا لا نملك اليوم؛ أو أعتقد أننا لا نملك منذ اصطدمنا بالنموذج الغَرْبي الحضاري المعاصر حرية الاختيار[1]"؛علماً أن الجابري يدعو صراحة إلى ضرورة القطيعة مع الفهم التراثي للتراث حتى لا نتحول إلى

---

(1) إشكاليات الفكر العربي المعاصر ــ ص ١٨١ ــ د. محمد عابد الجابري –

كائنات تراثية.. بل أن نفيد منه. أما عبد الله العروي فقد تبنى في كتابه (العرب والفكر التاريخي) الذي أصدره سنة (١٩٧٣م) مفهوم التاريخانية التي تعني حضور العمق التاريخي من دون التاريخ نفسه، ما جعله يخرج من حالة التأخر التاريخي؛ فدعا إلى الإفادة من الثقافة العربية أو الغربية ــ على السواءــ بوصفها معطىً إنسانياً. لهذا رأى أن العرب أصبحوا خارج التاريخ لأنهم لم يتخلصوا من تراثهم المتخلف، ولم يستطيعوا أن يستوعبوا المفاهيم الغربية الليبرالية، وما انتهت إليه من تقدّم في مجالات شتى. وهذا كله أدى إلى انتكاسة مرة في المشروع النهضوي العربي كما ذهب إليه[١].

ونرى أن فئات عديدة من المثقفين العرب أرادت أن تقضي على التراث؛ أو تهمله على نحو ما؛ وطفقت تفاخر بالتلمذة للنظريات الوافدة أياً كانت الرياح التي تأتي بها؛ ثم عاشت إشكالية مأزومة بينها وبين تراثها وبينها وبين واقعها، ومن ثم سقط المشروع القومي على يديها.

وعليه نرى أن قيم أي مجتمع ونظرياته وتجاربه إنما هي صورة أصيلة لحياته ومبادئه وتراثه على الدوام في كل زمان ومكان.. ولعل الفهم الخاطئ للقياس المنطلق من المعايير الغربية المستحدثة ونَسْخ منهج الآخر وثقافته المتطورة هو الذي قاد تلك الفئات إلى تبني الثقافة الغربية منهجاً ومفهوماً لحياتنا.. وهنا نقول: كل منا يدرك أنه لا بد من التلاقح بين الثقافات الوافدة والثقافة العربية بما فيها التراث لأنه كتلة ثقافية وحضاريّة، وكل أمة "تستطيع أن تستعير المبادئ المناسبة لها من الخارج ولكنها لا تعيش على هذه المبادئ ولا هي تعيش على عبقرية أفراد مهما كانوا"[٢].

وحين تدعونا المثاقفة إلى تطوير خطابنا الثقافي والانفتاح على الآخر؛ فإنها تدعونا في الوقت نفسه إلى تطوير خطابنا التراثي وبناء العلاقة الصحيحة معه على أساس من التحليل العلمي الواعي البعيد عن التعصب والانغلاق، وعدم الذوبان في الآخر أو التبعية له..

ولنا من تجربة الاتحاد السوفييتي ــ السابق ــ أكبر موعظة في هذا الشأن؛ فقد عزل نفسه عن التراث الإنساني؛ ولم يأخذ من التطورات الثقافية

---

(1) انظر العرب والفكر التاريخي ص ٤٥– ٤٦ ــ المركز الثقافي العربــي ــ ط٣ ــ ١٩٩٢م. وانظر لماذا أخفقت النهضة العربية ٢٧٩ ــ ٢٩٤.

(2) الأدب في عالم متغير ــ ص ١٩ ــ د. شكري محمد عياد ــ الهيئة المصرية العامة للتــأليف والنشر ــ القاهرة ــ ١٩٧١م.

والمعرفية والعلمية والتقنية المعاصرة إلا بما يخدم غرضه وتطلعاته، ولمَّا تسارعت التفجرات المعرفية والتقنية، وتقدمت الحياة المدنية في أوربا وأمريكا واليابان كانت حركة التطور بطيئة في بقاع الأرض السوفييتية.

ومن هنا فالاتحاد السوفييتي رهن تقدمه بالشروط الذاتية، والممارسة الواقعية المادية المنظمة في حزب عقائدي والمستمدة من آراء رجالات كبار كماركس ولينين وغيرهما، ولكنه ألغى الشروط الموضوعية للتقدم الحضاري الممثلة بالتراث والانفتاح على الآخر، فسقطت تجربته التي دامت نحو سبعين سنة منذ ولادته بالثورة البلشفية عام (١٩١٧م). فالوعي الطبقي والفكر الشيوعي الثوري لم يكونا كافيين لإنتاج ثقافة حضارية جديدة لـــه؛ ما أدّى إلى تحطم مشروعه تحت فعل التراث القومي؛ والتفجر العلمي المعرفي والتقني العالمي. لهذا شرع عدد من قادة دوله يحاولون إعادة صياغة نموذجهم الجديد وفق الشروط الذاتية والموضوعية التي يرونها مناسبة لواقعهم الراهن.

وقد أكدت هذه التجربة أن الثقافة الأصيلة إنّما هي وسيلة بناء الوعي المعرفي والعلمي والاجتماعي والاقتصادي والتقني القومي والإنساني. فالثقافة التراثية والمعاصرة ضرورة حضارية لأي مجتمع لا بدَّ من فهمها الدقيق واستيعاب المناسب لتقدمه وارتقائه؛ فضلاً عن أنها أكدت لنا أن إنتاج صور تابعة أو ممسوخة لا يمكنها أن تقدم خيراً يذكر لبناء الكيان القومي المميز من غيره.

ونحن لا ننكر على أصحاب ذلك التصور غاياتهم فقد تكون نبيلة؛ تهدف إلى رسم طريق بناء الثقافة العربية، ومن ثم الشروع في بناء نهوض الأمة.. لأنها وجدت أن التعامل مع التراث حافل بكثير من التناقضات التي تعود إلى أسباب كثيرة لعلّ أهمها قسوة ما تعاني منها الأمة من ضَعْف وتخلف وتجزئة، أو قلَّةً في الزاد الثقافي والمعرفي والتقني والاقتصادي.. وتفاوت طبقي مريع. ولذلك كله فإننا ننكر على عدد من المثقفين العرب أنهم حين أرادوا تطوير منهج الأمة في بناء المشروع القومي وتملكتهم نزعة البروز والتفوق جعلوا أنفسهم منظّرين نخبويين، على الرغم من أنهم كانوا تابعين ومقلدين، وصورة للآخر فأخطؤوا السبيل؛ ولا سيَّما حين استهتروا بالتراث مما ولَّد لدى الأجيال الشعور بالتناقض والعجز.. فالمنهج العلمي الموضوعي يرفض قراءة التراث في ضوء المرجعية الثقافية الغربية وحدها، لأن من يقوم بمثل هذه القراءة لا يرى في التراث إلا ما توحيه تلك الثقافة رغب في ذلك أم لم يرغب.. وبهذا برزت الإشكالية القاتلة التي أتت على الذات القومية والثقافية، وأظهرت التفاوت

في النظرة إلى التراث. فليس هناك رؤية واحدة لـــه، وليس هناك اتفاق على أن اللغة العربية تمثل الخندق الأخير لمفهوم الأمة الواحدة؛ بل ليس هناك سلوك واحد تجاه القضايا المصيرية.. فالخلل الكبير الذي تعاني منه الأمة وثقافتها أدى إلى إشكاليات كثيرة في وعي التراث؛ وخلق تيارات فكرية متناقضة في التعامل معه.

وكنا قد تفاءلنا بحركة تململ بعض المثقفين أو المفكرين أو الكتاب والأدباء الذين تنازعتهم الأفكار بين مستوى ما هي عليه أمتنا وبين التقبل الحضاري للتراث والثقافة الغربية، ولكنهم وقعوا في إشكالية مزقت تمسكهم بالثوابت التراثيّة والقومية حين فرضت عليهم الحضارة الحديثة نوعاً من التقليد والمحاكاة في السلوك والقيم، فانتهى بهم الأمر إلى قلق روحي متصاعد..

فهؤلاء المثقفون أو المفكرون سُحقوا تحت وطأة الحداثة الغربية فكراً وقيماً قبل أن يرتبطوا بها سلوكاً؛ فصاروا أشد خطراً على الأمة من المستشرقين ومن الرؤية الاستشراقية؛ لأنهم اكتفوا من الغرب بالمظهر لا بالجوهر، وحكموا على ثقافتهم العربية ــ الإسلامية وتراثها بالتخلف والانقطاع عن الواقع. فلمّا برزت عقولهم أسيرة لغيرهم فقدوا الارتباط بحاضرهم وقد أرادوا تطويره من خارجه.. فانتهى بهم الأمر إلى أزمة حقيقية في الهوية والانتماء، وفي اضطراب الرؤية للواقع؛ وتشويه التعامل معه ومع الثقافة والتراث.. إذا لم نقل: إنهم أُصيبوا بانفصام الشخصية وازدواجها. ولهذا قال ساطع الحصري: "إن النهضة العربية تعتبر نهضة منقولة وتفتقر إلى الأصالة. والواضح أن هذه النهضة لم تنشأ أو تتأصل في العقل العربي، ولكنها أثرت في العقل نتيجة اتصاله بالغرب؛ ومن هنا كانت سطحية النهضة.. فالأخذ بالنظريات والمفاهيم الواردة من الخارج يؤدي إلى تعزيز التعمية والفوضى اللتين نُعانيهما حالياً"(١).

إن أنصار فكرة إلغاء التراث كانوا أكثر شراً على الأمة من غيرهم، فبدلاً من أن يعمقوا ثقتهم بذواتهم وأمتهم وتراثهم، ويفهموا واقعهم ليتجاوزوه في ضَوء إفادتهم من ثقافة الغرب وجدناهم عنصراً متطفلاً على قيمها والانفتاح على تقنياتها وآرائها.. فالمثقف العربي الحقيقي من يدرك واقعه ويستوعب فكره وما يملكه من تراث، ويطورهما شرحاً وتفسيراً وتحليلاً ونقداً. أما الذين

---

(1) مقدمات لدراسة المجتمع العربي ــ ص ٧١ ــ هشام شرابي ــ الأهلية للنـــشر والتوزيـــع ــ بيروت ١٩٧٧م.

اغتربوا عن واقعهم وتراثهم في طرائق عيشهم وفي أفكارهم وثقافتهم فإنهم وقعوا في أزمة أخلاقية وثقافية، في الوقت الذي لم يعودوا يملكون إنتاج المعرفة والتقنية ولا هم قادرون على الاستقلالية، فتحولوا إلى خط الآخر شاؤوا أم أبوا، وأصيبوا بتشوهات عديدة، بدل أن يرتقوا في السلوك والثقافة واستيعاب التراث وإعادة إبداعه ليغدوا أدوات قوية في ممارسة الوعي الحضاري نفسياً واجتماعياً واقتصادياً وفكرياً وجمالياً.. إنهم فقدوا عنصر الحرية الحضاري؛ وعنصر السلطة على الذات فتراجعوا وتخلفوا، وضلُّوا وأضلُّوا.

ونحن لا نشك في أن الثقافة الغربية فيها الكثير من القيم الإيجابية، والكثير من الانجذاب، ولكنها في الوقت نفسه تحمل من التناقضات بينها وبين مجتمعنا وتراثه وقيمه وعاداته وعقائده بمقدار ما تحمله من عوامل الاتفاق.. فالثقافة الغربية في غالبية اتجاهاتها شديدة التعقيد؛ وإن أسهمت في إثراء الرصيد الثقافي الإنساني عامة والعربي خاصة. ونقول ما قاله الدكتور زكي نجيب محمود: "ليس الذي أعيبه هو النقل في ذاته بل الذي أعيبه هو النقل المخطوف والفهم السطحي للمنقول، وانتحال الأصالة فيما تنقله ورؤية الأصل المنقول من خلال الحجب المُغلَّفة بالضَّباب"(١).

فالإشكالية في هذا الاتجاه تتركز في مفهوم الوعي ذاته عند المثقف العربي؛ لأنه سعى عامداً متعمداً إلى إلغاء هويته وانتمائه حين ألغى تراثه وأبدل به الثقافة الغربية، إذ رغب بملء إرادته في أن يقيم حل مشكلاته على ما يأتيه من الغرب.. فهو يدخلنا في صيدلية أجنبية، ليطلب شفاء مرضنا المستعصي؛ بعد أن مضى أكثر قرن من الزمان منذ أواخر القرن التاسع عشر وهو يدور في إطار وصف أعراض المرض ولا يصل إلى مرحلة العلاج الشافي، وكأنه يقف في الطرف المقابل لتيار الحفاظ على التراث وإحيائه.

فإذا كانت الثقافة الغربية وقوانينها نتاج الإنسان الغربي فإنها ــ دون ريب ــ تنبثق من تصور فلسفته وما يلائم طبيعة مجتمعه.. وهي فلسفة تختلف في كثير من خصائصها وعقائدها عمّا هي عليه الثقافة العربية قديماً وحديثاً؛ وكذلك هي فلسفة تقوم على مرجعية التفوق والاستكبار والاستعلاء..

لهذا لم تستطع الحبوب التي استجلبها عدد غير قليل من العرب من صيدلية الغرب على تنوعها وكثرتها أن تحل أزمة الفقر والتخلف في المجتمع العربي..

---

(1) هموم المثقفين ــ ص ٢١٠ ــ د. زكي نجيب محمود ــ دار الشروق ــ القاهرة ــ ط١ ــ ١٩٨١م.

لأن الناتج الحضاري الإنساني على فائدته الكبرى لهذا المجتمع أو ذاك في جوانب معينة؛ لا يمكنه أن يكون صالحاً بصورته الشمولية والدقيقة لبعض المجتمعات لقوله تعالى: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) (المائدة ٥/٤٨).

وما يؤيد ذلك أن الإشكالية الثقافية دائماً مرتبطة بالتراث والانتماء والأرض، وأي محاولة للتقدم والارتقاء ببناء الأمة عليها أن تستند إلى وعي كامل بتاريخ الأمة ومراحل حياتها التي مرَّت بها. وإنه لمن الجهل والحمق أن نجعل حل مشكلاتنا مستنداً ـــ فقط ـــ إلى ما يبدعه الآخرون ويقدمونه لنا؛ لأننا سوف نعاني في المستقبل ـــ إن لم نكن نعاني الآن ـــ تكدساً في الإنتاج المستجلب. فمن قام بعملية استجلاب الثقافة بكل آلياتها وتقنياتها ومعارفها كتب عليه التبعية المستمرة للآخر، وأغلق عقله عن الإبداع، لأنه آمن بقانون الجهد الأقل؛ وبالقوالب الجاهزة. وفي ضوء ذلك كله رأينا أنه كلما ظهر اختراع أو فكرة في الغرب سارع بعض المفكرين أو الكتاب أو الأدباء والنقاد إلى تلقفهما وإلغاء ما لديه وما يملكه من التراث ليرميه بعيداً، وهكذا يبقى في لهاث مستمر وراء كل منتج جديد، علماً أن كل من يكدس منتجات حضارة غيره لا يصنع حضارة.

إن ما ينبغي على المثقف العربي مفكراً وكاتباً وأديباً وناقداً وفناناً أن يدرك أن التفاعل بين الماضي والحاضر أساسه تمثل ما مضى في مواجهة مشكلات ما نواجهه، وأن التفاعل بين الحضارات أساسه التعادل بين النوع والكم، وبين الهدف والوسيلة؛ وبين المادة والروح.. وهو تعادل يقوم على القيم والفضائل والأخلاق والتمسك بالهوية والتراث.. فتعزيز هذا الاتجاه يمكن لـــه أن يحافظ على قيم الأمة من الاختراق في زمن العولمة ومفاعيلها.. وإلا فما معنى نقل ثقافة الآخر واستنساخها؟ إنه شكل مماثل لاستنساخ التراث ونقله ولكن بصورة مقلوبة؛ بل نرى أن نقل التراث وإحياءه لـــه فضيلة الإبقاء على الهوية والقيم، بينما يؤدي إلغاء التراث إلى السير وراء المجهول.

تلك هي القراءة الإلغائية الأولى للتراث العربي عند العديد من المثقفين العرب الذين تأثروا أيَّما تأثر بالحضارة الغربية وأصبحوا تابعين لها..

ولعل القراءة الإلغائية الثانية تتجسد في القراءة الاستشراقية[١] التي قام بها الغرب للتراث العربي؛ وهي تعد أشد خطورة علينا وعلى تراثنا من القراءة السابقة.. فالقراءة الاستشراقية للتراث العربي والإسلامي قامت على أساس منهج معارضة الثقافات ودورتها الحضارية، على اعتبار أن الاستشراق مصطلح يختص بالأنماط الثقافية؛ ويُعنى بدراسة الحياة الحضارية للأمم الشرقية، ولا سيما حضارة العرب والإسلام؛ ويرى الدكتور عمر فروخ أنه خاص بالعرب والمسلمين فيقول: " هو اهتمام علماء الغرب بعلوم المسلمين وتاريخهم ولغاتهم وآدابهم وعلومهم وعاداتهم ومعتقداتهم وأساطيرهم".[٢] .

والاستشراق يستند إلى غايات وأهداف كثيرة؛ ما يجعل القراءة الاستشراقية لتراثنا ذات اتجاهات كثيرة؛ منها الاتجاه التبشيري؛ ومنها الاستعماري، وأقلها الثقافي القائم على المثاقفة وحوار الثقافات، مذكّرين بأن مؤتمر فيينا الكنسي سنة (٧١٢هـ /١٣١٢م) هو الذي أسس لنشأة الاستشراق.[٣]

لهذا فهناك قراءات أرجعت تراث الأجداد كله إلى أصول مستمدة من التراث الهندي والفارسي والمسيحي ــ حيناً ــ واليوناني ــ أحياناً ــ ومنها ما ردّته إلى التراث اليهودي كما ادعى المستشرق اليهودي (جولد تسهير ١٨٥٠ ــ ١٩٢١م) في بحث لـــه عن الأديان قدّمه إلى مؤتمر عقد في باريس سنة (١٩٠٠م). فهذه القراءات ألغت ما يعرف بالتراث العربي الإسلامي حين ردت كل شيء إلى أصله ــ كما زعمت ــ أما العرب والمسلمون فلم يكن من مهمتهم إلا أن يكونوا وسطاء أمناء بين حضارتين حضارة يونانية قديمة، وحضارة أوربية حديثة، وفي كلتا الحالتين ليس للعرب فضيلة ولا صلة بالتراث إلاّ أنهم مجرد وعاء حافظ عليه، وها هو ذا يُنْقل إليهم من جديد[٤]. وقد ذهب عدد من المستشرقين أمثال المستشرق الإنكليزي (هاملتون جب ــ ١٨٩٥ ــ

---

(1) سيتناول الفصل الثاني من الأسباب الخارجية التطور الذي طرأ على القراءة الاستشراقية مـــن الاستشراق الاستعماري إلى العولمة وانظر كتاب (الاستشراق والمستشرقون) ــ مـــصطفى السباعي ــ المكتب الإسلامي ــ ١٩٧٩م.

(2) الإسلام والمستشرقون ــ دار المعرفة ــ دمشق ــ ١٩٨٥م.

(3) انظر الاستشراق ــ إدوارد سعيد ــ ص ١٩. وانظر التبشير والاستعمار ــ مصطفى الخالدي وعمر فروخ ــ المكتب الإسلامي ــ بيروت ــ ١٩٧٩م. ص ١١٨.

(4) انظر: نحن والتراث ــ ص ــ ١٤ ــ د. محمد عابد الجابري ــ المركز الثقافي العربـــي ــ بيروت والدار البيضاء ــ ١٩٨١م.

١٩٧١م) إلى أن العرب لا قيمة لهم ولا تأثير [1]، على حين ذهب المستشرق الفرنسي (أرنست رينان ــ ١٨٢٣ ــ ١٩٨٢م) إلى أن عقيدة التوحيد في الإسلام لا تنتج إلا الشك والخوف، ومن ثم فهي ليست عقيدة إلهيّة، ومثله ذهب المستشرق الإنكليزي (نيكلسون ــ ١٨٨٥ ــ ١٩٤٥م)[2].

إن الرؤية الاستشراقية التبشيرية والاستعمارية التي نظر بها الغرب ومثقفوه إلى التراث العربي لم تترك للعرب منذ وجودهم أي دور حضاري وثقافي؛ فالاختراع والإبداع بعيد عنهم.. وهذا يدعوهم جميعاً إلى جعل الثقافة الغربية أساس نهضتهم وحياتهم المادية والروحية.. وعليهم أن يسيروا وراء الغرب فهو أصل الحضارة وصاحبها. من هنا كانت المعضلة الكبرى التي واجهت المشروع القومي حين فقد العنصر التراثي الأصيل المكون له..

وتتصل بهذه المسألة فكرة أخرى؛ مفادها أن أوربا وأمريكا على شدة إيمانهما بالتراث الغربي المتصل قديماً وحديثاً، لم تتوقف عند هذا التراث؛ وإنما تجاوزته لتعيش الحاضر بكل تفجراته المعرفية والاقتصادية والاجتماعية والتقنية؛ فهو عصر التقنيات والمعلومات والفضائيات.. ما يجعل أبناءها يستخفّون بالعرب والمسلمين لأنهم لم يتجاوزوا التراث؛ فضلاً عن أن التراث الذي يتغنون به ليس لهم ولا هو من صنعهم.. ولعل هذا دفع المستشرقين إلى إنشاء كراسي الدراسات الشرقية في الجامعات الغربية ورعايتها للنفاذ إلى عمق الثقافات الشرقية لتحليلها وفهم نفسية أصحابها للهيمنة عليها كما نجده في جامعة (برنستون) الأمريكية التي أحدثت العديد من الكراسي لذلك سنة (١٩٤٧م).

ولم يقتصر الأمر على المستشرقين بل ذهب كثير من المثقفين العرب المتأثرين بالاستشراق إلى أنه ينبغي تجاوز التراث، وعلينا أن تظل عيوننا مسمَّرة في الحضارة الغربية وما تنتجه من خير لصالح البشرية كلها. وهذا ما أوضحه لنا المرحوم عمر فروخ حين أكد أن الاستشراق قد خلق حالة " تخاذل روحي ي نفوس المسلمين وحملهم على الرضا والخضوع للمدنية الغربية المادية"[3].

---

(1) انظر الإسلام والتمييز العنصري ــ صلاح الدين الأيوبي ــ دار الأندلس ــ بيروت ــ ١٩٧٢م ــ ص ٢١٠.

(2) انظر الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي ــ محمد البهي ــ مكتبة وهبة ــ القاهرة ــ ١٩٧٥م ــ ص٤٩.

(3) انظر فصل الدين عن الدول ــ اسماعيل الكيلاني ــ المكتب الإسلامي ــ بيروت ــ ١٩٨٠م ــ ص ١٣٢.

وبهذا التصور الخاطئ والواهم لأصحاب الرؤية الاستشراقية ندرك أنهم لا يختلفون عن أصحاب المرجعية الغربية في قراءة التراث. فجميعهم انصبَّ تركيزه على إلغاء التراث العربي منذ عهد البابليين والآشوريين والآراميين؛ حتى عصر النهضة وتشويه كثير من أصوله ومفاهيمه، وتحريف عقيدة أصحابه، ولهذا لا مناص للعرب والمسلمين عن الحضارة الغربية وثقافتها؛ وهي تؤخذ دفعة واحدة ولا تتجزأ.

وهنا يثور في الذهن سؤال مهم: هل كان العرب على مدى التطور الحضاري مجرد قبائل متفرقة ثم مجرد نقلة لحضارة الآخر بعد تكوين دولتهم؟ أليسوا هم من انتقلوا من مرحلة القبيلة إلى مرحلة الدولة ثم الأمة منذ عهد النبوة؟ أو لم يحدثوا العديد من الأفعال الحضارية لصناعة الكتب، والمكتبات، واختراع الكيمياء والجبر، وحساب الجمل وغيرها؟! ومن ثم نتساءل عن واقعنا: ما السر الذي يكمن وراء فكرة الاستلاب الإرادي والثقافي العربي الحديث؟.

ومن هنا نذكّر بأن فعل الاندهاش عند المثقفين العرب قد أدى بهم إلى حالة الاستلاب الكلي كما أوضحناه من قبلُ؛ لأنهم رغبوا في أن يحققوا حضارة الأمة ونهضتها بمرجعيات غريبة وغربية حين عجزت آلياتهم وإجراءاتهم عن الوصول إلى عتبات النهضة ثم تحقيق المشروع القومي..

فالدعوات المضللة للنظريات الاستشراقية سلبت العرب والمسلمين دورهم التاريخي الحضاري الفاعل في بناء الحضارة الإنسانية، في الوقت الذي أججت نار الكراهية والبغضاء في نفوس الغربيين لاستئصال كل ما هو عربي وإسلامي؛ ولا سيما تلك التي مهدت للحروب الصليبية أو التي جاءت إثرها، في حين أنها عمدت إلى إثارة الشك في كل ما هو أصيل.

ومن ينظر بموضوعية خالصة إلى ماهية تكوّن الأمة العربية وأطوارها على مرّ التاريخ يدرك أن الهوية العربية كانت وما زالت الأصل الذي صهر المفهوم المعرفي القومي المستند إلى حضارات متناغمة ومتشابهة في معطياتها، وقد تفاعلت فيها ثقافتها حين أعارت واستعارت؛ فكانت على الدوام تعطي وتأخذ؛ تؤثر وتتأثر ما جعل المستشرق الهولندي (رينهرت دوزي ــ ١٨٢٠ ــ ١٨٨٣م) يقر بفضل العرب المسلمين على إسبانيا، إذ محوا الأمية في أبنائها

على حين " لم يكن في كل أوربة مَنْ يعرف القراءة والكتابة إلا في الطبقة العليا من القساوسة"[١]...

وما من أحد في الشرق أو الغرب يرجع إلى حضارة (إيبلا) أو (ماري) أو (بابل) أو (أفاميا) أو (وادي النيل) أو (بنت جبيل) أو.. أو.. إلاّ أدرك عظمة ما قدمه الأجداد للبشرية.. فنحن أصحاب أول أبجدية في التاريخ الكوني. ويشهد بهذا ما وجد في (رأس شمرا) و(بنت جبيل). فأبجدية أوغاريت التي وجدت في رأس شمرا هي التي انتقلت إلى اليونان والرومان، ومن ثم إلى اللغات الأوربية الحديثة، باعتراف كثير من الباحثين الغربيين المحدثين، مثل المستشرق الألماني (فرنز داوم) المختص باللغتين اللاتينية واليونانية. ونحن أول من سن الشرائع كما وجدناه في شريعة (حمورابي)؛ وأول من أهدى العالم كله صناعة السفن والخزف في حضارة الفينيقيين.. بل إننا أول من وهب البشرية النظم السياسية وتبادل المعلومات بين الإمارات كما أثبتته الرقم المنتشرة في (ماري) و(إيبلا)، وما زلنا نحتفظ بها في متحف إدلب؛ وما زالت تنتظر الباحثين لقراءة كنوزها. ولو سرحنا نظرنا إلى متحف (معرة النعمان) لرأينا لوحتين فيه تدلان بما لا يقبل الشك على أن الرومان كانوا نقلة للتراث العربي البابلي والسومري والآرامي وغيره..

أما اللوحة الأولى فهي لوحة طفلين وهما (روميو وروموليوس) وتعود إلى سنة (٥١١م) من العهد الروماني وهي عبارة عن لوحة فسيفسائية اكتشفت في موقع أثري يقال لـــه (فركيا) في جبل الزاوية جنوب غرب إدلب بنحو (٣٢كم).. وتظهر اللوحة الطفلين يرضعان من ذئبة..[٢].

ونحن لسنا في معرض شرح جمال هذه اللوحة ودقة الإتقان الفني فيها؛ ولكننا في معرض اقتتال الأخوين وصرع أحدهما الآخر بعد بناء مدينة (روما) التي سميت باسمهما. فحكايتهما تشبه كثيراً حكاية قابيل وهابيل المعروفة في التراث الديني العربي؛ فكل منهما أراد الاستحواذ على الملك والمال؛ فلم يجدا بداً من الاقتتال لينفرد أحدهما بهما..

---

(1) انظر في الأدب الحديث ــ عمر الدسوقي ــ مطبعة الرسالة ــ عابدين ــ القاهرة ــ ١٩٩٤م ــ ص٣٧٢.

(2) الظاهر والمدفون في بلد الزيتون (٩٥/٢) ــ عبد الحميد مــشلح ــ مطبعــة دار عكرمـــة ــ دمشق ــ ٢٠٠١م.

أما اللوحة الثانية فهي لوحة فسيفسائية جميلة ومتقنة فنياً تسمى لوحة (أوقانيوس) وفيها نجد (هيروكليس) الذي جبل خلْقه من طينة البشر ومن مادة الإله، فامتلك قوة خارقة لا يملكها البشر. لهذا استطاع أن يقتل الأفعى الشريرة التي كادت تقضي على (أوقانيوس) في إحدى الغابات الكثيرة الأدغال والوحوش.

ولعلّ الباحث الموضوعي المتأمل في الأبعاد الفكرية لتلك اللوحة يدرك بما لا يقبل الشك أنها منتزعة من الفكر البابلي القديم. فملحمة جلجامش تصور لنا جلجامش مكوناً من ثلثي إله وثلث من البشر يدفع عن صديقه (أنكيدو) شر حارس غابة (الأرز) الذي سمي في الملحمة (حواوا) وهو قريب في التسمية من الحية؛ ومن ثم يستطيع قتله بمساعدة القوة الإلهية[1].

إن هذا الإرث الحضاري للعرب يدل على أنه كان يشكل الفكر القومي الموحد، والنسيج الاجتماعي المتماثل، في وقت كان يؤثر في الفكر الإنساني ويشكّله على هيئته لآماد طويلة؛ وكان في كل مرة يصنع حضارته أينما كان موطنه وإلى أي جماعة انتمى..

ومن هنا فنحن نقول: إن الحضارة أطوار يتداولها الناس على قدر اجتهادهم وإخلاصهم.. ولهذا فإن دورة الحضارة رجعت إلى العرب في القرن الثامن والتاسع الميلاديين/ الثاني والثالث الهجريين بقوة؛ فأهدوا العالم من جديد مصطلحات العلم والمعرفة في الطب والفلك والكيمياء والرياضيات و..

ولا شيء أدل على ذلك من أنهم حازوا قسطاً وافراً من البراعة في اختراع العلوم العديدة كعلم الأدوية والصيدلة، وعلم العقاقير والنباتات الطبية وعلم الجبر، وغير ذلك.

ومن يرجع إلى كتاب (الفهرست) لابن النديم يعجب لكثرة العلوم والعلماء الذين أنتجتهم الحضارة العربية. فالعرب أول من وضعوا فلسفة علم الاجتماع على يدي ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (٧٣٢ ــ ٨٠٨هـ/ ١٣٣٢ ــ ١٤٠٦م)، وأول من توصلوا إلى كروية الأرض، وشكلوا أحجامها، وتخيلوا صورتها كما نراه عند الإدريسي: محمد بن محمد (٤٩٣ ــ ٥٦٠ هـ/ ١١٠٠ ــ ١١٦٥م)؛ وأول من اخترعوا رقم (الصفر) على ما قيل: إن الهنود قد

---

(1) قراءة في ملحمة جلجامش ــ ص ١٤٠-١٤٦- فراس سواح ــ العربي للطباعة والنشر والتوزيع ــ دمشق ــ ط١ ــ ١٩٨٧م

عرفوه؛ وأول من اكتشفوا الدورة الدموية؛ وأول من وضعوا نظام حساب الجمل ثم رموزها...

ومن ثم فلا حاجة بنا إلى أن نطيل في بيان وَهْم أصحاب القراءة الاستشراقية وضلالهم وإنكار ما للعرب من أثر حضاري في الآخر؛ فدورة الحضارة الإنسانية تؤكد أن التراث العربي والإسلامي حاضر أبداً في تاريخ البشرية، ولا يمكن إلغاؤه..

ولهذا نكتفي بما أشرنا إليه؛ فليس من الضروري أن نسقي هؤلاء القوم ماء البحر كله ليعرفوا أنه مالح؛ فالرشفة القليلة تغني عن الكثير؛ لننتقل إلى أصحاب القراءة اليسارية.

ويبدو لنا للوهلة الأولى أن هناك اختلافاً في الرؤية بين القراءة اليسارية للتراث العربي والرؤيتين السابقتين.. بيد أن المتمعن فيهما يجد تقاطعات كثيرة الشبه، فكل منهما سعى جاهداً إلى إلغاء التراث؛ ويبقى الفارق بينهما في طريقة الإلغاء وماهيتها..

فأصحاب الفكر اليساري تبنوا المنهج الجدلي (الديالكتيك) كمنهج محمول من الغرب والشرق، ومطبَّق في واقع مجتمعاتهما؛ دون أن يفصلوه عن مفهوم الصراع بين المادية والمثالية من جهة؛ وعن مفهوم الصراع الطبقي من جهة أخرى.

وهذه الآراء الجاهزة حُملت إلينا باعتبارها قوالب فكرية مسبقة، ومعتمدة، وصالحة لتغيير الواقع الفاسد للأمة العربية. وما دامت قد أثبتت العديد من الإنجازات في مجتمعاتها، وكان لها مصداقية في حل بعض مشكلات الواقع الراهن لديها فلا بد لنا من اتخاذها أنموذجاً للتطبيق ولا حاجة بنا إلى التراث؛ لأنه يعد عائقاً في التقدم الحضاري.

فمفاهيم قراءة الفكر اليساري ولا سيما الشيوعي أُسقطت على كثير من معطيات التراث العربي، وصار يقرأ عند العديد من أصحابها في ضوء ذلك؛ وما لا يتفق مع تلك المفاهيم أُلغي إلغاءً كاملاً، أو وجهت إليه سهام الطعن والتجريح. ولعل قراءة حياة الصعاليك وأشعارهم أعظم دليل على ذلك، وكذلك فُسّرت مواقف أبي ذرٍّ الغِفاري، وثورة الزنج؛ وغير ذلك.

ويرى أحد المفكرين المعاصرين أن التيار اليساري لم يتبنَّ "المنهج الجدلي كمنهج للتطبيق، بل كمنهج مُطَبَّق".. ثم ألقى أصحابه باللائمة "على

التاريخ العربي غير المكتوب أو تذرع بصعوبة التحليل أمام هذا التعقيد البالغ الذي تتصف به أحداث تاريخنا"[1].

ولهذا لا بأس أن نذكّر من جديد بسبب سقوط الاتحاد السوفييتي الذي تبنى الفكر الفلسفي الماركسي لـــه منهجاً وحياة. فلما أهمل الشرط التاريخي الممثل بالتراث، والشرط القومي المجسد بتعدد القوميات في داخله، وانغلق على فلسفة أحادية الاتجاه؛ وعزل نفسه عمّا يجري في العالم من تطور اجتماعي ومعرفي وتقني وإعلامي سقط وانهار، ولمّا سقط الاتحاد السوفييتي سقط وراءه كثير من المقولات المنقولة عن أدبياته، وآراء قادته.

ذاك هو السر في مفهوم إشكالية قراءة التراث قراءة يسارية؛ إذ أدت إلى إسقاط التراث العربي ولا سيما الديني منه، أو انحرفت إلى قراءات انتقائية نفعية وآنية مستندة إلى فلسفة إنسانية واجتماعية يسارية، فتفاقمت المشكلات في فهم التراث؛ ثم تعمقت الأزمة بين أبناء الأمة العربية المعاصرين وبين تراثهم من جهة، وتضخمت المعضلات بينهم وبين مشروعهم القومي من جهة أخرى.

فالفهم اليساري للتراث ــ على ضعف مردود نظرته في الواقع العربي ــ انطلق من كنانة الصراع الطبقي الحتمي والمستمر، وهذا ما لا يتفق مع مفهوم المشروع القومي العربي في بناء النهضة؛ لأنه ألغى عناصر كثيرة من عناصر المشروع القومي، ولا سيما حين رأى الهوية العربية معيقة للمشروع الأممي وتقدمه الاجتماعي والاقتصادي.

ولعلّ هناك قراءة أخرى ادعى أصحابها أنهم أوتوا الحكمة والمعرفة والقدرة على المحاكمة الدقيقة في معالجة الواقع والتراث؛ فقالوا: نحن نقرأ التراث الديني خاصة والعربي عامة قراءة تعد من إنتاجنا لا من إنتاج الأجداد. فما لنا وللمفسّرين القدماء ولاجتهاداتهم؛ وما لنا ولأهل اللغة كسيبويه والأصمعي والكسائي وابن جني؟! فاللغة إرث متّصل يمكننا أن نفهمها ونفهم ما كتب بها من تراث ديني وفكري ولغوي وأدبي وتقدمي وفني وفق متطلباتنا في العصر الحاضر ووفق مُعْطياته المستحدثة.

وتجاوز بهم الأمر كل حد من حدود فهم التراث؛ كما نجده عند دعاة الأحمدية والبهائية؛ وغيرهما..

---

(1) نحن والتراث ــ ص ١٥.

إن هذه الدعوى تحمل بريقاً أخاذاً؛ ففي ظاهرها يكمن صلاح عجيب؛ ولا سيما حين يقول أصحابها: نحن رجال وهم رجال. ولكن المتمعن في كل ما يقولونه يدرك أنهم ألغوا الكثير من العناصر الدينية والفكرية القومية؛ لأنهم لم يبنوا البناء على البناء؛ فضلّوا وحاولوا أن يضلّوا الآخرين، وبخاصة حين ألغوا التراث الديني كله، ثم طفقوا يفسرونه تفسيراً عجيباً وغريباً، حتى صار الأعور الدجال عندهم ممثلاً بالصاروخ الذي يعبر القارات في أيامنا هذه..

بقي علينا في هذا المقام أن نشير إلى إشكالية أخرى في وعي التراث مجسدة في أنصاف مثقفين انتهازيين لم يستطيعوا أن يلحقوا بركب ما أنتجته الحضارة الحديثة على صعد شتى؛ ولا سيما على الصعيد التقني والمعلوماتي وما يتعلق بغَزو الفضاء وشبكات الاتّصال والإنترنت، وفي الوقت نفسه لم يستطيعوا أن يعوا تراثهم الوعي الصحيح، فغابت لديهم القدرة على تفعيله وفهمه، وتحليله، كما أنهم لم يستطيعوا وضع الدواء الناجع لمشكلات واقعهم؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

ولهذا كله أفسدوا مشروعهم القومي حين ألغوا أجزاء مهمة من تراثهم، وصاروا يتلقفون بغير وعي ما يحيط بهم؛ فتقاذفتهم الصراعات هنا وهناك، وعاشوا أزمات متكررة في ذواتهم، ووقعوا في إشكاليات موضوعية مع مجتمعاتهم وتطلعاتها، ولم يشكلوا لهم يوماً من الأيام موقفاً مبدئياً في إطار نهضتهم وبناء مشروعهم القومي؛ فتراهم يميلون مع كل اتجاه ثقافي أو سياسي. إنهم – بحق – أنصاف مثقفين؛ إن لم يكونوا انتهازيين فضوليين ووصوليين يتسلقون على أكتاف الآخرين، وما أكثرهم في أيامنا!!. إذ تراهم بين ظهرانيك وفي أوساط كثيرة، وربما كانت لهم الغلبة.

تلك هي الإشكالية الأولى التي برزت في شكل إلغاء أجزاء كبرى من التراث عند العديد من الفئات المثقفة العربية، وكأنها لم تفتح عينيها على أخطر تجربة احتيال ثقافية في الوجود الإنساني ممثلة بالكيان الصهيوني. فهذا الكيان يصنع وجوده من أوهام تراثية يتمسك بها ليقيم دولته المزعومة على أرض عربية إسلامية؛ بينما بعض مثقفي العرب يريد إلغاء تراثه الحقيقي بحجج واهية، ولكنه لا يلغي إلا وجوده.

وهنا نذكر أنفسنا بتجربة اليابان والصين؛ وكلتاهما أقامت نهضتها الحديثة على عدم تجاهل تراثها؛ لأنه يعزز الهوية والوجود. ولهذا راحت تعيد الحياة إلى لغتها خاصة، على حين نتنكر نحن للغتنا..

أما الإشكالية الثانية فهي ذات وجه آخر يتمثل في شكل الحفاظ على التراث وطريقة إحيائه لدى العديد من المثقفين والمفكرين والتيارات الفكرية.

٢-الحفاظ على التراث وإحياؤه

هناك فئات مثقفة من أبناء الأمة وقفت في الطرف المقابل للجماعات السابقة؛ فرأت أن كل ما دونته ذاكرة الآباء والأجداد من إنجازات حضارية وفي طليعتها التراث الإسلامي إنَّما تُؤخذ كاملة متكاملة بمضمونها وشكلها لتحقيق المشروع القومي. وأي استبدال لعُنْصر منها أو حذفه أو تغييبه يؤدي إلى الانتقاص من الشخصية الثقافية وتشويه الانتماء القومي، بل هدم للمشروع القومي؛ فمن لا ماضي لـــه لا حاضر لـــه ولا مستقبل.

فالتراث العربي والإسلامي عند أصحاب هذه الرؤية منهج في الحياة والمعرفة والعلم والفن؛ ووعاء لبنيان قومي أصيل في شؤون شتى تتصل بالواقع بمثل ما ترتبط بالمستقبل، لأن أي عملية بناء لا تتم في إطار الواقع وحده؛ بل تمتد إلى الزمن الضارب في القدم.. ما يعني أن التراث برمته وبمفهومه الشمولي يؤسس لمفهوم قومي ثقافي حضاري وإنساني.. ولا يمكننا إلا أن نعيش تراثنا في كل نَفَس من أنفاس حياتنا وانتمائنا وعقيدتنا؛ وثقافتنا وتفكيرنا وفننا..

إنه المنهج الوحيد القادر على حل مشكلاتنا وتحرير الإنسان العربي من تخلّفه الاجتماعي والمادي والمعرفي وبناء مشروعه القومي؛ أما الثقافة الغربية المعاصرة التي غلبت عليها المنافع الآنية والمادية وطغى على جوانب منها شيء من الكفر والإلحاد والإباحية فقد أنتجت لنا غير قليل من الشر والتبعية والانحدار في حياتنا وأخلاقنا. وطالما سعى بعض أربابها إلى القضاء على هويتنا؛ وفي أحسن الأحوال إعاقة مشروع نهضتنا الذي نعتز به.. بل إن بعض التيارات الإسلامية يرى العلمانية كلها باعتبار تبعية أكثر تياراتها للغرب شراً كبيراً.

ونرى أن فكرة الخلاص مما تعاني منه الأمة العربية في حياتها وثقافتها وأخلاقها لا تكمن في إعادة بَعْث التراث بحد ذاته؛ وإنما تكمن في الغاية التي تستند إليها عملية بعث التراث.. فما يُبْعَث منه ينبغي أن يتحول إلى حالة إبداع ثقافي وحضاري منفتحة على الذات والآخر في عالم اليوم، وبهذا تتكامل الأصالة بالمعاصرة، أو ما يسمى القديم والجديد.. فما تم تحقيقه في الماضي لا يمكن إعادته بصورته المثالية في الحاضر والمستقبل..

ولو سلّمْنَا جدلاً برأي بعض المثقفين التراثيين المتشددين؛ فلا يعني هذا إلا إلغاء وجودنا أو الانتقاص من قَدْرنا، لأنه يراد لنا العيش في دائرة تاريخية بعيدة كل البعد عن الواقع المعيش.. فحين نتمسك بالتراث لا يدل تمسكنا على تنكر للمعاصرة، ولا يشير إلى تعصبنا لــه؛ فالتعصب للتراث فقط يؤدي إلى الانغلاق والتخلف والانهيار..

ولهذا فإننا ندعو المثقف العربي المتشدد الذي جعل الماضي أساس الحاضر إلى الخروج من الأزمة التي أوقع فيها نفسه وقاد إليها الآخرين؛ فعاشوا مشكلة عويصة بين اعتزازهم بتراثهم والأخذ به كله؛ وبين التطلع إلى واقع متفجر بالمعرفة والتقنيات، ومتسارع الخطى في شؤون الحياة. إننا ندعوه إلى حوار هادئ ومثمر من أجل حاضره ومستقبله؛ أن يجعل التراث مغذياً لصورة الواقع الرّاهن. فالوظيفة الثقافية للتراث ليست مجرد حدث تاريخي؛ وإنما هي فعل حضاري يتجدد بتجدد الآمال والطموحات في تحقيق المشروع القومي؛ بمعنى أن التراث لا يقود الإنسان العربي إلى تعبده والخضوع لــه لمجرد أنه تراث؛ وإنما يدعوه إلى كشف عناصر النهوض والارتقاء فيه؛ لا أن يجعل الحكم فيه أمراً مطلقاً بناء على مقاييس مفروضة سابقاً في تصوراته. وقد يستطيع أصحاب إحياء التراث كما كان أن يحصلوا على امتيازات كثيرة؛ لأن كل واحد منهم يمكنه أن يقيم علاقات متعددة مع المجتمع الذي ينظر بعين القداسة إلى التراث، ولا سيما حين تبنى هذه العلاقات على مفهوم المحافظة على قيم الماضي ومبادئه وأخلاقه..

ولكنهم لن يستطيعوا أن يحافظوا على امتيازاتهم تلك إذا عجزوا عن كشف العناصر المتغيرة، أو كيفية تغيرها بين التراث والواقع، وفي الوقت نفسه إذا لم تتوافر لديهم القدرة ليتبينوا أوجه الخلاف للمشكلات المهمة..

فالتفاعل مع التراث لا يكون باستجلابه كاملاً والتعبير به عن الحاضر، وإنَّما يتحقق بمدى استيعابه والإفادة من معطياته حتى يغدو مؤثراً فيه، وفق متطلبات الثقافة المرتبطة بالناس ورؤاهم الحضارية المستقبلية لبناء مشروعهم القومي الحضاري.

أما أن يصبح التراث كتلة تاريخية مفروضة مسبقاً على مشكلات الواقع فإنه سيؤدي ــ على نحو ما ــ إلى مجابهة خطيرة للمشروع القومي، إن لم تكن هذه المجابهة قاتلة على الصعيد الداخلي والخارجي، الذاتي والموضوعي بدل أن يكون الأصل الذي يشكل عناصر المشروع القومي؛ فالمثقف عندئذ سيجد نفسه قد أَحلَّ كل ما هو قديم محل كل ما هو جديد. وبهذا لن ينتهي بهِ

الحال إلا إلى القصور، وضَعف المردود، والتزمت، ومن ثم التقوقع على الذات التراثية..

وهنا نتذكر جميعنا مفهوم المدرسة الاتباعية؛ فمفهوم الاتباعية أو ما عرف بالمدرسة التقليدية لم يستطع أن يدوم طويلاً؛ وإن قدَّم في عصر النهضة خدَمات جُلَّى للأمة.. أما من بقي اتباعياً فرداً كان أم كتلة ثقافية أو سياسية فقد انكفأ على تبعية سلبية للماضي، يحن إليه؛ ويتأسى به، دون أن يعزز أي مفهوم واعٍ لتجديده والنهوض بحياته.

إن العديد من العادات أو الأعراف – على سبيل المثال – أجزاء من التراث؛ وهي تحمل عنصر الوجود التاريخي لمجتمع ما.. فهل يمكن للمثقف أن ينقلها بحرفيتها دون أن يجري عليها أي تغيير لتناسب فكره وعصره وحياته؟!!

والإجابة تكمن في حركة النهوض، بدليل أن الرومانسية حلَّت محل التقليدية ثم تطورت إلى شيء آخر لأننا لا نريد أن نظل رومانسيين نعيش على الأحلام بما فيها أحلام الماضي. فالتواصل بين الماضي والحاضر عملية نهوض وانفتاح على الآخر؛ وآلية استجرار التقاليد والأعراف كما هي عملية انغلاق وتخلف؛ وليست من صميم التراث العربي والإسلامي، ولا من صميم الدين لقولـــه تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (الرعد ١٣/١١).

ويعزز مفهوم التفاعل مع التراث وفهمه وتحليله ما قام به الأجداد إبان ازدهار الحضارة العربية حين تمسكوا بما يملكون، وفي آن معاً انفتحوا على الآخر؛ فجعلوا الانتماء إلى التراث حركة فعل ثقافي قائمة على تلازم التنظير مع التجريب، ولم يلجؤوا إلى التفاخر الوهمي بالإسلام.

فوعي التراث وتوظيفه كان لديهم مجابهة للواقع والسعي إلى تطويره ولم يكن في يوم ما نكوصاً إلى الوراء، ولا قراءة تاريخية أحادية الاتجاه قائمة على النقل والاستدعاء والاستجلاب، ولم يكن وعيهم هذا خطاباً ثقافياً لإثارة عاطفة الناس واستدرار الانتماء لديهم؛ وإنما كان فعلاً من الخلق الإبداعي في الانفتاح على الواقع والمثاقفة مع الأمم الأخرى؛ ما أدى بهم إلى خَلْق حضارتهم العربية التي نعتز بها.

فعملية قراءة التراث تتسع في مجال الفعل القرائي وتتنوع لدى المبدع القادر على توظيف التراث بينما تنحصر عملية الاستجلاب والإحياء في طبيعة الاستجابة الآنية والسطحية لمشكلة ما في الواقع. وإذا كنا نذهب هذا المذهب

فإننا نرى أن مفهوم الإحياء يختلف عن مفهوم التناص و مفهوم الاستلهام أو إعادة إبداع التراث؛ لأن الإحياء يعتمد على التذكر فقط بينما التناصية تطيح بالأصول القديمة ولا تعترف بمصادرها، ولا تقرُّ بمفهوم الأبوة؛ على اعتبار أن النُّصوص التراثية كلها تحوّلت إلى نصّ جديد(١). وكذلك يصبح القارئ الأخير مالكاً للنص وله الحق في إعادة إبداعه وقتل من سبقه أو تجاوزه، أما الاستلهام فهو شيء آخر سنأتي على ذكره.

لهذا كله يصبح منهج الحفاظ على التراث أو إحيائه أقل تعقيداً من التناص وإن أثار إشكاليات خطيرة في ضَوء المناهج الفلسفية والفكرية والنقدية والأدبية التي ظهرت مجدداً؛ وقدَّمت ذاتها على أنها الوجه الأفضل للتفاعل مع التراث ولا سيما منهج توظيف التراث واستلهامه.

ولا يستطيع أحد في الكون أن يقول: إن القديم أنفس من الجديد أو العكس وكلاهما يفرض على المثقف أن يعيهما معاً. فالماضي يسري سريان الشريان في الجسد وله جوهر لا بد من معرفته لكي يصبح ذا قيمة إيجابية. ولهذا ينقل إلينا (رينيه ويلك) ما يلي: "فالعمل الفني يبدو لنا كقيمة إيجابية عندما يعيد تشكيل بنية الحقبة السابقة، ويبدو لنا كقيمة سلبية عندما يتبنّى تلك البنية دون أن يغيّرها"(٢).

فالتجديد والتطور معيار القيمة الأهم؛ وليس التقليد والإحياء؛ على الصعيد الوظيفي والجمالي؛ "فإذا كان التغير مجرد تبديل، مجرد فعل، فإنه سيكون تذبذباً أبدياً حول" المحور نفسه(٣).

إن آلية الحفاظ على التراث وإحيائه على أهميتها في تحصين الذات القومية لا تنتمي إلى قراءته قراءة إبداعية؛ وليس لها من أشكال المنهج العلمي السديد؛ والمنهج المعرفي النقدي إلا مفهوم التأريخ، والدقة في تمييز كنوزه.. بيد أن التراث ليس درساً تاريخياً، وإنما هو فعل ثقافي فكري نفسي اجتماعي يتماهى في حركة اللحظة الراهنة.

---

(1) انظر التناص وإشاريات العمل الأدبي ـ ص ١٥-١٦- صبري حافظ ـ مجلة (ألـف) ـ مجلة البلاغة المقارنة ـ مجلة سنوية تصدر عن قسم الأدب الإنكليزي المقارن بالجامعة الأمريكية ـ القاهرة ـ العدد الرابع ـ ١٩٨٤م.

(2) مفاهيم نقدية ـ ص ٣٨-٣٩- تأليف رينيه ويليك ـ ترجمة د. محمد عصفور ـ عالم المعرفة ـ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت ـ العدد (١١٠) ـ فبراير/ شباط ـ ١٩٨٧م.

(3) مفاهيم نقدية ـ ص ٣٩ -.

فآلية الحفاظ على التراث بنقله ونسخه لا يمكنها أن تطور خطابنا المعاصر؛ ولا الخطاب التراثي؛ وإنما تخلق نسخاً من التوافقات الآنية بين الحاضر والماضي؛ وبهذا يتأسس مفهوم المشروع القومي النهضوي تأسيساً مشوهاً.

إننا لا ننكر وجود بعض الجوانب الإيجابية في إحياء التراث العربي والإسلامي ولا سيما ما يرتبط بتعزيز الانتماء، ووحدة الثقافة؛ ولكن ننكر أن ينتهي بنا إلى أهم إشكال في الوجود وهو الجمود على قوالب الماضي والذوبان فيه فلن ينتج منه في هذه الحال إلا المآسي.

ويظل منهج استلهام التراث أكثر حظاً من منهج الحفاظ على التراث وإحيائه؛ وهو حديثنا الآتي.

٣-استلهام التراث:

سبق لنا أن أشرنا إلى مفهوم استلهام التراث وبيّنا أنه يختلف عن مفهوم الاستجلاب/ الاستحضار/ الاستدعاء، وكذلك فهو يختلف عن مفهوم التناص، علماً أن عدداً من الباحثين ذهبوا إلى أنه ضَرْب من ضروب التناص على نحو ما..

ولا بأس أن نؤكد هنا أن المجال التناصي قد يشتمل على شيء من الصراع بين القديم والجديد؛ ولا سيّما حين يتجه التناص إلى المعاصرة، ويتعالق النص مع نصوص أخرى من المرحلة الزمانية والمكانية نفسها؛ بينما الاستلهام لا يتجه إلاّ إلى الماضي مما ينتفي فيه الصراع. فالماضي في آلية الاستلهام الواعية يتجسد ــ غالباً ــ في الحاضر وينفتح عليه في إطار الاعتراف بالأبوة. فحين ينفتح المبدع على ثقافة الأجداد لمجرد الاستلهام تبقى مادة الاستلهام لديه تاريخية، وإن شكلها بأشكال جديدة، فإذا التقت فكرة الأصالة والمعاصرة لإنتاج بُعْد زماني فكري ثالث فإن الأشكال التراثية المستخدمة لهدف ما تتطور وتنمو ولا تفقد تاريخيتها. فهي تقوم بتشكيل ذهني فني في النص الجديد؛ على حين أن التناص يطيح بالأصول القديمة ولا يعترف بأبوتها للنّص الجديد لأنه يقضي عليها[1]. كما أن للاستلهام خاصيّة تدل على عمق تجربة المثقف أو سطحيتها في تناول المادة التاريخية وفعاليتها، وهذا لا يظهر في آلية نقل التراث أو استدعائه أو جَلْبه، وكذلك قد لا يظهر في المجال التناصي؛ علماً بأن التراث العربي ما زال بأشكاله كلّها مادة لاستلهام الأفكار

---

(1) انظر المسبار في النقد الأدبي (الفصل الثالث: نظرية التناص ١٢٩ ــ ١٦٧).

والأشكال والصيغ الفنية واللغوية. وقد استطاع كثير من المثقفين والمفكرين والأدباء العرب ممارسة الاستلهام لتأكيد وحدة الشخصية الثقافية للأمة العربية والسعي المتواصل إلى تشكيل المشروع القومي النهضوي في إطار كثير من عناصره، ولا سيما اللغة والتاريخ المشترك، على الرغم من انتمائهم إلى بلدان كثيرة متمثلة بالدول القطرية.

فاستلهام التراث العربي في كتاباتهم من المغرب حتى المشرق، ومن الشمال حتى الجنوب عزز هوية الأمة الواحدة، ولم يستطع المتغربون الذين انبتّوا عن عروبتهم وتراثهم أن يشوهوا ما حققه مفهوم استلهام التراث من تأسيس تصوّر نفسي وفكري واجتماعي متماثل لبناء المشروع القومي.

ولا نشك في أن استلهام التراث قد بدأ في مطلع عصر النهضة بشكل سكوني وجامد، وبصور مباشرة غالباً لإثبات الذات القومية للمثقف العربي، ولا سيما عند الشعراء كما نجده عند شوقي مثلاً[١]، فقد ظهر التراث لديه مجرد أخبار ومعلومات تساق بأسلوب شعري أنيق كما جاء في قصيدته (تّوت عَنْخ آمون) ومنها:[٢].

أَأُمَّ المالكِينَ بني أَمونٍ   ليَهْنِك أَنهم نَزعوا أَمونا

ولدْت لــه المآمين الدواهي   ولم تلدي لــه قَطُّ الأَمينا

مَشَتْ بمنارهم في الأرض روما   ومن أنوارهم قبست أَثينا

فهو في هذه الأَبيات يحشد عدداً من الأسماء التاريخية؛ إشارة منه إلى دور الحضارة العربية في ازدهار حضارة روما وأثينا، فذكر الفرعون (أمون) ثم عطف على ذكر الخليفتين العباسيين (المأمون والأمين)؛ ولكنه فضّل المأمون على الأمين لأنه اتّصف بالدهاء والحنكة..

ومما يؤخذ على مفهوم استلهام التراث ــ وإن كان أفضل من الاتجاهين السابقين ــ أنه منهج انتقائي توفيقي نفعي، لأن المثقف يقوم بعملية إسقاط تراثي في بعض الأحيان لغايات شخصية آنية؛ ما يعني أنه ربما يتراجع عنها في موقف ما، أو زمن ما؛ فضلاً عن أنه قد يكون مطية للاستلهام العشوائي إذا وقع المبدع تحت اللاشعور والخيال؛ إذا افترضنا أنه منزه عن كل عيب.

---

(1) الشوقيات ١٧/١ و ٤٢و٥٩و٧٦و٩٨و١٧٣و١٩٠و٢١٨و٢٦٦.. أحمد شوقي ــ المكتبة التجارية الكبرى ــ مصر ــ ١٩٧٠م

(2) الشوقيات ٢٦٧.

فمنهج الاستلهام يوقع أصحابه أحياناً في المغالاة أو المثالية، أو الانحراف تبعاً لتصورات ذاتية أو موضوعية، أو حزبية أو سياسية.. ولا سيما إذا كانت في حالة تبدّل. لهذا فقد يصبح الاستلهام وجهاً لعملية تلفيق بينه وبين الحاضر أو ثقافات الآخر؛ فالتوافقات ــ غالباً ــ تؤدي إلى استجابة عرضية زائلة، وإلى تجربة مشوهة ومصطنعة، ولا سيما حين تتحكم بالمتلقي فيتراجع لحساب رأي من الآراء. وكذلك نرى أن التوافقات في استلهام التراث تتصف بالآنية والمنافع المحدودة؛ ما يجعلها تقف على طرفي نقيض مع المبادئ والقيم النبيلة؛ إذا لم تؤجج التنازع بين أفراد المجتمع العربي حول معطيات التراث. ومن ثم استشرى الخلاف مع الآخر من الثقافات الوافدة؛ وهذا ما لجأ إليه بعض الأحزاب السياسية على ساحة الوطن العربي، وكذلك اصطنعه بعض الأنظمة العربية.

ثم إننا ننفي عن مفهوم الاستلهام صفة الضبط والسير على نظام شمولي موحد كما هو مفهوم التوظيف المدروس بعناية وعقلانية لمبدأ إعادة إبداع التراث وتسخيره لمتطلبات الحاضر ومفاهيمه.

إننا حين ننتقي من التراث جملة من المواقف أو السلوكيات ونستلهمها لنجعلها نمطاً لحياتنا في أي اتجاه من الاتجاهات إنما نعبّر عن كينونة التراث فينا في لحظات آنية، وإشراكه في تطلعاتنا وحل مشكلاتنا في نزوع يحقق وضعاً تاريخياً مباشراً ومؤقتاً؛ في الوقت الذي يبقى كينونة انتقائية نفعية.

وهذا ــ دون شك ــ يبني في ثقافتنا قيماً تراثية مختارة وفق منطق المستلهم وتجسيد الحالة التي يتبناها أو يرزح تحت حملها؛ ولكنه قد يفرض علينا في آن معاً إنتاج أفعال تراكمية لا تؤدي إلى تطوير حياتنا ولا تعزز مجالاتنا الثقافية بشكل فعّال وموحد؛ بل لعلها تخلق فينا أزمة فكرية ونفسية واجتماعية تعيق حركة ارتقاء الشعور القومي. فحين نحاول تجنب ردة الفعل بفعل ثقافي استلهامي انتقائي فإنه لا يعني رفع سوية طموحنا لبناء منهج متكامل لواقعنا ومستقبلنا في بناء مشروعنا القومي وإنما هو ذر للرماد في العيون.

فالعقل العلمي المؤسس على معطيات التراث وقد تحرر من رقابته الصارمة؛ والمدرك للواقع وثقافة العصر ينتج قيماً ومبادئ تسهم في صياغة حاضرنا ولا تتناقض مع ثقافة الآخر باعتبار فعلها الإيجابي، والبنّاء؛ وتصبح قادرة على التقدم بالمشروع القومي الفكري النهضوي، في الوقت الذي تخلص العربي من أزمته.

فنحن نؤمن بإجراء توافقات جوهرية ونوعية بين التراث والواقع وثقافة المعاصرة، أو القيام بحوار فكري فعّال يمنح العربي في ضوئه تحولات نوعية ومتنوعة توجه طبيعة الثقافة وحياة المجتمع؛ وتربطهما بقضايا الأمة وثقافة الآخر؛ ولكن هذا الإجراء إذا ظل في إطار مفهوم الاستلهام فسيكون عائقاً في وجه المشروع القومي لارتباطه بالنفعية والذاتية.

وبهذا نعتقد أن عملية استبطان التراث كفعل إبداعي في الثقافة العربية المعاصرة، إنما تحقق الممارسة العملية لتشكيل الحياة وتوجيهها إلى جادة الحق، والتخلص من الأنانية ومن صور النقل المباشرة.. ولهذا نقول:

إن إعَادة إبداع التراث يحتاج من المرء إلى الإحاطة بعناصره؛ ومن ثم ربطه ربطاً جوهرياً وأصيلاً بكل بناء حضاري وإنساني. فالصلة بين التراث والحاضر صلة متعاقبة تمتح عناصرها من معين من سبقها. وهذا لا يعني لدينا أننا ننكر كل فضائل مفهوم الاستلهام؛ فكل تجربة استلهامية للتراث لا تلغي أختها بالضرورة، وهي تقدم فائدة من نمط ما، ولكننا نطلب أن يوفر المثقفون والأدباء لها التكامل والتعاون والجدَّة. فاستلهام التراث ليس مجرد تأثر وتأثير بموقف ما، ولكنه في حقيقته يدل – إذا توافر لـــه المنهج العلمي السديد – على التجدد الثقافي دون أن يفصم العلاقة الطبيعية بين الموروث وأشكال الثقافة المعاصرة..

وفي ضوء ما تقدّم نفضّل منهج إعادة إبداع التراث لأنه يعزز الوظيفة الحيوية للتراث ويعمق صوره بالتجذر والتجدد في آن معاً، ويخرجه من حالة التمويه والإيهام والتشويه والنفعية والآنية إلى مفهوم التوظيف الفاعل من أجل البناء الحضاري للمشروع القومي؛ وهو حديثنا الآتي.

٤ ـ إعادة إبداع التراث وتوظيفه:

اتضح لنا أن هناك أنماطاً متعددة لقراءة التراث، وكل نمط يُحدث إشكالية تنتمي إلى طبيعة القراءة ووظيفتها وجنسها. وكل منا يرغب في أن يجعل التراث حياً في الحاضر، أو مستجيباً للثقافة المعاصرة؛ والانتقال بها من حال التبعية الغربية، أو من حال السلفية المطلقة أو من حال استلهام التراث عشوائياً ونفعياً وانتقائياً وتلفيقياً إلى حال القراءة الإبداعية الواعية وتوجيه التراث على اختلاف الرؤى والمناهج بين أفراد الأمة لكي يغدو أساساً للوعي، وصورة للتنظيم الدقيق للواقع، ومن ثم تطويره لتجاوز أزماته الثقافية، والتطلع إلى المستقبل بخطىً وطيدة.

فالتراث بوساطة القراءة المعاصرة القائمة على الاتصال بالحياة الحديثة وفلسفاتها واختيار المنهج الدقيق الذي يؤدي إلى فهمه وتفسيره، ثم إعادة إبداعه إنما يسهم إسهاماً فاعلاً في بناء المشروع القومي في إطار النمو الثقافي واستمرار تقدّمه دون تشويه لـــه أو تقديس؛ أو إلغاء..

فقراءة التراث قراءة علمية إبداعية تستند إلى التنظيم والتخصص وتنشد التَّغيير المنهجي الهادف، وتؤكد المشاركة في قضايا الأمة وحل مشكلاتها هي ضرورة حتمية لصناعة مستقبل الأمة لا حاضرها فقط..

وهذا يثبت بأن إعادة إنتاج التراث وفق قراءة شمولية موحّدة ومتنوعة تثري التراث وترتقي به؛ لأنها قراءة تبدعه ولا تنقله ولا تشوهه أو تجعله تابعاً لمرجعيات غريبة؛ قراءة علمية مادية حسية، ومعرفية عقلية، ولغوية بنيوية، وأدبيّة فنيّة، وذاتية نفسية، وموضوعية اجتماعية؛ أو سياسية أو اقتصادية أو جغرافية؛ قراءة تنطلق من الحاضر إلى الماضي؛ ومن ثم يمتد الماضي في الرؤية الذهنية لا الحادثة التاريخية وتعود إلى الحاضر محمّلة بالتصور الدقيق لبناء المستقبل.

فعندما يعيد الدارس قراءة التراث فإنه لا يفعل هذا لكون القراءة تمثل حقيقة شاملة ونوعية على الصعيد النفسي والاجتماعي والفكري والجمالي. فالتراث لـــه مكانة عاطفية في قيمته الذاتية لأنه أحد آليات المجابهة النفسية، وله موقع معرفي ينقله إلى قمة عالية من النمو والكمال لأنه إرث ثقافي يحمي الأمة من الذوبان في الثقافات الأخرى؛ وحين يتميز بعناصر جمالية وفنية فإنه يرفع من منزلة الذوق ويزيد في رهافة الحس للتفاعل مع الأشياء الجوهرية.

ومن يرتبط بتراثه ينبغي لـــه أن يعود إليه لا لينكفئ عليه ولكن ليرى فيه الخُصوصيّة التي يتفرد بها العربي فكراً ولغة وهوية؛ ما يجعله قادراً على التمييز بين الغث والسمين على أساس من الوعي المعرفي، والفعل الثقافي المتمتع بصفة المرونة والحرية المسؤولة.. فالتراث يقوي في العربي – كلما أعاد قراءته بمنهج علمي نقدي هادف – الالتزامَ بقضايا أمته، ويربطه في الوقت نفسه بثقافة الآخر من دون تبعية أو انحراف؛ ولا يوقعه في الانغلاق؛ بل يجعله يطور خطابه التراثي في أشكال متناسقة مع التنمية العلمية العقلية والنفسية والاجتماعية، ومن ثم إنتاج الثقافة الأصيلة المعاصرة، وفق مناهج فلسفية ونظريات علمية متخصصة ما يجعل بناء المشروع القومي أكثر عمقاً وارتقاء.

من هنا تتأكد لنا قيمة التراث وأهميته لتطوير مشروعنا القومي المعاصر، فهو أداة فعل كبرى مؤثرة تنتهي إلى صناعة التاريخ لا العيش على هامشه.

ونرى أن النمو الثقافي وازدهاره يندفع في حقول معرفية وفنية وفكرية تنطلق من التراث، ثم تتفاعل مع المعاصرة بتلقائية جوهرية تتمثل بتلاقح فكري منهجي خلاق، ما يجعل التراث منبعاً ثراً لتحقيق المشروع القومي، ولا سيما حين يتجه الفعل فيه إلى عناصر الزمان والمكان وفق المنهج المناسب الذي يجري عملية توافق وتوازن بين الماضي والحاضر. ففهم حركة الحاضر تتطلب منا أن نشكلها على حال مرضية ومفيدة لنا؛ مستندة إلى الشروط الموضوعية العلمية والمعرفية بما فيها التراث. وهذا يقيم فينا تجانساً روحياً وفكرياً واجتماعياً، ويوصل إلى الإمتاع والإفادة.

بهذا كله نصبح سادة أفعالنا وإن حوصرنا بأشكال عقيمة تاريخية أو مرجعيات غربية قاهرة؛ أو أحاطت بنا نوازع منحرفة كالأنانية والطائفية؛ أو ابتلينا بقهر فكري أو سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي. فالقضية ليست استئناساً بالتراث أو نسخاً لــه ونقلاً أو استلهاماً منه، وإنما هي مسألة تستجيب لحالة استخدامه فيما يعالج واقعنا..

ونثبت من جديد أن المثاقفة الفعَّالة بين الذات والآخر والتعامل مع الحضارة الحديثة لا يلغي الانتفاع من التراث؛ فأي أمة تحتاج إلى تاريخها في علاقتها مع الآخرين؛ ولا سيما في عصر انفتاح الحاضر على الثقافات الحديثة والفضائيات الإعلامية والتقنيات الجديدة لتحتل مكانتها على الساحة الكونية.

و"هنا تقرأ المقدمات بنتائجها والماضي بمستقبله، وما كان بما (كان سيكون) فيندمج الموضوعي مع الإيديولوجي، ويتحول (المستقبل – الماضي) الذي كانت الذات المقروءة تتطلع إليه إلى (المستقبل الآتي) الذي تجري الذات القارئة وراءه.. فيصبح المقروء المعاصر لنفسه معاصراً لقارئه"[1] وتصبح القراءة فعلاً استبطانياً يهدف لبناء الخلُق النبيل في الحياة، ويقضي على كل انحراف وزيغ وضَلال..

تلك هي إشكاليات وعي التراث؛ وهي إشكاليات فكرية نفسية اجتماعية ومنهجية؛ وهي لا تتحدد بما أنتجه التراث أو الثقافة بل بما اتسع لــه مجال

---

(1) نحن والتراث ــ ص ٢٥ -.

الفهم عند هذه الجماعة أو تلك من المثقفين أو الكتاب أو الأدباء العرب، ومن ثم تفسيره واستيعابه..

وحين تعددت إشكاليات الوعي للتراث فإنها لا تنحصر بما عُبِّر عنه؛ فقد تحتمل إشكاليات أخرى مُضَمَّنة؛ أو أنها مندمجة بغَيْرها كإشكالية التوفيق بين العقل والنقل، وهذا مما يوقعنا في أزمات وطنية وقومية كثيرة.

وما يهمنا أخيراً أن نقول: علينا ألاَّ نقطع الحوار الفكري والمنهجي بين الماضي والحاضر، وبين الحاضر والمستقبل.. فلا شيء يزيد الأمر سوءاً كغياب الحوار أو مصادرته أو قتله.. "فالتعامل مع التراث تعاملاً علمياً يجب أن يكون على مستويين: مستوى الفهم ومستوى التوظيف"[1] وهناك مستوى ثالث يتعلق باحترام ثقافة الآخر والإفادة منها دون التبعية لها أو الذوبان فيها.

وهذا يعني أن إعادة إبداع التراث والتفاعل معه يحتاج من كل فرد منا إلى مستويين اثنين على الأقل:

الأول: مستوى الإدراك والفهم العميق للأصالة والمعاصرة؛ ووعيهما وعياً شمولياً.. فإعادة إبداع التراث تحتاج إلى رصد كل ما هو قديم وجديد واستيعاب أبعادهما وإيحاءاتهما وأطوارهما؛ ومن ثم تفسيرها وتحليلها موضوعياً وذاتياً، شريطة الابتعاد عن الهوى والعصبية، وعدم توظيف ذلك في إطار الميل إلى طائفة أو فئة، أو مكان.. أو.. فالحياد والنزاهة أهم شروط التحليل. فالمثقف حر واع قادر على التكيف بمرونة مع المتغيرات التي تواجهه في الواقع، وقادر على التخلص من وهم أو مرض وقع فيه..

الثاني: فَهْم سُبُل توظيف التراث لإعادة إبداعه خدمة لمشروعنا القومي النهضوي؛ وينضبط هذا الفهم مع المنهج العلمي المعرفي الموضوعي السديد لذلك. فأي منا يمكنه أن يجري تعديلاً في مسألة أو أخرى؛ وربما يغير في طبيعتها، وفق التعبير الدقيق والصحيح الملبي لروح العصر دون أن يخل بالمعطيات التراثية.

فنحن نريد أن نبدع التراث لا أن نحطمه، أو نلغيه، أو ننقله.. ونرغب في الوقت نفسه أن يغدو فاعلاً في حل المشكلات التي تواجهنا في واقعنا؛ لا أن نزيدها تعقيداً، ونحث الخُطى إلى تحقيق مشروعنا القومي لا إعاقته وزيادته أزمة جديدة.

---

(1) نحن والتراث ــ ص ٤٧ -.

وفي إطار هذين المستويين ترتسم أمامنا ثلاثة أهداف:

١ ــ التفاعل مع التراث للوصول إلى رؤى تحل مشكلاتنا الراهنة، وبمعنى آخر نحن نطمح إلى إيجاد رؤىً نظرية قابلة للتطبيق الحقيقي في كل شأن من شؤوننا الخاصة والعامة، لا أن تبقى مجرد أفكار نظرية، تبدأ بالكلام وتنتهي عنده.. وربما تنتهي في بعض أحوالها إلى انتقائية نفعية مقيتة تتعارض والغايات النبيلة.

٢ ــ يتعزز مفهوم المشروع القومي في ضوء التراث الأصيل الذي يتأطر في البحث عن مضمون ثقافي حضاري عربي لا ينغلق على الآخر، ولا على إنتاج الفكر الحديث وتقنياته، ولا يكون تابعاً لــه ولا أسيراً لأغراضه في آن معاً.. وحين نبحث عن هذا الهدف يمكننا أن نستوعب الإيجابيات والسلبيات المتعددة في التراث والواقع ومن ثم تجاوزها.. إنه مضمون يرتقي بالفعل الثقافي الحضاري للأمة؛ ولا يضع التراث في الخندق التفاخري الوهمي وبهذا كله نقترب من تحقيق المشروع القومي.

٣ ــ إن تحقيق المشروع القومي مرهون بالبحث عن شكل عربي في الخط الفكري الثقافي الحضاري المعاصر، ينسج خيوطه بدقة وعناية، وتكون لحمته من الواقع وسُداه من التراث، ويستند إلى الشفافية والعلمية والإقناع والتأثير.. ويبتعد عن الاستلاب للآخر، أو عن النظرة الاستشراقية للتراث، وهي نظرة منحرفة ومضللة.

ذلك هو تصورنا لإشكالية وعي التراث عند المثقفين والمفكرين والأدباء والكتاب ... وذلك هو فهمنا لتبني المنهج المتوخى لإعادة إبداعه من جديد.. والتفاعل معه وتوظيفه على أحسن ما نرغب فيه لتحقيق المشروع القومي.

ومن هنا ننتقل إلى الفئة الثانية التي أسهمت في انكسار المشروع القومي.

ب ـ الفئة الثانية؛ الأنظمة والدولة القطرية:

غدت الدولة القطرية التي أسست أنظمة سياسية خاصة بها إثر معاهدة سايكس بيكو في (١٩١٦/٥/١٥) وخروج الاستعمار الأوربي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية في سنة (١٩٤٥م) أساس إخفاق المشروع القومي، بل إن بعض الأنظمة العربية الحاكمة كانت أكثر إخلاصاً لمصالحها ومنافعها المؤسسة في الدولة القطرية من إخلاصها للمشروع القومي ما جعلها لا تتوانى عن الذهاب إلى المحاكم الدولية لترسيم حدودها القطرية، أو الادّعاء بأن نظاماً عربياً آخر سلب جزءاً من أرضها؛ ولا بد لـــه من إعادتها، وإلا شنت حرباً شعواء عليه إذا كان ضعيفاً.. وغدت الاعتبارات السياسية الاقتصادية النفعية أساس تشكل الدول، ما يذكرنا بالمناطق المحمية لقبائل العصر الجاهلي؛ بل حالة تلك القبائل أفضل حالاً من حال نظام تشتت الأنظمة العربية المعاصرة؛ فالدولة الحديثة تركزت حول جملة من السياسات والنظريات الحديثة المتأثرة بالثقافة الغربية، حتى صارت الثقافة العربية ماضياً وحاضراً أسيرة لها؛ بمثل ما غدا الفكر العربي مؤطراً في تيارات فكرية معرفية وإيديولوجية ونخبوية؛ بما فيها بعض الحركات القومية؛ والاشتراكية، فضلاً عن صعود نجم البرجوازية الصغيرة على مستويات عدة. ومن ثم خضع فكر الدولة لإرادات متعالية أحادية الاتجاه تقر سيادة كل نظام على حدة.

فلما أصبحت غالبية الأنظمة العربية الحاكمة المتمسكة بدولها القطرية إنجازاً استعمارياً منذ سايكس –بيكو، ثم إنجازاً عربياً سياسياً وأمريكياً منذ سبعينيات القرن العشرين يقوم بتصريف المصالح الخاصة بتلك الأنظمة التابعة، ومن ثم حراسة المصالح الأمريكية وكل منها يسعى إلى تحقيق أكبر قدر من المنافع في عالم صارت المصلحة أساس حركته، وعلاقاته الدولية.. ولما انتهت الأمة العربية إلى تمزق نفسي داخلي، وتصدّع فكري معرفي، وتشظٍّ وجودي جغرافي، ولما انتهى الشعب العربي إلى حال الإذلال والفقر والجهل ــ وهي حال أدَّت به إلى قابلية عجيبة للخنوع والرضا ــ نقول: لما كان ذلك كذلك فإن تلك الأنظمة والعديد من المثقفين والمفكرين والساسة، قد قاموا بحركات تراجعية كثيرة لصالح الكيانات الضيقة على حساب المصلحة القومية؛ وأسرعوا جميعاً إلى السعي الجاد لمواكبة حركة التغيير التي تلبس لباس التغيير الطوعي غير الموضوعي في الوقت الذي لبست عباءة الإصلاح، ولكنها عباءة لا تنتهي

فيه إلا إلى تجزئة المجزأ وتفريغ المؤسسات العربية من مضمونها الفاعل، إذا أحسنا الظن بها، أو ابتعدنا عن فكرة المؤامرة التي تشي بأنها جزء من المخطط الاستعماري الغربي لإعاقة قيام المشروع القومي الوحدوي، أياً كانت أشكال ممارسته على الأرض العربية، ابتداء بما قام به محمد علي باشا (١١٨٤ ــ ١٢٦٥هـ/١٧٧٠ ــ ١٨٤٩م) الذي سعى إلى ضم السودان وسورية ومصر، وانتهاء بالتجارب الوحدوية المعاصرة. ولا تقل خطورة الأنظمة القطرية عن خطورة زرع الكيان الصهيوني في قلب الوطن العربي؛ ما أفقد العمل العربي المشترك قيمته الجوهرية. فالدولة القطرية ابتلعت كل العناصر المضادة لها قومية كانت أم فكرية أم سياسية؛ ولا سيما حين صار المجتمع كله يتحرك في إطار وسائل الإعلام التي تمجد رأس الهرم في الدولة، في الوقت الذي تمجّد الدولة القطرية، ما أدى إلى غياب حقيقي للمجتمع والوطن والأمة والهوية الممثلة بالعروبة. ومن ثم راحت الأنظمة العربية تؤسس لذاكرة قطرية جماعية تعزز الفردية والانعزال؛ وهي تدّعي الإصلاح الداخلي، والحرص على الانتماء الضيّق، إذا سلمنا باستقلالية قرارها من دون وجود أي أثر خارجي صهيوني أو أمريكي، وهو ما عالجه عدد من الدارسين من قبل؛ وفي معالجتهم ما يغنينا عن تكراره[1]... فهناك عدد غير قليل من الدول العربية أخذت مواقف جديدة، وشرعت توجه مناهجها وعلومها وحياتها بما يتوافق وثقافة الهيمنة الأمريكية بحجة الإصلاح، وادعاءً بالحفاظ على كرامة الأوطان والشعوب.. وكأن أرباب هذه الدول قد استجهلوا الشعب العربي الذي لم يدرك هرولتهم إلى إرضاء أمريكا التي تفردت اليوم بالهيمنة على العالم، وفي الوقت نفسه كانوا يعملون على مهادنة الصهيونية العالمية التي سخّرت أوربا من قبل لمخططاتها، ثم هاهي ذي تسخّر أمريكا والعديد من دول العالم لغاياتها التي رسمتها بروتوكولات حكماء صهيون، وتعاليم تيودور هرتزل في كتابه (الدولة اليهودية) وفي غيره أيضاً.

ولعل العديد من الأنظمة العربية الحاكمة لم تستشعر مدى الخطورة في كل ما تقوم به من فعل سياسي انفصالي جعل أوطانها تابعة مستعبدة لثقافة الهيمنة،

---

(1)انظر مثلاً كتاب (نظام الطائفية: من الدولة إلى القبيلة) برهان غليون ــ المركز الثقافي العربي ــ بيروت ــ ١٩٩٠م. وكتاب (النزاعات الأهلية العربية) ــ مركز دراسات الوحدة العربية ــ بيروت ــ ١٩٩٧م ولا سيما بحث محمد جابر الأنصاري (إشكالية التكوين المجتمعي العربي: أقليات أم أكثرية متعددة) وندوة مشروع النهضة العربية ١/١٥٥ ــ ١٥٩.

ولأهداف الصهيونية العالمية ومعادية لكل مشروع قومي. وكأني بهم لا يدركون أن الوطنية والقومية تختلفان عن المشاريع السياسية القطرية التي تشتمل فيما تشتمل عليه على التبعية والعمالة والضعف في وجه الخارج والاستبداد والقهر والإلغاء للداخل الوطني، لأنه لا همَّ لأصحاب السلطة فيها إلا الحفاظ على مصالحهم الخاصة. لهذا فإن لم يسرعوا في إصدار الآليات المغيّرة للمفاهيم القومية والتراثية البالية ــ كما زعموا ــ فإن ولاءهم لأسيادهم سيغدو مشكوكاً فيه. ولعل هذا كله قد أدى إلى تنازلات كثيرة وابتزازات متنوعة، أياً كانت تجربة تلك الأنظمة ومفاهيمها قومية، أم إسلامية؛ أم اشتراكية.

وفي ضوء ذلك كله لم تعد تملك تلك الأنظمة القدرة على التصدي للمشروع الأوربي / الأمريكي ــ الصهيوني.. فالتجربة التاريخية للأمة العربية أثبتت أن أي دولة عربية لم تكن قادرة على مواجهة المشروع الصهيوني، أو مخططات الطامعين بها، وليست العراق ببعيدة عنا اليوم والتي كانت تملك جيشاً قوياً عُدَّ الرابع بين الجيوش العالمية، لكن الآلة الأمريكية ــ البريطانية المتوحشة سحقته تحت سمع حكومات الوطن العربي وبصرها.

ولسنا الآن في صدد الحديث عن سلبية الأنظمة العربية التي لم تتذكر المثل المشهور، : أُكِلْتُ يوم أكل الثور الأبيض، ولكننا في صدد بيان أن المشروع الصهيوني ــ الأمريكي ما يزال حريصاً على بقاء الأمة العربية مجزأة، مستفيداً من قابلية الضعف والأنانية والانتهازية التي تتحكم بكثير من الأنظمة.

وفي هذا الإطار كنا نرى نمطين بارزين من الحكومات العربية على نحو ما:

أ ــ حكومات عسكرية مثلت الانفصال والإقطاع بشكل جديد ومؤذ أكثر مما كانت عليه الحكومات البرجوازية الإقطاعية التي سبقتها. فحين تحولت الحكومات العسكرية إلى نُخب سياسية واقتصادية فإنها حلت محلَّ الطبقة الوسطى التي قُضي عليها شيئاً فشيئاً؛ ثم تحولت الحكومات العسكرية تحولاً آخر حين حلّت محلَّ الطبقة البرجوازية التي ربطت مصالحها بمصالح البرجوازية الغربية. ولهذا لم تستطع أن توفق بين الوطني والقومي من خلال الأساس الاجتماعي؛ ومن ثم لم تستطع أن تخلق حالة من التوازن الاقتصادي والاجتماعي والثقافي... فالعلاقات العشائرية والإقطاعية والطائفية والمذهبية أطلت برأسها من جديد وبشكل مرضي وخطير في منتصف القرن العشرين، ثم نمت علاقات طفيلية وبيروقراطية

أسهمت في إجهاض النهوض القومي بعد أن أجهضت التنمية الوطنية. ولا يشبهها في هذا المقام إلا الحكومات البرجوازية التي ورثت الحكم من الانتداب الأوربي أياً كان النظام السياسي في البلاد العربية.

ب ــ حكومات الإقطاع والنفط والدولار، وهي حكومات تابعة لشركات الاحتكار ورأس المال الداخلي والخارجي. ولم تستطع هذه الحكومات أن تخلق التجانس الاجتماعي والاقتصادي بين أبناء البلد الواحد، إذ زادت الأموال والرساميل في أيدي طبقات دون طبقات. وحين تراكمت المسؤولية الوطنية الاجتماعية أمام الحكومات البرجوازية النفطية كانت الهوة تتسع بينها وبين الجماهير العربية مثل التباين مع الحكومات العربية. فإذا آمنا بتلاشي مثل هذه الحكومات البرجوازية العربية في القرن العشرين فإننا نؤمن بأن الأفكار التي أنشأتها ما زالت راسخة في الوسط الاجتماعي والاقتصادي، ومدعومة من قبل الشركات الكبرى ما جعلها تؤدي إلى بلبلة معرفية وخلقية في المشهد الاجتماعي القومي.

ثم أخذت غالبية الأنظمة العربية المبتلاة بالمرض القطري تروّج لكل ما هو قادم من الغرب والشرق وتزعم أنها تتنافس في عملية الإصلاح والتحديث بيد أنها سخرت كل ما لديها من تقنيات وإعلام وأساليب لإجراء عملية تغيير تربوية وعلمية وثقافية للتخلي عن كثير من المفاهيم التي صاغتها بنفسها ذات يوم؛ أو لتحريف كثير من المفاهيم التي آمنت بها وتزييف جوهرها بعد أن أصبحت النفوس والعقول مسلوبة الإرادة والثقافة الحرة والمستقلة.. لهذا نراها تغير جلدها في كل وقت وحين لإيهام الشعب العربي بما تقوم به، ولا تخدع إلا نفسها. ولعل تقرير التنمية العربية لعام (٢٠٠٣م) ــ والذي تصدره الأمم المتحدة سنوياً ــ يؤكد عجز هذه الأنظمة عن القيام بأي إصلاح مثمر، لأن الناتج المحلي لاثنتين وعشرين دولة عربية، والتي يبلغ سكانها نحو (٣٠٠) مليون يكاد يصل إلى (٥٣١) مليار دولار، وهو دون ما وصلت إليه دولة أوربية كإسبانيا ــ مثلاً ــ. وكل من يتعرض للتقرير بالتحليل يدرك مدى الفجوة المعرفية بين العرب والدول المتقدمة. ولا شيء أدل على هذا من الكتب التي ينتجها الوطن العربي؛ إذ لا يتجاوز عددها ١,١% من الإنتاج العالمي، علماً أن العرب يشكلون نحو ٥% من سكان العالم.

ويرى التقرير أن الأنظمة العربية ليست إلا أنظمة سياسية تأصلت فيها نزعات استبدادية متخلفة وبالية.

ومن ثم فما تسمعه آذان الشعوب من صيحات التغيير والإصلاح إنما هي صيحات مزيفة لم تخدع الشعوب، لأنها ليست مصابة بالصمم، وكذلك عيونها لم تبتلَ بالعمى لرؤية عظمة التزييف والإلغاء الذي يكتب على صفحات الصحف والمجلات، وفي بطون كتب عديدة و.. فإذا استطاعت الثقافة الأمريكية الجديدة أن تصل إلى شيء من أهدافها؛ حين أخذ بعض العرب على عاتقهم قلب الطاولة على رؤوسهم، وهم فرحون ما داموا ينعمون بالطعام والشراب، فإن هذا لن يطول أو يستمر.

ونتساءل ما الضَّيْر في أن يتخلى هؤلاء الحكام عن الهوية العربية والمقاومة والتراث وكل قيم الخير والفضيلة ما دام ذلك يبقيهم في مواقعهم؟.

حقاً إن ثقافة التغيير الحاملة لفلسفة القوى الخارجية لم تنتج لدى عقول بعض الأنظمة العربية ومثقفيها إلا مزيداً من البلبلة في فهم الهوية؛ ومزيداً من تبعية حكامها؛ وعجزاً في عملية الارتقاء الإنساني لفهم حقيقة الوجود وسيرورة التاريخ وهي في كل ما فعلته إنما عمّقت الهوة بينها وبين مواطنيها؛ في الوقت الذي جعلتهم يتمسكون بهويتهم العربية تمسكاً لا نظير لـــه.

لهذا كله فإن قابلية عقول بعض الأنظمة لتغيير طوعي للمفاهيم التي آمنت بها؛ باعتبار ما رُبيّت عليه من قابلية الرضا بالأمر الواقع، والحرص على وجود سلطوي يحفظ لها مصالحها، أو لتغيير قسري قاس مُغمَس بالقهر والعبودية جعلها تغلّف دعواتها إلى التغيير على مختلف الصّعد تحت مبادئ المصالح الوطنية والقومية. أما قابلية الشعب العربي للرضا بكل ما يروّج لـــه فهي حال مؤقتة وزائلة، على اعتبار أنه مدرك لما يجري حوله، وإن كان غير قادر اليوم على تغييره، ولكن المستقبل له.

ونرى أن ذلك كله أثر في الحسِّ القومي لدى كثير من المسؤولين في الحكومات، إذا أحسنا الظن بأنهم ضعاف جبناء؛ ومن ثم قوي مفهوم الدولة القطرية على حساب مفهوم الأمة، ومفهوم الانتماء الوطني على حساب مفهوم الانتماء القومي؛ بما فيها بعض الدول التي تغلب المفهوم القومي على المفهوم الوطني؛ إذ أخذت تظهر دعوات إقليمية واضحة المعالم، على لسان العديد من أبنائها بعد أن كان محرماً عليهم مثل ذلك؛ ثم بدأت ألسنتهم تنعت القوميين بـــ (القومجيين) أو بدأت تعلن وفاة العروبة.

فهذه الحكومات وتلك الأنظمة التي رهنت إرادتها للغرب والشركات كانت وراء الأزمات الكبرى التي شهدها المشروع القومي؛ سواء أكان ذلك في

انفصال وحدة (١٩٥٨م) بين سورية ومصر، أم في التجارب الوحدوية التي كانت تبدأ بحماسة بعض القوميين ثم تنتهي قبل أن ترى النور بعد أن يُسَوَّغ للقضاء عليها بالحجج القومية ــ أيضاً ــ كما حدث لتجربة المشروع القومي بين سورية والعراق سنة ١٩٦٨. إذاً؛ وقع هنا وهناك إخفاق للتجارب الوحدوية كما حدث اختلاف كبير حول القضايا الكبرى للعرب؛ لأن المفهوم السياسي القطري ما زال يسيطر على المفهوم القومي.

ولا شيء أدل على انكسار المشروع القومي الشمولي لدى الأنظمة مما تشهده القضية الفلسطينية منذ وجودها حتى اليوم. فقد تنصّل كثير من الأنظمة مما يستوجبه عليها حق الدفاع عن الشعب العربي الفلسطيني بعد أن جرّدت هذه الأنظمة شعوبها من أي قوة ذاتية، وزرعت في نفوسها قابلية الضعف والعجز والخنوع، إذ تنامت لديها عوامل الإحباط واليأس سياسياً واقتصادياً وثقافياً واجتماعيا؛ وصار كل ما يقال على الألسنة هنا أو هناك بشأن الهوية العربية أو القومية العربية لا يساوي قيمة الحبر الذي يكتب عنها. ولهذا كله فالدولة القطرية تعبر عن الأنظمة الانفصالية وكلاهما شر كبير على الدولة القومية.

ومن هنا يتبادر إلى ذهننا التفريق بين الدولة القطرية والدولة الوطنية فالدولة القطرية انعزالية منغلقة على ذاتها ومصالح حكامها، فهي عاجزة عن الدفاع عن أراضيها، ومؤسسة لنظام سياسي مستبد وانفصالي، أما الدولة الوطنية فهي جزء مؤسس للدولة القومية، باعتبار أبنائها جزءاً لا يتجزأ من الشعب العربي، وهي دولة ديمقراطية ــ بالضرورة ــ تبنى على أساس التوافق الاجتماعي والثقافي المتنوع وتسعى إلى تحقيق الشروط الموضوعية للاندماج مع كل ما هو قومي. فإذا كان واقع العرب اليوم واقعاً قطرياً محكوماً بالعديد من الشروط الخارجة المسيطرة على إرادة الجماهير العربية، وبعض الحكومات الوطنية القومية؛ فلا يعني أن يصبح النظام السياسي القطري بديلاً عن النظام الوطني القومي، ما يفرض الواجب القومي على النظام الوطني أن يجري عمليات تحول كبرى لكثير من الاتجاهات الداخلية سياسياً وفكرياً واجتماعياً واقتصادياً، لكي تنتقل نحو الفضاء القومي، على اعتبار أن العرب؛ في كل المفاهيم الفلسفية الحديثة للأمم يشكلون أمة متكاملة، تستند إلى خصوصية

متفردة[1]. ومن هنا نرى أن هناك تكاملاً بين الوطني والقومي كما يثبته الواقع التاريخي والذاتي للأمة العربية. ويمكن للقومي أن يتأسس على الوطني، لقول الرسول الكريم: " خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي"[2] ولقوله تعالى: " أنذر عشيرتك الأقربين" (الشعراء ٢٦/ ٢١٤)؛ على اعتبار أن الأمة مجموعة من الأفراد القوميين وإن انتموا إلى دول صغيرة. ولهذا فالوطني ينبغي أن يؤسس للقومي؛ لا أن يكون بديلاً لــه. وقد قال الشاعر:

أصابع كف المرء في العدِّ خمسة ولكنها في مقبض السيف واحد

فالمشروع القومي الحضاري يتأسس وفق منهج يصوغ الوطني في إطار القومي من خلال تفاعل وتعاون تكاملي يعضد بعضه بعضاً للوصول إلى الوحدة العربية دون أن يكون هناك تنازع على الولاء بين ما هو وطني وما هو قومي.

وبهذا يصبح العرب قوة واحدة تنهض بالمشروع القومي الذي يقف قلعة صامدة في وجه المخطط الصهيوني ــ الأمريكي الذي يعمل على ابتلاع الوطن العربي كله في إطار مشروع الشرق الأوسط الكبير، ومن ثم لا مكان لهذا المشروع إذا توحدت الأمة العربية ونهضت بمشروعها القومي التقدمي.

---

(١) انظر إشكاليات الفكر العربي المعاصر ــ محمد عابد الجابري ــ مركز دراسات الوحدة العربية ــ بيروت ــ ط٤ ــ ٢٠٠٠م ــ ص ٩٧ ــ ٩٨.

(2) الجامع الصغير ١/٥٥٥ حديث رقم ٤١٠٠.

ج ـ الفئة الثالثة؛ الأحزاب:

تبين لنا مما تقدم أنه قد تشكَّل لدينا انتماء قطري وهويات ثقافية منعزلة نتيجة للتشتت الفكري حول المفهوم القومي بسبب الأنظمة والدولة القطرية ولعل تجربة الأحزاب القومية في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين أفضل مثال على ذلك كله؛ وإن آمن أكثرها بالانتماء إلى العروبة، ولكنه انتماء ــ وللأسف ــ ظل ذا مضمون سياسي إيديولوجي أكثر مما هو ذو مضمون اقتصادي ثقافي اجتماعي، وبخاصة حين لبس أعداد من الأحزاب إيديولوجيات متضادة، منها ما هو قومي ليبرالي؛ ومنها ما هو قومي إسلامي؛ ومنها ما هو قومي ماركسي؛ فضلاً عن العداء الذي حصل بين العديد من الأحزاب القومية والحركات القومية، كما حدث بين حزب البعث قبل سنة (١٩٧٠م) والحركة الناصرية؛ أو كما وقع بين جناحي البعث في سورية والعراق.

وحين ازدادت أزمة الأحزاب القومية بعد حرب (١٩٦٧م) فإن تشتتها وتصارعها أسهم إسهاماً فعَّالاً في إخفاق المشروع القومي. ثم عمّقت الأحزاب هذه الأزمة حين صار كل حزب فرحاً بما لديه، وصار الدفاع عن الحزب دفاعاً عن مبادئه ووجوده، فبناء الكوادر وتربيتها إنما يتم لحساب الحزب ومفاهيمه قبل غيرها. وهكذا أصبح النظام الحزبي وما يزال نظاماً قبلياً أو لنقل نظام مشيخة يأمر الأتباع والأفراد فيه بالانصياع الكامل لرئيس الحزب/الشيخ ــ أو سيد القبيلة، فيطاع دون إبداء أي رأي مخالف؛ ما أدى إلى انكسار المشروع القومي. فالأحزاب التي تزعم أنها تبني مفاهيم القومية العربية من خلال بنيتها الخاصة فقط كانت وراء أزمات المشروع القومي؛ ولا سيما حين جعلت الانتماء إلى الحزب أساس الانتماء الصحيح إلى الوطن ثم الأمة. وهذا ما كان يتمثل من قبل في الدعوات العشائرية والطائفية و المذهبية؛ فالولاء للعشيرة أو للطائفة أو المذهب يعدُّ الأصل، وهو يتقدم على الولاء للوطن والأمة.

ولعل الإحصائية السريعة للأحزاب المنتشرة في الوطن العربي، الموجودة في السلطة تبرز لكل مُمْعن في قراءة أفكارها ومبادئها، وحجمها وأعدادها أنها توافقت على إخضاع والتنمية الوطنية والقومية لتوجهاتها ومبادئها وخدمة أفرادها، وإن تفاوتت النسب في ذلك. فموقف حزب اليمين المتطرف ومبادئه أصبحت مشابهة في هذا المنهج والهدف لموقف الحزب اليساري المتطرف، أو لموقف حزب الطبقة العاملة أو الكادحة أو الحزب الإقطاعي، أو البرجوازي. ويؤكد هذا كله أن ما من حزب تمكن من السلطة إلا سعى إلى استغلال الجماهير الشعبية لصالحه، وتأسيس التنمية السياسية والثقافية والاجتماعية وفق أهدافه ومبادئه، وقد يجسّد هذا كله الخطر الأكبر على المشروع القومي؛

لأن اتجاه هذا الحزب أو ذاك في ممارسة سلطته غدا جزءاً أصيلاً من بنية الأهداف التي يتماهى فيها والوظائف العملية التي ينجزها. وهذا ما جعله محكوماً بإجراءاته الداخلية المشتبكة ببنيته التنظيمية ولهذا كان يتشبث بواقعه هو قبل تشبثه بالواقع الوطني؛ أو القومي وجعل المثقفين أسرى لآلياتها على حين ينبغي على المثقفين أن يرتقوا بالفكر السياسي وتطويره لا أن يصبحوا مجرد أدوات لـــه.

فالأحزاب بكل أشكالها سواء كانت في السلطة أم خارجها، ووفق المسار التاريخي لوجودها؛ شكلت العقل العربي في إطار نخبوي احتكاري أدى إلى غياب الوعي المعرفي الجماعي المبني على أساس حر وديمقراطي؛ إذ تغلّبت ثقافة الحزب على ثقافة الوطن بكل تياراته؛ ثم غلبت ثقافة الفرد على ثقافة الجماعة، وثقافة النظام على ثقافة الوطن، وثقافة الدولة على ثقافة الأمة.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن عدداً من الأحزاب الوطنية والقومية التي نهلت أفكارها ومبادئها من فلسفة الغرب وثقافته قد أطَّرت كل ما انتهى إليها بنظريات شمولية وخاصة بها عندما وصلت إلى الحكم. ولم تستجب للمتغيرات الداخلية والقومية بالشكل الذي يؤهلها لتبني برامج وسياسات تحقق المتطلبات الأساسية لأكبر شريحة من المجتمع، إذا استثنينا بعض الأحزاب القليلة.. وقد كانت دوائر الغرب بكل أشكالها راضية بذلك بادئ ذي بدء، إن لم تكن قد شجعتها على ذلك. ولمّا وقفت بعض الأحزاب العربية في وجه مشاريع الغرب انقض ساسته وقادته وأتباعهم في الداخل والخارج ليحاكموا هذا الحزب أو ذاك مستغلين الأخطاء التي وقع فيها حين مارس السلطة، ولا سيما تلك التي ظن الحزب فيها أنه بديل عن الدولة، أو الوطن، أو الأمة؛ وليست مصلحته إلا مصلحتها.وبهذا وقع في منزلق خطير؛ حين ألغى وجود الآخر لحسابه الخاص. وبمعنى آخر نقول: إن بعض الأحزاب التي اتصفت بالمرونة والقدرة على إنجاز المشروع القومي ابتليت هي الأخرى بالجمود البطيء؛ ووقعت في مطب الأهداف المحلية التي تلبي وظائف دون وظائف. ومن ثم دخلها غير قليل من الخلل حين انضم إليها كثير من الانتهازيين والنفعيين ما جعلها تحتكر الوطن لحسابها؛ ولا سيما حين مارست نوعاً من الديمقراطية الملبية لأهدفها على حين كان بإمكان هذه الأحزاب توسيع الديمقراطية وتأطيرها بأشكال شفّافة بعيدة عن الامتيازات الذاتية. فالديمقراطية الحزبية التي تثبت مبدأ المواطنة المتساوية في الحقوق والواجبات كانت كفيلة لنجاح أي حزب وطني وقومي واستمراره ما دام يأخذ بالحسبان مصلحة أبناء أفراده التي تعدُّ جزءاً من مصلحة الوطن والأمة.

وبهذا الفهم يصبح الحزب كياناً وطنياً وشعبياً وقومياً متفاعلاً مع المتغيرات الطارئة من حوله داخلياً وخارجياً، وتصبح عروبته عروبة وطنية لا تتناقض مع تعددية الأحزاب في القطر الواحد أو في الأقطار المنتمية إلى العروبة.

أما الذي جرى فقد تمركز الحزب السلطوي حول ذاته؛ ما أدى به إلى الوقوع في حالة من القمع والاستبداد للآخر مستغلاً قدرات الدولة التي يسيطر على مقدراتها لصالحه دون غيره. وبكلام آخر إنه نسف جوهر الوطنية والقومية حين ربى الناس على الطاعة العمياء؛ ولعل هذا المنهج هو الذي يتجلى بالنظام العالمي الجديد.

وهنا نتساءل: أليس حكم الحزب الواحد يشبه في منهجه حكم الكون من مركز واحد هو واشنطن، ومحاولة السيطرة على الثقافات القومية والإنسانية لجعلها تابعة لثقافة المركز لتصبح أنموذجاً صارخاً من الاستبداد وإلغاء الآخر الذي يتمثل بالشعوب والأمم؟ ألم يضع الاستعمار ثم العولمة نفسيهما مكان العديد من الأوطان والدول والشعوب؟ أليس هذا كله أعظم شراً على البشرية والأوطان من تلك الأفعال التي قامت بها الأحزاب القومية؟.

وفي ضوء ذلك كله نقول: لم تستطع الأحزاب أن تخرج المجتمع العربي من التخلف السياسي والثقافي، بل قادت نفسها إلى مزيد من الاختلاف مع غيرها؛ وهو ما قادها أحياناً إلى الشتائم والسباب فيما بينها دون أن تجري بينها حوارات جادة، وموضوعية؛ في الوقت الذي كان على كل حزب إيديولوجي أن يتبنى ترسيخ المفهوم الوظيفي للمشروع القومي في مبادئه وفق تكامل موضوعي بين العناصر المادية للهوية الواحدة لإنتاج نظرية قومية متكاملة بعيدة عن الهوى السياسي.

فالصورة المطلوبة للأحزاب العربية الوطنية والقومية تستوجب عليها تحويل أفكارها وبرامجها إلى مشاريع وطنية ثم قومية، وأن تتخلص من حالة التجمع الائتلافي المتوافق حول بعض الأساسيات، فالمستقبل المتوخى للأحزاب أن تتحول إلى نتاج ثقافة المشاركة، ومواجهة مشكلات الواقع بكل كفاءة واقتدار، والسرعة في التفاعل مع المتغيرات في الوقت الملائم، والابتعاد عن النمطية المقلدة والمكررة، والإيمان المطلق بالديمقراطية التي تتحلى بالتسامح واحترام الآخر على قاعدة العدل والمساواة. وعلى كل حزب أن يدخل في برنامج تصحيح ذاتي للاندماج في الأحزاب القومية شيئاً فشيئاً، بدل أن تتزايد الأحزاب عدداً، فكلما ازدادت عددها انتهت إلى التباين وغدت بعكس ما يذهب إليه بعض المنظرين لها. ظاهرة مرضية تزيد من تفسخ المشروع القومي.

وبناء على ما تقدم يمكن لأي حزب التخلص من النظرة التقليدية لمشروع الوحدة العربية من خلال رؤيته الذاتية والموضوعية، وإلا فإنه لن يكون أفضل حالاً من أرباب الدعوات الإقليمية التي ظهرت منذ وقت مبكر.

د ـ الفئة الرابعة؛ أرباب الدعوات الإقليمية:

لعل إخفاق التيارات القومية قوّى الميل لدى عدد من المفكرين والمثقفين إلى تبني مفاهيم الحدود الإقليمية الضيقة لانتمائهم؛ سواء أكان هذا داخل الكيان القطري أم داخل كيان أكثر ضيقاً في الحدود.

وكنا قد أشرنا من قبل إلى ما تبناه طه حسين، حين نزع نزوعاً قطرياً في دعوته المصريين إلى اللحاق بالأوربيين؛ بيد أنه لم يكن نزوعاً انفصالياً إقليمياً كما شهدناه عند عدد غير قليل من المثقفين الذين دعوا صراحة إلى الإقليمية باعتبارها رداً حقيقياً على مفهوم القومية وهويتها العربية.

وهذا يؤكد لكل ذي عقل أن المسألة عند أرباب الدعوات الإقليمية لم تكن مجرد استيراد ثقافة الغرب ومناهجه، وإنما كانت عندهم تأكيداً لهوية إقليمية لا علاقة لها بالهوية القومية. ما جعلها تلتقي مع الأهداف التي وجدت من أجلها الدولة القطرية بكل أشكالها، أو مع أهداف الأحزاب السلطوية التي تؤكد ذاتها على حساب الآخر.

وكانت الدعوات الإقليمية قد نشأت في بداية القرن التاسع عشر والعشرين وتجلّت بأشكال مختلفة على صعيد الدعوات الفردية والحزبية كما نجده في الرؤية الفكرية لبعض الأحزاب. وما زالت مستمرة لدى أصحاب الدعوة إلى الفينيقية في لبنان أو الفرعونية في مصر، أو الأمازيغية في المغرب؛ بل تعدى الأمر إلى أكثر من ذلك ففي داخل المغرب العربي هناك من ينادي بالأمة التونسية. ولعل البشير بن سلامة من أبرز الكتاب الذين دعوا إلى ذلك في كتابه (الشخصية التونسية). وفيه ربط بين مفهومي الدولة والأمة فقال:

" فكأن مفهوم الدولة لم يتم ولم يكتمل في هذه البلاد إلا عندما اكتمل مفهوم الأمة" [1].

ونحن لا ننكر وجود الإثنية الممثلة بالوطنية الذاتية لسورية أو مصر أو السودان أو المغرب أو السعودية، وبالقومية الممثلة بالعروبة والإسلام الجامعة لهذه الأقطار الوطنية ولكننا ننكر أن يجري الحديث على العروبة بهذه

(1) الشخصية التونسية ص ٥٧ــ مؤسسة بن عبد الله ــ تونس ــ ١٩٧٤م.

الاتجاهات المنحرفة والضَّالة والمزيفة للتاريخ والمصير المشترك بين أبناء الشعب العربي الواحد. فإذا كانت الهوية الوطنية لأي أمة تواجه تحدياً خارجياً ضاَغطاً بأشكال شتى كالعولمة الأمريكية وأمثالها؛ تحدياً يسعى إلى تغيير قسري ينتهي إلى حال تزييف كبرى بحق العروبة ثم إلغائها؛ فإن ما يجري في الداخل العربي من أبناء الأقطار العربية أشد مرارة مما يجري من قبل العولمة الخارجية وقد نسوا أن الهوية ــ وفق ما عرفها ألكس ميكشيللي ــ "مركب من العناصر المرجعية المادية والاجتماعية، والذاتية المصطفاة التي تسمح بتعريف خاص للفاعل الاجتماعي"(1). وهذا أكثر انطباقاً على الهوية العربية من غيرها، أياً كانت الانتماءات الضيقة فيها.

ولم يقتصر الأمر على ما تقدم فقد أخذت تظهر أشكال ممزقة أخرى تتمثل في الكيانات الطائفية والمذهبية ما يجعل مفهوم الأمن القومي معدوماً. وكانت هذه الأشكال تستند إلى منهجيات دقيقة وفلسفات مثيرة في صميم العداء للعروبة، مثل تقويض الحريات والديمقراطية.

وهذا ما نراه واضحاً ــ اليوم ــ في لبنان والعراق، فهناك العديد من أبنائهما يدعون إلى تكوين كيانات مستقلة على أساس عرقي أو مذهبي. ثم أخذت هذه الدعوات تتحقق على نحو ما ــ وبفعل غربي أمريكي ــ كما تبناه الدستور العراقي، وهو الأمر نفسه الذي يسعى إليه وليد جنبلاط بإقامة كيان لــه في جنوب لبنان وسورية مستفيداً من التناقضات التي تجري في المنطقة والمحكومة بالمتغيرات الدولية التي تقودها أمريكا. فوليد جنبلاط حينما يزعزع الثوابت القومية في إطار تبعيته لأفكار شاذة تجعل لبنان يدور في فلك الأحلاف الأوربية ــ الأمريكية؛ إنما يسعى في الوقت نفسه إلى تفتيت الوحدة الوطنية الداخلية القائمة على أساس التوافق بين الطوائف؛ وهو توافق نشأ عليه لبنان منذ الاستقلال سنة ١٩٤٣م. وهو بهذا الفعل يذكرنا بما فعله كميل شمعون الذي انحرف سنة (١٩٥٨م) عن الثوابت الوطنية؛ إذ اتجه إلى مشروع آيزنهاور وحلف بغداد.

فهو يتقوقع على عوالم خاصة به يراها تحصّن موقعه في حالة الفرز الطائفي الذي لا يستند إلى الموضوعية والعلمية. ومن ثم تراه يوهم الآخرين

---

(1) الهوية ــ ألكس ميكشيللي ــ ترجمة علي واصف ــ دار الوسيم ــ دمشق ــ ١٩٩٣م ص ١٦٩.

بتبنيه للعروبة مذهباً ومنهجاً، ولكنه في الحقيقة يتجه إلى تدويل الأزمة اللبنانية مستفيداً من الضغوط الدولية والأمريكية على سورية.

وفي هذا المقام لا ننسى الحملة المحمومة لأمريكا والصهيونية في تضخيم الأنا القطرية والطائفية في لبنان والعراق وبعض الأقطار العربية.

فأمريكا تكمل اليوم ما قام به الاستعمار الأوربي؛ إذ تعمد بكل ما تملكه من قوة عسكرية وإعلامية وتقنية واقتصادية إلى تعزيز الهويات القطرية والطائفية والمذهبية والعرقية للقضاء على كل ما هو عربي وقومي. وتستعمل لذلك كله سلاح (الإرهاب) الذي جعلته مادتها المثلى لقمع كل أشكال التحرر الوطني والقومي.

وليس هناك باحث في شؤون المشروع القومي ــ حين يتحدث عن أرباب الدعوات الإقليمية الضيقة ــ يمكن أن يتغافل عن الدعوات الكردية في شمال العراق وشمال شرق سورية للانفصال عنهما؛ وتكوين دولة كردية لا علاقة لها بالهوية العربية.

ولمّا كانت التوازنات الدولية ــ حتى اليوم ــ تأخذ بالحسبان موقف تركيا وإيران من الدعوات الكردية لإنشاء دولتهم كانت هذه التوازنات تضرب بآمال المشروع القومي عرض الحائط. ولعل الغزو الأمريكي ــ البريطاني الصهيوني للعراق لم ينتج ــ في هذا الشأن ــ إلا دستوراً مزق العراق طائفياً وعرقياً، وهو يتماشى والتطلعات الكردية للانفصال عن جسم الدولة العراقية، ثم الهوية العربية.

ولعل الممارسة الحقيقية لمشروع الشرق الأوسط الكبير في تمزيق المشروع القومي قد بدأت بحرب الخليج سنة (١٩٩١م). وهو مشروع يعنى بالكيان الصهيوني لتثبيت سيطرته على المنطقة بمثل ما يعنى بالقضاء على الهوية العربية حين يدعم القضية الكردية، والأمازيغية، وكل الحركات التي تناقض المشروع القومي إذ غدا من المسلم به لدى القاصي والداني عمق الصلات بين الكيان الصهيوني وزعامات الأكراد في شمال العراق، على اعتبار أن كردستان العراق تعد أحسن مكان ينفتح على عدد من الدول (تركيا ــ إيران ــ سورية ــ العراق) وهو قريب من بلدان أخرى غنية بالموارد، علماً أن التغلغل الصهيوني في العراق كله أصبح حقيقة مؤكدة([1]).

([1]) انظر الاختراق الصهيوني للعراق ــ الدكتور خالد الناشف ــ اتحاد الكتاب العرب ــ ٢٠٠٥م.

ولسنا الآن في صدد الحديث عن الأسباب التي جعلت الكيان الصهيوني يعنى بالمسألة الكردية؛ إذ تناولتها كتب عديدة، ولكننا في ضوء إبراز ما انتهت إليه الدعوة الكردية الإقليمية الانفصالية؛ فقد وقفت جنباً إلى جنب مع المشروع الصهيوني للقضاء على المشروع القومي. وكان شلومو أفينيدي ــ أستاذ العلوم السياسية في الجامعة العبرية ــ قد كتب مقالاً يدعو فيه إلى إنشاء دولة كردية في الشمال، وأخرى في الوسط حول بغداد، وثالثة شيعية في الجنوب، وتقسيم العراق على غرار ما قسّم الاتحاد السوفييتي[١].

لهذا كله يرى أرباب الدعوات الإقليمية الضيقة أن الوحدة العربية ليست إلا وهماً، وحلماً بعيد المنال ومن ثم طفقوا يروجون لعدمية القومية واستحالتها، ويرون أن الدولة القطرية هي القابلة للحياة، ويمكن لهذه الدولة أن تتخذ من لغتها العامية لغة لها بدلاً من العربية الفصحى التي يزعم القوميون أن العرب لا يستغنون عنها، ويستدلون على موقفهم بما جرى في أوربا...[٢]

ولا عجب بعد هذا أن يظهر في ديار العرب مثقفون يزعمون أن مفهوم الهوية العربية ليس إلا مفهوماً سكونياً؛ بل "إن الهوية وَهْم ينسجه السياسيون لكي تتماسك به الحقيقة المفككة"[٣].

ولعل من السخف بمكان ماروّج بعض المثقفين المعادين لفكرة العروبة، حين أعلنوا نهاية العروبة ووفاتها ومشوا في جنازتها، وأن المثقفين القوميين قد ضُلِّلوا، وهاهم يتوبون عن العروبة، بعد إعلان نهايتها ووفاتها. وفي هذا المجال كتب فؤاد العجمي مقاله الشهير(نهاية العروبة) وقال فيه: "ثمة فكرة سيطرت على الوعي السياسي للعرب المعاصرين تقترب الآن من نهايتها إذا لم تكن أصبحت بالفعل من مخلفات الماضي، وتلك هي أسطورة العروبة"[٤]. ويذهب إلى هذا الموقف حازم صاغية في كتابه الذي سماه (وداع العروبة) الصادر عام ٢٠٠٠م) إذ قال: "إن شعار الوحدة العربية بات من المنسيات، ولم يعد أحد يسمع به منذ زمن؛ منذ تحولت العروبة إلى جثة هامدة وماتت مع الأموات، فمن مات مات، وما فات فات والمطلوب من العاقل والعقلاني أن

---

(1) الاختراق الصهيوني للعراق ص ١٠٨.

(2) سوف ينهض القسم الخاص بالهوية العربية وثقافة العولمة بذلك كله.

(3) هوامش على موضوع الحرية ــ د. علي عقلة عرسان ــ جريدة الأسبوع الأدبي ــ كلمة أولى ــ اتحاد الكتاب العرب ــ دمشق ــ عدد ٩٥٨ ــ السبت ٢١ /٥/ ٢٠٠٥م.

(4) جريدة البعث ــ العدد ــ ١٢٩٢٢ ــ الثلاثاء ٢٠٠٦/٧/١١م وانظر الصفحة ١١٤ ــ حاشية.

يسارع بإعلان وفاة العروبة التي لا تزيد عن كونها وهماً أيديولوجياً منفوخاً لا يتورع عن الاستبداد بقصد الضم والتكبير"[١].

وفي ضوء ما تقدم فإن هذا الاختلاف في الرؤى قد أدَّى إلى الاختلاف في الآليات والخلط بين الفكر السياسي والنظام السياسي، فضلاً عن الاختلاف حول المهم والأهم في العناصر التي تجمع أبناء العروبة: هل الوحدة قبل الحرية أو العكس؟.

ولعل ما تقدم كله ينقلنا إلى الفصل الثاني الذي يتناول الأسباب الخارجية التي أعاقت تحقيق المشروع القومي.

([1]) المرجع السابق نفسه.

الفصل الثاني

الأسباب الخارجية لانكسار المشروع القومي

تقديم ــ رأي ورؤية

ــ القسم الأول: الاستشراق الاستعماري والعولمة.

ــ القسم الثاني: الهوية العربية وثقافة العولمة.

ــ القسم الثالث: هوية المصطلح وثقافة التغيير ــ ***قراءة في مفاهيم عربية:***

أولاً ــ أثر العولمة في تشتت المفاهيم.

ثانياً ــ ماهية المصطلح وطبيعته.

ثالثاً ــ مجالات المصطلح وآلياته.

رابعاً ــ توظيف الحقول الدلالية للمصطلح.

خامساً ــ أبعاد وتوصيات.



الأسباب الخارجية لانكسار المشروع القومي

تقديم - رأي ورؤية:

تبين لنا من خلال الأسباب الداخلية أننا نقرّ بالتشتت الفكري في المفهوم القومي؛ بل في مفهوم الأمة ذاته لدى أبناء الأمة الواحدة، بيد أننا نرى أنها لم تكن وحدها وراء انكسار المشروع القومي. فالأسباب الخارجية تعدُّ أسباباً موضوعية وحقيقية لا ينكرها إلا جاهل، وما يقال عن فكرة المؤامرة دقيق وصحيح، ونفي المؤامرة مؤامرة. فأعداؤنا ــ دون شك ــ يأتمرون بنا، قديماً وحديثاً، لأنهم يجرون وراء منافعهم ومصالحهم. وعلينا نحن أن ندرك أن التغير في مفهوم المنافع والمصالح يتطور من اتجاه أحادي الجانب إلى اتجاه يقوم على التوازن والتكامل بين الشعوب، وهو يضاف إلى الأسباب الداخلية، وعلينا أن ندرك أن مشروع القومية العربية تعرض لحملات متتالية من الغرب ومن الصهيونية؛ وبأشكال شتى. وقد خاض معركة غير متكافئة مع الأشكال الغازية له؛ سواء كانت غزواً معرفياً ثقافياً تقنياً أم غزواً عسكرياً ومادياً.

لهذا علينا ألا ننسى أن إخفاق المشروع القومي يعود إلى مراحل عديدة لنهوض الغرب الذي قام ــ ابتداءً ــ على أنقاض خروج العرب من الأندلس (١٤٩٢م)؛ ثم على أنقاض المؤامرة التي حيكت على الرجل المريض (الدولة العثمانية) منذ عام ١٩٠٨م ثم معاهدة سايكس بيكو التي عقدت في (١٥/٥/١٩١٦م) والتي نسجتها دوائر غربية خبيثة على الشريف حسين والعرب قاطبة؛ إذ جهد المعادون للقومية العربية في تضليل العرب بعد حملة التتريك التي قام بها أصحاب الاتجاه الطوراني ضد كل ما هو عربي وإسلامي. فالتتريك هو الذي أتى على الخلافة العثمانية فنقض دعائمها؛ ابتداءً بفرنجة حروف اللغة التركية وانتهاء بفرض الأذان باللغة التركية. أما العرب فقد كانوا لقمة سائغة للغرب الأوربي ولا سيما حين كانوا يشاهدون انقلاب بعض الطورانيين الاتحاديين على الخلافة باسم التتريك، ما حدا بهم إلى الثورة على حملة التتريك بما عرف بالثورة العربية الكبرى.

وكانت أوربا الاستعمارية قد مهّدت لذلك كله بما عرف بالاستشراق الاستعماري الذي أسس لعدة أمور منها:

١ ــ حلُّ المشكلة اليهودية: حُلَّت هذه المشكلة على حساب العرب حين زرعت أوربا الخنجر الصهيوني في قلب الأمة العربية، فتحقق لها هدفان هما التخلص من اليهود، وإعاقة قيام المشروع القومي العربي.

وقد يقول قائل: إنهم تآمروا على اليهود بهذا التصوّر، والجواب: إن اليهود ممثلين بتيودور هرتزل كانوا يخططون مع الأوربيين لذلك كله، وليس كتابه (الدولة اليهودية) إلا الدليل الواضح على ما نذهب إليه. إذاً، وقف المشروع الصهيوني في وجه المشروع القومي وجهاً لوجه، وقد دعم المشروع ــ ابتداء ــ الاستعمار الأوربي، ولا سيما البريطاني الذي قدم فلسطين للصهاينة على طبق من ذهب منذ إعلان وعد بلفور المشؤوم في ١٩١٧/١١/٢م وانتهاء بتأسيس الكيان الصهيوني بعد حرب سنة (١٩٤٨م) ثم يوم أعلن دولته في يوم (١٩٤٨/٥/١٥م)، وقد أخذت أمريكا حق حمايتها والحفاظ على مصالحها لمناهضة القومية العربية ومشروعها النهضوي.

ونحن لا يمكننا أن نفهم تأسيس الدولة الصهيونية في قلب الوطن العربي إلا على أساس الجغرافية السياسية التي تهدد تطبيق المشروع القومي. ومن ثم لم تكن فلسطين هدفاً للاستعمار البريطاني إلا لأنها تمثل صلة الوصل بين المشرق العربي والمغرب العربي؛ وفصل مصر عن الشام، ولاسيما أن محمد علي باشا(١٧٧٠ ــ ١٨٤٩م) كان أحد من فكر في مطلع عصر النهضة بجمعهما تحت حكمه.

لهذا كلّه فالمشروع الصهيوني إنما هو الأداة المثلى للغرب الاستعماري في تحطيم المشروع القومي.

٢ ــ تقويض الغرب للمشروع القومي العربي: اتفق الغرب بنظاميه الليبرالي والشيوعي على إجهاض المشروع القومي العربي حين أراد الأمة العربية ممزقة وتابعة لـــه؛ إما عن طريق الدعاوى الزائفة للتحرر الفكري والاجتماعي والسياسي كما دعت إليه الليبرالية الغربية؛ إذ تزعم أنه لا يمكن للعرب أن يتخلصوا من تخلّفهم وجهلهم الذي أرساه فيهم تراثهم المنحرف المتزمّت الجامد وثقافتهم المتخلفة إلا بتبني مفاهيم الغرب في الحرية والديمقراطية على الصُعد كلّها؛ وإما عن طريق تبني مفاهيم الحركة الشيوعية التي آمنت بنظام اقتصادي ماركسي وحيد الاتجاه ينتهي إلى تحرير اجتماعي

واقتصادي وثقافي منظور لديها. وهذا النظام الاقتصادي المتميز لا تملكه إلا الحركة الشيوعية ــ كما تزعم ــ لذا ينبغي على العرب تبني منهجها ومفاهيمها دون انتقاء أو اختبار. فالمنهج أينما أريد تطبيقه في ديار العرب إنما يطبّق كاملاً. ولهذا فهو ــ أيضاً ــ يصلح بمنهجه وأفكاره لهم. ولهذا وقف المنهج الماركسي جنباً إلى جنب مع المنهج الليبرالي في وجه المشروع القومي العربي.

ومن ثم فإذا كان كل من الغرب والحركة الشيوعية قد اعترف بالكيان الصهيوني كلاً وفق معاييره الخاصة، فإن كثيراً من اليهود الروس قد جاء إلى فلسطين المحتلة وكوّنوا رأس الحربة لمفاهيم الأحزاب الماركسية؛ فضلاً عن تخليص البلاد الروسية من وجودهم ومشكلاتهم. وهذا كله أدى إلى إنشاء علاقة وطيدة بينها وبين بعض الحركات الشيوعية العربية كما اعترفت به الملفات التي أخرجها اتحاد روسيا للنور في أواخر عام (٢٠٠٥)م. ولعل هذا كله لا ينسينا الإشارة إلى ما شهده الفكر القومي العربي من فلسفات وتيارات فكرية وفنية عديدة ملأت ساحة الوطن العربي منذ عصر النهضة؛ وكلها أدت إلى تأسيس فوضى ملحوظة في الفهم الواحد للقومية العربية كالعثمانية والوجودية والمثالية، والسلفية. ولعل ذلك كله يوقفنا عند اتجاهات عدة، نقسمها وفق الآتي:

القسم الأول ـ الاستشراق الاستعماري والعولمة:

يتناول هذا الاتجاه ــ بشيء من التركيز والإيجاز ــ بعض أشكال الاستشراق الغربي الاستعماري للشرق الأدنى والأقصى، ولاسيما الوطن العربي؛ ويبرز عدداً من أساليبه. وهي أشكال وأساليب أخذت تظهر في مفاهيم العولمة النظرية وتطبيقاتها الفعلية على اعتبار أن العولمة مصطلح يقابل الأَمْرَكة الراغبة في الهيمنة على الشعوب واستغلال مواردها وفق مبدأ النفي والإقصاء والإلحاق اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وتقنياً وعسكرياً؛ وثقافياً؛ وإفراغ كل هوية من خصائصها، ما جعل التوافق بين الاستشراق والعولمة في الأشكال والمضامين قبل الاتفاق على الهدف والغاية أمراً لا يماري فيه إلا جاحد أو معاند.

واستندت تلك الأشكال في ممارسة تطبيقها إلى سياسة الإبهام والخداع واللعب على مفهوم حقوق الإنسان والحرية والديمقراطية.

ولما كانت النيّات لدى أبناء الشرق حسنة وصادقة خلقت لديهم أشكال الاستشراق وأنماطه استجابة الرضا والفرح وقبول كثير مما يأتي به الغرب، ما

جعلهم يحسنون النية في تفسير العولمة باعتبارها ظاهرة تاريخية قد تلتقي مع مفهوم العالمية أو الكونية؛ أو الكوكبة. فالعالمية مصطلح عرفته البشرية منذ وقت طويل باعتبار الظواهر والحركات والأفكار التي تتجاوز الحدود المكانية والزمانية، وهو يختلف كل الاختلاف عن العولمة. ثم إن الذين وقعوا في شرك الفهم الخاطئ لمصطلح العولمة (الأمركة) ما لبثوا أن اكتشفوا الخطأ الذي وقعوا فيه، في الوقت الذي اتضح لهم فيه أن هذا المصطلح ليس مماثلاً للحداثة؛ وإن أسهمت حركة العولمة في تحديث كثير من التقنيات والمعارف والعلوم وعدد من المجالات الأخرى. ولم يتبينوا ذلك كله إلا بعد أن تفاقمت مشكلات أوطانهم، وظهرت لديهم إشكاليات استعصت على الحل؛ داخلياً وخارجياً؛ وطنياً وقومياً؛ سياسياً وثقافياً، اجتماعياً واقتصادياً؛ و....

ومن هنا كان لزاماً علينا ـــ قبل تناول ذلك كله ـــ أن نشير إلى فكرة مشاركة الذات العربية والإسلامية في صنع الحضارة الإنسانية، في فاعليتها ثم تراجعها لحساب الغرب الأوربي الذي بدأ إنتاج حضارته بالاستشراق الاستعماري وانتهى بالعولمة المهيمنة على العالم بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية.

ولهذا فرض المنهج علينا ـــ أيضاً ـــ أن نتوقف عند بعض مفاهيم الاستشراق والعولمة ومرتكزاتهما.

وبناء على ما تقدم نقول: ليس هناك مراء في أن الحضارة العربية والإسلامية شكّلت نهوضاً داخلياً وخارجياً للحضارة الإنسانية منذ بزوغ فجر القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي/ السابع الهجري. فقد أرسى النموذج الحضاري العربي والإسلامي في ذاكرة التاريخ أسلوبه الإنساني المتقدم في إنتاج الحضارة الكونية مستنداً إلى السنن التي تبناها، والممثلة بسنة الاستخلاف والتسخير والتداول والتدافع والخير والرحمة للناس جميعاً في إطار الاعتراف بالآخر وتقبُّل أوضاعه وتناقضاته فاكتسب صفة العالمية، أو الكوننة.

هكذا تحققت مسارات عديدة من النهضة الحضارية الكونية في الشرق الأدنى لأنها ترتكز على رؤية عقلية منهجية وإنسانية؛ أساسها المساواة لا العنصرية والتفوق، وهي رؤية دفعت نفوس أبنائها إلى تفجير طاقات ذاتهم الفاعلة للارتقاء بصنع الحضارة.

أما العرب والمسلمون ــ اليوم ــ فهم في رأي العديد من الباحثين بعيدون كل البعد عن المشاركة الحقيقية في صياغة النموذج الحضاري الجديد وإنتاجه... بل يرى فيهم بعض الباحثين أنهم يتوضّعون على تخوم التاريخ الحديث؛ لأنهم لا يتصفون إلا بصور الانفعال السلبي... لهذا صرخ الباحث العربي فوزي منصور متألماً ومعبراً عن ذلك حين عنون أحد كتبه بعنوان: (خروج العرب من التاريخ). وفيه يذهب إلى أن العرب لن يستطيعوا العودة إلى الوجود إلا بنفض غبار الزمن عن عقولهم، والتخلي عن أوهام التغني بمجد التاريخ، لأن التاريخ وُجد للدرس والعبرة. ويرى أن الغرب لم يشكل النهضة الحضارية الحديثة للعالم منذ مطلع القرن الثامن عشر الميلادي إلا بالرؤية العقلية الناضجة والدراسة المنهجية والعلمية والفكرية والثقافية والنفسية والاجتماعية، والاقتصادية، والعسكرية.... وإدراك أنساقها الإيجابية والسلبية داخلياً وخارجياً بعد أن مارس قطيعة كلية مع الماضي. ومن ثم فأوربا لم تتزعم العالم وتقود نهضة العصر الحديث إلا بعد تفجير المضامين العقلية والمادية التي تملكها، دون أن تنعزل عن حضارة الآخر بل تفاعلت معها، على الرغم من أن أساليب ارتقاء الحضارة الغربية قد بدأت صناعياً. فليس هناك أحد يشك في أن نهضتها قد أخذت تتطور لتشكل الرأسمال الصناعي الذي أتقن الإنتاج وزاده تقانة وعدداً، ثم بحث عن السوق لضيق أرض أوربا عليه فشرع يمد أنظاره إلى الشرق الأدنى والأقصى، لإحداث نهضة أشمل في رأس المال المسخر للإنسان الغربي. ومن ثمّ تحوّلت النهضة الأوربية عن شكلها الحضاري حين أطلّت مفاهيم الهيمنة على الآخر برأسها؛ وظهر التزاحم بين دول أوربا ولاسيما فرنسا وبريطانيا على احتلال الدول الصغيرة والسيطرة على مواردها؛ بعد أن أخذَ التنافس بينها شكلاً استشراقياً ثم استعمارياً؛ فضلاً عن أن النهضة الأوربية قد تطورت من دون ضغوط خصوم خارجين أو وجود أعداء داخليين لها.

لذلك كله فحملة نابليون بونابرت على مصر (١٢١٣هـ/١٧٩٨م) ما كانت إلا رداً على الدور البريطاني في الهند؛ فضلاً عن أن نابليون رأى أن فرنسا مؤهلة للقيام بنهضة حضارية في الشرق العربي لخدمة فرنسا ما جعله يجلب معه بعض العلماء والمفكرين وآليات الطباعة، ويلبس لباس الانفتاح على العرب والمسلمين. فنابليون لم يكن يهدف إلا إلى تحقيق مصالحه ومصالح بلاده، وكان يمارس أنموذجاً ثقافياً واجتماعياً وعسكرياً واقتصادياً وعلمياً أقوى على نموذج آخر أضعف ليجعله تابعاً ومستهلكاً.

وإذا كانت دول أوربا قد اختلفت في أسلوب السيطرة على الشرق العربي والإسلامي والشرق الأقصى فإنها لم تختلف على المبدأ، في الوقت الذي توافقت على وسائل أخرى، وفي طليعتها مسألة الاستشراق الاستعماري(١).

فالاستشراق كانت لـــه غايات وأشكال وأساليب تخدم كل دولة أوربية على حدَة، وفي آن معاً ينتهي إلى السيطرة على الآخر وابتلاع ثقافته وفق المنهج الأوربي وفلسفته. فالاستشراق هو "طريقة للوصول إلى التلاؤم مع الشرق مبنية على منزلة الشرق الخاصة في التجربة الأوربية. فالشرق ليس لصيقاً بأوربا ــ وحسب ــ بل إنه كذلك موضع أعظم مستعمرات أوربا وأغناها". أي إن الاستشراق "ليس استيهاماً أوروبياً فارغاً؛ بل إنه لجَسَدٌ مخلوق من النظرية والتطبيق؛ ما برح ــ لأجيال عديدة ــ موضعاً لاستثمارات مادية كبيرة"(٢).

ثمّ إن الاستشراق الثقافي بكل اتجاهاته الفلسفية والفكرية واللغوية والأدبية والفنية والتاريخية و... كان نتاجاً غربياً يتسق مع الثقافة الغربية المسيطرة وفلسفتها واتجاهاتها؛ على حين كان الشرق العربي ــ مثلاً ــ يتوهّم بأن اختلاف أوربا على توزع مكان نفوذها واحتلالها لهذه الدولة أو تلك قد يؤدي إلى تعدد صور الاستشراق مما يؤدي إلى تحسين أوضاع أبناء الشرق والارتقاء بأحوالهم الفكرية والاجتماعية و.... بيد أن المُمْعن في قراءة الأحداث التاريخية يوقن بأن أوربا اتفقت على توزيع تركة الدولة العثمانية التي وصفت بالرجل المريض، ومن ثم تسارع الاستشراق الاستعماري ليخدم تلك السيطرة...

وجنّدت دوائر الاستشراق الاستعماري مستلزمات ذلك من جمعيات ثقافية وفكرية وسياسية، ومن بعثات تبشيرية، وإرساليات كلّفتها بمهمّات استشراقية بعيدة الأهداف. ولم تنسَ أن تهيئ الذرائع والأسباب، وتعتمد مبدأ الإيهام والتضليل والخداع للوصول إلى السيطرة على الشرق لتحقيق مصالحها. ثم زيّنت لأبناء الشرق مفاهيم الاستشراق تحت مزاعم الإصلاح والتقدم، وحقوق الإنسان والمساواة بين المذاهب والطوائف... والحرية الشخصية والدينية وتقديم

---

(1) الاستشراق: المعرفة ــ السلطة ــ الإنشاء ــ ص ٣٧ ــ إدوارد سعيد ــ نقله إلـــى العربيـــة كمال أبو ديب ــ مؤسسة الأبحاث العربية ــ بيروت ــ ط ٤ ــ ١٩٩٥م.

(2) الاستشراق ٤٢.

المساعدات الاجتماعية والاقتصادية المتنوعة، مستغله حاجة الشرق لذلك. وسوّغت أوربا لنفسها ــ تحت هذه الدعاوى والمزاعم ــ حماية المقدسات المسيحية في الشرق، وحماية المسيحيين فيه؛ لأن المسلمين انتهكوا حرياتهم وحرماتهم فسلبوا حقوقهم وإرادتهم. وليست حرب الفرنجة عنّا ببعيدة؛ إذ قدمت جيوش أوربا إلى بيت المقدس تحت تلك المزاعم. ولما انكشفت هذه التلفيقات كان قد مضى على بقاء الأوربيين في الشرق مئتا سنة (٤٩٢-٦٩٢هـ) بعد أن جلبوا رهباناً وراهبات لأمور تبشيرية، فضلاً عن الجيوش الجرارّة التي عاثت فيه فساداً ودنّست بيت المقدس(١).

ومن تلك الجمعيات والبعثات التبشيرية التي أنشئت في دوائر الاستشراق الاستعماري الأوربي (جمعية نشر المعرفة المسيحية ١٦٩٨م) و(جمعية نشر الإنجيل في المناطق الأجنبية ١٧٠١م) و(جمعية التبشير الإنجيلية ١٧٩٢م) و(جمعية التبشير الكنسية ١٧٩٩م) و(جمعية الكتاب المقدس البريطانية والأجنبية ــ ١٨٠٤م) و(الجمعية اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود ١٨٠٨م). "وقد شاركت هذه الإرساليات بصورة صريحة في التوسّع الأوربي. فإذا أضيفت إليها الجمعيات التجارية، والجمعيات المتفقهة ومؤسسات الاستكشاف الجغرافية؛ ومؤسسات الترجمة، وغرس المدارس والبعثات والمكاتب القنصلية والمصانع والجاليات السكانية الأوربية الواسعة ــ أحياناً ــ في الشرق فإن مفهوم المصلحة يكتسب قدراً كبيراً من المعنى. ولقد أصبحت هذه المصالح تُحمى ــ فيما بعد ــ بحماسة شديدة وبنفقات عالية"(٢).

هكذا عجَّ الشرق الأدنى عامة والعربي خاصة بالمستشرقين وفي طليعتهم أرنسْت رينان (١٨٤٠م)... وقد حذا حذوه في الاستشراق الثقافي الاستعماري (وليم موير ١٨١٩-١٩٠٥م) صاحب كتاب (حياة ماهومت " محمد" ١٨٥٨-١٨٦١م) وكتاب (الخلافة: سموّها وانحطاطها وسقوطها ١٨٩١م). وقد عدَّ موير الرسول الكريم والقرآن المجيد "أكثر أعداء الحضارة والحرية"(٣). بل إن كثيراً من آراء رينان الصارمة ظهرت في كتاب (راينهارث دوزي ١٨٢٠-

(1)عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ــ ١٤٢/٢ ــ ١٤٣ ــ لأبـي شـامة المقدسي ــ حققه أحمد البيسومي ــ وزارة الثقافة ــ دمشق ــ ١٩٩١م ــ الفتح القسّي فـي الفتح القدسي ٣٤٧ ــ العماد الأصفهاني ــ تحقيق محمود محمد صـبح ــ الـدار القوميـة للطباعة والنشر ــ القاهرة د/تا.
(2) الاستشراق ــ ١٢٤ ــ ١٤٦ وما بعدها.
(3) الاستشراق ١٦٨.

١٨٨٣م) وعنوانه (تاريخ مسلمي إسبانيا حتى فتح الأندلس من قبل المرابطين ١٨٦١م) وظهر في أربعة مجلدات؛ ثم ظهر مجلد آخر عام (١٨٦٤م) "ادّعى فيه أن إله اليهود البدائي لم يكن يهوه بل بَعَل"(١).

ولم يقلّ كتاب (كوسان دوبرسيفال) وعنوانه (مقالة في تاريخ العرب قبل الإسلام خلال عهد ماهومت ١٨٤٧- ١٨٤٨م) خطراً عن دراسات (رينان). وكذلك يدخل في هذا المجال ما كتبه (لويس ماسينيون) عن التصوّف الإسلامي، أو ما كتبه (وليم روبرتسن سميث).

وهناك عدد كبير من المستشرقين الذين ذهبوا في استشراقهم الثقافي الاستعماري مذاهب شتى في دعاواهم يضيق مقام ذكرها هنا، ومنهم (إتش. أي. آر. جب) و(إدغر كونيت) و(كارلايل)؛ أما كارل ماركس فقد قال: "إن على انكلترة أن تحقق رسالة مزدوجة: الأولى تدميرية، والثانية إحيائية تجديدية: إفناء المجتمع الآسيوي، وإرساء الأسس المادية للمجتمع الغربي في آسيا"(٢).

أما رحلات الحج وغيرها فقد سُخِّرت هي الأخرى للاستشراق الاستعماري؛ وهذا ما ظهر في كتاب (شاتوبريان ١٧٦٨-١٨٤٨م) وعنوانه (رحلة من باريس إلى القدس) وكتاب (غوستاف فوبير ١٨٢١-١٨٨٠م) وعنوانه (مراسلات) طبع لأول مرة سنة (١٩٢٢م) وغيرهما مثل (لامارتين)(٣).

وإذا كنا لا نعدم بعض التجارب الاستشراقية الثقافية المنصفة على قلتها؛ فإننا نرى أن أكثر المستشرقين كانوا جزءاً من مفاهيم الاستشراق الاستعماري ومؤسساته. وفي هذا الصدد ينبغي أن نسجل للمستشرق الفرنسي (مكسيم رودنسون) احترامنا الجليل؛ إذ انشغل بالتاريخ العربي والفكر الإسلامي؛ فكان أحد "القلة الذين لم تطالهم تهمة الاستشراق الاستعماري"(٤).

وبهذا كلّه توسعت مجالات الاستشراق بازدياد عدد المؤسسات الاستشراقية الاستعمارية وتسهيل شؤونها في أوربا والشرق مثل (الجمعية الآسيوية ١٨٢٢م) و(الجمعية الملكية الآسيوية ١٨٢٣م) و(الجمعية الشرقية ١٨٤٢م) و(الجمعية

---

(1)الاستشراق ١٦٨.
(2) الاستشراق ١٧١.
(3) الاستشراق ١٨٢ وما بعدها.
(4) مجلة المعرفة السورية ــ ص ١٤ ــ عدد ٤٩١ ــ آب ٢٠٠٤ م.

الألمانية للدراسات الأجنبية)؛ و(الجمعية الاستشراقية الألمانية). وقد ازداد مع تنامي هذه المؤسسات عبر أوربا كلها عدد كراسي الأستاذية في الدراسات الشرقية. وضاعفت دوريات الاستشراق ــ بدءاً من مجلة (مناجم الشرق ١٨٠٩) ــ كمية المعرفة، كما ضاعفت عدد التخصصات"(١).

ولم يكن كثير من أبناء العروبة والإسلام غافلين عما أنتجه الاستشراق الاستعماري ودوائره ونماذجه المنظمة والفردية؛ إذ استيقظوا على غاية كل باحث استشراقي أو تاجر أو حاجّ جعل غايته الافتراء على الشرق؛ ورد العديد منهم دعاوى المستشرقين أمثال المرحوم العلامة محمود شاكر في كتابه (أباطيل وأسمار).

استيقظ أبناء الشرق على دعاوى الاستشراق بمثل ما صَحَت أذهان العرب على الأهداف التي رمى إليها نابليون في حملته؛ ثم تنبهوا للوهم الذي عاشوا فيه إبان الخلافة العثمانية التي أضحت عاجزة عن حماية أراضيها ورعاياها، وتركتهم نهباً لمعاهدة (سايكس ــ بيكو) التي رأت النور في (١٥/٥/ ١٩١٦م).

وما كادت الاستجابة لليقظة العربية تظهر حتى وئدت بالانتداب الأُوربي؛ ولا سيما البريطاني والفرنسي مدعياً أنه جاء للشرق العربي لإعماره، ونَعت نفسه زيفاً وبهتاناً بالاستعمار فظلم اللفظ كما ظلم أبناء العروبة والإسلام فسرق خيرات وطنهم وأمعن في إذلالهم وإفقارهم وتجهيلهم.

كانت اليقظة نحو الاستشراق الاستعماري؛ ومن ثم الاستعمار الأوربي المباشر استجابة طبيعية لما اعتلج في النفوس الحرة الأبية؛ فاندلعت الثورات في كل مكان تنشد الاستقلال والحرية؛ حتى تحقق لها ذلك، ثم أخذ الاستشراق الاستعماري الثقافي ينزوي ليضمحل نهائياً في آخر مؤتمر لــه سنة (١٩٧٠م) بعد أن عاش الشرق إشكاليات كثيرة نتيجة له.

وبناء على ما تقدم كله أخذت مشاعر الاستبشار تدغدغ عواطف العرب والمسلمين وبقية الشعوب المستضعفة من أبناء الشرق بانتهاء سيطرة الدول الأوربية الكبرى. ثم طفقوا يتخيلون مستقبلهم الزاهر في كل مجال من مجالات الحياة والفكر والعلم والأدب والفن ولا سيما بعد المخاض الطويل الذي شهدته الحرب العالمية الثانية، ونشوء حركات التحرر الوطني التي أدت إلى استقلال

---

(1) الاستشراق ١٦٦ ــ ١٦٧.

معظم أقطار الوطن العربي؛ ومن ثم صُعود التيارات الفكرية الوطنية والقومية في الخمسينيات والستينيات؛ وظهور فصائل الكفاح الوطني الفلسطيني في (١/١/١٩٦٥م). وقد اعتقد أبناء العروبة أن تقرير الشعب العربي الفلسطيني لمصيره قد اقترب لكنهم سرعان ما عرفوا حقيقة الأمر بعد أن تعرضوا للعدوان الصهيوني البغيض في (٥ /٦/ ١٩٦٧م). ثم ازداد أمل العرب في تحيقق مشروعهم القومي، وخلاصهم من الاستعمار الاستيطاني الصهيوني نتيجة تسارع الأحداث السياسية والفكرية والعسكرية والتقنية وتطورها، وظهور ما يسمى بنظام كوني جديد يطلق على نفسه اسم العولمة (Gobalism أو Gobalisaion). وهو لفظ مأخوذ من الكلمة الإنكليزية (Goble) بمعنى الكرة الأرضية. ولما شرعت هذه الكلمة تدل على الخروج من الدائرة المحلية إلى العالمية بقيادة مركز واحد أي تحويل الكيانات الوطنية والقومية إلى المجال الذي تستطيع العولمة التوسع فيه معرفياً واقتصادياً وثقافياً كانت الإشكاليات في الممارسة أعظم بكثير من إشكاليات المفهوم نفسه؛ لأن العولمة تحولت ابتداء من تسعينيات القرن العشرين إلى ظاهرة استعمارية ذات أشكال مغايرة لما كانت عليه من قبل، فقد تحولت إلى ظاهرة استعمارية تستجيب لمتطلبات النظام العالمي الجديد الذي تقوده أمريكا. فهو نظام يؤدي في النهاية إلى دمج الدول وأسواقها العالمية تحت سيطرة رأس المال الذي تتحكم به الشركات الكبرى.. ولهذا صارت العولمة ــ اصطلاحاً ــ مشروع مركزية العالم في حضارة واحدة هي الحضارة الغربية بقيادة أمريكا. وهذا ما عناه روبرتسون بقوله: "تشكيل وبلورة العالم بوصفه موقفاً واحداً" (١)؛ وأكده التقرير الذي قدّم إلى الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش الأب من قبل البنتاغون سنة (١٩٩٢م)؛ وهدفه "بسط هيمنة الولايات المتحدة على كامل الكرة الأرضية بوساطة كل الوسائل العسكرية والثقافية والسياسية والاقتصادية الضرورية"(٢). وكان السناتور الأمريكي عن مقاطعة (ديانا) (إلبر .ج. بيفريدج) قد قال في أواخر القرن التاسع عشر: "إن الله قد اختار الشعب الأمريكي من بين جميع الأجناس ليقود العالم أخيراً إلى تجديد نفسه"(٣).

---

(1) العولمة والهوية الثقافية ــ المجلة العربية ــ عدد ١٦.

(2) أمريكا المستبدة ١٣٨ ــ ١٣٩ ــ ميشيل بينيون ــ موردن ــ ترجمة حامد فرزات ــ اتحـــاد الكتاب العرب ــ دمشق ــ ٢٠٠١م.

(3) الإمبراطورية الأمريكية ــ ٤٦٢ ــ كلود جوليان ــ دار الحقيقة ــ بيروت.

وتسلمت الولايات المتحدة قيادة مفهوم النظام العالمي الجديد، بعد أن كانت أوربا قائدة للاستشراق الاستعماري ومركزاً له. فلمّا قامت أمريكا وحلفاؤها بهدم النظام الاشتراكي كانت شركاتها العملاقة المتخمة برأس المال تسارع إلى الاندماج، ثم ابتلاع الآخر، والتفكير بأشكال جديدة للهيمنة على العالم لتصريف كل ما تنتجه، ولضمان استمرار المواد الأولية والطبيعية لمصانعها؛ فضلاً عن توفير الأسواق اللازمة لذلك.

ثم أخذ الغرب على عاتقه إسقاط المفاهيم القومية والوطنية تحت دعاوى الأنسنة والحرية والديمقراطية الليبرالية. وإذا كانت العولمة في أصلها نظاماً اقتصادياً فإن تجلياته أخذت تصنع المواقف الفكرية والسياسية والثقافية والاجتماعية و... وهذا ما عبَّر عنه (جيمس روزناو) أحد كبار علماء السياسة الأمريكية؛ إذ أوضح أن العولمة الاقتصادية تقيم علاقة جوهرية مع المستويات الأخرى كالسياسة والثقافة والإيديولوجيا والتقنيات والاتصالات. ولن يتحقق هذا كله إلا بوجود مركز واحد للكون ــ هو واشنطن بالتأكيد ــ يقود القرية الكونية الموحدة بوساطة شبكة من الاتصالات والمعلومات والقوة العسكرية الفائضة المسيطرة على مراكز الاتصال الجغرافي فيه براً وبحراً؛ فضلاً عن تقانة الأقمار الصناعية وسلاح الجو بكل أصنافه من طائرات وصواريخ و..

وفي ضوء ذلك كله لم يعد مفهوم العولمة ذا بُعْد اقتصادي وحيد الاتجاه، وإنما انتهى إلى أبعاد فكرية فلسفية وثقافية وسياسية واجتماعية؛ ما يعني إيجاد المراكز البحثية المتخصصة التي تعنى بذلك؛ وهي تقابل في مفهوم الاستشراق الاستعماري جمعيات الاستشراق ومؤسساته.

وبهذا اتضح لنا أن سنة التدافع والتداول قد حدثت منذ مطلع السبعينيات من القرن العشرين، واستجاب العرب والمسلمون لذلك كله وفرحوا بعظمة التغيير الجاري في العالم؛ ولم يكونوا يدركون أن العولمة ليست إلا شكلاً أكثر تطوراً؛ وأعظم خبرة ودهاء من أشكال الاستشراق الاستعماري؛ ولا سيما أن كثيراً من هذه الأشكال قد أخذت تنصهر في العولمة الأمريكية.

إنها أشكال تحولت إلى هيمنة القطب الواحد على العالم؛ ولم تزد دوله إلا تذمراً بما فيها بعض دول أوربا كفرنسا وألمانيا، أما الوطن العربي فقد تضخمت مشاكله؛ وتعاظمت الإشكاليات الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية في جنباته.

وهذا كله يضعنا وجهاً لوجه أمام الأشكال الاستشراقية التي شابهت ما تبنته العولمة الأمريكية؛ كما تشابهت الاستجابة والإشكاليات التي عصفت بالوطن العربي والدول المستضعفة؛ إذ غلبت على أمرها وضاعت أوطانها كما هو عليه حال أفغانستان والعراق.. ويمكن أن نتوقف عند عدد منها وهي:

١ـ دعوى الحرية والإصلاح:

ظهرت الاستجابة لقبول الاستشراق والعولمة متشابهة في الشرق؛ لأن أبناءه ظنوا بهما أنهما الوسيلة الصالحة إلى الحرية والتخلص من الفقر والجهل والتخلف، ولا سيما حين استشعروا القدرة على التحرر من ظلم الحكام والمستبدين، إذ استبشروا بالديمقراطية التي تعزز كرامة الإنسان. ولكن الإشكالية الكبرى التي وقع فيها أبناء الشرق العربي والإسلامي أن الاستشراق الاستعماري الذي خلق الدوافع لقبولـه تحت مزاعم الحرية والإصلاح قد فرض أنساقه الفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية والسلوكية والاقتصادية التي تلبي أهدافه. فالاستشراق الأوربي منذ (أرنست رينان) ـــ على الأقل ـــ لم يكن طلباً للمعرفة، وإنما كان وعياً غربياً ذا سيادة مركزية على كل ما هو شرقي؛ وإن برزت فيه أشكال فردية قليلة اتصفت بالعدل والإنصاف. فالاستشراق الأوربي جعل المعرفة الثقافية جوهراً للغاية السياسية والاقتصادية كما جعل الشرق مادة لمصالحه في البحث والاكتشاف. فالشرق مقموع بمجموع من الرغبات الاستشراقية الغربية في استنزاف موارده؛ و... وسرقة خيراته، واعتباره سوقاً استهلاكية لمنتجات مصانعه؛ ومن ثم فهو غير كفء لقيادة هذه الموارد وتطويرها.

فالشرق حقل تجارب في ميادين شتى من البحث والاكتشاف، في صميم رؤية الأوربي المبنية على العنصرية العرقية، ومفاهيم التفوق الآري. ولهذا فالاستشراق "ليس أبداً بمنأى عما يسميه (دَنسْ هَيْ) فكرة أوربا؛ وهو مفهوم جمعي يحدد هويتنا نحن الأوربيين كنقيض لأولئك الذين ليسوا أوربيين. بل إنه لمن الممكن أن يطرح المرء منظومة تقول: إن المكوّن الرئيسي للثقافة الأوربية بالضبط ما جعل تلك الثقافة متسلطة داخل أوربا وخارجها على حدّ سواء؛ فكرة كون الهوية الأوربية متفوقة بالمقارنة مع جميع الشعوب والثقافات غير الأوربية"(١).

---

(1) الاستشراق ٤٢.

وبناء عليه فالاستشراق الأوربي اعتمد على التفوق العنصري العرقي لخلق "مرحلة الهيمنة الأوربية الخارقة منذ أواخر عصر النهضة حتى الوقت الحاضر"(١).

ولهذا كان أرنست رينان يقول: "إن الإنسان ليرى في كل شيء أن العرق السامي يبدو عرقاً غير مكتمل بسبب بساطته. وهذا العرق بالقياس إلى العائلة الهندو ــ أوربية مثل تخطيط بقلم رصاص.. بالنسبة إلى لوحة فنية. فهو يفتقر إلى ذلك التنوع، وذلك الثراءٍ؛ وتلك الوفرة الفائضة من الحياة التي تشكل شرط الاكتمال"(٢).

ومن يتفحص ذلك كله يدرك أن الاستشراق الأوربي عملية واعية تهدف إلى الهيمنة على الشرق عامة والقضاء على المشروع القومي خاصة، في إطار الرؤية العرقية العنصرية؛ وتسوّق لذلك تحت مزاعم الحرية والإصلاح وليس لها هدف إلا السيطرة على العرب وإعاقة نهضتهم، وهو الهدف نفسه الذي تقوم عليه العولمة.

ومن ثم فتشكيل الإمبراطورية الاقتصادية ــ الثقافية يتجسد في أنساق فكرية وفلسفية ولغوية وأدبية و.. وسلوكيات وأخلاقيّات متجانسة تابعة لثقافة المنشأ والاتجاه، وهي إمبراطورية قائمة على إلغاء الثقافات الأخرى أو جعلها تابعة. ويظل الفارق بين العولمة والاستشراق أن العولمة ارتفعت فوق الأديان وتفرعات طوائفها ومذاهبها على اعتبار أن البنية الثقافية الاجتماعية لسيدة العالم (أمريكا) مكونة من ثقافات متعددة، كما تجاوزت المبادئ الأخلاقية لأنها ألغت الحدود السياسية، بمثل ما حاولت أن تقضي على التباينات العرقية لأنها نسيج مخلوط من أعراق عديدة؛ على حين أن الاستشراق أبقى على ذلك التميز...

وفي هذا المقام لا يمكننا أن ننعت الدين الإسلامي أو المسيحي بالعولمة على اعتبار المساواة بين الأفراد والدول، لأنهما يبقيان على التميز في ذلك، فضلاً عن أن العولمة تستند إلى مبدأ التداخل لقتل الهوية الدينية؛ عن طريق التفتيت الطائفي أو المذهبي، ومحاربة الخصائص الذاتية لثقافة الشعوب وجعلها تابعة لثقافة مركز الكون والاندماج بها. ولهذا فإن (آرثر.م. شليزنجر الأصغر) يُعَدُّ أحد مناوئي مفهوم التعددية، وينعى على أصحابه معارضتهم لمفهوم

---

(1) الاستشراق ٤٢.

(2) الاستشراق ١٦٧.

العولمة، فيقول:"دعاة التعددية الثقافية في الغالب انفصاليون متمركزون حول العرق؛ لا يرون في التراث الغربي أكثر من الجرائم"(١). فالعولمة (الأمركة) تستند في داخلها إلى مبادئ التناقض الداخلي لما تؤدي إليه من استهداف دول العالم والقضاء على كياناتها، في الوقت الذي تترافق فيه زيادة البطالة البشرية لحساب التقانة الاقتصادية؛ وما ينتج عنه من تفاقم وتراجع في معيشة الناس، وثقافتهم.

هكذا برز الإشكال المرّ والمؤلم في الاستجابة لكل من الاستشراق الأوربي والعولمة (الأمركة)، وكأنهما وجهان لعملة واحدة؛ أو كأن العولمة صك جديد لعملة قديمة ولكنها أكثر بريقاً وتداولاً. فكُلٌّ منهما يحاول طمس الثقافات الأخرى وقتل تطلعات أبنائها في إيجاد مشاريعهم الخاصة بهم. وفي ضوء هذا كله تظل هناك فوارق بينهما؛ إذ تختلف العولمة عن الاستشراق على نحو ما فإذا كان للاستشراق أشكال عدة سعى أكثرها إلى القضاء على ثقافة الشعوب، وجعلها مجرد مادة للبحث، إلى أن تستغل مواردها الطبيعية فإن ثقافة العولمة ذات جوهر واحد مسيطر يتجسد في النموذج الأمريكي الذي لم يتورع الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب من أن يصرح به في مطلع نيسان لسنة (١٩٩١) حين خاطب الكونغرس الأمريكي معلناً عن قيام نظام جديد تقوده أمريكا فقال: "لقد ربحنا الحرب الباردة إثر سقوط الإمبرالية الشيوعية؛ إن أمريكا هي التي تقود العالم ـــ اليوم ـــ بلا منازع؛ وسيكون القرن القادم أمريكياً، كما كان هذا القرن أمريكياً، وسيشهد انتشار القيم والثقافة الأمريكية في العالم".

وفضلاً عن ذلك كله فالعولمة الجديدة ليست إلا إحياء للإمبراطوريات القديمة كالرومانية؛ إذ لم يكن توسع الإمبراطورية الرومانية في الشرق العربي القديم إلا ضَرْباً من العولمة التي تتبنى الهيمنة عليه. ولهذا فكل دعاة العولمة يتبنون دعاوى تحرير الإنسان من الظلم والاستبداد، ودعاوى إصلاح الأوطان، وهو عينه ما قام به الاستشراق الاستعماري؛ وكلهم أبعد ما يكونون عن تحقيق العدل والمساواة لأنهم يرفضون الآخر، وهو حديثنا الآتي.

٢ـ رفض الآخر:

هذا هو شكل آخر من أشكال التوافق بين الاستشراق الاستعماري والعولمة، فكلاهما يرفض الآخر فكرياً وثقافياً وسياسياً، ويتقبله مستهلكاً لأفكاره

---

(1) صدام الحضارات ٤٩٤ وانظر فيه أيضاً ٤٩٨ ـــ صموئيل هنتنغتون ـــ ترجمة طلعة الشايب ـــ بيروت ـــ ط ٢ ـــ ١٩٩٩م.

ومبادئه وإنتاجه المادي. وقد تجلى رفض الآخر في الغرب نفسه؛ في محاربته للنظام الاشتراكي، ومن ثم قيادة أمريكا للنظام العالمي الجديد الذي أسقط ما سمي بالاتحاد السوفييتي في أواخر عام ١٩٨٩م. ومن قبل كان الاستشراق قد لبس قفازات حريرية، وأقنعة مزيفة لنشر تياراته الفلسفية والسياسية؛ وأوهم أبناء الشرق بتبني مناهجه ومفاهيمه الفكرية واللغوية والنفسية والأدبية والاجتماعية و.. لأنهم غير قادرين على أن يرتقوا ويصبحوا منتجين للحضارة إلا إذا أخذوا بما لديه. وللوصول إلى هذه الغاية تفننت دوائر الاستشراق في إقناع أبناء العروبة والإسلام وفق سياسة الترغيب والترهيب، وسياسة (فرّق تسد) لتفكيك المجتمعات والطوائف والمذاهب والدول على السواء ليسهل نشر ثقافتها وتبنيها.

وقد لقيت سياسة الدوائر الاستشراقية قبولاً عند بعض المفكرين والمثقفين، وقلة من الناس، ولا سيما أولئك الذين تتلمذوا على يد الثقافة الغربية في كل مكان، فأسهموا معاً بإعاقة المشروع القومي وتخريبه.

وعلى الرغم من وصف بعض المستشرقين للعرب بأوصاف سيئة كما نراه في اقتباس للمستشرق (جب) من كتاب دَنْكَنْ ماكدونَلْد الكلاسي؛ فإن بعض المثقفين العرب قد انتحر على عتبات الثقافة الغربية؛ ومناهجها وإن مانعها عدد آخر منهم؛ ما جعل ماكدونلد يقول: "يظهر العرب أنفسهم لا أناساً يؤمنون بسهولة بل عنيدين ماديين، متسائلين؛ شكاكين.."(١).

إذن لم يعد رفض الشرق حكراً على أبناء الاستشراق ورجالاته؛ بل انتقل إلى الكثير من العرب والمسلمين ممن آمنوا بفقد الأمة لقدرتها الذاتية والثقافية. فهي لا تستطيع أن تقيم نهضتها الحضارية الشاملة إلا بالتخلي عن التقليد والاتباع والقضاء على كل ما هو موروث لأنه لا يتصف إلا بالجمود والتخلف ولا يوقع أبناءه إلا في الجوع والفقر، والحرمان والقهر؛ وعليها أن تأخذ بثقافة الغرب ومناهجه وفلسفته وحياته لتسرع بقوة إلى الإبداع والابتكار في صميم هذا التطور كله كانت عجلة التقدم العربية علميا وتقنيا ومعرفياً واقتصادياً تتأطر في إشكاليات كبرى، لعل أبرزها فقدان الهوية العربية وثقافتها لخصوصيتها المميزة لها.

ومن ثم كانت عجلة الحياة المادية الحديثة ودورانها تطحن القيم الخلقية العربية الموروثة وتتهاوى تحت مطرقة الحاجات اليومية مما زاد الاستشراق

---

(1) الاستشراق ٢٥٣.

تقبلاً في الشرق؛ لأن تلك القيم لم تعد مواكبة للعصر الحديث ــ كما يزعمون ــ ومن يتمسك بها فهو متخلف.

ثم جاءت العولمة الأمريكية لتتابع مسار الاستشراق ولكن بسرعة أعظم؛ وأشكال أكثر قبولاً ورضى من أبناء العروبة والإسلام. وامتد الأمر هذه المرة إلى حقيقة الدين والعقيدة الإسلامية، فالدين هو المسؤول عن الظلم والقهر والتخلف والجمود؛ فما كان صالحاً في القرن السابع الميلادي لم يعد صالحاً في القرن العشرين والحادي والعشرين. لذا لا بد من التخلي عن كل ما هو قديم بالٍ، وتبني النموذج الكوني الجديد الذي جَسَّد الحرية هدفاً والديمقراطية وسيلة. ولعلّ هذا كله أدى بالثقافة العربية وشخصيتها الحضارية إلى الوقوع في جملة من التعقيدات والأزمات.

فرَفْض العولمة للمشروع القومي العربي لم يقتصر على ثقافته وأخلاقياته وسلوكياته بل امتد إلى عقيدته وتراثه؛ على اعتبار أن الإسلام يتنكر للحرية والديمقراطية الغربية مهما زعم دعاة الشورى من العرب والمسلمين صلاحيتها للمجتمع العربي، على اعتبار أن الديمقراطية نظام عملي دقيق منظم يمنح الإنسان المكانة اللائقة بمثل ما يعزز لديه حريته من دون ظلم أو قهر. أي إن العولمة تؤسس وعياً كونياً يُعْلي من منزلة الإنسان ويقدّر قيمة المواطن العالمي، على حين أن المشروع القومي يعزز فكرة الانفصال والعنصرية.

وإذا كان الاستشراق لم يتعرض بالأذى الشديد للشعور الوطني باعتباره جوهراً يميز بين الأوربي وغيره، ولم يتعرض للعقيدة باعتبار انطلاقته التبشيرية المسيحية، فإن العولمة نالت من قيمة هوية الإنسان العربي والمسلم وعقيدتهما؛ لأنها جعلت القيمة الوحيدة للمواطن العالمي في إطار مفهوم الديمقراطية المؤسس للقرية العالمية؛ أي إنها ترفض كل ما هو شرقي موروث، وكل عقيدة لا تتفق مع مبادئها؛ أياً كانت، ومن ثم فهي تقف وجهاً لوجه أمام المشروع القومي العربي.

وعلى الرغم من ذلك كله فقد اتفق الاستشراق والعولمة على أن الإسلام دين متخلف ومتحجر وجامد يقف في وجه الديمقراطية التي تعدُّ نقطة الانطلاق إلى التألق الحضاري للعالم الغربي.

ويعد هذا الأمر أكثر الأمور خطورة؛ لأنه اعتداء صريح ومباشر على واحد من أبرز العناصر الثقافية المشكلة للمشروع القومي. ولما رأى العديد من المفكرين والمثقفين العرب أن الإسلام لا غنى عنه في نقطة انطلاق النهضة

الحضارية للمشروع القومي كان بعض أقطاب العولمة يرى فيه العدو الأكبر للحرية والديمقراطية والتقدم. ولهذا جعل (فرنسيس فوكوياما) الديمقراطية الغربية المآل الأخير للبشرية في كتاب (نهاية التاريخ)، على حين آمن صموئيل هنتنغتون بصراع الحضارات، في كتابه (صدام الحضارات) ولا بد للحضارة الغربية من الانتصار على حضارات الأمم الأخرى.

وبهذا كله رفض الغربُ الأوربي والأمريكي المشروع القومي ــ بل الشرق كله، وفق مشروع أوكسفورد ــ وكل ما يمت إلى العرب بصلة؛ لاعتقاد الغرب بأنه وحده صانع للحضارة الحديثة؛ فقفز فوق منطق التاريخ وسنة التدافع والتداول.

وفي ضوء ما تقدم نرى أنه ليس هناك من يشك في أن كفَّة العولمة الأمريكية ــ حتى الآن ــ هي الراجحة في عالمنا؛ وتكاد تكون الاتجاه الوحيد الذي يسيطر على الكون؛ بيد أن استثمار موارد العالم لصالح دولة واحدة تقود العولمة سينذر بفسادها، وانهيار نظامها الجديد مهما كانت قوته المادية والتقنية؛ لأنه لم يعترف بالآخر؛ إن لم نقل: قام على أنقاضه، وما تملكه أوطانه من خيرات. وستزول مرحلة هيمنة العولمة كما زالت مرحلة هيمنة أوربا الخارقة التي اعتنق أبناؤها أفكاراً عنصرية عديدة، لنثبت أن التنوع ثراء والتوحد قوة في إطار محاربة الفساد والهيمنة.

٣ ـ النظام السياسي للشرق العربي والمسلم:

لعل هذا الشكل يتصل بالشكلين السابقين على نحو بعيد ولكنه يختص بنظام الحكم السياسي، فليس هناك من ينكر أن الاستشراق الاستعماري الثقافي نجح إلى حد كبير في خلق تيارات فكرية وسياسية واجتماعية و... في الوطن العربي وغيره. ومن ثم فقد تبنى كثير من هذه التيارات أفكار الغرب وفلسفته بما فيها مفاهيمه الديمقراطية. وكذلك رضيت دول أوربا ثم أمريكا عن كثير من حكام الشرق ودعمتهم في سبيل إنجاح سياستهم في القضاء على كل ما هو شرقي من قيم أخلاقية ومبادئ كريمة إدراكاً منها أن تحطيم القيم والمبادئ إنما هو تحطيم للهوية القومية.

ولما نجحت دوائر الاستشراق الاستعماري ثم العولمة الأمريكية بالنيل من مشروع القومية العربية تحت محاربة دعاوى الرجعية الإقطاعية والصناعية والدينية عادت في ثمانينيات القرن العشرين إلى التخلص من بعض الحكام

الوطنيين على مذبح الديمقراطية؛ لأنهم غدوا عائقاً أمام مشاريعها في السيطرة والاستغلال؛ ومحو الهوية العربية.

ثم طفقت دوائر العولمة تصور أغلب الحكام والأنظمة العربية، والأحزاب بأنهم جميعاً مستبدون فاسدون حرموا الشعب حريته وحياته الكريمة وقد انحرفوا عن الديمقراطية الغربية؛ لذلك لا بد من التخلص منهم. وبهذا أسست الدوائر الغربية ولا سيما الأمريكية مفاهيم تفتيت المشروع القومي بأيدي أبنائه.

ونتساءل عن الديمقراطية التي يريد النظام الجديد أن يطبقها على الدول الصغيرة المفككة عشائرياً وطائفياً: أليس أولى به أن يلتزم بحقوق الآخرين في بلاده وبلاد العالم؟!. نحن ندعو كل قائد وطني في الشرق العربي والمسلم إلى تطبيق الديمقراطية والمساواة والحفاظ على كرامة الإنسان وإسعاده في وطنه. وكذلك نحن نرفض تدخّل العولمة الأمريكية في شؤون دول العالم الكبرى كالصين والدول الصغرى كلبنان أو العراق تحت مزاعم تطبيق الديمقراطية وإيجاد الدستور المقر ديمقراطياً؛ وليس وراء هذا المشروع الأمريكي ــ الصهيوني إلا هدف التفكيك وإعاقة التنمية الوطنية والقومية تلبية للمطامع الأمريكية في موارد الوطن العربي، وخدمة للمشروع الصهيوني...

ولعل هذا كله مما تحدث عنه الباحث (كريس باتن) في كتابه (شرق وغرب) الصادر عن مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية لعام (٢٠٠٤م) وضمنه سيرته الذاتية، علماً أنه كان حاكماً لهونج كونج قبل انتقالها إلى السيادة الصينية عام (١٩٩٧م).

ونقول أخيراً: استطاع الاستشراق الثقافي ثم العولمة دغدغة مشاعر أبناء العروبة لتأليبهم على الحكام الوطنيين والقوميين، ومساعدتهم في تحقيق شيء قليل من الديمقراطية الليبرالية الغربية واهمين إياهم أنها ستجلب لهم الحرية والكرامة. ولهذا شجعت دوائر الاستشراق والعولمة تشكيل مجتمعات مدنية وجمعيات فكرية وسياسية تدعو إلى تطبيق الديمقراطية السياسية في داخل الأوطان العربية، بيد أن الإشكالية الكبرى في ذلك كله أن الدعوة إلى الديمقراطية السياسية في الشرق العربي دعوة حق يراد بها باطل، إذ كانت مطية للتخلص من القيادات الوطنية الحاكمة ثم وسيلة إلى هَدْم المشروع القومي.

٤ ـ منهج قراءة التاريخ العربي والإسلامي:

تأكد للمرء في ضوء ما تقدم أن الاستشراق الاستعماري لم يتورع عن قراءة التاريخ العربي والإسلامي إلا وفق مناهجه ورؤاه وثقافته. ثم جاءت العولمة الأمريكية لتصمم على هذا المنهج العدائي والمجافي للحق والموضوعية والعلم والمعرفة. ولتؤكد في الوقت ذاته أن العولمة لا تعني العالمية لأن هذا المفهوم يستند إلى مجموعة الحقائق الدولية المرتكزة على احترام المجتمعات الأخرى والدول في إطار التوازن والتعاون، وانتقال الأفكار إليها من خلال الاستقطاب الثقافي (المثاقفة) من دون قهر أو ضغط، على حين أن العولمة ــ كما ينبغي أن تكون ــ هي نظام عالمي جديد ينظم البنية التحتية والفوقية للدول وفق العلاقات الدولية المؤسسة على توازن القوى الكبرى. أما العولمة الأمريكية فقد أبرزت ذاتها في خصائص لمستها الشعوب من خلال زيادة البطالة وانخفاض الأجور وتدهور حاد في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمعات الفقيرة.

ولذلك كله فالعولمة بكل صنوفها نقيض للعالمية التي اتصفت بها الحركات الدينية كالإسلام والمسيحية التي تسعى العولمة إلى القضاء عليها. ومن ثم فقد قرأ المستشرقون وأقطاب العولمة التراث العربي عامة والديني خاصة قراءة مجتزأة، أحادية الاتجاه، مصابة بالعصبية والهوى، والتحريف والتشويه والحذف؛ فضلاً عن أن هذه القراءة وقفت عند عدد من الشخصيات أو الأحداث أو الظواهر التي تلبي أهداف الاستشراق والعولمة سواء كانت قراءة إيجابية وهي نادرة أم سلبية وهي السائدة.

ولعل الاستجابة القاتلة لهما ذلك الذي ظهر عند عدد من العرب الذين طبقوا مناهج الغرب وطرائقه في القراءة وعزفوا عامدين عن أكثر ما قدمه أجدادنا في هذا الشأن. فالقراءات الحداثية لم تَتبنَّ الرؤية الحضارية المتكاملة؛ فتقف عند الإيجابيات والسلبيات لتجعل التاريخ درساً للعبرة، وطريقاً للمعرفة، من أجل بناء المستقبل(١).

فلو أخذنا قراءة العهد الأموي ــ مثلاً ــ وأحصينا الجهود والقراءات فيه؛ لتبين لنا أن أغلبها ركز على مفهوم الانقلاب السياسي في الحكم ونقل مبدأ الخلافة من الشورى إلى النظام الملكي الوراثي... ثم رُسمت حدود هذا العهد

---

(1) راجع القراءات المتعددة للتراث من الفصل الأول في (إشكالية وعي التراث).

ونتائجه بمقدارٍ وجود هذا الخليفة أو ذاك وتوجيهاته العامة للرعية والخاصة لولاته... وركّز على عدد من الولاة فنُبش كل ما يمكن أن يشوه ملامح صورتهم وتغافلوا عن حسناتهم كالحجاج بن يوسف الثقفي.... ومن ثم ركزت القراءات على الصراع المذهبي والطائفي الذي يزيد من تجسيد التفتيت الفكري والنفي لبناء المشروع القومي...

وبناء على تلك القراءات لم يعرف الناس شرقاً وغرباً من العهد الأموي إلا أنه عهد جور وظلم واغتصاب للحق والخلافة؛ عهد فتنة ومكائد وصراعات؛ عهد ترف وخلاعة في أغلب مدته...

ولو قمنا بإحصاء معرفي لتوثيق ذلك لرأينا نسبة عالية من الناس يدركون مثل هذه المسائل التاريخية... لكننا لو سألناهم: من بنى أول بيمارستان في العالم، وأين؛ وما طبيعة نظامه الداخلي والخارجي؟ لتبلّم اللسان وصمت. فأغلب الناس لا يعرفون أن أول بيمارستان بني بدمشق على يدي الوليد بن عبد الملك سنة (٨٦هـ/٧٠٥م)... فقد أطَّر هذا البيمارستان بكل جدارة فكرة رائدة ومتقدمة عما نفهمه اليوم من كلمة (مشفى)، بل كان لــه نظام دقيق في أرزاق الأطباء والمرضى في النقاهة والأدوية... وهناك أقسام مختصة بالأدواء والعلل والصيدلة، وأجنحة خاصة وحدائق وعناية بالنظافة واللباس.... وأقسام للمراجعة...

ولا أريد الاستفاضة بذلك، ولا الحديث عن بناء عبد الملك بن مروان لمسجد قبة الصخرة وبيت المقدس، ولا بناء ابنه الوليد للمسجد الأموي، ولا تجديد الكعبة المشرفة، ولا رصف أسواق من دمشق بالحجارة، وإنارتها.

وكذلك لحق الظلم والتشويه والتضليل العصر العباسي عامة وهارون الرشيد خاصة فأكثر ما قيل فيه وكتب عنه لم يكن إلا نتيجة القراءات الاستشراقية المنظمة والمخطط لتشويه صورتهما. وتراني في هذا المقام أميط اللثام عن دراسة واعدة للباحث التونسي محمد لطفي اليوسفي تحدثت بشكل جيد عن مكايد الاستشراق تناولها في كتابه (فتنة المتخيل).

وفي صميم ما تقدم ندرك أن التاريخ العربي والإسلامي لم ينظر إليه في قراءات أغلب المستشرقين وبعض أقطاب العولمة؛ وبعض رواد الفكر العربي والثقافي نظرة حضارية متقدمة ولا درس دراسة موضوعية شاملة. ولا شيء أدل على هذا كله من أننا ــ نحن العرب ــ ما زلنا نعالج تاريخنا وفق مناهج الغرب وتصوراته ورؤاه؛ على الأغلب. وكأن الغرب ــ وحده ــ من ملك

الحقيقة المعرفية. فالذهنية المعرفية العربية ــ غالباً ــ أبت إلا أن تكون تابعة لدوائر الاستشراق والعولمة ولا سيما حين رهنت مكوناتها المعرفية والعلمية والتقنية والاقتصادية والتنموية لك ما جاء من الغرب، وهنا تكمن الإشكالية الكبرى.

وأخيراً نقول ــ وبناء على ما تقدم كله ــ: كان لمقولة المفكر الفلسطيني المرحوم إدوارد سعيد (شرقنة الشرق)(١) قيمتها العظيمة في إيقاظ الفكر العربي والإسلامي وتنبيهه على غاية الاستشراق والعولمة، وهو الذي أتقن اللغة الإنكليزية وخبر ثقافة الغرب؛ وهو من عاش في أمريكا وتجنس بجنسيتها وأتقن منهجها في الحياة والفكر ولكنه لم ينس لحظة واحدة انتماءه العربي الأصيل ولا الثقافة المستبدة التي تناولها في كتابه (الثقافة الإمبريالية ــ ١٩٩٣م).

ولعل هذه القراءة لا تخالف كثيراً ما جاء به في كتابه القيم (الاستشراق: المعرفة ــ السلطة ــ الإنشاء ــ ١٩٧٨م)؛ بل انبثقت من معين فكره؛ ثم توجهت هذا الاتجاه في الربط بين الاستشراق الاستعماري والعولمة من جهة الهدف والوظيفة والأشكال... وحين كان يميط اللثام عن العديد من الأفكار الاستشراقية الاستعمارية كان يؤكد تفاعله مع منطق العصر الذي تسود فيه أفكار العولمة الأمريكية التي تمتاز بالرؤية المنهجية والمعرفية والقدرة على استيعاب التحولات الدولية والعلمية والفكرية وتسخيرها لمصالحها. وهذا ما تناوله في كتابه المثير (تغطية الإسلام ــ ١٩٨١م).

ولعل هذا كله ينقلنا دفعة واحدة إلى القسم الثاني الذي يتحدث عن مفهوم الهوية العربية والعولمة.

---

(1) انظر الاستشراق ٤١.

القسم الثاني - الهوية العربية وثقافة العولمة:

لعل ما جرى من تطورات هائلة في القرن العشرين، ومن أحداث كبرى في الربع الأخير منه؛ وفي مطلع الألفية الثالثة ولا سيما بعد أحداث (١١/٩/٢٠٠١م) يدعونا إلى وقفة تأملية للذات؛ ليس لاكتشافها فحسب؛ وإنما لضبط حركة الأمة وكيفية النهوض بالفعل النوعي المطلوب منها لتوظيف ما تملكه من قدرات ومقدرات مادية وبشرية وطبيعية وفكرية وإنسانية، وتسخير ذلك كله لمصالحها.

إن سيرورة التاريخ الإنساني قد حددت هوية كل أمة؛ وميزت جوهرها بخصائص محددة الملامح تميزها من غيرها. فإذا كان للهوية عدة معانٍ فقد انتهت تلك السيرورة إلى أنها تعبر عن الصفات الجوهرية للشيء أو الشخص أو الأمة باعتبار ما تحققه من وجود ذاتي يمتد من الماضي إلى الحاضر ويعبّر عن ماهية داخلية وخارجية؛ ومن ثم فهي منسوبة إلى الضمير (هو) كما ذهب إليه الفلاسفة(١) . وهذا الوجود يستلزم قدمه وبقاءه بذاته؛ ما يعني أن الهوية هي "الوجود المحض الصريح المستوعب لكل كمال وجودي شهودي"(٢) تغدو (الأنا) فيه جزءاً من (هو) الممثل للجماعة وللآخر. أي " إن انتماء الفرد إلى كل أكبر هو أساس الهوية القومية؛ فالأمة المثالية تتألف من الناس الذين توجد لديهم خواص عرقية واحدة؛ وثقافة واحدة؛ ولغة واحدة، وتقاليد تاريخية واحدة، ويسكنون في جزء متميز من الكرة الأرضية"(٣). ومن ثم فإن " الدولة القومية أو الدولة الأمة بوصفها بنية اجتماعية سياسية هي اتحاد مكونين منفصلين هما الأمة والدولة. فالأمة هي مجموعة من الناس الذين يصلون عبر خبرة تاريخية مشتركة إلى إعطاء هوية مشتركة لأنفسهم بوصفهم مجموعة موحدة ويتكلم هؤلاء الناس عادة لغة مشتركة، ويشتركون ــ أيضاً ــ في العرق والثقافة والتقاليد التاريخية كما يسكنون في أرض تكون متصلة ولا يفصل بينها شيء"(٤).

---

(1) انظر: المعجم الفلسفي ٢/٥٢٥ و ٥٢٩ ــ ٥٣٢ــ جميل صليبا ــ دار الكتاب اللبناني ــ بيروت ــ ١٩٨٩م.

(2) المرجع السابق ٢/٥٣٠.

(3) النظام العالمي الجديد: الحاضر والمستقبل ١٦١ ترجمة نافع أيوب لبّس ــ اتحاد الكتاب العرب ــ دمشق ــ ٢٠٠٠م.

(4) النظام العالمي الجديد: الحاضر والمستقبل ١٦١.

وهذا يعني أن المكونات الأساسية للهوية تتصف بخصوصية تاريخية لكل أمة؛ وتشكل الثقافة أهم عناصرها. وتملك الأمة العربية كل المقومات التي تؤهلها إلى حيازة الصفات الكاملة للأمة والتي أشارت إليها وثيقة (كامبل بنرمان) في العام (١٩٠٧م)(١)، علماً أن هناك عدداً من الآيات القرآنية تشير إلى مثل تلك الصفات كقوله تعالى:" ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة" (المائدة٥/٤٨) وقولــه: " تلك أمة قد خلت" (الأعراف ٧/٣٨) وقوله: " ولكل أمة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم" (الحج ٢٢/٣٤)، فضلاً عن أن لفظ الأمة ورد في القرآن بصيغة المفرد تسعاً وأربعين مرة وبصيغة الجمع (أممكم) ثلاث عشرة مرة، وبمعان مختلفة. وهذه الخصوصية تفرض علينا إعادة صياغة مفاهيمنا وحياتنا صياغةً موضوعية معرفية ومنهجية وعلمية لبناء الذات العربية وبناء قدرتها الحيوية للوقوف في وجه حركة التغيير الماحقة التي تستهدفها على صُعُد شتى؛ بما فيها الوجود قبل الثقافة والتراث... فحركة التغيير التي هبت ريحها العاتية من الغرب منذ أمد بعيد تتركز اليوم بقيادة أمريكا الإمبريالية والصهيونية العالمية... وقد تسلّح كل منهما بفلسفة القوة الفائضة عسكرياً وتقنياً ومعرفياً وإعلامياً؛ وراح يعمل على تفكيك عناصر الهوية العربية عنصراً عنصراً لا يستثني واحداً منها من اللغة إلى الجغرافية والتاريخ والعقيدة...

ومن ثم فالريح العاتية القادمة إلى الوطن العربي قد عصفت بأوتاد الخيام العربية المبعثرة التي تعمقت بتنافس الإرادات العربية القطرية للاحتفاظ بتلك الخيام الضعيفة والمتخلفة... وهي الخيام التي نشأت في الأصل إثر اتفاقية (سايكس ــ بيكو) في (١٥/٥/١٩١٦م) ثم حافظت عليها الأنظمة الحاكمة مخلصة؛ وباركتها وسوقتها قرارات الهيئات الدولية وعلى رأسها الأمم المتحدة...(٢)

ثم إن العديد من الأنظمة العربية عجزت عن الاستجابة الصادقة والفاعلة لمتطلبات الشعب العربي إذا لم نقل: إنها ظلت على الدوام لا تنتج إلا أشكالاً طفيلية وتابعة، تترعرع وتنمو في تربة التجزئة والتخلف، سواء منها تلك التي ظهرت بسبب الانقلابات العسكرية؛ أم التي وجدت باكتشاف الثروات الباطنية أم تلك التي زرعتها أوربا الاستعمارية في ديار العرب وغذّتها بكل الأدوات

---

(1) انظر: حقائق الصراع وأوهام التسوية ١٥٩.

(2) انظر: منابع الإرهاب ٢٠١ــ ٢٠٥.

والوظائف، إذا أهملنا أثر الكيان الصهيوني الذي زرع في قلب الأمة العربية أداة إجرامية لإعاقة المشروع النهضوي للأمة.

ومَن يمعن في قراءة التاريخ العربي في القرن العشرين يدرك أن بعض الأنظمة عجز عن حماية مصالح دوله ومواطنيه، ومن ثم تهددت مفاهيمهم ومبادئهم ولا سيما مفهوم الهوية. ولهذا فإن صيحات غير قليل من المفكرين والمثقفين والمخلصين من الساسة، والعديد من المؤسسات الثقافية والعلمية لم تستطع أن تفعل شيئاً لإيقاف حالة التدهور التي استمرت بعد انتكاسة المشروع النهضوي العربي الذي ظهر للوجود إبان عصر النهضة...

ويمكننا في هذا المجال أن نشير إلى ما تبنته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (أليكسو) من وثائق تعزز مفهوم التعاون القومي، وكذا هي آراء مديرها السابق الدكتور محيي الدين صابر إبان ثمانينيات القرن العشرين؛ ومن آرائه(١):

١ ــ العمل القومي الثقافي التربوي: وهو عمل ينبغي أن يستند إلى مبدأ التعاون الفاعل والمتكامل بين الدول العربية لإحداث تنمية ثقافية وفكرية وتربوية لا تنشغل بالنزاعات المحدودة، ولا بالاختلاف الإقليمي؛ ولا بالتباين المذهبي أو الطائفي.

٢ ــ التراث العربي والإسلامي: إن العناية بهذا التراث وإبرازه بأسلوب ناجح وجذاب باعتباره دافعاً لنهوض الأمة، وليس باعتباره مادة للاختلاف والفرقة يعد ضرورة لا مناص منها.

٣ ــ اللغة العربية: إن نشر اللغة العربية في الداخل والخارج مهمة حيوية للأمة لإحداث التجانس الداخلي، ولإقامة حوار ثقافي معرفي وعلمي ومنهجي عالمي يستند إلى التكافؤ والمساواة... وهي قادرة على الوفاء بمتطلبات العلم والمعرفة...

٤ ــ إقامة تعاون دولي حقيقي لتنمية الثقافة العربية والإسلامية مع الآخر وفق مفهوم الحوار الإيجابي... فهذه الثقافة بما تملكه من خصائص ذات بعد أخلاقي وإنساني يعترف بالآخر ويؤمن بتميزه ويجعل الهوية العربية ليست نتاجاً للماضي، وإنما هي جزء لا يتجزأ من الذات المعاصرة في كل تجلياتها الوجودية والمعرفية...

---

(1) انظر: العمل الثقافي العربي المشترك ــ د. عبد الله أبو هيف ــ صحيفة تشرين ــ دمــشق ــ عدد ٩٢٤٩ ــ الأحد ١٥ /٥/ ٢٠٠٥م.

ولكن صيحة الدكتور صابر وأمثالها ذهبت أدراج الرياح، فقد ظلت التجزئة وكذلك التخلف والفقر والقهر سائداً أو مسيطراً على الشعب العربي على الرغم من كثرة الموارد التي تزخر بها أرض بلاده، بل ظلت العلاقات البدائية منهج التعاون والالتقاء بين الأنظمة العربية الحاكمة...

ولسنا الآن في صدد الحديث عن هذا كله ولا في صدد الحديث الإجرائي للتفريق بين الهوية العربية والعولمة (الأمركة) على أساس أنهما مشروعان متناقضان؛ وإنما نحن في صدد بيان ما تقوم به العولمة من نفي صريح للهويات المغايرة لها لصالح ثقافة واحدة تهيمن على مختلف الثقافات وإذابتها فيها. وحينما نشير إلى هذا كله فإننا نريد إيضاح ما آلت إليه حال الأمة في تهديد أبنائها لهويتها الجامعة بعد أن أسست الأجيال السابقة مفهوم الهوية والأمة بشكل واضح أمثال الشهرستاني (٤٧٩ ــ ٥٤٨هــ /١٠٨٦ ــ١١٥٣م) الذي قسم الأمم إلى أربع وفق مفهوم اجتماعي تاريخي وهي (العرب، والعجم؛ والروم والهند) ومن ثم وفق مفهوم ديني (مذاهب الأمة) و (أئمة الأمة)(١).

ثم تأصل المفهوم الاجتماعي الثقافي التاريخي عند ابن خلدون (ت ٨٠٨ هــ/ ١٤٠٦م)، إذ تتكرر لديه عبارة (الأمم والأجيال)(٢). ثم حدد أنه لابد لكل " أمة من وطن هو منشؤهم ومنه وإليه ملكهم"(٣)، ولهذا كان ينظر إلى دمشق وقنّسرين وغيرهما باعتبارها أقاليم وأمصاراً من جسم الوطن فيقال: " جند قنسرين؛ جند دمشق، جند العواصم..."(٤).

فالوضع الفكري الثقافي لهذه الهوية قد انحلت عراه لعدم وجود رغبة حقيقية وصادقة عند عدد من الأنظمة الحاكمة لتغيير واقع الأمة؛ و(إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم) (الرعد ١٣/١١).

ولما أصبحت غالبية الأنظمة العربية الحاكمة المتمسكة بدولها القطرية إنجازاً استعمارياً منذ سايكس –بيكو، ثم إنجازاً عربياً يقوم بتصريف المصالح الخاصة بتلك الأنظمة التابعة، ومن ثم حراسة المصالح الخارجية ولا سيما الأمريكية.. ولما انتهت الأمة العربية إلى تمزق نفسي داخلي، وتصدّع فكري

---

(1) انظر: الملل والنحل ــ للشهرستاني ــ دار المعرفــة ــ بيــروت ــ ١٩٧٥م ــ ١٤/١ و١٥ و٢٤ و٢٨.

(2) مقدمة ابن خلدون ــ تحقيق علي عبد الواحد وافي ــ طبعة لجنة البيان العربــي ــ ١٩٥٧ ــ ١٩٦٢م ــ ص ٢٠٧ و٢٠٨ و٢١١ و٢٤٨ و ٢٥٢ و ٢٥٣ و٢٥٨ و٤٢٥.

(3) المصدر السابق ٨٨٢.

(4) المصدر السابق ٤٢٦.

معرفي، وتشظٍّ وجودي جغرافي، ولما انتهى الشعب العربي إلى حالة الإذلال والفقر والجهل ــ وهي حالة أدّت به إلى قابلية عجيبة للخنوع والرضا ــ نقول: لما كان ذلك كذلك فإن تلك الأنظمة والعديد من المثقفين والمفكرين والساسة، والمنظمات الحزبية والشعبية قد أسرعت جميعها إلى السعي الجاد لمواكبة حركة التغيير التي تلبس لباس التغيير الطوعي الموضوعي. فهناك عدد غير قليل من الدول العربية أخذت مواقف جديدة، وشرعت توجه مناهجها وعلومها وحياتها بما يتوافق وثقافة العولمة بحجة الإصلاح، وادعاءً بالحفاظ على كرامة الأوطان والشعوب. وكأن أرباب هذه الدول قد استجهلوا الشعب العربي الذي لم يدرك هرولتهم إلى إرضاء أمريكا التي تفردت اليوم بالهيمنة على العالم، وإلى مهادنة الصهيونية العالمية التي سخرت أوربا من قبل لمخططاتها، ثم ها هي ذي تسخر أمريكا والعديد من دول العالم لغاياتها التي رسمتها (بروتوكولات حكماء صهيون) وتعاليم تيودور هرتزل في كتابه (الدولة اليهودية) وفي غيره. وفي هذا المقام نذكّر بأن الشخصية القومية لأي أمة تتشكل بوساطة التربية المستمرة للمدرسة والبيئة الاجتماعية والثقافية والدينية؛ وما تقوم به المؤسسات المتنوعة ثقافياً وعلمياً وإعلامياً. ولمّا عملت أنظمة عربية عديدة على الاستجابة السريعة لمتطلبات العولمة (الأمركة) كانت دولة الكيان الصهيوني تعزز الحقد والكراهية والتعصب في نفوس أبنائها ضد العرب، مستغلة الضعف العربي وتأييد الإدارة الأمريكية، وبعض عواصم الغرب لها. فالكيان الصهيوني يشحن في أبنائه الأفكار القومية اليهودية والصهيونية فيدرسهم التوراة والتاريخ اليهودي، وتاريخ القبائل اليهودية. وقد نجحت المؤسسات الصهيونية في خَلْق نمطية ثقافية عنصرية ثابتة تجاه العرب، وقد ورد في سفر التثنية رقم (٢٠) ما يلي:

" حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها، وإذا دفعها الرب ــ إلهك ــ إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف".

فالإدارة الأمريكية لم تر هذا النص الذي يدرس في مدارس الكيان الصهيوني على حين راحت تتدخل في مناهج بعض الدول العربية لحذف آيات الجهاد من مفرداتها؛ اللهم إذا تجاهلنا ما يجري من حرب شرسة ضد اللغة العربية، على حين منع الكيان الصهيوني التدريس بغير اللغة العبرية في المدارس والجامعات .

ولعل العديد من الأنظمة العربية الحاكمة لم تستشعر مدى الخطورة في كل ما تقوم به في جعل أوطانها تابعة مستعبدة لثقافة الهيمنة، ولأهداف الصهيونية العالمية؛ وكأني بهم لا يفرقون بين الوطنية والانتماء وبين التبعية والعمالة، وكأنهم صنيعة للثقافة الغربية والأمريكية، لا هم لهم إلا الحفاظ على مصالحهم الخاصة. لهذا فإن لم يسرعوا في إصدار الآليات المغيّرة للمصطلحات القديمة وطنية وقومية فإن ولاءهم لأسيادهم سيغدو مشكوكاً فيه..

هكذا أخذت غالبية الأنظمة العربية تروّج لكل ما هو قادم مع العولمة الأمريكية، وتتنافس في عملية الإصلاح والتحديث وفق متطلباتها، وتسخر كل ما لديها من تقنيات وإعلام وأساليب لإجراء عملية تغيير تربوية وعلمية وثقافية للتخلي عن عدد غير قليل من المصطلحات المنتجة للمفاهيم والأفكار التي صاغتها بنفسها ذات يوم؛ أو لتحريف كثير منها مما آمنت بها فضلاً عن تزييف جوهرها بعد أن أصبحت النفوس والعقول مسلوبة الإرادة والثقافة الحرة والمستقلة.. لهذا نراها تغير جلدها في كل وقت وحين لإيهام الشعب العربي بصحة ما تقوم به، ولا تخدع إلا نفسها ولا تتخلى إلا عن هويتها.

ومن ثم فما تسمعه آذان الشعوب من صيحات التغيير والإصلاح إنما هي صيحات مزيفة لن يكتب لها النجاح لأن آذان الشعب العربي ليست مصابة بالصمم، وكذلك عيونه لم تبتلَ بالعمى لرؤية عظمة التزييف والإلغاء الذي يكتب على صفحات الصحف والمجلات، وفي بطون كتب عديدة و.. فإذا استطاعت الثقافة الأمريكية الجديدة أن تصل إلى شيء من أهدافها حين أخذ بعض العرب على عاتقهم قلب الطاولة على رؤوسهم وتبنوا الفلسفة الغربية في كل اتجاه سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وتقنياً وكانوا فرحين ما داموا ينعمون بالطعام والشراب فإن هذا لن يطول ويستمر، فأمتنا ليست منتجة اليوم للأفكار والمصطلحات والتقنيات والنظريات و... ـ وهذا صحيح ـ لكنها تدرك أن دورة الحضارة غير ثابتة.

ونتساءل ما الضَّيْر في أن يتخلى هؤلاء الحكام عن الهوية العربية والمقاومة والتراث وكل قيم الخير والفضيلة ما دام ذلك يبقيهم في مواقعهم؟.

لهذا كله لم ينتفع أغلب الأنظمة الحاكمة من كثرة انعقاد المؤتمرات السياسية والعلمية؛ والثقافية والإعلامية و... بما فيها مؤتمرات القمة العربية ولقاءات الوزراء والخبراء والمؤسسات العربية العديدة. ويبدو أنه قد لحق بأمتنا العربية من جراء ثقافة التغيير تلك ما لم يلحق أي أمة أخرى على الصُّعُد كلها،

أفراداً وجماعات. فالمشروع النهضوي القومي أخذ يتراجع إلى الخلف وبدأ يتلاشى على الرغم من وجود الأحزاب القومية، والحركات الوحدوية التي ظهرت في عقود النصف الأول من القرن العشرين. وغدا الطعن في الهوية العربية ظاهراً للعيان من خلال التخلي عن المصطلحات التي تمثل روح المفاهيم وخلاصتها، وطفقت الألسن تعبث بكل ما هو قومي؛ علماً أن "العروبة تعبّر عن الانتماء إلى الأمة. وهذه الأمة تكونت في الإسلام في إطار التاريخ، وعلى قاعدة اللغة والثقافة. فأساس القومية العربية ثقافي، فهي ليست عنصرية"(١)؛ ولا ضعيفة الخَلْق والماهية ــ وإن ضعف أبناؤها ــ وهي "حقيقة نابعة من أعماق الذات العربية ومن تفكير كل عربي وشعوره، أينما كان منزله. وهي تعبير عن شخصية الأمة العربية وأمانيها وحاجاتها ومصالحها؛ وما هو قائم بين أبناء العروبة من أواصر التاريخ والتراث الثقافي واللغة الواحدة والمصير المشترك"(٢) فهي عند الأفغاني ومحمد عبده (التوحيد)، وعند شبلي شميل (المجتمع العضوي) وعند انطون سعادة (الأرض) وعند الأرسوزي وساطع الحصري (اللغة)(٣).

وعلى الرغم من هذا كله فقد انطلقت صيحات وكتابات في أزمات شتى وأماكن عديدة تتساءل عن مشروعية الهوية العربية وفوائدها، متناسية، أو غافلة، أو منكرة لجوهرها المشار إليه، وغير معترفة بما جاء في القرآن الكريم: (إن هذه أمتكم أمة واحدة) (الأنبياء ٩٢/٢١ والمؤمنون ٥٢/٢٣) و(كنتم خير أمة أُخرجت للناس) (آل عمران ١١٠/٣)...

وكذلك تتساءل عن فائدة الجامعة العربية وقيمتها وقيمة مؤسساتها المنبثقة عنها. ثم ما نفع كوننا ننتمي إلى أمة واحدة وبعضنا يمعن في العداوة للآخر، ويتآمر عليه؟

وما نفع الهوية العربية التي غيّبها أغلب الحكام العرب، إن لم يكونوا قد شوهوا صورتها الإنسانية لمزيد من المصالح الخاصة بالحفاظ على التجزئة والقطرية؟ وما نفع انتمائنا فكرياً وتاريخياً ولغوياً وثقافياً وحيّزاً جغرافياً إلى جوهر واحد؛ ونحن أبعد ما نكون عن العروبة في سلوكنا وحياتنا وسياستنا

---

(1) انظر: الهوية الثقافية العربية والتحديات التي تجابهها ــ ص ١١٣ ــ ضمن كتاب (النهــضة العربية الثانية: تحديات وآفاق) تحرير غسان عبد الخالق ــ مؤسسة عبد الحميد شــومان ــ عمّان ــ ٢٠٠٠م.

(2) أعمال المؤتمر الثالث للأدباء العرب ــ ص ٢٩٣ ــ القاهرة ــ ٩- ١٥ /١٢/ ١٩٥٧م.

(3) انظر: أفكار لزمن قادم ــ منصور إبراهيم ــ دار الشموس ــ دمشق ــ ١٩٩٩م ــ ص٣٣.

و... على حين أن أوربا شكلت بإرادة الآمال وحدتها الثقافية والمعرفية والسياسية على نحو متشابه، وإن لم يكن متطابقاً؟ وقيل: إن العولمة تساعدنا كثيراً وفق مفاهيمها للتوحد الاقتصادي وتوحيد مفاهيمها الفكرية والفلسفية. ولهذا يتساءل أحدنا: ألا يمكن أن نأخذ منها ما يفيدنا في هذا المجال أو ذاك؟ أم أنكم ترغبون في استمرار التخلف والفقر والظلم؛ ودوام التجزئة، أكثر مما ترغبون في الوحدة؛ لأن التجمع ــ وفق الواقع الذي نعيش فيه ــ صار وهماً، والتشتت صار مبدأ لكم وطبيعة؟!.

ومن ثم لم يتحقق للقومية العربية أي نجاح في تكوين هويتها الواحدة حتى الآن؛ وإن شهدت أواخر الخمسينيات في (٢٢/٢/١٩٥٨م) أول عمل وحدوي بين سورية ومصر؛ لكنه سرعان ما قضى الانفصال عليه في (٢٨/٩/١٩٦١م). أما التجارب الوحدوية الأخرى مثل اتحاد دول الخليج العربي، والاتحاد المغاربي فما زالت خطواتها متواضعة(١). ولا عجب بعد هذا أن يظهر في ديار العرب مثقفون يزعمون أن مفهوم الهوية العربية ليس إلا مفهوماً سكونياً؛ بل "إن الهوية وَهْم ينسجه السياسيون لكي تتماسك به الحقيقة المفككة"(٢).

ولعل من أطرف ما يجري في هذا المقام ما يقع من روح الاستهزاء بالقومية حين تنعت [بالقومجية] تحت دعاوى الإقليمية الضيقة، أو تحت مزاعم العمل على تغيير أنفسنا أو المحافظة عليها... وقد وقع تحت عيني في زاوية (أبجد هوز) في الصفحة الأخيرة من صحيفة (الثورة)، وبعنوان (قلب الطاولة) ما يشي بذلك كله فيما تضمنه ردّ كاتبته على مقال ما في إحدى المجلات... ومما ورد فيه قولها: "بينما تزخر المجلة بمقالات تدعو لمسايرة رياح التغيير تخرج علينا صفحتها الثقافية قومجية، لكن من حسابنا وعلى حسابنا كوننا سوريين"(٣).

فهذا الكلام وأمثاله يثبت لنا البعد الحقيقي لدلالة قلب الطاولة، فهو انقلاب مخيف على مفهوم القومية العربية في عاصمة العروبة (دمشق)، ودليل على تبني الروح القطرية، مهما كانت ذرائع الكاتبة في انتصافها لمبدع على آخر،

---

(1) انظر: أفكار لزمن قادم ٣٨ ــ ٥١.

(2) انظر: هوامش على موضوع الحرية ــ د. علي عقلة عرسان ــ جريدة الأسبوع الأدبي ــ كلمة أولى ــ اتحاد الكتاب العرب ــ دمشق ــ عدد ٩٥٨ ــ السبت ٢١ /٥/ ٢٠٠٥م.

(3) انظر: الصفحة الأخيرة (١٦) من صحيفة الثورة ــ دمشق ــ العدد ١٢٧١١ ــ الاثنين ٢٣ /٥/٢٠٠٥م ــ قلب الطاولة ــ ديانا جبور. وراجع ص ٨٣ حاشية ٣.

أو ردّها على كاتب لـــه وجهة نظر في مبدع من المبدعين. فلم يكن دفاعها عن (أدونيس) انتقاصاً من (ممدوح عدوان) بل تعزيزاً للمنطق الإقليمي ولا سيما حين تقول: "هل استكثر علينا الكاتب أن يمتدح أو يعجب بسوري دون أن يجعلنا ندفع من رصيدنا ضريبة هذا الإعجاب...؟".

ونحن لا ننكر وجود الإثنية الممثلة بالوطنية الذاتية لسورية أو مصر أو السودان أو المغرب أو السعودية، وبالقومية الممثلة بالعروبة الجامعة لهذه الأقطار الوطنية ولكننا ننكر أن يجري الحديث عن العروبة بهذه الاتجاهات المنحرفة والضَّالة والمزيفة للتاريخ والمصير المشترك بين أبناء الشعب العربي... فإذا كانت الهوية العربية تواجه تحدياً خارجياً ضَاغطاً بأشكال شتى كالعولمة الأمريكية وأمثالها، تحدياً يسعى إلى تغير قسري ينتهي إلى حالة تزييف كبرى بحق العروبة ثم إلغائها فإن ما يجري في الداخل العربي من أبناء العرب أشد مرارة مما يجري من قبل العولمة الخارجية. فالهوية ــ وفق ما عرفها ألكس ميكشيللي ــ "مركب من العناصر المرجعية المادية والاجتماعية، والذاتية المصطفاة التي تسمح بتعريف خاص للفاعل الاجتماعي"(١) وهذا أكثر انطباقاً على الهوية العربية من غيرها.

وفي ضوء ذلك كله وجدنا إشكالية كبرى أخذت تتداح في ديار العروبة حول ماهية الوحدة الجامعة للشعب العربي باعتباره أمة واحدة... ولعل فيما قاله الدكتور طيب تيزيني ما يفيدنا في هذا الاتجاه، ومنه "إذا ما حددنا هوية شعب أو أمّة ما بالفضاء اللغوي والبنية الاثنية العامة والنظم السوسيو ثقافية ــ وهي ذات انتماء تاريخي مفتوح ومتحرك ــ فإن الهوية الثقافية العربية هي تجلٍّ ثقافي خصوصي لتلك القومية العامة. ومن ثم فإن من يعرض لهذه يعرض لتلكَ ضمن آلية التجادل بين العام والخاص. يصحّ القول بأن التحدي الذي تواجهه الثقافة العربية هو كذلك تحدّ للهوية القومية العربية، وذلك أنها ــ أي الأولى ــ تمثل الوعي الذاتي للثانية. من هنا وفي ضوء ذلك نلاحظ أن أكبر تحدّ تواجهه الثقافة العربية راهناً يقع منها في العمق، أي في هويتها"(٢).

وبناء على ما تقدم يثبت لنا أن الهوية العربية تواجه تحدياً كبيراً في حركة التغيير الثقافية التي تتزعمها مفاهيم العولمة، تحدياً في الوجود المادي والفكري

---

(1) الهوية ــ ألكس ميكشيللي ــ ترجمة علي واصف ــ دار الوســيم ــ دمــشق ــ ١٩٩٣م ص ١٦٩.

(2) التحديات التي تواجه الثقافة العربية راهناً د. طيب تيزيني ــ جريدة البيان ــ عــدد (٦١٠٥) ــ تاريخ (٦ /٣/ ١٩٩٧م).

على الرغم من كل ما تحوزه من خصائص جامعة كالتاريخ واللغة والتراث والثقافة والآمال والآلام المشتركة، وتعيش في حيّز جغرافي واجتماعي متشابك ومتماثل... أي إنها هوية تفاعلت وتتفاعل مع الزمان والمكان، والمجتمع واللغة والعاطفة والمصير المشترك؛ لأنها تكونت وتتكون بالممارسة والسلوك والعاطفة والثقافة، ونمت في بيئة الصفاء والنزوع الإنساني الذي يعلي من قيمة الإنسان؛ وكذا هي الهويات الحية الأخرى التي لا تتنكر لها وفق خصائصها المكونة لها... ومن ثم فإن العولمة التي تؤجج مفهومها وتصوغه بأشكال جذابة، إنما تعد شكلاً من أشكال صهر الهويات الثقافية في بنيته رغماً عنها.

لهذا كله فالهوية العربية ليست إقليمية محلية؛ وليست خرافة، أو وهماً؛ وليست مفاهيم سكونية جامدة؛ ولا يمكن للنكسات الحادة التي عانت منها الأمة أن تنال منها؛ وهي لا تشيخ بشيخوخة أبنائها، أو شيخوخة الجنس البشري، ولا تتحول إلى غيرها أياً كانت المحاولات التي تتعرض لها ابتداء بمحاولات الاستشراق الاستعماري ونشر مدارسه التبشيرية؛ ومحاولات الاستعمار الأوربي، وباكورتها اتفاقية سايكس ــ بيكو التي وزعت الوطن العربي غنائم بيده؛ وانتهاء بمنطق الهيمنة الأمريكية الذي يسعى جاهداً لزرع الوهم والإشكاليات في جوهر القومية العربية مسخراً كل ما لديه من إمكانات للقضاء عليها؛ ومستغلاً حال الأمة البائس، وقابلية كثير من أبنائها للتحول والتلون والتغيير.

ولا شيء أدل على الوضع الفكري السياسي البائس من تلك الهزائم الساحقة التي لحقت بالأمة فضلاً عن ازدياد الفقر والجهل والقهر؛ ابتداء بنكبة فلسطين التي احتلها الصهاينة، وأعلنوا فيها كيانهم في (١٥/٥/١٩٤٨م) واعترفت به أمريكا والاتحاد السوفييتي ــ آنذاك ــ، وكان إنشاء هذا الكيان بقرار من هيئة الأمم المتحدة؛ وهو الكيان الوحيد الذي أنشئ بقرار أممي... وانتهاء باحتلال أمريكا للعراق في (٩/٤/٢٠٠٣م) إثر حرب همجية بدأتها في (٢٠/٣/٢٠٠٣م) بمساندة بريطانيا وإسبانيا وأوستراليا وقلة قليلة من دول العالم هنا وهناك. وهي حرب لم تؤيدها الأمم المتحدة وعدد من دول الغرب مثل فرنسا وألمانيا وبلجيكا... كما وقفت غالبية دول العالم ضدها، ولم ينفعها شيء..

وبناء على سيرورة الأحداث التاريخية للوطن العربي المشار إليها وغيرها تأكد لنا أن الاستشراق الاستعماري(١) قد قام بمهمة التمهيد للاستعمار

---

(1) انظر: أفكار لزمن قادم ٨٦ ــ٨٨ و ١٤٢ ــ ١٤٨ وانظر من الاستشراق إلى العولمة ــ د. حسين جمعة ــ مجلة بناة الأجيال ــ عدد ٥٣.

الأوربي، وهذا وذاك أنبت ثقافة غربية مركزية ترى نفسها فوق الثقافات... ثم استلمت الولايات المتحدة زمام قيادة هذه الثقافة؛ وقد تضخمت لديها القوة الفائضة مادياً ومعرفياً وتقنياً وإعلامياً، واقتصادياً؛ في الوقت الذي تضخمت في الوطن العربي أفكار التجزئة بأيدي غالبية الأنظمة الحاكمة على حساب الهوية العربية. ولهذا برز الانتماء الوطني الضيّق بأشكال ومظاهر عديدة؛ كالحرص على الانتماء الخاص وعدم إذابته في العالم المتشابه أو الحرص على التنمية وتطويرها في أحد الأقطار ليصبح في مصاف من هو أكثر منه تطوراً، أو الخوف من الأخ الآخر؛ على حين لو تأمل أحدنا ـــ نحن العرب ـــ لما وجد فرقاً بين الانتماء الوطني والقومي على اعتبار مجموع العناصر المشتركة بين الانتماءين، وكلها تقع في صميم الهوية الواحدة.

وإذا كانت الهوية العربية ذات كيان خاص، مادياً وروحياً، ولم تعد مجرد تصوّر ذهني لأنها غَنيت بالتجارب الخاَصة للأمة فإن التحديات التي تواجهها اليوم لم تعد مجرد صراعات سياسية وثقافية واجتماعية و... بل أضْحَت تغييراً مدروساً منهجياً ومعرفياً، إعلامياً وتقنياً، نقدياً وأدبياً و.. يستند إلى فلسفة ثقافة القوة المهيمنة المحمية بالأصولية المتعصبة التي يمثلها المحافظون الجدد في البيت الأمريكي.

لنصغ ـــ جيداً ـــ إلى كلمات (جون غولد فليتشر) في مقالته (الشرق والغرب) فهو يذهب إلى أن الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ -١٩١٨م) أوضحت بما لا يقبل الشك أن "شرقاً يحيا تحولات سريعة، يمنح نفسه حق منازعتنا في أسبقيتنا الحضارية، وهو جاهز لتملّك آلياتنا، وأسلحتنا، ودبلوماسيتنا؛ وأساليبنا في إدارة الأعمال.. بغية إلحاق هزيمة بطموحاتنا في أن نكون أسياد العالم"(١).

ومن ثم فإننا نشير إلى أن الخطاب العنصري ـــ الغربي والأمريكي الذي يجدد نزعة التفوق والتسلط على الآخرين، إنما ظهر في بداية القرن العشرين مع (ولت وايتمان) (١٨١٩ ـــ ١٨٩٢م) مؤلف كتاب (أمريكا المسيحية

---

(1) الهوية القومية في الخطاب الحداثي العربي ـــ ٧٢ ـــ د. محمد لطفي اليوسفي ـــ مجلة الكاتب العربي.

العظمى) ومما قال فيه: "طبيعة أمريكا هي قدر محتوم يسير إلى الأمام، لا يقاوَم ولا ينخرق في وسط التهديدات وصياحات المناوئين"(١).

لهذا قال ريتشارد نيسكون إبان حرب فيتنام : "إن الله مع أمريكا، إن الله يريد أن تقود أمريكا العالم"(٢).

ثم لننظر في كتاب (أوريا فلاتشي) الذي ظهر من بعد في نيويورك سنة (٢٠٠١) بعد أحداث (١١ /٩/ ٢٠٠١م) وفيه رمت الكاتبة بكل حقدها العُنصري على العرب والمسلمين باعتبارهم أصل الشر والتوحش الذي يتهدد الغرب، ومما قالته: "يخطئ من يتصور أن الخطر الإسلامي قادم من أفغانستان فقط إذ لا يوجد أفغاني واحد بين الانتحاريين التسعة عشر في عمليتي نيويورك وواشنطن. إن انتحاريي المستقبل لديهم مناطق أخرى يتدربُون فيها؛ وجحور أخرى يحتمون بها. انظر جيداً إلى الخارطة؛ جنوب أفغانستان توجد باكستان؛ شمالاً ثمة الدول المسلمة التي كانت ضمن الاتحاد السوفييتي، وغرباً ثمة إيران، قرب إيران ثمة العراق، قرب العراق هناك سورية؛ قرب سورية ثمة لبنان الذي أصبح مسلماً؛ قرب لبنان يوجد الأردن المسلم، قرب الأردن توجد العربية السعودية المفرطة في الإسلام، ومن الجانب الآخر للبحر الأحمر توجد القارة الأفريقية بكل دولها الإسلامية بدءاً بمصرها وليبياها وصومالها. وكل هذه البلدان شيباً وشباباً يصفّقون منادين بالجهاد. إن الحرب بيننا وبينهم ليست عسكرية، إنها حرب ثقافية وفكرية ودينية وأخلاقية وسياسية. وهي المعركة التي يجب أن تكون بين الدول الديمقراطية والدول الاستبدادية"(٣).

لهذا كله فهم ــ ووفق زعم (ريتشارد بيرل) –يعيشون مع إسلام متخلف همجي؛ استبدادي وقدره أن يعيش في هذا العالم الذي يوجد فيه الإسلام.. لذا عليهم أن يتكيّفوا مع الواقع لهزيمة التخلف كما قال في برنامج لقناة الجزيرة بتاريخ الخميس (٢٦ /٥/ ٢٠٠٥م) وهو أحد اليهود المنظرين لحرب العراق..

وكذلك نجد أن ثقافة التغيير الأمريكية قد طالت المحرمات الفكرية والدينية عند العرب والمسلمين.. إنها ترفض كل ما لدى الآخر من مفاهيم، بما فيها

---

(1) أمريكا المستبدة ــ ٦٠ ــ ترجمة د. حامد فرزات ــ اتحاد الكتاب العرب ــ دمشق ــ ٢٠٠١م. اشتهر (وايتمان) شاعراً أكثر من أي شيء آخر؛ وأشهر شعره ديوان (أوراق العشب) الذي ترجمه الشاعر العراقي سعدي يوسف قبل سنوات، ونشر في بيروت.

(2) أمريكا المستبدة ــ ١٩٤.

(3) الهوية ــ ألكس ميكشيللي ــ ترجمة علي واصف ــ دار الوسيم ــ دمشق ــ ١٩٩٣م ص ١٦٩.

السيادة الوطنية التي أضحَت عائقاً بكل نظمها أمام العولمة سياسياً وثقافياً واجتماعياً واقتصادياً. أما الهوية القومية فهي الخطر الماحق الذي تسعى العولمة إلى تصفيته من الأذهان. وكذا يقال في أمور مفاهيم العقيدة، وكلها عائق أمام التغيير كما يزعم أصحاب ثقافة الهيمنة. ولن يستطيع العرب اللحاق بركب العالم الحر والمتمدن إلا أن يقوموا بأنفسهم بعملية التغيير التي تواكب مفاهيم النظام العالمي الجديد تحت دعاوى حقوق الإنسان والحرية والديمقراطية، والإصلاح الاقتصادي والتربوي والعلمي و..

هكذا يحشر الشعب العربي ومثقفوه وقادته المناضلون في اتجاه ثقافة العولمة، ولا بد لهم من القيام بعملية تغيير يراد منها أن تبدو حركة تغيير ذاتية طوعية لما نؤمن به، أما إذا فكر أحد منهم برفض مبادئ فلسفة ثقافة القوة، لضعْف الإرادة في التغيير المطلوب أو للعجز عنه؛ أو ممانعته لأمر ما يكمن في المصالح الخاصة لبلدهم فإن الاتهامات جاهزة ومعدَّة مسبقاً كتهمة الإرهاب، والاستبداد، والتخلف، والاعتداء على الجيران، والبشرية.. (١)

ولمّا كانت أمريكا تقود العالم إلى تعزيز مفهوم القرية الكونية الصغيرة تحت دعاوى النظام العالمي الجديد أو العولمة كان الوطن العربي يغُط في أحلام الوهم والتمزق والتخلف والفقر والجهل، وكل ما استمرأه حكامه لــه لضمان استمرار سيطرتهم عليه... ومن ثم غدا القوميون ــ في نظر بعض الحكام والمثقفين ــ مدعاة للاستهجان وصارت القومية مادة تسخر لنوازعهم بما فيها قضاياها الكبرى كقضية فلسطين.. ولم يدرك هؤلاء الحكام والمثقفون أنهم قد نمَّوا في نفوس المواطنين روح الحقد والكراهية؛ والطائفية والاثنية في الوقت الذي عززوا في النفوس قابلية التبعية والخنوع والذل والفساد والنفاق... وهي قابلية كانت تسعد أعداء الأمة، ولا سيما أمريكا والصهيونية العالمية.

في مثل هذا المناخ كانت مفاهيم العولمة الأمريكية تتعزز في السيطرة على موارد العالم، ولا سيما حين سيطرت على الهيئات المالية الدولية كالبنك الدولي وعلى غيره من المنظمات الدولية... فالشركات الاحتكارية الكبرى والمالكة لرأس المال هي التي تسيطر على الثقافة المركزية الغربية اليوم، وهي التي صممت على أن تجعل هذه الثقافة مسيطرة على العالم لإذابته في طبيعتها؛ ما حدا بها إلى تبني مفهوم العولمة الذي تزينه للشعوب بوجوه براقة وجذابة،

---

(1) التحديات التي تواجه الثقافة العربية راهناً د. طيب تيزيني ــ جريدة البيان ــ عــدد (٦١٠٥) ــ تاريخ (١٩٩٧/٣/٦م).

واعتماد مبدأ (وحّد تسد) في السوق الاقتصادية على حين ما زالت تعتمد مبدأ (فرّق تسد) في سياستها الاستعمارية للبلدان، بما فيها الوطن العربي الذي تخطط إلى تقسيمه وفق خطة تجزئة المجزأ لإضعافه وإلحاقه بالآخر وتسخير ما تمتلكه من أدوات الاتصال والمعلوماتية لتحقيق مراميها... ولذلك كان بريجنسكي يؤكد أمركة العولمة فيقول: "يمارس النفوذ العالمي الأمريكي من خلال نظام عالمي مصمم أمريكياً، وفق التجربة الأمريكية"(١).

وبناء على ما تقدم سعى أقطاب فلسفة العولمة الأمريكية وارثو فلسفة الثقافة الغربية المركزية؛ وفلسفة الاستشراق الاستعماري إلى السيطرة المباشرة على العالم بوساطة توزيع القوة العسكرية الفائضة على مراكزه المحورية فاختاروا (البلقان) لأنها تمثل قلب أوربا، و(أفغانستان) لأنها قلب آسيا، و(الوطن العربي ــ العراق وفلسطين) لأنه قلب آسيا وأوربا وأفريقيا... وهذه المراكز مليئة بالخامات الأولية التي تحتاجها أمريكا وشركاتها الاحتكارية؛ في الوقت الذي تغدو شعوبها أرقاماً استهلاكية لما تنتجه الآلة الصناعية لتلك الشركات.

فأمريكا لم تنظر يوماً ما إلى الأنظمة العربية نظرة تقدير على الرغم مما تقدمه لها؛ ومن ثم لم تنظر إلى العرب والمسلمين إلا باعتبارهم الحلقة الأضعف في منظومة ما تبنته من مفاهيم العولمة؛ فضلاً عن أنها تراهم خطراً عليها...

أما نحن فإننا نرى أن الخطر الأكبر والشر الحقيقي إنما يتمثل في العولمة بكل وجوهها على إعجاب المعجبين بها من المثقفين العرب... فالعولمة بمعناها الاصطلاحي مشروع مركزة العالم في فلسفة فكرية ومادية واحدة؛ على اعتبار تعريف (رولاند روبرتسون) لها بأنها "تشكيل وبلورة العالم بوصفه موقفاً واحداً، وظهور حالة إنسانية واحدة"(٢). فهي بدلالة كونها إشارة "إلى ظاهرة توحيد العالم، أو حركة تدويل الاقتصادات والمجتمعات (٣)" ليست إلا منظومة

---

(1) الهويات والتعددية اللغوية ــ عز الدين المناصرة ــ دار مجدلاوي للنشر ــ عمان ٢٠٠٤م ــ ص ٢٢.

(2) انظر: العولمة والهوية الثقافية ــ سليمان خلف ــ المجلة العربية للعلوم الإنسانية ــ عدد ١٦ ــ ١٩٩٧م.

(3) انظر: مقاومة العولمة ــ ص ٩٩ ــ مجلة الكاتب العربي ــ الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب ــ عدد (٦٥ ــ ٦٦) ــ تموز /كانون الأول ــ ٢٠٠٤م، والطوفان ــ(عولمة الاقتصاد) ١٣١ ــ ١٥٦ ــ خالد محمد غازي ــ دار الهدى للنشر ــ القاهرة ــ ط١ ــ ٢٠٠٠م.

من التسلط على الشعوب والتحكم بمقدراتها وإلغاء ثقافتها، وفق مفهوم الدمج والإلغاء، وفي أحسن الأحوال الدمج والإلحاق... ومن ثم هي الصورة البارزة للهيمنة الأمريكية على التجارة العالمية التي نسجت خيوطها الشركات الأمريكية الاحتكارية الكبرى، والتي أخذت تنتظم أخيراً في منظمة التجارة العالمية (WTO)... وقد أصبحت هذه المنظمة كالقدر المحتوم لدول العالم التي ينبغي أن تكيف سياستها وفق مصالحها الخاصة بها.

فالعولمة بصياغتها الجديدة الفكرية والاقتصادية تندفع كسيل جارف للقضاء على الثقافة العربية ومفاهيمها تحت تأثير فلسفة الثقافة الغربية المتصاعدة التي اكتسبت خبرة، وقدرة على التلوّن والتزييف والخداع... وتسلحت بأدوات وتقنيات لم تتوافر للاستعمار القديم أو للاستشراق الاستعماري. إنها تعصف بالهويات والثقافات باسم تحرير الشعوب وإعطائها الحقوق الإنسانية التي تبنتها في (إعلان حقوق الإنسان) المنبثق عن ثقافتها وفلسفتها. ولذا فما من ثقافة إلا أخذت تتغير تحت طرقات الثقافة الجديدة التي تأخذ تقاليد متنوعة، وتثرى منهجاً ومعارف...

وقد وقع خلط ما في إدراك مفهوم العولمة وملحقاته في أذهان غالبية العرب وكثير من أبناء البشرية ربما أدّى بهم إلى التناقض والاضطراب. فحين تمارس العولمة عملية الدمج في ثقافة واحدة ــ أي إنها حتماً الثقافة الأمريكية ــ فإنما تمارس عملية إلغاء الآخر... وهي بما تنطوي عليه من عناصر ضاغطة وثرية في السياسة والاقتصاد والفكر والتقنية والإعلام إنما تؤدي لدى أبناء الوطن العربي إلى تناقض فكري اجتماعي، وثقافي علمي؛ ونفسي روحي... إنها تحدث خللاً بعيداً في الذات الفردية الوطنية والقومية على السواء؛ لأنها لا تحصل بمعزل عن الإنتاج المادي والفكري والسياسي لأرباب فلسفة ثقافة القوة الأمريكية، هذه الفلسفة التي تنطلق من مركز واحد هو (واشنطن)، بعد أن استثمرت أحسن استثمار انتصارها في الحرب الباردة؛ حين أسقطت ما كان يعرف بالاتحاد السوفييتي في مطلع تسعينيات القرن العشرين(١).

وبهذا كله فالعولمة التي أخذت تزحف بقوة إلى عدد من مناطق العالم؛ وتتسلل إلى نفوس أبنائها إنما تسعى إلى تثبيت مفاهيمها الفكرية السياسية

---

(1) انظر: النظام الدولي الجديد ــ سعد حقي توفيق ــ الأهلية للنشر والتوزيع ــ بيروت ــ ١٩٩٩م ــ ص ٤٠- ٤٢ و ١٢٨.

والاجتماعية لأن المفاهيم تشكل حجارة بناء المشروع الأمريكي الذي ينتقل من النظرية إلى التطبيق.

وما تقدم كله يشير إلى أن العرب مهددون بثقافة العولمة التي تريد ابتلاع ثقافتهم؛ وهو ابتلاع يستند إلى منهج علمي مدروس، ويلبس مسوحاً جميلة قد تبدو أخلاقية لكنها لا تحمل في جوهرها ذرة من القيم والأخلاق مثل مفاهيم: العقلانية والمجتمع المدني والديمقراطية والحرية و...

فالعولمة الأمريكية تجسد ثقافة التغيير الحقيقية التي ترمي إلى إلغاء ثقافة الآخر بعد تزييفها وتشويهها، وقد سخرت في عملية التغيير كل ما من شأنه أن يجعل العولمة ذات بعد أخلاقي كإشاعة الحرية والديمقراطية في الوطن العربي وإلحاقه بركب العالم المتمدن، من خلال مفاهيم الحوار وقبول الآخر المقابل والمتغاير، لا المقابل المتشابه...

وقد أسهمت التقنيات الإعلامية والفضائية المنتشرة والموزعة على الكرة الأرضية بدقة، وكذلك عناصر القوة المعرفية والعلمية للخطاب الأمريكي، والقوة العسكرية الفائضة في إنتاج خطاب ثقافي أمريكي ذي مفاهيم قادرة على النفاذ إلى النفوس والعقول لتعمل فيها التغيير الطوعي أو القسري لكل ما تؤمن به وتمارسه في حياتها وعقيدتها وثقافتها، فانضوى البعد السياسي للعولمة تحت إهاب البعد الثقافي وغيره...

وأدرك أصحاب الثقافة الأمريكية التي تزيَّت بالعولمة القابضة على مراكز القرار العالمي والهيئات الدولية كالأمم المتحدة والحلف الأطلسي والبنك الدولي أن التغيير النفسي والاجتماعي والسياسي والثقافي والتربوي و... لا يمكن أن يتحقق إلا بنشر المفاهيم التي تنتجها وجعلها ثقافة للشعب العربي؛ وحين تصبح ثقافة لــه فإنه سرعان ما يتخلى عن كل ما لديه؛ ولا سيما إذا ترافقت بأصباغ مُغرية من ألوان اقتصادية واجتماعية تؤسس لعادات وسلوكات يومية؛ فضلاً عما تتزين به من مبادئ إنسانية تدغدغ عواطف المرء وعقله. فهي تصور نفسها على أنها الأمل المنتظر الذي ينقذ الشعوب مما هي فيه من تناقضات وتخلف.

وقبل أن نناقش هذا كله قد يتساءل أحد أنصار العولمة أو النظام العالمي الجديد قائلاً: هل يعقل أن يحمل هذا النظام الشر دون الخير؟ أليس وحده من حمل التقنيات المتعددة إلى الشعوب كالإنترنت وأجهزة الاتصالات الفردية والجماعية؟ بل أليس التغيير الذي تنادي به العولمة إنما يعدُّ انطلاقاً إلى آفاق

التقدم والوحدة، عوضاً عن التخلف والتجزئة، وإلى آفاق الحرية والديمقراطية بدل الاستعباد والظلم الذي تمارسه الأنظمة العربية القبلية والعسكرية والملكية؟

وهناك مَنْ يرى أن طاغوت الاستكبار الأمريكي قد مَدَّ ظله في الأرض، ونحن ضعفاء متخلفون مجزؤون مقهورون تأصلت فينا قابلية الذل والتبعية ولا قدرة لنا على إنتاج القوة الرادعة... ومن ثم فالقوة العسكرية ظلم للذات الوطنية والقومية إن لجأنا إليها. ولهذا كله علينا أن نغيّر أنفسنا من الداخل بمنهج الصدق والعدل والثبات على الحق واستثمار عقولنا للإفادة مما تملكه العولمة الأمريكية من أدوات وتقنيات ومعارف وعلوم... أما إذا نشدنا القوة المادية المسلحة فإنها لن تجرّ لنا سوى الويلات والدمار... لهذا علينا أن نسلّم للعولمة بكل ما ترغب فيه، وعلينا في كل ما تتيحه لنا أن نعمل على بناء ذاتنا...(١).

ونرى أن عملية التغيير الحرة والإنسانية والفاعلة والمتكاملة مع الآخر هي هدف كل عربي مخلص، وهي السبيل الحر والأمثل للانتقال من الواقع الاجتماعي والسياسي الموضوعي المجزأ والمتخلف والبائس والمهموم بالقهر والجهل إلى رحاب الهوية العربية الإنسانية.وهذا يعني أن أشكال التقدم والعدل والحرية والعروبة لا تتناقض مع ثقافة التغيير التي تعزز كرامة الإنسان ورفاهيته وحريته. فالتغيير بهذه الخصائص ضرورة عصرية، والعرب أحوج ما يكونون إليه للتفاعل مع الآخر وفق مبدأ الحوار الإنساني المتبادل والمتكافئ؛ لأنهم أكثر حاجة من غيرهم إلى تحولات نوعية في الفكر والثقافة، والعلم والأدب، والفن والإعلام و... إنهم بحاجة إلى تغيير مثمر ومنتج في النظم الإدارية والتربوية التطبيقية. إنهم مطالبون بإلحاح بمراجعة شاملة لحياتهم وعاداتهم ومفاهيمهم لتحطيم آثار التخلف والتجزئة، والجهل والفقر؛ والظلم والاستعباد. ولن يتحقق لهم هذا كله إلا بتبني مناهج علمية ومعرفية وتقنية متقدمة تلبي جميع حاجاتهم النفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية. إنهم بحاجة إلى تغيير الذات من الداخل وبنائها على أساس عقلي؛ وهو الذي يفرض عليهم عدم التفريط في الجانب المادي والعسكري على حساب الجانب المعرفي والتقني والإعلامي، والاجتماعي والروحي.

---

(1) ذلك رأي يتبناه بعض المفكرين العرب أمثال جودت سعيد؛ وقد أكده غير مرة وآخرها في مقابلة له مع برنامج (الشريعة والحياة ــ قناة الجزيرة القطرية ــ يوم الأحد ٢٢ /٥/ ٢٠٠٥م)، = وانظر كتابه (حتى يغيروا ما بأنفسهم ــ ٢٨ ــ ٤٧) دار الفكر المعاصر ــ بيروت ــ ط٧ ــ ١٩٩٣م.

إن إقامة التوازن بين الجوانب المتعددة يفرض علينا ــ نحن العرب ــ ألا نبقى متلقين لكل ما يفد إلينا من العولمة كما هو حاصل اليوم، أو كما حصل من قبل في استيراد النظريات الغربية في العديد من المجالات وإحلالها محل كل ما لدينا من نظرات تراثية معينة أو رؤى معاصرة موضوعية...

ولعل هذا كله لا ينسينا أن أي مفهوم غربي أو نظرية أو إنتاج إنما يعزز على نحو ما فلسفة الثقافة الغربية المركزية التي ترى في الآخر تابعاً لها شاء أم أبى. فإذا كنا ــ نحن العرب والمسلمين ــ صادقين في رغبتنا للتكامل مع الثقافة الغربية لإحداث التفاعل معها من أجل حركة تغيير حقيقية ونافعة فإن الغرب ما زال يعمل على إخصاء عقول من لا يدخل في نظام ثقافته وحياته. فأي عقل مبدع لا ينضوي في منظومة العولمة مهدد بالإلغاء؛ ما جعل إخصاء العقول أعظم جريمة من خصاء الفحولة التي مارسها السادة في القديم بحق عبيدهم لئلا يفكروا في التطلع إلى نسائهم. إن الثقافة الأمريكية تدرك أن الثقافة شيء وصناعتها شيء آخر، وتريدنا متلقين لثقافتها لا صناعاً للثقافة.

ولعل السبب وراء ذلك كله يكمن في أن كثيراً منا لا يكتشف أسرار البعد السياسي والاجتماعي للعولمة بعد أن رُوّج لها بأنها ذات بعد اقتصادي وإعلامي وتقني مفيد للشعوب. فأصحاب فلسفة ثقافة التغيير الأمريكية يعتمدون على القوة العسكرية والإعلامية والمعرفية الفائضة؛ في الوقت الذي يرون أن هذه القوة قادرة على إنتاج الأفكار والمبادئ الملبية لمصالحهم. وأي منهج يتمثل بهذه الفلسفة يعني أنه يؤسس لمبادئ جديدة من جنس ما تنتجه، وعلى الضعيف أن يتبناها لأنه بحاجة إليها، ومن ثم لا بد لـــه أن يتخلى عن حقه وعاداته ومبادئه، فالقوة فوق الحق كما انتهى إليه مكيا فيلي في كتابه الذي سماه (الأمير)(١).

إن المفاهيم الكونية الجديدة للعولمة الأمريكية تحرّم على العقول حرية الاختيار؛ أو التصرف، أو إعادة بناء حياة أصحابها البناء الذي يجعلها مستقلة لأنها تقف أمام عجلة سيطرتها الدائمة... أما إذا صارت ثقافة الشعوب مادة استنساخ لكل ما تنتجه العولمة فهو الأمل المرتجى، ولا ضير عليها لكي تصل إلى حالة الاستنساخ هذه أن تُغرى بدعاوى الانفتاح على الآخر الحر، على اعتبار أنها تحاول اللحاق به بعد أن تتبنى مفاهيم الحرية الغربية وديمقراطيتها؛ لأن كل ما تملكه هذه الشعوب وتؤمن به متخلف منحرف مشوه فاسد، عدواني، ضعيف

---

(1) انظر: الأمير ــ ميكافيلي ــ ضمن أمهات الكتب السياسية ــ وزارة الثقافة دمشق ــ د١ /٣٢ و٥٢ و٥٤.

عاجز. وبناء عليه فإن الشر الذي يقع على الأمة أن يصبح مجتمع الصفوة ــ إذا صحت التسمية ــ وأصحاب العقول مادة استنساخ لثقافة الآخر المهيمن والأعظم خطراً منه أن يقوموا بغسل أدمغة أبناء وطنهم من أجل ذلك ــ.

إذاً العولمة مشروع تغيير ثقافي اقتصادي سياسي، وله آثار عظيمة في العقيدة والحياة والعادات. وقد أخذ يحظى بمنزلة كبرى في نفوس أفراد وجماعات، بل إن عدداً من الدول والأمم شرعت تراجع ما آمنت به في تاريخها وحياتها من مفاهيم وتراث وعادات وعقائد؛ باعتبار أن العولمة ثورة متكاملة على صُعُد كثيرة.

حقاً إن ثقافة التغيير الحاملة لفلسفة قوة العولمة لم تنتج لدى عقول بعض الأنظمة العربية والمثقفين إلا مزيداً من البلبلة في فهم الهوية؛ ومزيداً من تبعية حكامها؛ وعجزاً في عملية الارتقاء الإنساني لفهم حقيقة الوجود وسيرورة التاريخ. وحين ظنت أنها نجحت في ذلك فإنها وعت في الوقت نفسه أنها زادت من تمسك الشعوب بهويتها.

ولا شيء أدل على هذا كله مما أصيبت به تلك العقول من تغيير طوعي وقسري للمفاهيم التي آمنت بها؛ باعتبار ما رُبّيَت عليه من قابلية الرضا بالأمر الواقع، حرصاً على وجود مُرّ، وقاس مُغمس بالقهر والعبودية وإن ظهر للوهلة الأولى أنه حفاظ على المصالح والمنافع، وتزيَّن بالدعوات الوطنية والقومية. ونرى أن قابلية الشعب العربي بالرضا لكل ما يروّج لــه إنما هي حالة مؤقتة وزائلة، على اعتبار أنه مدرك لما يجري حوله، وإن كان غير قادر اليوم على تغييره، ولكن المستقبل له..

وليس لدينا شك في أن التغيير فعل دلالي إرادي يحدث غالباً بفعل خارجي، وندر أن يكون داخلياً، أما مصطلح التغيّر الذي يعد ضرورة حتمية لمتطلبات الحياة والثقافة والمعرفة فهو لا يتحقق إلا بفعل ذاتي وداخلي. فإذا كانت الثقافة تعد جملة الأفكار والمعتقدات والعادات والآداب والفنون لشعب ما؛ فإن هدف ثقافة التغيير يصبح إحلال منظومة ثقافية متكاملة مكان منظومة أخرى. وهذا ما تقوم به العولمة الأمريكية في عالم اليوم في نشر ثقافاتها لاقتلاع ثقافة الآخر؛ علماً أننا نرغب في أن يكون التغير الحقيقي تغيّراً ذاتياً فردياً وجماعياً وفق منهجي علمي متقدم يرتقي بنا حياة ومعرفة وتقنية، ويسهم في تنمية الأفراد والمجتمعات لتكوين الرؤى الدقيقة للتقدم، وأن يكون تغيراً هادفاً ينفتح على الآخر وثقافته دون أن ينصهر فيهما، تغيراً ينطلق من حاجة

الأوطان والأمم لا مما يفرض عليها لتغيير هويتها ومناهجها وثقافتها. وبهذا كله فإن التغيُّر يعني مجموع العوامل الداخلية والخارجية الذاتية والموضوعية، القديمة والمعاصرة التي تمكن الإنسان من إحداث تطور وتحول في البنية الاجتماعية والثقافية والفنية و...

وهذا وذاك ما يستكمل في الحديث عن القسم الثالث هوية المصطلح وثقافة التغيير.

هوية المصطلح وثقافة التغيير ـ قراءة في مفاهيم عربية ـ

ـ هناك شجون كثيرة تُثار حول مفهوم المشروع القومي العربي على اعتبار اتفاق الناس جميعاً على أن التشتت كائن وواقع في المفاهيم والرؤى قبل التطبيق. وهناك اضطراب مخيف بين العرب يتعلق بالعولمة الأمريكية، لا بالعولمة ذاتها وفق التعريف الذي ارتضيناه من قبل،([1]) والقائم على التوازن في شتى شؤون الحياة والعلاقات بين الدول. وأي مثقف واعٍ لا يمكنه أن يخشى من العولمة في معاييرها الصحيحة، بيد أن العولمة الأمريكية لا تسعى إلا إلى الهيمنة ومن ثم فهناك خلاف كبير وصل إلى المفاهيم التي تتعلق بشؤون فكرية وثقافية وعقيدية كونت عناصر الهوية العربية استطاعت العولمة الأمريكية بلبلة الأذهان حولها، على حين كان علينا توحيد هذه المصطلحات المنتجة للمفاهيم، حتى تتوحد المشاعر والأفكار. وهذا ما نعالجه في إطار أثر العولمة في تشتت المفاهيم.

أولاً ـ أثر العولمة في تشتت المفاهيم:

أدرك أرباب فلسفة ثقافة التغيير في الغرب عامة والولايات المتحدة الأمريكية خاصة قيمة ماهية المصطلحات في تكوين المفاهيم وأثرها في صميم سيرورة الأحداث الكونية، والصراعات العديدة التي تجري هنا وهناك في العالم.

وقد اتضح لديهم أن التغيير القسري للقوة المادية – ولاسيما العسكرية المباشرة – قد تزول آثاره ومعطياته بزوالها؛ وإن قيل: إن القوة الفائضة – بحكم طبيعتها ومصالحها – قد تنتج مبادئ ومفاهيم وقيماً جديدة من جنسها، وطبيعتها ووظيفتها. ومن ثم المصطلحات تصبح ثقافة لكل من يتفاعل معها أو تفرض عليه؛ وبهذا تستعيض كل أمة القيم الجديدة بما لديها من حامل اجتماعي

([1]) انظر التعريف في الصفحة (١٠٤) مما تقدم.

وفكري وثقافي، ما يعني التبدل في الهوية الثقافية فالناتج الجديد لمصالح القوة المادية الفائضة يغدو ناتجاً اجتماعياً مع مرور الوقت؛ علماً بأن كل مبدأ أو مفهوم يعد حاملاً لثقافة الأقوى وفلسفة أبنائه؛ أي إن المفهوم الجديد يغدو جزءاً لا يتجزأ من هوية الثقافة للقوة المهيمنة. فإذا ترسخ في مجتمع ما فقد ترسخت معطياته وحلت محل ما يمتلكه من قيم ومبادئ، ولما كانت المصطلحات اليوم تمثل رأس المفاهيم وجوهرها فقد تحولت إلى الهدف الرئيسي في سياسة التغيير الثقافية والاجتماعية.

ثم ثبت لأرباب تلك الفلسفة بكل وضوح أن الثقافة العربية الحاملة للهوية القومية ما زالت متأصلة في نفوس الشعب العربي، وفق خصائص عديدة، أهمها العقيدة واللغة، فقد عجزت كل الأدوات الغربية عن تغيير كثير من سماتها ولم تستطع البعثات إلى الغرب أن تنجز ما رغب فيه من تحويل كبير يجعل الشعب العربي حاملاً للثقافة العربية بكل صورها وأشكالها. فالمصطلحات العربية والإسلامية لم تنته إلى حالة التآكل على أهمية الجدل الفكري والسياسي الذي نشأ في ديار العرب حولها، نتيجة ظهور الأحزاب السياسية الليبرالية والاشتراكية والعديد من الحركات العلمية الثقافية والفكرية وعلى الرغم من الدعوات الكثيرة التي شابها كثير من الإغراء ولم تؤدّ بها إلى الانهيار ـــ اقتصادياً واجتماعياً ـــ على شدة حاجتها للمصطلحات الاقتصادية والاجتماعية، بل الفنية والأدبية وغيرها.

هكذا وجد الغرب نفسه؛ مفكرين وساسة وقادة؛ أنه عاجز عن إلغاء الهوية العربية بما حملته من مفاهيم وقيم روحية ومادية. فقد ظل الوعي العربي بها وعياً ذاتياً وفكرياً واجتماعياً متميزاً، ولم تفلح دعوات الاستشراق بكل أشكاله وخطط الاستعمار القديم في القضاء على الهوية العربية ومفاهيمها، علماً أن الغرب أخذ يصور – منذ القديم – ما نملكه من قيم العروبة والإسلام بالتخلف والجمود، ثم ازدادت شراسته حين تبنت الثقافة الغربية المركزية صفة العولمة المستندة إلى فلسفة ثقافة القوة الفائضة.

ورأى أرباب فلسفة العولمة في مراكز أبحاثهم المتطورة أن دراساتهم المنهجية المعرفية والعسكرية لأحداث القرن العشرين، ونتائج الاستعمار الأوربي، والاستشراق القديم للأرض العربية لم تُحدث عملية التغيير الحقيقية ولا آتت ثمارها بالقوة المادية أو الفكرية المباشرة والاستعلاء، لهذا اتجهت إلى داخل كل هوية ثقافية، إلى مصطلحاتها المعبرة عنها. وطفقت تتسلح بمقاربات

فكرية جديدة ومبتكرة تشتمل على التشكيك بقدرة الثقافة العربية والإسلامية ولغتها العاجزة على مواكبة الثورة المعرفية والعلمية والتقنية و .... للعالم الغربي الحر المتمدن. فالثقافة العربية والإسلامية – كما يزعم أرباب التحضر الغربي – ثقافة متخلفة، عاجزة، فاسدة، متناقضة، استبدادية ولغتها فقيرة؛ معقدة، صعبة، غير مرنة، وغير مؤهلة لاستيعاب كل ما ينجزه العصر المتفجر بالعلوم والتقنيات والصناعات. لذا لا بد للعرب قبل دول الجنوب من اتخاذ العولمة بمصطلحاتها وثقافتها منظومة حياتية لها وجعلها ناتجاً اجتماعياً يستقر في الذهن والمشاعر. وهذا كله يعني أن العولمة الأمريكية أضحت أقوى تيار فكري جارف يتخطى مفاهيم الثقافة الوطنية والقومية وهويتها، ومفاهيم السيادة المعروفة للدول؛ ولا سيما حين غدت مركزية العولمة مرهونة بقوة الدولة المهيمنة على تلك المركزية والمهيمنة على إنتاج المعرفة والتقنيات والمصطلحات، وعلى اعتبار أن المغلوب لا بد له من الانقياد للغالب.

وأيقن منظرو العولمة بفكرة ملخّصها: إذا أريد لمفاهيم العولمة والمصطلحات الغربية أن تصبح ناتجاً اجتماعياً عربياً وإسلامياً لا بد من إنتاج تراكم ثقافي جديد أساسه الحراك الفكري والاجتماعي المستند إلى تزييف كل ما ورثه المجتمع العربي مصطلحات ومن آراء ومفاهيم وقيم وعادات، وتأطير كل ذلك في أشكال المصطلحات الغربية وفلسفتها الفكرية. لذا لابد من حملة مركزة من قبل مراكز الأبحاث الغربية فضلاً عن نشاط المفكرين والقادة السياسيين، حملة توظف القوة الجبارة لثورة الإعلام و الاتصالات والتقنيات لتحقيق ذلك. ولهذا الغرض أنشئت ويدل قناة (الحُرّة) الأمريكية التي ظهرت في مطلع (٢٠٠٣) إثر شهر رمضان فضلاً عن إذاعة (سوا).

فأرباب فلسفة ثقافة التغيير الجديدة جردوا همتهم وسخروا عقولهم وعقول عدد من التابعين والخائفين والمضللين و ...... ثم انتهجوا سياسة الترغيب والترهيب لزرع ما يرغبون فيه من مفاهيم في أذهان الناس وحياتهم على اعتبار أنها ستؤسس لحركة تغيير فكرية واجتماعية، في الوقت الذي تؤسس لعدد من الوظائف الأخرى والعلاقات الجديدة واستثمروا كل جهد لديهم حين أدركوا قابلية الشعوب الجاهلة والمتخلفة والمستضعفة قبل حكامها لحركة التغيير المطلوبة والمرجوة؛ وركزوا تلك الجهود في المصطلحات لأنها ذات قابلية متفوقة في الانفتاح على الآخر ولاسيما الثقافة الغربية، وباعتبارها الجزء الأهم في منظومة الحياة والثقافة.

ونرى أن أمريكا – قبل غيرها – وعت مفاهيم فلسفة القوة المادية الفائضة وقابلية الشعوب الساعية إلى تطوير حياتها وثقافتها وعلومها، وقدرة الأنظمة الحاكمة من أتباعها ومن غيرهم على تنفيذ ما تريده، ولا سيما أن هذه الأنظمة سخرت ما تملكه أوطانها من موارد لصالحها فقط. وكذلك أدركت أمريكا أن الاستعمار الأوربي للأرض لم يستطع أن يلغي تنامي الشعور القومي العربي بل تصاعد حتى حقق بعد الاستقلال أول إنجاز وحدوي في تاريخ العرب الحديث بين سورية ومصر في (٢٢/٢/١٩٥٨م)؛ ومن ثم لم ينهزم هذا الشعور أمام سقوط تجربة الوحدة على يد أرباب الانفصال يوم (٢٨/٩/١٩٦١م). فقد ظل الشعور القومي حلماً يراود عقول العرب ويستفز مشاعرهم؛ وهو الشعور الذي أسقط في الخمسينيات أحلافاً عدة تابعة للغرب مثل (حلف بغداد) ومصطلحات عديدة وظفت توظيفاً سياسياً استعمارياً خبيثاً، وفي طليعتها مصطلح (الاستعمار) الخادع المضلل و(الانتداب) و(الشرق الأوسط) و(العالم العربي).

فأمريكا تؤسس لهيمنة طويلة لثقافتها وفلسفتها تلبية لمصالحها الخاصة، ولهذا فهي لا تكتفي بقدرة فلسفة القوة المادية والمعرفية والإعلامية بل تسعى جاهدة إلى جعل المصطلحات ناتجاً اجتماعياً وفكرياً لا يتجاوز الفلسفة الغربية عامة والأمريكية خاصة. إنها ترغب في أن تصبح ناتجاً تلقائياً قائماً على الاختيار الطوعي لأبناء المجتمع، وليس ناتجاً قسرياً بفعل القوة الفائضة وتبعية الأنظمة الحاكمة واستلاب عقول كثير من المثقفين والناس. وهذا يعني اختفاء الثقافة العربية المشكلة للهوية القومية شيئاً فشيئاً فالضعيف بحاجة للقوي ــ دائماً ــ.

ولا مراء لدينا في أن الثقافة الأمريكية المركزية تجهد اليوم في تحقيق مصالحها الذاتية عن طريق إشاعة مصطلحاتها ومفاهيمها على اعتبارها تمثل فلسفة خاصة بها، وتعبر عن روح أبنائها الذين يستشعرون التعالي والغطرسة، لأن دول الغرب ودول الشمال أصبحت مركز ثورة المصطلحات. أما العرب ودول العالم الثالث فقد ندر كونهم ميداناً للإبداع، فهم أداة في عجلة الإنتاج وبلادهم مخزن للثروات يقومون بحراستها فقط. ولعل هذا كله يستدعي من الأنظمة العربية وأبناء الأمة كلهم إصلاح مؤسساتهم إصلاحاً جذرياً وفق تنمية سياسية وثقافية واجتماعية وتقنية واقتصادية متكاملة، مع زيادة التكامل بين العرب وغيرهم سياسياً وثقافياً و ... من خلال انفتاح ثقافي فكري على الآخر قائم على المعايير المنضبطة.

إننا نرى أن الثورة المعرفية والتقنية والإعلامية والاصطلاحية تؤكد أن أسس المنهج السليم وطبيعة التحرك الفكري زماناً ومكاناً لا يمكن أن يكون حكراً على أمة دون أمة؛ وأن الضعيف اليوم سيصبح قوياً غداً إذا ما اتصف بالشروط الذاتية والموضوعية للنهوض و الارتقاء كما رأينا في ألمانيا واليابان.

ومن هنا اتضح لكثير من المفكرين العرب وغيرهم أن عجز الثقافة العربية عن الإنتاج والإبداع في مرحلة من المراحل عائد إلى ضعف في آلياتها نتيجة الشروط الذاتية والموضوعية التي تعاني منها، ما يعني بعدم انهزامها أمام الثقافة الأخرى انهزاماً كاملاً. وكذلك أدركوا أن أي تغيير فكري وثقافي اجتماعي إنما هو فعل إرادي ذاتي ينبثق من داخل ثقافتهم ووفق متطلبات واقعهم وحاجات مجتمعهم، ودون التنكر لتراثهم وخصائصهم الذاتية أو الانغلاق عليها في الوقت الذي آمنوا بالانفتاح على الآخر دون أن يعني التبعية لـــه. فكل تغيير قسري خارجي لم يكن مصيره إلا الهزيمة في أمكنة شتى من العالم.

ومن ثم استوعبوا ما يجري من مفاهيم العولمة وثقافتها الساعية إلى كسب معركة الثقافات ليغدو الحامل الاجتماعي حاملاً للثقافة الأمريكية ذات البعد السياسي والنظري (الإيديولوجي) المسلح بالآليات المعرفية والتقنية والإعلامية والعسكرية. فأمريكا تريد من العالم تبنّي مفاهيمها ومصطلحاتها باعتبارها المركز فيه، والقائدة لـــه؛ وما عليه إلا اللحاق بها وبخاصة العرب والمسلمين لكونهم أشد حاجة إلى ما تنتجه فلسفتها المعرفية والتقنية والإعلامية.

ولهذا كله تصبح المعركة الأهم في عالم اليوم مركزة في معركة المفاهيم والمصطلحات؛ لأنها تعد لدى منتجي الثقافة أعظم ارتقاء فكري اجتماعي على مختلف مجالات الحياة وحقولها. وهذا لا شك فيه، فهي المعادل الموضوعي الروحي والمادي للإنتاج المعرفي والتقني والعلمي والفلسفي. ومن ثم فإنها تتماهى بالناتج الاجتماعي وعاداته وتقاليده لتصبح البوصلة الموجّهة لـــه والمكونة لحياته؛ فالتغيير – بهذا التصور – يصبح تغييراً ثقافياً نفسياً ذا مضمون اجتماعي.

ومن هنا ندرك أن الثقافة العربية وهويتها ستقعان في مأزق اجتماعي مرعب إن لم تنتصرا في معركة المصطلحات قبل المأزق السياسي والفكري. وهو المأزق نفسه الذي ستقع فيه الثقافات الأخرى إن لم تستطع المحافظة على خصائصها الذاتية، على الرغم من سعيها الحثيث إلى الانفتاح على العالم

وثقافته وفلسفته باعتبارها الثقافة الأضعف أمام الثقافة الغربية، لما ابتليت به من طرائق تقليد الآخر، ومحاولة المشابهة معه، وعدم الخروج عن منهجه سواء كان قديماً أم مستحدثاً جديداً. فالثقافة العربية غدت مريضة بقابلية الأخذ والاستحواذ السهل و السريع من دون أن تصل إلى حالة الإنتاج والإبداع كما هي بقية أنماط حياة الأمة؛ علماً أن تمسك الأمة العربية بتراثها من دون تطويره لم يكن إلا وحيد الاتجاه في المحافظة على كينونتها فلم تجعله دافعاً إلى الارتقاء ــ غالباً ــ.

هكذا كان العرب ــ حتى اليوم ــ متخلفين عن إبداع المصطلحات وإنتاج المعرفة العالمية، ولهذا تاهوا في مطب التكرار والترجمة والنقل؛ على الرغم من الجهود الكثيرة والمخلصة التي تبذل هنا وهناك، وعلى الرغم من الشعور القومي والديني بالانتماء إلى الهوية العربية والإسلامية. وهو الشعور الذي أسقط من قبل ما اخترعه الغرب من مفاهيم، وراح يزينها للتداول في الثقافة العربية، وهي لا تحمل إلا السم الزعاف.

ويبدو لي أن جذوة الشعور بالهوية العربية المتميزة أخذت تخبو لدى أوساط سياسية وثقافية واجتماعية عربية عديدة وفق ما تؤيده حالة التطبيع مع الكيان الصهيوني، على ما يقال من مناهضة بعض أبناء الأمة لمفاهيم (التطبيع) هنا وهناك ..... وبناء على ذلك كله لزمنا معرفة ماهية المصطلح ومجالاته.

ثانياً ـ ماهية المصطلح وطبيعته:

يؤكد الزمن الفيزيائي والتاريخي حاجة الإنسان إلى المعرفة، ووسائل البحث عنها وتطويرها في مجالات الحياة كلها؛ فالحاجة أم الاختراع كما قيل.

وتعد الحاجة إلى المصطلحات ــ وبخاصة العلمية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية والتقنية، اليوم ــ أشد الحاجات المعرفية والاجتماعية للأمة العربية والإسلامية ، بل هي قضية القضايا عندها، إذ لا يمكنها اللحاق بركب العالم المتحضر من دون شحذ الفكر لإتقان فهم ما يَفِدُ إليها من معارف وآراء وتقنيات و...... ولن يتم لها هذا الفهم من دون إدراك ماهية مفاهيم ذلك كله على اعتبار أن المصطلح "تمثيل تصور ما بوحدة لغوية ويتكون من كلمة أو أكثر " (١)

(1) التصورية والمصطلح (مقارنة في المنهج وفحص في صلاحية الاستعمال في مجال المصطلحية) ــ ص١٢٤ ــ نيدوبتي ولفغانغ ــ مجلة اللسان العربي ــ العدد ٢٣- المغرب.
= ــ والاصطلاح (مصادره ــ ومشاكله وطرائق توليده) ــ ص١٤٤- يحيى عبد الرؤوف جبر ــ مجلة اللسان العربي ــ العدد ٣٦- المغرب.

ويعرف الزبيدي الاصطلاح بأنه "اتفاق طائفة مخصوصة على أمر مخصوص"(١).

لذا فالارتقاء الأمثل يتجسد في حقل المصطلحات المكونة للمفاهيم، باعتبارها هوية ثقافية واجتماعية مميزة لكل أمة وهي التي تجعل ثقافة من الثقافات ذات قدرة على النفاذ والسيطرة على غيرها، لما تتميز منه طبيعتها. فهي قابلة للتداول بين الناس في الزمان والمكان وقادرة على الحراك الاجتماعي سلوكاً وفكراً بحكم كونها عالمية تنفتح على التأويل وعلى الآخر، على شدة إيجاز تركيبها؛ وعلى الرغم من أن أي مصطلح – في مراحل إبداعه الأولى – يحمل طبيعة الثقافة التي أنتجته ووظائفها لأنه ولد في رحم بعدها الفلسفي النظري والتطبيقي.

وبهذا يعد المصطلح المفتاح الأول والأساسي للدخول إلى ثقافة الآخر ومحاولة إلغائها أو التغلب عليها أو تحريفها. ولما كانت اللغة وعاء الفكر وكان المصطلح المعادل الموضوعي لجوهرها، وجزءاً لا يتجزأ من نظامها فقد صار ممثلاً للخلاصة المركزة فيها؛ وهو الوسيلة الأولى إلى تكوين النظم المعرفية وتطويرها.

ولما كانت دول الشمال عامة وأمريكا خاصة مركز الإبداع والإنتاج المعرفي والتقني و..... ثم الاصطلاحي وكانت الشعوب الضعيفة فكرياً ومادياً ــ بما فيها العرب والمسلمون ــ بحاجة إلى المعرفة والعلم والتقنية والمصطلحات فقد أصبحت لغة هذه الشعوب وثقافتها مهددة بثقافة الغالب المنتصر. وبكلام آخر غدا المصطلح مجسداً للخطر الأهم على نظام اللغة وأكثر تأثيراً في الحامل الاجتماعي من أي شكل آخر لأنه يؤكد وعيه المطلق للوجود كله. ومن هنا نتساءل ــ مثلاً ــ عن الإسلام في عصر العولمة؛ من التيار الذي يمثل الإسلام اليوم؟ وهل يتماثل فهم أرباب التيارات الإسلامية لـــه؟ وكذا يقال في العروبة وغيرها؟ فلم يعد التناقض محصوراً بين الأغنياء والفقراء ــ فقط ــ وإنما تبرهن العولمة الجديدة على أن هناك حراكاً اجتماعياً ثقافياً يؤدي إلى تحولات كثيرة في الاتفاق على المفاهيم كلها، ولا سيما أن النمو الديمغرافي يساعد على تلك التحولات السلبية هنا وهناك، وهي تحولات أكدتها حرب الإدارة الأمريكية على الإرهاب.

---

(1) تاج العروس (صلح) ــ المرتضى الزبيدي ــ المطبعة الخيريـــة ــ القـــاهرة ــ ١٣٠٢-١٣٠٦ هـــ.

فإذا كانت الأمة العربية تعيش اليوم حالة ثقافية مأزومة وتابعة أدركنا حجم ما يحيط بها على صعيد المصطلحات وغيرها من أخطار تهدد هويتها الفكرية والقومية واللغوية ثم مشروعها القومي؛ باعتبار أن المصطلح صار سمة الإنسان المتحضر قبل غيره، ولعل هذا ينقلنا إلى مجالات المصطلح وآلياته وبيان أثرها في اللغة والثقافة والحياة و...... مركزين على بعض الجوانب الفكرية والسياسية المهمة في حياة الأمة، لأن المجال لا يتسع كل أنواع المصطلح وتشعباته.

ثالثاً ـ مجالات المصطلح وآلياته:

ليس جديداً علينا أن نتحدث عن مجالات المصطلح، فقد عرفها أجدادنا من قبل كما عرفها العديد من الدارسين العرب المحدثين على اختلاف الفارق بينهم، علماً أن ثورة المصطلحات الحديثة أعظم بكثير مما كانت عليه في القرنين الثالث والرابع الهجريين لأن الثورة المعرفية والتقنية والإعلامية والأدبية والنقدية أكثر تشعباً وتطوراً وحجماً، فضلاً عن تباين الواقع الثقافي العربي بين الحاضر والماضي، وإن كانت الجهود الفردية ما زالت هي المسيطرة ــ في مجالات المصطلح في العصر الحديث عند العرب ــ على وجود الجهود القليلة للمؤسسات في مجال الطب والهندسة والزراعة والفيزياء والأدب والنقد والفن واللغة واللسانيات ومختلف المجالات العلمية والتقنية. فأجدادنا أدركوا أنهم لا يعيشون في جزيرة معزولة عن الثقافات الأخرى هندية كانت أم فارسية أم يونانية؛ وأثبتوا على الدوام حسن اطلاعهم عليها والإفادة منها بنقلها نقلاً حرفياً وهو ما عرف بالدخيل، أو محاولة تعريبها، إما بألفاظ عربية وإما بالمقاربة بين أصواتها وأصوات العربية وأبنيتها، وهو ما عرف بالتغريب. وقد قال البيروني: " إن كان الاسم المنقول مشتقاً يمكن تحويله في العربية إلى معناه، لم أمل عنه إلى غيره، إلا أن يكون بالهندية أخف في الاستعمال فنستعمله بعد غاية التوثقة منه في الكتبة، وإن كان لــه اسم عندنا مشهور فغير سهل الأمر فيه" (١). فهذه أنماط من الآليات التي عرفها أجدادنا للوصول إلى نقل الأفكار والمشاعر إلى لغتنا دون تشويه لها. وهذا ما نستشفه مما قاله الجواليقي: ((اعلم أنهم كثيراً ما يجترئون على تغيير الأسماء الأعجمية إذا استعملوها، فيبدلون

---

(1) التغريب في اللغة العربية ــ ٢١٧- إبراهيم السامرائي ــ مجلة عالم الفكر ــ المجلــد ١٠- العدد الرابع ــ ١٩٨٠م .

الحروف التي ليست من حروفهم إلى أقربها مخرجاً وربما أبدلوا ما بعد مخرجه)) (١).

ولعل آليات نقل المصطلحات من الثقافات الأخرى ذات آثار اجتماعية وفكرية ونفسية كبيرة، ولا سيما في شريحة الشباب، لأنها شريحة تحفل بالتبدلات والتغيرات، وفقاً لطبيعتها وحياتها، ما يجعلنا نقف عند دلالتها وشيء من تعاريفها. فالتعريب ــ وهو مصطلح قديم وذو معان عدة – إنما يعني استخدام ألفاظ أعجمية على طريقة العرب في النطق واللفظ مع الاحتفاظ بالدلالة الأصلية (٢).

ولعل التعريب يماثل لدينا اليوم ما يعرف بالترجمة التي تنصرف إلى ترجمة العلوم والآداب والفنون وغيرها، دون أن ينقص من مقام العربية ونظامها، ولاسيما أنها لغة الفكر والعلم والمشاعر والعمل والحياة.

ونرى أن آليات التعريب أدق من آليات الترجمة وأكثر جودة، لأنه يخضع الألفاظ الأجنبية إلى نظام العربية وأوزانها على حين أن الترجمة ربما تبقي على ألفاظ تدخل في مجال التغريب أو الدخيل؛ إما لقلة المخزون الثقافي والاصطلاحي في اللغة العربية، وإما لقلة معارف المترجم وضعف أدواته اللغوية والفنية، علماً أن الترجمة إنما هي عملية استبدال لغوي دلالي تعادلي بين لغتين (٣).

والتغريب في اللسان العربي قديم كالدخيل، وكلاهما يدل على تأثر العربية بلسان الآخر، بيد أنه يعد خطراً حقيقياً على اللغة العربية، ولاسيما حين يغدو الحامل الاجتماعي مباحاً لكل إنتاج قادم من لغات الآخر وثقافته؛ فقد ينكمش كل ما هو عربي أمام كل ما هو وافد في الحياة والفن والأدب والعلم. فالتغريب نقل الكلام من صيغته الأجنبية إلى شيء يشبه الأبنية العربية في أقيستها وأصواتها، والاحتفاظ بالعديد من الحروف الأجنبية (٤).

---

(1) المعرب من الكلام الأعجمي- ص٦ ــ لأبي منصور الجواليقي ــ تحقيق محمد أحمد شاكر ــ دار الكتب ــ القاهرة ــ ط٢ ــ ١٩٦٩ م .

(2) لسان العرب ــ (عرب) لابن منظور ــ دار صادر ــ بيروت ــ وأثر الدخيل على العربية الفصحى ــ ٣٦-٤٣- د . مسعود بوبو ــ وزارة الثقافة ــ دمشق ــ ١٩٨٢ م.

(3) لسان العرب ــ (ترجم) والترجمة إلى العربية ــ ص٥٥ ــ محمد ديداوي ــ مجلة اللسان العربي ــ العدد ٢٥.

(4) التغريب في اللغة العربية ٢١٧- ودراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب ــ ص ١٧٢ ــ شحادة الخوري ــ دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ــ دمشق ــ ط١ ــ ١٩٨٩م .

أما الدخيل فهو استعمال ألفاظ أو مصطلحات أجنبية بمسمياتها الأصلية في اللغة العربية؛ ويصبح من مهام الشارحين والمترجمين شرحها، وهذا ما لحق بالمصطلحات في المجالات كلها قديماً وحديثاً، في العلوم والفنون والآداب والإعلام والتقنيات و الفلسفة والديانات . (١).

وإذا كان هذا الدخيل محصوراً بمجالات محددة عند أجدادنا القدماء فإن آثاره المخيفة تؤرق نفوس محبي العربية، ولاسيما إذا رأوا انتشاره في أوساط العامة وقد روي أن زياد بن أبيه " بعث إلى أبي الأسود الدؤلي وقال له: يا أبا الأسود، إن هذه الحمراء قد كثرت وأفسدت من ألسن العرب فلو وضعت لهم شيئاً يصلح به الناس ويُعرَبُ به كتاب الله ....."(٢).

وبهذا يثبت لدينا أن اللغة وجود إنساني يتجلى بالحامل الاجتماعي، في الوقت الذي تؤكد فيه الحياة أن لغة الغالب تحمل كثيراً من آثار الضيم والضرر على لغة المغلوب، لأنها الوعاء الثقافي والفلسفي والسياسي، ما يجعلها تحمل من الأهداف الكثيرة التي تستهدف لغة أخرى وثقافتها وهوية شعبها. فإذا كان أجدادنا قد حفظوا لغتنا من التآكل والانهيار، وصانوا ثقافتهم وهويتهم حين كانوا أداة إنتاج وإبداع للمصطلح والفكر والمعرفة والأدب والفن؛ فإننا نرى بأم أعيننا مدى الضرر الذي يحيط بحياتنا ولغتنا من ثقافة الآخر ولغته ومفاهيمه. ولا جدال في أن كثيراً من مفاهيم الغرب وحياته وعاداته أخذت تتجذر في حياة العرب ولغتهم، سواء عن طريق الترجمة أم عن طريق المعايشة؛ علماً أن الترجمة لم تستطع أن تنقل دقة دلالة أي مصطلح أجنبي إلى العربية بصورة منضبطة على دلالته الأصلية في لغته – أحياناً– (٣) إذا أهملنا أثر الترجمات الرديئة أو تغافلنا عن تعدد الترجمات للمصطلح الواحد وبعثرتها أو اختلافها نتيجة لتباين ماهية المصطلح في اللغات الأجنبية المترجم عنها وبهذا كله فأبناء الأمة يسهمون بأيديهم في حركة التغيير الاجتماعية لكنها حركة ترتد إلى الوراء.

ولا شيء أدل على تعدد الاختلاف في ترجمة المصطلح الواحد أو تكراره من بعض المصطلحات مثل (الرومانسية Romantieism) التي ترجمت إلى

---

(1) لسان العرب ــ (دخل) ــ وأثر الدخيل على العربية الفصحى ــ ص٢٣ ــ ٢٩ و ٤٢–٥٣ .

(2) التغريب في اللغة العربية ٢١١–٢١٣ .

(3) المعجم الشامل لمصطلحات مجمع اللغة العربية ــ (دار التقنية والهندسية) ــ ص٥ عبد السّلام هارون ــ دار الجيل ــ بيروت ــ ط١ ــ ١٩٩١ ، واللغة العربية والنهضة العلمية المنشودة في عالمنا الإسلامي ــ ص ٦٤ ــ كارم السيد غنيم ــ مجلة عالم الفكر ــ المجلد ١٩ ــ العدد ٤ ــ يناير / مارس ــ ١٩٨٩م .

(الرومانسية والرومانتية، والرومانتيكية ، والابتداعية و....) ومثل (الكلاسيكية Classicism) التي ترجمت إلى (الكلاسيكية والكلاسية والتقليدية والاتباعية .....) ومثل (الحاسوب Computer أو Computor). وهو مشتق من الفعل (يحسب compute) الذي تعددت مسمياته منذ ظهوره في الأربعينيات فأطلق عليه (العقل الألكتروني، والحاسب الألكتروني، والحاسب الآلي، والرتابة، والكومبيوتر ...) ثم اعتمدت المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس مصطلح الحاسوب، إذ صار يستعمل مرادفاً للفظه الأجنبي، علماً أن استعمال مصطلح (الحاسوب) مازال قلقاً في الحياة العامة، وأشد منه قلقاً ونفوراً مصطلح (الناسوخ) وهو (الفاكس).

وكذلك ما زالت المشكلات قائمة حول مصطلح (الذكاء Intelligence) وتعريفه: (القدرة على تحويل المعلومات إلى معارف. ولــه مجالات كثيرة أدت إلى تعدد المصطلح في اللغة العربية مثل (ذكاء البشر) و(ذكاء الحيوانات) و(الذكاء العسكري) و (الذكاء الاجتماعي) و(الذكاء الصنعي) و .... ونحن نستعمل لذلك كله المصطلح العام وحده (الذكاء) (١).

ولا بأس علينا من أن نضرب مثلاً آخر من المصطلحات التي غدت اسماً لبعض الكتب مثل مصطلح (اللامنتي) وهو ترجمة لكتاب (كولن ولسن) الذي طبعه (أنيس زكي حسن) صيف (١٩٥٦م) في القاهرة، وطبع فيها سبع مرات في السنة نفسها لما لاقاه من صدى واسع ولا سيما بين الشباب واللامنتمي ــ عنده ــ هو الإنسان المتمرد على الحضارة الغربية التي تفتقر إلى كل ما هو روحي وأخلاقي؛ مهما كان غناها المادي، ما جعله يتنبأ بسقوطها في كتابه الآخر (سقوط الحضارة)(٢). وعنوانه في لغته الانكليزية (the outsider)، أما الترجمة الحرفية لهذا العنوان فهو (الخارجي) على حين أن (اللامنتي) يقابل في الانكليزية ــ حرفياًــ كلمة (Un belnger) أما زكي العشماوي فقد ترجم (اللامنتي) بمصطلح الغريب (Foreigner) في كتابه (الأدب وقيم الحياة

---

(1) الحاسوب (هذا الطفل الذي ولد كبيراً) ــ ص٦٥٩-٦٦٢ ــ د. أسامة أمين الخولي ــ مجلــة عالم الفكر ــ المجلد ١٨- العدد الثالث ــ ١٩٨٧م ــ وبحث اللغة العربيــة والحاســوب ــ ص٧٠ ــ د. نبيل علي.

(2) انظر اللامنتمي ــ كولن ولسن ــ ترجمة أنيس زكــي حــسن ــ دار الآداب ــ بيــروت ــ ١٩٨٥م ــ ص ٢٦-٦٠ وسقوط الحضارة ــ كولن ولسون ــ ترجمة أنيس زكي حــسن ــ دار الآداب ــ بيروت ــ ط٤ ــ ١٩٨٧ ــ ص ٥٩ ــ ٧١و ١١٠ ــ ١١٥و ١٢٦ ــ ١٦٨ ــو ٢٤٤ ــ ٢٤٨و ٣٠٢ ــ ٣١٩ و٣٩٥ ــ ٣٩٩.

المعاصرة ــ ص٥١) بيد أن ترجمة أنيس هي الأفضل، وإن كان بالإمكان ترجمتها إلى مقابل (الثائر Revoltor).

وغير ذلك كثير في حياتنا وثقافتنا نتيجة الاعتماد على الترجمة الفردية والذاتية ــ غالباً ــ مثل (المذياع، والتلفاز، والهاتف، وأوبره ، والتلغراف، و ......) على اعتبار أن المعادل اللفظي الدلالي إنما يوحي بفهم المترجم للمصطلح وإحاطته به (١).

أما الاختلاف والتبعثر في المصطلح الواحد نتيجة اختلاف اللغة المُتَرْجَم عنها لاختلاف ثقافتها وفلسفتها؛ فنمثل لــه بكلمة (Pendulun) فهي في سورية (نوّاس) وفي العراق (رقّاص) وفي الأردن (خطّار) وفي مصر (بندول)(٢).

وعلى الرغم من هذا كله لم يكن هذا الاختلاف ليضير اللغة العربية وثقافتها، وكلنا يدرك أن الترجمة قد تكون نقلاً بنيوياً توافقياً بين لغتين وفق فهم المترجم للغته و اللغة المترجم عنها وأساليبهما وثقافتهما، وقد يحدث إثر ذلك تمازج بينهما، إما بالتغريب والدخيل وإما بالتعريب المستند إلى مفاهيم التوليد والاشتقاق والنحت والتركيب وفق النقل والابتداع للصيغ الأجنبية وفق أبنية عربية معادلة لها في الدلالة (٣).

وكذلك لم يكن ليضيرها وجود اللهجات العامية الكثيرة محلياً وعربياً، وهي لهجات متباينة في النبر والدلالة في أوضاع وصيغ غير قليلة. فقد استطاعت العربية أن تنتصر ــ نوعاً ما ــ في معركتها هذه إبان القرن العشرين، لتصبح لها مساحة عريضة من أرض العروبة؛ فقد ذابت الفروق الكبيرة في الألسنة على الرغم من أنها ورثت تركة ثقيلة من آثار الاستعمار الأوربي الحديث؛ وثقافته وكذلك استطاعت إنتاج العديد من المعجمات في

---

(1) معجم مصطلحات العربية في اللغة العربية والأدب ــ ص ٩٤/٩٣ ــ مجدي وهبة، وكامــل المهندس ــ مكتبة لبنان ــ بيروت ــ ١٩٧٩ م.

(2) اللغة العربية والنهضة العلمية المنشودة ــ ص٦٧ ــ مرجع سابق.

(3) المصطلح الصوتي بين الترجمة والتعريب- ص ١٢٠ ــ محمد حلمي هليل ــ مجلة اللــسان العربي ــ العدد ٢١ ــ المغرب.

مجالات شتى بدءاً من الطب وانتهاء بالفنون منذ إنشاء المعهد الطبي بدمشق سنة (١٩١٩م) وصدور أول معجم سنة (١٩٢٣م) (١).

وإذا كنا مطمئنين إلى الإرث الحضاري و الفكري والأدبي واللغوي فإن المخاوف لدينا أخذت تتصاعد بحجم المشكلة التي تعانيها ثقافتنا ولغتنا على صعد شتى ولاسيما على صعيد المفاهيم والمصطلحات وتأثيرها في الأوساط الثقافية والفكرية والعلمية والإعلامية، على اختلاف الشرائح العمرية، ولا سيما الشباب الذين يتفاوتون قدرة في مواجهة التيارات الوافدة. فالاتفاق على المصطلح ما بين العرب أصبح شبه مُتَعذَّر؛ ومن ثم صياغته وإشاعته على الرغم من التطور الإعلامي والثقافي والمعرفي الذي وصل إليه العرب؛ أما إبداعنا للمفاهيم والمصطلحات فصار أبعد منالاً.

ولعل أي دارس متأمل لمشكلة المصطلح وهويته المعرفية والفلسفية واللغوية يرجعها إلى مجالاته التي أشرنا إليها ممثلة بنقل المفردات الأجنبية بدلالتها لفظاً بلفظ، أو باعتماد طريقة الاشتقاق والمجاز، أو النحت والتركيب، وهو نوع من الاختصار والمزج بين لفظين أو عدة ألفاظ ليتولد منها لفظ واحد جديد منحوت منها، أو باعتماد طريقة الدخيل أو التغريب، بيد أن المشكلة تتجسد – أيضاً – بأمور أخرى عديدة تكمن اليوم في فلسفة ثقافة القوة الفائضة التي تتجلى بأشكال رهابية وعصابية مسيطرة، وساعية إلى الإلغاء والتشويه والتضليل و ..... وهي فلسفة وجدت لنفسها أرضاً مواتية ونفوساً مهادنة نتيجة حاجتها إلى المعرفة والعلم والتقنية. ونستطيع تلخيصها بما يأتي:

١ ــ الثورة المعرفية والإعلامية والفضائية والتقنية والعسكرية و........ الجبارة والمتطورة. فالعالم المتقدم – ولاسيما أمريكا ــ يقذف إلينا كل لحظة بسيل من المصطلحات في حقول شتى ولغات عدة وبخاصة اللغة الإنكليزية التي غدت اللغة العالمية الأولى.

٢ ــ الحاجة الملحة لأبناء الأمة العربية إلى كل ما ينتجه العالم المتمدن باعتبار ما تعيشه الأمة العربية من تخلف وجهل وفقر وتمزق، وعلى اعتبار حاجة الشباب العربي خاصة إلى المعرفة وتعلقه بأدواتها المتطورة كالتقنيات.

---

(1) كتاب (الجهود اللغوية في المصطلح العلمي الحديث) ــ محمد علي الزركان ــ اتحاد الكتاب العرب ــ دمشق ــ ١٩٩٨م ، وتعريب المصطلح العلمي (إشكالية المنهج) ٨٤-١٢٧ ــ قاسم السارة ــ مجلة عالم الفكر ــ المجلد ١٩ ــ العدد ٤ ــ يناير / مارس ــ ١٩٨٩م .

٣ ــ غياب الوحدة الفكرية والثقافية للمؤسسات العربية ومن ثم غياب اللقاء بين المترجمين العرب داخل هذه المؤسسات أو خارجها على الرغم من إحداث اتحاد المترجمين العرب منذ أربع سنوات، إذا آمنا بحدوث الوعي التام للبحث عن المصطلح الدقيق لكل حالة معرفية أو فنية أو أدبية أو علمية أو........

ومن ثم أصبح التشتت في المصطلح والتباين والاختلاف والتكرار سمة للمصطلح العربي لغياب المعاجم العربية التي تلبي ترجمة المصطلحات في المجالات المتعددة؛ وإن وجد عدد قليل منها هنا وهناك (١)، ولغياب المرجعية المعجمية العربية الواحدة للمصطلح. وكلاهما أدى إلى التخلف في تطوير المعارف والعادات، ومن ثم شيوع الألفاظ الأجنبية الكثيرة على ألسنة العامة.

٤ ــ تعدد الثقافات الأجنبية ولغاتها التي يترجم العرب عنها، وإذا أحسنا الظن بقدرة المترجمين فالإشكال لا ينتج في مثل هذه الحال عن الترجمة أو التعريب، وإنما يكون ناتجاً عن المصطلح في لغته الأصلية لعدم دقته في الدلالة أو احتماله لعدد من التأويلات، أو ......

فإذا كان المصطلح لفظاً موضوعياً دقيقاً وواضحاً يدل على ماهية ما اتفق عليه المختصون ــ ومن ثم الناس جميعاً ــ فإن استقصاء ما يجري في حياتنا يؤكد أنّ المصطلح لم يعد في لغتنا وثقافتنا وحياتنا مادة للنمو والارتقاء والتوسع والثراء وإنما غدا مادة للفوضى والعبث والتمزق، ثم غدا الخطر الأكبر على هوية الثقافة العربية، لما يتصف به من حراك ثقافي واجتماعي واسع الأطياف وسريع التأثير بحكم طبيعته وقدرته على الدخول إلى الأذهان والمشاعر واللغات، وبحكم ما أسس لــــه من منابر ثقافية وإعلامية في ديار الأمة العربية أو قريبة منها، فضلاً عن استضافة عدد من أبنائها ممن ضعفت همتهم، أو باعوا أنفسهم للشيطان.

إنه المجال الأعظم الذي فطنت لــــه فلسفة ثقافة القوة الفائضة، فجعلته مادتها الأولى للتغيير وتبعية الآخر لها؛ ولاسيما حين تبنت حقولاً جديدة لــــه تنبثق من مفاهيمها وأهدافها؛ وهو حديثنا الآتي.

---

(1) دراسات لغوية ــ ص ٢٥ ــ حسين نصار ــ دار الرائد العربـــي ــ بيـــروت ــ لبنـــان ــ ١٩٨١ م. ــ والترجمة إلى العربية ــ ص ٥٥ ــ مرجع سابق.

رابعاً ـ توظيف الحقول الدلالية للمصطلح
:(the Fiels of semantic)

ليس هناك شك في أنّ قضايا الدلالة تتعلق بالمعنى، علماً أن النظام النحوي والتركيبي السليم ينتج حقولاً دلالية صحيحة إذا توافقت مع منظومة المجالات الدلالية التي أشير إليها في العلوم والطب والسياسة والاقتصاد والفنون والآداب والتقنية والإعلام و....... فالمصطلح في مجال الآلات ــ مثلاً ــ أو التقنيات يعد ــ في الأصل ــ مصطلحاً دلالياً محايداً بذاته يفيد الثقافات أياً كان نوعها أو انتماؤها؛ إن لم يستغل خطأ. ومن ثم فالحقول الدلالية تتفاعل مع منظومة الدلالات المتباينة تبعاً للقرائن المعنوية، وتتشعب إلى تصنيفات شتى عند الدارسين ويمكننا –في مجال المصطلح– تصنيفها كما يأتي:

١ ــ الدلالة الوظيفية: وترتبط بمعاني الصيغ الصرفية والزوائد فيها ومعاني التراكيب والأساليب حقيقة ومجازاً، وهذه الدلالة إحدى الدلائل التي يجري استغلالها لتحقيق المآرب والأهداف؛ لأنها تمتلك في طبيعتها القدرة على الحركة والتغيير. وهنا تكمن قدرة مراكز الأبحاث المتخصصة على إشاعة مصطلح ما في ثقافة من الثقافات وتسخيرها لحسابه.

٢ ــ الدلالة المعجمية : وتتصل بالمعاني المعجمية المتعلقة بالألفاظ لفظاً بلفظ، وإن أطلقت أحياناً بأسلوب عشوائي من قبل المترجمين. وهي دلالة منضبطة في المعاني ما دام المترجم قادراً على آليات الترجمة المعروفة.

٣ ــ الدلالة السياقية: وهي تستنبط منطقياً من معاني التراكيب والأساليب مما يحصل معناها في الذهن؛ سواء تساوت الألفاظ أم تفاوتت أم تنوعت المجازات وتباعدت، تبعاً لقدرة المترجمين. وتقترب هذه الدلالة من الدلالة الأولى في توظيف المفاهيم للمصالح والمآرب، وإن كانت أكثر ضبطاً.

٤ ــ الدلالة المنطقية وهي تستند إلى دلالة اللفظ الأجنبي أو العربي في تغير حروفه تقديماً وتأخيراً أو زيادة أو نقصاناً؛ فمقام الوعد يختلف ــ غالباًــ عن مقام الوعيد لاختلاف ترتيب بنية الحروف.

وفي ضوء ذلك كله فكل منظومة لغوية تتعالق بعلاقات وطيدة مع منظومات ثقافية واجتماعية وتقنية وإعلامية وتربوية وبيولوجية أخرى. فإذا آمنا بأنّ اللغة أداة تعبير عن المشاعر والفكر والحاجات ثبت لنا أن المصطلح يعد المعادل الموضوعي لها، لما يتسم به من عملية الاختصار والرمزية والتوظيف المشروع وغير المشروع ليصبح ذا هوية خاصة بذاته.

ولعل القراءة النقدية الموضوعية والمنهجية السليمة لفلسفة مصطلحات الثقافة الغربية الداعية إلى الانفتاح على الآخر المغاير للثقافة العربية وهويتها واللحاق بركب العالم الحر والمتمدن وتبني مفاهيمه وآلياتها تعد كشفاً حقيقياً لما يكمن وراء ذلك كله. فأرباب فلسفة ثقافة العولمة إنما يهدفون إلى الانقضاض على كل ما يملكه العرب والمسلمون من مصطلحات ذات صبغة عربية لإحداث التغيير الشمولي في الحياة والثقافة والإعلام و...... وجعلهم نسخاً بديلة لهم بعد أن عجز المثقفون العرب الأحرار عن حل المشكلات المستعصية في واقعهم. فأرباب هذه الفلسفة بما تملكه من القوة الفائضة ولاسيما مفكرو أمريكا وقادتها أخذوا يديرون عملية التغيير على ماهية المصطلحات التي تتجه إلى التزييف والإلغاء وفق فلسفة الغايات والذرائع والمنافع والمصالح مستغلين حاجة العرب إلى دول الشمال مادياً ومعرفياً وتقنياً وإعلامياً. إنها تتجه إلى جعل كل مصطلح سياسي أو فكري أو اجتماعي أو اقتصادي أو ...... محققاً للنمطية المرادة لـــه ومنهجاً تنفذه الشعوب تلقائياً أو قسراً. ويمثل هذا جملة من المفاهيم بما فيها مفهوم العولمة نفسه الذي اتضح لنا معناه ودلالته باعتباره منظومة فكرية وسياسية واجتماعية واقتصادية و..... غربية ثم أمريكية، ولا بد للعرب من تبنيها دفعة واحدة وتنفيذ متطلباتها التي تنشأ في المركز (واشنطن) وهو المركز الذي يقود العالم إلى تبني فلسفته لمصطلحات الحرية والديمقراطية والنظام العالمي الجديد والإرهاب، والتكفير والأصولية؛ والفوضى البناءة، واقتصاد السوق، والخصخصة، و ... وغير ذلك كثير مما يعمل على ترويجه وإشاعته لتثبيته في الذهن والشعور بالتكرار والإغراء.

وإذا كان منتصف القرن العشرين قد أثبت مقاومة العرب لمفهوم (الشرق الأوسط) الذي ظهر على يد المستعمرين البريطانيين مرتبطاً بالفكر الاستراتيجي لديهم، وكتبت عنه جريدة (التايمز) عام (١٩٠٣م) مقالات عديدة ثم صار محور الخطاب البريطاني بعد الحرب العالمية الثانية، ثم أُنشئت إدارة باسم (إدارة الشرق الأوسط) عام ١٩٢١م، (١) نقول إذا كان كذلك فإن هذا المصطلح قد عاد للظهور بأزياء صهيونية جديدة باسم (الشرق الأوسط الجديد)، ثم تبناه بوش الابن باسم (الشرق الأوسط الكبير) الذي ولد من ما

---

(1) انظر حقائق الصراع وأوهام التسوية ١٦٠ــ وما بعد ؛ إذ خصص مؤلفه الفصل كله لمفهـــوم تدشين الشرق أوسطية الجديد، وانظر الشرق الأوسط الكبير ١٠ ــ ١٢ و ١٤ ــ١٨.

يسمى (النظام العالمي الجديد) كما ذهب إليه بريجنسكي وكيسنجر(١). وهذا المصطلح قد ظهر بعد انتهاء الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفييتي السابق، سنة (١٩٩٠م)، وطفق يستخدم الأمم المتحدة غطاءً شرعياً لــه، باعتباره يجمع ثلاثة مفاهيم متداخلة (المجتمع العالمي، والتنظيم العالمي ــ والنظام العالمي)(٢). وعلى الرغم من ذلك كله فهو نظام فاقد للشرعية؛ لأنه تجسيد لمطامع الولايات المتحدة، في قيادتها للعالم دون غيرها، علماً أنه أصبح مناط الرجاء لكثير من الأنظمة الحاكمة، وبعض المؤسسات العربية والإسلامية والعديد من المثقفين المدافعين عنه، إما جهلاً منهم بحقيقة الأمر، وإما ظناً باتباع الآخر وتقليده لما يتصف به من تقدم تقني ومادي ، وإما ....

ولما كان بحثنا عاجزاً عن الإحاطة بكل المصطلحات المنتجة للمفاهيم التي لبست زركشات العولمة وإغراءاتها، وتسلحت بتضليل الصهيونية وخبثها فإننا سنتوقف عند عدد منها لنبين كيف تسعى ثقافة التغيير الأمريكية إلى إلغاء مفاهيم العرب وتزييفها لإحلال فلسفتها في كل مفهوم، ومن ثم تحويل هوية المصطلح العربي إلى الهوية الغربية المطلوبة؛ وهو ما يَنْقُض المشروع القومي العربي من الداخل؛ وهذا ما نتبينه فيما يأتي في عدد من المفاهيم:

١ - الإرهاب (Terrorism):

أهملت ثقافة فلسفة القوة الغربية ــ عامدة ــ مفهوم الإسلام لمصطلح الإرهاب، كما تجاوزت لغة العرب في ذلك. فالإرهاب ــ في لغة العرب ــ مصدر مشتق من الرَّهَب وهو الخوف رَهِبَ يَرْهَب رَهْبَة، ورَهَباً ورُهْباً. وفعل الإرهاب أَرْهب، أي أَوْعد وأخاف وتَرَهَّب توعده وخوَّفه، ومثله: رَهَّبَه. واسترهبه : استدعى رَهْبَته حتى رهبه الناس. وعليه قولــه تعالى { واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم } (الأعراف ١١٦/٧)؛ أي أرهبوهم وفزّعوهم وأخافوهم....

وبهذا فإن دلالة الإرهاب في العربية وفي الإسلام تؤكد معنى ردع العدو أو الآخر المعتدي بالتخويف والتفزيع من دون أن تحمل أي نمط من أنماط

---

(1) انظر منابع الإرهاب ٢٦١ ــ ٢٦٢.

(2) انظر النظام الدولي الجديد ــ سعد حقي توفيق ــ الأهلية للنــشر والتوزيــع ــ بيــروت ــ ١٩٩٩م ــ ص ٤٠ ــ ٤٢ و ١٢٨ ومحاضرات فــي الــصهيونية ١٣٦ ــ ١٣٧ ومنــابع الإرهاب ١٨٣ ــ ١٩٠ وحقائق الصراع وأوهام التسوية (الفصل الخامس: اتفاق أوســلو: تدشين الشرق أوسطية ١٥٩ ــ ١٨٠) والنفوذ الصهيوني في العــالم ٨٥ ــ ٩٦ و ٣٢٠ ــ ٣٣٥ و ٣٨٣ــ ٣٩٠ والشرق الأوسط الكبير ٢٤ و ٦٢ و ١٣٠ و ١٤٢.

العنف أو القسوة أو الاعتداء. ويثبته قوله تعالى { وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم } (الأنفال ٨/٦٠). ولما كان مصطلح (الإرهاب) يحمل معنى الخوف فقد دخل لدى العرب والمسلمين في باب التعبد فقيل: ترَّهب الرجل إذا صار راهباً يخشى الله، والرَّاهبُ : المتعبد في الصومعة والزاهد في الدنيا ولهذا سمّي المجاهد راهباً والجهاد رَهْبانية وليس عند النصارى عمل أفضل من التَّرَهُّب (١).

فالقراءة النقدية الموضوعية لدلالة مصطلح (الإرهاب) في العربية والعقيدة الإسلامية باستخدام الأدوات المعرفية للفهم والتحليل تؤكد التزييف الإجرامي الذي ألحق بالمصطلح من جهة تبرز الكيد الحاقد على العرب والمسلمين حين ألصق بهم وبمصطلحهم دلالة غربية ناتجة من الثقافة الأنكلو-أمريكية من جهة أخرى. ومن ثم فمصطلح الإرهاب قد تطورت دلالته عند العرب إذ حَمَلَ أكثرهم مفهومه على اعتبار أنه" الاعتداء على الأبرياء الآمنين وإلحاق الأذى والضرر المعنوي والجسدي بهم، أو قتلهم لتحقيق أهداف سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية لا علاقة لهم بها". وطفقت المؤسسات العربية والإسلامية تتبارى في الوقوف على تعريف الإرهاب بمفاهيمه الغربية فعَرفه مجلسا وزراء الداخلية والعدل العرب في الاتفاقية العربية للإرهاب بقولــه: هو" كل فعل من أفعال العنف أو التهديد به أياً كانت بواعثه أو أغراضه يقع تنفيذاً لمشروع إجرامي فردي أو جماعي ويهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس أو ترويعهم بإيذائهم، أو تعريض حياتهم أو حرياتهم للخطر، أو إلحاق الضرر بالبيئة أو بأحد المرافق، أو الأملاك العامة أو الخاصة أو احتلالها أو الاستيلاء عليها أو تعريض أحد الموارد الوطنية للخطر".

على حين عرّفه " المجمع الفقهي الإسلامي" في " رابطة العالم الإسلامي" في دورته السادسة عشرة بأنه " العدوان الذي يمارسه أفراد أو جماعات أو دول بغياً على الإنسان ويشمل صنوف التخويف والأذى والتهديد والقتل بغير حق وما يتصل بصور الحرابة وإخافة السبيل وقطع الطريق، وكل فعل من أفعال العنف أو التهديد يقع تنفيذاً لمشروع إجرامي فردي أو جماعي، ويهدف إلى

---

(1) لسان العرب (رهب) ــ مصدر سابق .

إلقاء الرعب بين الناس أو ترويعهم بإيذائهم أو تعريض حياتهم أو حريتهم أو أمنهم للخطر"(١).

وكثرت التعريفات هنا وهناك تبعاً للخلفية الثقافية والسياسية والفكرية وقد نسي كل من هذه التعريفات أن الاعتداء على الحيوان محرّم في عقيدتنا وتراثنا، وحديث المرأة التي دخلت النار في هرة حبستها مشهور للناس. ولهذا كله فقد أصاب المصطلح بلبلة كبرى نتيجة غياب الرؤية العربية الصحيحة الموحدة لـــه؛ ووصلت هذه البلبلة إلى الثقافة العربية التي أخذت تردد المصطلح بدلالته الغربية وشرعت تحصره بالفهم الغربي ولا سيما الأمريكي الذي انتهى أخيراً إلى خلط مدروس ومتعمد بين الإرهاب والمقاومة والانتفاضة والعنف، والتمرد السياسي ليكون ذريعة للتدخل في دول العالم. ولعل ما يؤيد هذا التصور ما ذهب إليه المفكر الأمريكي اليهودي نعّوم شومسكي حين عرف الإرهاب بأنه "استعمال مدروس للعنف ضد المدنيين لإجبار وترهيب السكان المدنيين أو الحكومات من خلال زرع الرعب" (٢).

إن الثقافة الأنكلو- أمريكية أصرت على خلط مدروس لدلالة مصطلح الإرهاب (Terrorism) بما يدل عليه في اللغة الانكليزية، لأن المصطلح فيها مشتق من كلمة (Terror) ويعني العنف والاعتداء بالقوة على الأبرياء والمدنيين، وبث الرعب فيهم، وتصفيتهم جسدياً ولاسيما إن اضطر صاحبه لهذا.

ومن ثمّ فإنها دلالة مرتبطة بالذهن الأمريكي بأفلام الرعب الأمريكي كما جاء – ذات يوم ــ في تصريح للسيد (فاروق الشرع) ــ يوم كان وزيراً للخارجية السورية ــ على شاشة التلفزة. وكان الأمريكيون والبريطانيون من المخرجين السينمائيين وغيرهم يروجون لها كما في أفلام الرعب لــ (ألفريد هيتشكوك). وفي هذا الاتجاه علينا ألا ننسى أن ذلك الذهن الغربي لا يفرّق بين العنف والمقاومة وكلاهما إرهاب في عُرْفه؛ فحين يدين العنف أو الإرهاب فكأنما يدين في آن معاً المقاومة، وبهذا فهو يحكم على الشعوب المناضلة ضد الاحتلال

---

(1) انظر التعاريف السابقة في مجلة (الأمن والحياة) كانون الثـــاني / ينـــاير ٢٠٠٦م ــ جامعـــة نايف العربية للعلوم الأمنية ــ الرياض ــ العدد ٢٨٣ــ ص٣٤ وانظـــر النظـــام العـــالمي الجديد: الحاضر والمستقبل ١٧٨ ــ ١٧٩ و ٣٨٨ ــ ٣٩٩ ومنابع الإرهاب ٢٤٥ ــ ٢٥٢.

(2) أحاديث وحوارات ــ ص٨٩– نعوم تشومسكي ــ دار الرضا للنشر ــ تـــشرين أول ٢٠٠٢ م وانظر النفوذ الصهيوني في العالم ٢٢١و ٣٩١ ــ ٣٩٣ ومحاضرات في الـــصهيونية (٧٠ ــ٧٣ عن الإرهاب في القانون الدولي).

بأنها شعوب إرهابية؛ وهو ما يحصل للمقاومة في فلسطين والعراق وفي كل مكان.

وقد شاع استعمال المصطلح في الصحف ووسائل الإعلام والفضائيات، وفق مفهوم الدوائر الغربية والأمريكية خاصة، وهي التي سعت إلى إقناع العالم كله بشرعية ما تقوم به، فيما زعمته (الحرب على الإرهاب) ولا سيما بعد أحداث (١١/٩/٢٠٠١م). لهذا زيفت الحقائق وضللت العقول بأن العرب والمسلمين إرهابيون ما جعلها تنعت انتفاضة الشعب العربي الفلسطيني ومقاومته للاحتلال الصهيوني بالإرهاب. وكان مصطلح الانتفاضة بدلالته على التحرر قد دخل اللغة الإنكليزية؛ بيد أن تحول السياسة والمصالح حوّل دلالته هو الآخر إلى مفهوم الإرهاب. ثم جيشت الإدارة الأمريكية بقيادة بوش الابن عدداً من دول العالم للقيام بتنفيذ مخططاتها في أفغانستان ثم العراق؛ بعد أن نشرت الجواسيس وخربت ذمم بعض الحكام والأمم. ولا يخفى على كثير من الدارسين أن الإدارة الأمريكية أرست مبادئ الحرب الذهنية باعتمادها على الحرب النفسية منذ عام (١٩٨٠م). وقد تعرّض لهذا الكولونيل الأمريكي السابق (بول فاليلي) في دراسته (من الحرب النفسية إلى الحرب الذهنية: سيكولوجيا النصر). وتعتمد هذه الحرب على إثارة الأمة المعتدى عليها بضرب أبنائها في بيوتهم قبل انتقالهم إلى ساحة القتال، وعلى وسائل الإعلام أن تبرز ذلك كله.

إذاً لم يكتف أرباب الثقافة الأنكلو– أمريكية بتزييف حقيقة المصطلح وإنما أرادوا لـــه أن يكون جزءاً من الحالة النفسية والفكرية والاجتماعية والتراثية للعرب والمسلمين ضاربين عرض الحائط بدلالته الإنسانية في العربية والإسلام، علماً بأنهم لم يفعلوا مثل ذلك حين يكون العنف والقتل منهجاً وأسلوباً لبعض الجماعات الموالية لها لتحقيق مصالحها، كما حدث في غير ما مكان من العالم. فهم لا يبالون بالإرهاب إذا لبى طموحهم في السيطرة على العالم. ولهذا لم يلتفت أرباب الثقافة الغربية المركزية للدعوات العديدة التي صدرت من القيادة السورية في منتصف ثمانينيات القرن العشرين لتحديد مفهوم الإرهاب. وما زالوا كذلك ــ لا يصيخون سمعاً للنداءات المتكررة لتحديد المفهوم. إنهم يريدون دلالته كما يرغبون فيها دلالة معمّاة لا يتفق الناس عليها، ولا سيما ما يتعلق بمفهوم الإرهاب الدولي (Internalional terrosism) الذي يمارسه الكيان الصهيوني بحق الشعب العربي الفلسطيني كل لحظة، فضلاً عن أن ما تقوم به أمريكا في العراق وأفغانستان إنما ينطبق عليه مفهوم الإرهاب الدولي

كما هو معروف في دلالته الغربية الأمريكية، فأمريكا إنما تحارب الإرهاب بالإرهاب.

وبناء علي ذلك كله أرادت الثقافة الأنكلو ــ أمريكية أن تصبح صفة الإرهاب حاملاً ثقافياً واجتماعياً وحالة نفسية تلتصق بالعرب والمسلمين ليغدو كل عربي أو مسلم إرهابياً متوحشاً ومتخلفاً. ومن ثم ليصبح هذا الوصف حالة عالمية تسعى الدول المتمدنة والعالم الغربي الحر إلى القضاء عليها. وهذا ما برز على لسان عدد من الأمريكيين العاديين الذين صرحوا بأن العربي أو المسلم صار قريناً للإرهابي. وهنا يتساءل كل إنسان: أليس إرهاباً كل ما جرى ويجري في فلسطين والعراق وأفغانستان؟!! فالأطفال والشيوخ والنساء يقتلون هنا وهناك؛ إذ قتلت أمريكا في العراق حتى الآن ما يزيد على مليوني طفل؛ إما بسبب الحصار الجائر الذي فعلته إبان التسعينيات وإما بسبب الحرب المدمرة التي شنتها في ٢٠/٣/٢٠٠٣م فضلاً عن تدمير المتاحف وسرقتها بشكل مدروس ومنظم، ليس لـــه هدف إلا تدمير البنية التاريخية الثقافية والفكرية للأمة، على اعتبار أن الحضارة القديمة في العراق تمثل البواكير الأولى للثقافة العربية. فالمتحف العراقي في منطقة (علاوي) بالحلَّة فَقَدَ ما يزيد على (أربعة عشر) ألف قطعة أثرية " من بينها (ثلاث وثلاثون) قطعة تعد الأهم من نوعها من حيث قيمتها التاريخية"(١).

ولقي مثل هذا المصير متاحف العراق الكثيرة في بغداد والموصل والناصرية و ...

ونتساءل: أليس ذلك إرهاباً ومن ثم أين يقع قصف الطائرات الأمريكية للآمنين الأبرياء في ملجأ العامرية في بغداد وقصفها للفلوجة والرمادي وبعقوبة وحديثة والإسحاقي؟! وأين يقع تدمير مخيم جنين وقطاع غزة وغيره من قبل آلة الإجرام الصهيوني؛ إذا أهملنا تدميرها لبيروت وقانا وغيرهما؟ ألا يقع ذلك كله في خانة الإرهاب؟.

ومن ثم فقد اعتمدت فلسفة ثقافة التغيير عملية تضليل وتزييف كبرى حين خلطت بين مصطلح الإرهاب بدلالته هويته الغربية الحديثة؛ وبين مصطلحات الجهاد والمقاومة ومحاربة الاحتلال بكل أشكاله ومفاهيمها في الثقافة العربية. ونعتت الحركات التحررية والحركات المناهضة للاستعمار بالإرهاب كما هو

---

(1) جريدة صوت الشعب ــ العدد ١٣١ ــ ص١٢ ــ دمشق ــ ١٨ ــ ٢٥/٣/٢٠٠٦م وانظر منابع الإرهاب ٢٥٣ ــ ٢٦٠.

الحال في المقاومة الفلسطينية للاحتلال الصهيوني الاستيطاني؛ وكما رأيناه في المقاومة الوطنية الإسلامية واللبنانية بقيادة حزب الله لإخراج الصهاينة من جنوب لبنان. ثم صار كل مجاهد أو ناشط لطلب الحرية ومحاربة الاحتلال الأمريكي في العراق، وأفغانستان إرهابياً؛ علماً بأن العنف والقتل والاعتداء على الآخر قد جاء من الغرب ابتداء بحرب الفرنجة في الحروب الصليبية وانتهاء بالاستعمار الأوربي والاحتلال الصهيوني لفلسطين؛ وأخيراً الاحتلال الأمريكي للعراق. وهذا الاعتداء الصريح على الذات الوطنية والقومية والإنسانية هو الذي ينبغي أن يُرَدَّ ويقاوم. فالعدوان الغربي منذ القديم حتى اليوم هو الذي يجسد الإرهاب ــ المعروف بدلالته الغربية ــ وهو ما ينبغي أن يقاوم شرعاً وقانوناً لقوله تعالى:{ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم} (البقرة ٢/١٩٤)، فإذا انتهى العدوان وخرج المحتل من أرضنا عدنا إلى مسامحته وإشاعة الأخلاق الحميدة لتكون الحياة أفضل.

فأي عملية تزييف هذه التي تجري بحق المصطلحات وهويتها؟ إنها الإرهاب الحقيقي الذي يقوم بقتل ثقافة الأمة وقلب مفاهيمها لتصبح حاملاً اجتماعياً تابعاً. ومن ثم فأي أزمة نفسية وأخلاقية واجتماعية وثقافية ولغوية أعظم من هذا الذي تواجهه أمتنا ؟. فالعروبة بكل نزوعها الإنساني صوّرتها الثقافة الغربية بأنها هوية معادية للآخر ساعية إلى استئصاله.

لهذا فمن غير المعقول أن تستلب العقول من الرؤوس لتصدق كل ما ترمي إليه ثقافة العولمة الأمريكية على صعيد المصطلحات والمفاهيم. فمثقفوها وأدباؤها ومفكروها جهدوا في اختراع المفاهيم التي تقوم على إلغاء المشروع القومي العربي واستئصال مفاهيمه أو تزييفها كما نراه في عدد من المفاهيم الأخرى التي يريدون منها أن تصبح حاملاً اجتماعياً وثقافياً لمراميهم السياسية ومصالحهم الخاصة. وهذا ما يتجسد في مصطلح (نهاية التاريخ) الذي نادى به (فرنسيس فوكوياما) ومصطلح (صراع الحضارات) الذي تبناه (صموئيل هنتنغتون)، وكلاهما يتبنى فلسفة ثقافة القوة الفائضة لأمريكا وفرضها على ثقافات الشعوب وهوياتها وتغييرها لصالح ثقافة الغرب كي تظل مهيمنة على العالم كله (١).

---

(1) كتاب (نهاية التاريخ والإنسان الأخير ــ فرنسيس فوكوياما ــ مركز الإنماء القومي ــ ترجمة د. فؤاد شاهين و د. جميل قاسم ورضا الشايبي ــ بيــروت ــ ١٩٩٣م) وكتــاب (صــدام الحضارات) صموئيل هنتنغتون ــ ترجمة طلعت الشايب ــ ط٢ ــ ١٩٩٩م .

ولعل أهم عملية نصب وتزييف تجري بحق المفاهيم وحاملها الاجتماعي ما يجري بحق الديمقراطية وفق المفهوم الأمريكي. فهذا المفهوم يسعى إلى إحلال منظومته الفكرية الفلسفية والاجتماعية والمعرفية والاقتصادية باعتبارها مالكة لأسباب القوة المادية والمعنوية محل الثقافة العربية ومفاهيمها باعتبارها منظومة متخلفة وضعيفة فهي تعيش خارج التاريخ كما يزعم أرباب فلسفة القوة.

فأي ظلم هذا الذي تمارسه أمريكا على البشرية عامة والعرب والمسلمين خاصة بحكم التطوير والتحديث و الإصلاح؟!! ولكي يزيد الأمر وضوحاً لا بد من أن نتوقف عند مصطلح الديمقراطية.

٢ ـ الديمقراطية:

الديمقراطية مطلب ثقافي فكري سياسي اجتماعي وأخلاقي للشعب العربي للوصول إلى حريته والحفاظ على كرامته؛ أي إن الديمقراطية ضرورة ملحة لــه في واقع سيطر عليه الظلم والقهر والجهل والفقر وأحادية الاتجاه على الصعيد الفردي والاجتماعي؛ وعلى صعيد المؤسسات والكتل السياسية والفكرية. فالديمقراطية لديه لم تعد وسيلة أو أداة سلمية لتبادل السلطة تبعاً للكفاءة والمعرفة والقدرة على تحمل المسؤولية التي حمّله إياها من انتخبه للوصول إلى الحرية والعدل والمساواة، وإنما صارت هدفاً يسعى إليه المجتمع العربي؛ على اعتبار أنها فقدت على أرض الواقع. وعلى الرغم من دخول مصطلح الديمقراطية في أزمة حقيقية لدى العرب ولا سيما عند أغلب الأنظمة والأحزاب؛ فهي ــ كذلك ــ تعاني من أزمة التزييف والتحريف والتشويه من الداخل والخارج لهذا المصطلح على صعيد التنظير والتطبيق. فما يجري في الصناديق الانتخابية ليس إلا عملية تضليل وتزوير كبرى سيكشف التاريخ حقيقتها .... فالديمقراطية التي تأسست في الوطن العربي ــ وإن شهدت أشكالاً من الحرية المتعثرة لدى بعض الدول والسلطات السياسية العربية ــ ما زالت تتصف بكثير من التشوه لأنها تمارس في إطار أقرب إلى التمثيل المرسوم مسبقاً من قبل السلطة، أو المتفق عليه من قبل عدد من الفئات والجماعات. أي إنها تمارس وفق مفهوم النظام الأبوي؛ بمعنى أنها موجهة من قبل السيد، أو السلطة أو رب العمل، ولا تأخذ إلا بالتوجه السياسي، ولا ينظر إلى الديمقراطية من خلال النموذج الاجتماعي أو الثقافي للديمقراطية الغربية المؤسسة على أساس حرية الفرد وسيادة الشعب باعتبار دلالة المصطلح الغربي المستمد من

دلالة الكلمة اليونانية (ديمقراطية). وهي كلمة مركبة من لفظين؛ الأول (Domos) ومعناه (الشعب) والثاني(Kratos) ومعناه (السيادة) ــ ولا من خلال الشورى الإسلامية بكل أشكالها القديمة والحديثة على اعتبار أنها نمط من المشاركة بين الحاكم والمحكوم في السلطة والحياة، وإدارة شؤون المؤسسات والدولة (١). وما يمارس منها لا يتجاوز المظاهر الخارجية من الديمقراطية النيابية. فمصطلح الديمقراطية يشي في جوهره إلى عناصر الارتقاء، بيد أن وظيفته في إطار الممارسة لا تستند إلى برامج اجتماعية فكرية تؤسس لتحقيق تنمية شاملة في إطار مشروع قومي متكامل ومتناغم. وفي ضوء هذه الرؤية كانت تمارس عملية اغتيال لحقوق الإنسان وكرامته، وحرية الرأي والتعبير، ومن ثم حرية الاختيار التي تمت في صناديق الاقتراع. ولهذا لم تصل الديمقراطية الجماهيرية الحقيقية والواعية إلى مفهوم الاختيار الحر والمنزه عن الأهواء السياسية والضغوط العشائرية والطائفية والمذهبية والاقتصادية. فالديمقراطية في الوطن العربي مبتلاة بعدد غير قليل من التشوهات والأمراض، وما إن تخرج من أزمة أخرى حتى تقع في أزمة على مختلف الصُّعُد الفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية والنفسية؛ فضلاً عن ضياعها بين المفهوم الليبرالي الغربي ومفهوم الشورى الإلهي الذي يتخذ طابع المبادئ السامية وفق مفهوم (الثيوقراطية Theocracy) أو المنبثق من مفاهيم سياسية إسلامية حديثة ذات مراجع مذهبية عديدة.

وعلى الرغم من هذا كله لم يسلم النظام الديمقراطي العربي من تشويه آخر ومرسوم وفق تحولات النظام العالمي الجديد الخاضع للمصلحة الاقتصادية والثقافية التي تحرك الغرب عامة وأمريكا خاصة. ولهذا فما هو أسوأ من هذه الديمقراطية التي تمارس في الوطن العربي تلك الديمقراطية التي تجري في ظل سيطرة الثقافة الغربية أو تحت بنادق الاحتلال الأجنبي.

وكل من راقب الانتخابات التي جرت تحت ظلال حراب المحتل الأمريكي والصهيوني يدرك أنها ليست ممثلة لشيء من مصطلح الديمقراطية الهادف إلى تحقيق الحرية والمساواة والعدل التي تبناها مؤسس الديمقراطية الحقيقي (توماس جيفرسون) ــ وهو ثالث رئيس للولايات المتحدة ــ على الرغم من

(1) سيقتصر حديثنا هنا على مفهوم الديمقراطية في إطار ثقافة العولمة، وسندرسه مفصلاً من بعد (ص١٨٤) وانظر المعجم الفلسفي ١/٥٦٥ وندوة مشروع النهضة العربيـة ١/١٧٥ ــ ١٩٣ و٢٠٦ ــ ٢١٨ و ٢٣٤ ــ ٢٧٣.

الحشود الصحفية والإعلامية التي سخّرتها الإدارة الأمريكية لها فضلاً عن تسخير الهيئات الدولية لإيهام الدنيا بأنها تجربة ديمقراطية حقيقية، ولا سيما حين تقاطر المحرومون والفقراء إلى صناديق الاقتراع ظنّاً منهم أنها السبيل الوحيد إلى إخراج المحتل من أرضهم التي دنّسها. فالديمقراطية لم يعد مصطلحاً نزيهاً ولا محايداً ــ وفق ما نفذ به ــ فقد غدا صورة لمفاهيم أمريكية صهيونية وثقافتها المركزية المهيمنة مهما زخرف القول فيه، إنه حامل هوية ثقافية خاصة بالإدارة الأمريكية الجديدة. ومن ثم فالهدف الذي ستنتهي إليه دائماً هو ضمان مصالح سياسة رأس المال؛ في الوقت الذي تريد من كل صوت انتخابي أن يغدو رقماً استهلاكياً لصناعتها؛ وإنتاجها؛ ثم يزداد الوطن فقراً وتخلفاً على حين تمتلئ أرضه بالخامات التي تذهب إلى آلة رأس المال لتمتلئ جيوب أربابها بالذهب والألماس. فالأوطان تسرق في وضح النهار كما سرقت كنوز العراق وتراثه من قبل دعاة الحرية والديمقراطية ودُمِّر ما لا يُقْدَر على حمله.

وفيما لو استفاد أي قطر عربي من هذه الديمقراطية وحقق شيئاً من الحرية القابضة على إدارة شؤونه، فإنه سيحاصر إلى أن يتراجع إلى المفاهيم الأمريكية، ثم يغدو سوقاً لتصريف كل ما تنتجه العولمة الأمريكية وفي إطار سياستها التي تقف في وجه التكامل الاقتصادي العربي. فجوهر الديمقراطية سيادة الشعوب على ثرواتها وقوتها وأرزاقها وتسيير شؤونها بأسلوب سلمي حر يستند إلى العدل والمساواة والكفاءة والخبرة والمعرفة، على حين أن جوهر ديمقراطية أمريكا هي السيطرة على أرزاق الشعوب وقوتها وتراثها وثقافتها.

هذا ما أثبتته أمريكا على الدوام وهذا ما يظهر في أفغانستان والعراق ولبنان ــ اليوم ــ. ولعل فضيحة بول بريمر اليهودي الأصل ــ الحاكم المدني الأمريكي السابق للعراق في المرحلة الانتقالية لعام ٢٠٠٤م ــ مازالت عالقة في ذاكرة الشعوب، فقد امتلأت جيوبه من خزائن العراق وكنوزه وثرواته، وإن غيَّبته الإدارة الأمريكية ــ إدارة بوش الابن ــ عن أبصار العالم في نهاية عام (٢٠٠٤م). إذ غادر العراق بشكل مفاجئ ومعه (١١,٣٠٠) مليار دولار؛ فضلاً عن السرقات الأخرى التي كشفتها الصحف الأمريكية ذاتها؛ إذ ذكرت اختلاس ما يزيد على (٨٨,١) مليار دولار عن طريق إبرام ألفي عقد لإعادة إعمار العراق. وهناك فضائح أخرى كثيرة لمتعهدين صهاينة وأمريكان وبريطانيين؛ إذا أغفلنا سيطرة المحتل الأمريكي على ودائع عراقية في البنوك الأوربية تبلغ أكثر من (١٣) مليار دولار و (٣) مليارات مودعة في الولايات المتحدة... أما ما

يتعلق ببرنامج النفط مقابل الغذاء وأمواله المودعة لدى الأمم المتحدة وتزيد على (٢١) مليار دولار فحدّث ولا حرج(١).

إذاً، هذه صورة واضحة لفلسفة مفهوم الديمقراطية كما تريد لها أمريكا أن تشيع في المجتمع العربي، وكما تريد أن تشيع مفرداتها اللغوية والفكرية ليصبح المجتمع العربي حاملاً لها، وليزداد بعد ذلك تبعية وفقراً وتمزقاً، وتمسكاً بدولته القطرية.

وأيًّا ما يكن الأمر فإننا نرى أن ديمقراطية رأس المال ليست إلا ديمقراطية مؤقتة وكذا هي حريتها. فهي تترعرع ما دام الاستغلال والاستعباد قائماً لوجود القوة الفائضة المهيمنة على خيرات الشعوب؛ ولكنها ستزول بزوالها مهما أدت بالشعوب إلى الكوارث المرعبة. فالديمقراطية التي غابت في ظل الحاكم المستبد، بعد أن زين لها بالأشكال الجذابة الخادعة هي التي تروجها الإدارة الأمريكية في عدد من البلاد العربية؛ وتحوّلها من مفهوم إلى آخر.

فالمفهوم الديمقراطي لهذه الإدارة لا يختلف عن مفهومها للنظام الاقتصادي الذي أدى إلى عولمة التجارة والاستثمار. وحين تشجع ديمقراطية المنظمات الأهلية أو ما يسمى منظمات المجتمع المدني، فإنما تسعى إلى إيجاد المناخ المواتي لمفهومها السياسي الذي ينتج حركات مناصرة لأفكارها؛ وتؤدي في الوقت نفسه إلى انقسام اجتماعي يكون سبباً في ضعف قدرة الدولة المركزية؛ مما يسهّل الانقضاض عليها وجعلها تابعة لمفاهيم العولمة في الديمقرطية.

فالديمقراطية بهذا التصور ليست وسيلة لنيل الحرية بكل أشكالها وإنما هي أداة لتحطيم المجتمعات من الداخل. وسبق أن قلنا: إن الديمقراطية وسيلة إلى تحقيق الحرية وفق مبدأ العدل والمواساة وقبول الآخر؛ وليست هدفاً نهائياً للدول والشعوب والأفراد. وما يشهده العراق يثبت أن أبناءه قد فقدوا حريتهم الاجتماعية والاقتصادية؛ فالاحتلال الأمريكي للعراق لم يولّد إلا مزيداً من الإحباط والقلق والخوف والجهل والفقر؛ ولم يولّد إلا مزيداً من تركيز السلطة بيد بعض الطبقات الفئوية التي أخذت تنظم مؤسساتها الديمقراطية وفق المنظور الأمريكي؛ ما أدى إلى فقدان الديمقراطية الحقيقية في الممارسة والتطبيق مهما قيل عن إقبال الشعب العراقي على صناديق الاقتراع في الانتخابات الأخيرة؛ لأنه كان يهدف من وراء هذا الإقبال حث سلطته الجديدة على إخراج المحتل

---

(1) جريدة صوت الشعب- مقال ــ العراق: المجازر والنهب- العدد ١٢٩- تاريخ ١٨- ٢٠٠٦/٢/٢٥م.

من أرضه، على حين أرادت أمريكا تحسين صورتها، وإيهام العالم بتجربتها، ظانة أنه لا يعرف غايتها.

ومن ثم فالديمقراطية التي تمارسها الإدارة الأمريكية مرتبطة لديها بمصطلح النظام العالمي الجديد الذي يسعى إلى تثبيت أركانه وفق رؤية الهيمنة. ولهذا فالإدارة الأمريكية تستنسخ تجاربها الديمقراطية في أشكال انتخابية فارغة من أي محتوى ديمقراطي ـــ كما قال الباحث الأمريكي (نَعُّوم شومسكي)(١).

ويؤيد هذا المفهوم أن أمريكا تجعل الديمقراطية سيفاً مسلطاً على الأنظمة التي تثور على سياستها، وتصفها بالمارقة والمتمردة؛ فإذا مشت في ركابها وحققت مصالحها وصفتها بأنها ديمقراطية، والأمثلة على ذلك كثيرة.

وضمن هذا السياق فإن ما يخدعنا به الكيان الصهيوني من لعبة ديمقراطية مزيفة إنما يعد واحداً من إفرازت الثقافة الغربية المركزية المهيمنة، لأن ما يجري من ديمقراطية في داخل الأرض المحتلة لا ينتج إلا مزيداً من عنصرية يهودية صهيونية ضد العرب وغيرهم ويعترف بهذا ما يقوله الدكتور إسرائيل شاحاك في كتابه (التاريخ اليهودي... الدين اليهودي): " إن فكرة إسرائيل دولة يهودية كانت ذات أهمية قصوى للسياسيين الإسرائيليين منذ بداية ظهور الدولة، وقد غرس هذا في أذهان السكان اليهود بكل الطرق الممكنة. وكان شُرِّع في العام (١٩٨٥م) قانون ينص على أنه لا يجوز لأي حزب معارضة اسم الدولة اليهودية أو اقتراح تغييره بواسطة العملية الديمقراطية، وحينئذ لا يحق لـــه أن يشارك في انتخابات الكنيست"(٢). أما بن غوريون فيقول: " إذا رغبنا في حقن دماء اليهود فإن علينا أن نلقي العرب خارجاً، إذ يجب طرد العرب إلى الصحراء التي قدموا منها"(٣).

ومن ثم يتساءل كل فرد منا: كيف يمكن لإسرائيل أن تمارس ديمقراطية حرة وهي تقوم على نبوءات العهد القديم؟ وكيف لها أن تدَّعي الديمقراطية وهي ترفض ديمقراطية الشعب الفلسطيني الذي اختار برغبته الكاملة سلطته الممثلة بـــ (حماس) وبرنامجها الانتخابي في (٢٠٠٦/١/٢٥م) وبنسبة عالية جداً؟!.

---

(1) انظر إعاقة الولايات المتحدة للديمقراطية ـــ نعوم شومسكي ـــ مركز دراسات الوحدة العربية ـــ بيروت ـــ ١٩٩١م ـــ ص٣٧٧، والديمقراطية والنظام العالمي الجديد ـــ هانزكوشـــلر ـــ ترجمة سميرة أحمد ـــ مركز الدراسات الدولية ـــ بغداد ـــ ٢٠٠٠م ـــ ص١٤.

(2) حقائق الصراع وأوهام التسوية ٥٢ وانظر منابع الإرهاب ٢٢١ـــ ٢٣٢.

(3) منابع الإرهاب ٢٢٥.

وها هي ذي اليوم قد شنَّت حرباً شعواء على قطاع غزة والضفة الغربية في عملية قرصنة جديدة سمّتها (أمطار الصيف) بدأتها ليل (٢٨/٦/٢٠٠٦م) ثم خطفت (٦٤) وزيراً ونائباً برلمانياً ينتمون إلى منظمة (حماس) في (٢/٧/٢٠٠٦م) ثم حولتهم إلى المحاكمة على اعتبار أنهم ينتسبون إلى منظمة إرهابية.

إن الكيان الصهيوني مصمم على إسقاط حكومة حماس، لأنه لم يكن يوماً مع الديمقراطية، ولا عرف شيئاً عنها.

ولهذا يقول (ميريل سايمون) في كتابه (جيري فالويل واليهود) :" أعتقد أن الله يستعمل مخلوقاته وسائل لتحقيق" برنامج اليهود لهذا الكون(١). ونرى أنه على الرغم من أنّ العولمة الأمريكية غدت حارسة لـــه ومحافظة عليه فإنه سينتهي إلى الزوال هو الآخر؛ لأنه يحمل في طبيعته ومنهجه ومفاهيمه بذرة فنائه. فالديمقراطية التي تقوم على نمطية الطابع اليهودي العنصري لمواطني الكيان الصهيوني ليس لها نصيب من الحياة، مثلها مثل ديمقراطية هتلر الذي انتُخِبَ بنسبة ٧٠% من قبل الناخبين،(٢) وها هو ذا أثر بعد عين.

ومن ثم فإن مفاهيمنا للحرية والديمقراطية لن تموت لأننا كنا على الدوام من صناع الحضارة الإنسانية وقادتها، كما يؤكده التاريخ منذ البابليين والفينيقيين والأنباط والسبئيين والفراعنة والعرب المسلمين، وانتهاء بطموحات تحقيق المشروع القومي العربي وعلينا مواكبة حركة التغيير في ثورة المصطلحات العالمية وتبني البدائل لها بما يحافظ على خصائصنا وذاتها.

فحضارتنا هي التي أنشأت الحروف الأبجدية وشريعة حمورابي والعمارة المصرية والخط المسند والعربي، وأنتجت ابن رشد وابن سينا وابن خلدون وابن الهثيم و...فالعرب كانوا ومازالوا يقدمون للحضارة الإنسانية أفكاراً وإلهامات شتى؛ ويؤسسون مفهوم الحرية القائمة على المسؤولية والعدالة، ويسعون إلى تطوير مفهوم الديمقراطية الوطنية الشريفة المستندة إلى الحق والمساواة ولم تكن لديهم تكفيراً وعنفاً؛ بل رحمة وعدلاً. وهو ما اعترف به جميع المؤرخين وأغلب الباحثين من اليهود والنصارى، فالتسامح والعيش المشترك أساس بناء الثقافة العربية؛ وحياة أبنائها مسلمين ومسيحيين ويهوداً.

---

(1) الموقف الأدبي ــ العدد ٤١٨ ــ ص ٨٤.

(2) الإسلام ــ الخطاب العربي وقضايا العصر ٥٩ ــ محاورات فكرية ــ حوار وحيد تاجــا ــ فصلت للدراسات والترجمة والنشر ــ حلب ــ سورية ــ ط١/٢٠٠٠م.

لهذا فكيفما تبدلت المصطلحات واكتسبت هوّيات جديدة لها فإنها ستنهار ما لم تقم على التكامل، وما لم تستجب للحامل الثقافي والاجتماعي للهوية العربية ومشروعها القومي. فديمقراطية هذا المشروع تستند إلى التغيير المنبثق من داخل البنية العربية وإن اختلفت سرعته وعمقه وتطوره. وبمعنى آخر نرى أن أي تطور للبنية الاجتماعية لا بد أن يستجيب للبنية الثقافية والمعرفية في إطار ما تدل عليه اللغة ومفاهيمها وفي إطار البنية المعرفية الأصيلة والمعاصرة، وإلا أصبحت اللغة والمفاهيم والمعرفة كالآلة الصماء. فالتغيير الديمقراطي الصحيح يعبر عن مضمون اجتماعي معرفي وفني و ..... ليصبح تغيراً حضارياً يتساوق مع التحولات الداخلية والخارجية معاً. أي ينبغي على العرب أن يستخدموا الديمقراطية أداة سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية و.. لتغيير الواقع الفاسد لمواجهة تحديات التغيير الخارجية التي تفرض عليهم بالقوة. ثم إن الديمقراطية لا تُفرض بقرار من سلطة محلية أو خارجية، تتسم بالاستبداد والاستئثار بالسلطة؛ وإنما هي منهج منضبط بالقوانين الإنسانية تمكن المجتمعات من ممارسة حريتها بكل أشكالها الفردية والجماعية؛ بما فيها حرية التملك، وحرية العمل والتعليم، والرأي والتعبير والنقاش، وحرية المعتقد و ... فالديمقراطية تعد الإطار الأنسب لتوفير حقوق الإنسان وممارستها بأفضل شكل من العدل والمساواة والإخاء والمسامحة والحوار المستند إلى الاحترام والمثاقفة المتبادلة.

وهناك أمل كامن في النفوس لدفع مسار الديمقراطية العربية الحديثة بأسلوب صحيح إلى مكانها المنشود. فإذا تعثرت الديمقراطية من قبل فهذا لا يعني أن نتراجع عن مبادئها؛ بل علينا أن نحلل أسباب إخفاقها، ومفاهيمها المتبدلة، وما الذي يناسبنا منها وفق واقعنا وثقافتنا على المستوى الفردي والجماعي والنظري والتطبيقي، دون أن تعمي أبصارنا محاولات الآخر المغاير لجرنا وراءه كيفما اتفق؟. ولعل هذا كله ما نراه في التغيير الحاصل لبعض المفاهيم المعرفية التاريخية مثل السلفية والأصولية وغيرهما.

٣ ـ السلفية :

لسنا من أولئك الباحثين الذين يغلقون أذهانهم عن الاجتهاد، لأننا لا نؤمن بأن الأولين ما تركوا للآخرين شيئاً، فالمعرفة العلمية تظل في حالة تطور وارتقاء في مناهجها وطرائقها ودلالتها ومفاهيمها. ومن ثم فالأسس المعرفية الموضوعية في ضوء الزمان والمكان والمنطلقات الفكرية المسلم بها هي التي تبسط سلطانها لرفض هذا المفهوم أو ذاك في مجتمع من المجتمعات.

ولهذا فلا تقديس للتراث ولا للرجال، وكذلك لا تقديس للحداثة وأربابها ما دامت تقدم لنا كل يوم مفاهيم ظنية، أو مشكوكاً في صحتها، إن لم تكن قائمة على التزوير والتحريف والتضليل في ماهيتها، فضلاً عن الكذب والخطأ المقصود وغير المقصود؛ وكلها تُعدُّ معاول قوية في هَدْم المشروع القومي.

فاحتمال الخطأ أو الكذب أو التزوير قائم في كل مصطلح يروج لـــه أرباب فلسفة الحداثة الغربية وقادة ثقافة القوة الفائضة، على الرغم من وجود مصطلحات كثيرة صحيحة؛ والحكم يستمد من القرائن والبراهين.

وليس هناك من تزييف أعظم مما يحصل للمصطلحات التي شكلت المفاهيم العربية التراثية التي نؤمن بها، فثقافة التغيير الغربية التي تواطأت على إحلال مفاهيمها سعت إلى تشويه اجتماعي فكري لمصطلح (السلفية ـــ الأصولية) فالسلفية التي استحضرتها الثقافة الغربية لا تنتمي إلى الثقافة الإسلامية، لأنها لا تؤسس إلا التخلف والاستعباد للماضي، في الوقت الذي تقتل حرية الإنسان المعاصر وفكره، ومن ثم تصبح فتكاً بالآخر المخالف لها.

لقد أريد للسلفية التراثية العربية أن تصبح مرضاً نفسياً واجتماعياً وفكرياً متخلفاً يلغي العقل والمنطق ويتبع فقط ما جاء به الآباء وتطبيقه على الأبناء. ومن ثم على الحكومات العربية محاربتها باعتبارها إرثاً كاملاً، وعليها وضع مناهج تربوية وعلمية تغير سلطان الفكر السلفي وتتبنى فكراً يرفض القديم ويعترف بالآخر وفق فلسفته ومفاهيمه.

ونحن نؤمن بأن الأدوات المعرفية والموضوعية والمنهجية تفرض علينا قراءة التراث قراءة إحيائية إبداعية، أي إنه يحتاج إلى قراءة نقدية، لا وصفية، قراءة تمضي في حياتنا وفق مناهج متعددة تحقق للمشروع القومي العربي نهوضه وارتقاءه وانفتاحهُ على الآخر. فالتجديد أو التغيير ضرورة اجتماعية وثقافية ودينية؛ لأننا نؤمن بأن هذا المنهج لا يمكن أن يكون تشويهاً أو كذباً وتزييفاً لإحلال منظومة فكرية ثقافية في مجتمعنا عوضاً عن منظومتنا الثقافية.

فالسلفية في اللغة العربية والعقيدة الإسلامية بريئة كل البراءة من الدلالات التي تريدها ثقافة العولمة الأمريكية. و لهذا فإن اختلاف تحديد الدلالة المعرفية يقود تلقائياً إلى اختلاف من نوع آخر اجتماعياً ونفسياً و..... وكل دلالة متعلقة بالغايات المتوخاة لها. وقد يكون هذا الأمر وراء ما يعرف – اليوم – بالسلفية السياسية التي سخرت التراث لأهداف فكرية تنبثق من القراءات الخاصّة بها، والمشروع القومي بريء منها كل البراءة.

وبناء عليه نرى أن اللغة العربية ــ قبل غيرها ــ تعد بوابة الدخول إلى فهم النص القرآني والعقيدة الإسلامية، والتراث برمته، وما ترسخ حول مفهوم السلفية اجتماعياً وفكرياً. وهذا ما يدعونا إلى كشف حقيقة هذا المصطلح في الثقافة العربية والإسلامية.

وفي هذا المقام علينا أن نفرق بين اتجاهين: الاتجاه الاكتسابي المبني على مجموع القواعد التي يستخدمها عقل الإنسان لاكتساب المفاهيم والعادات والمعارف، ما أدّى إلى وجود اتجاه الاجتهاد بالعقل، والاتجاه المحافظ الذي يعتمد تقليد القدماء وفق قواعدهم العقلية والمفاهيم التي صاغوها. ومن هنا وجد ما عرف بالنقل والاتباع ، والتفسير بالموروث دون الخروج على قواعد السلف؛ وهو منهج معرفي لدراسة التراث يغاير المنهج العقلي.

وأياً كان هذا الاتجاه أو ذاك فإن العقل هو صاحب القدرة على التمييز، وهو مرتبط في الحالين بالواقع الذي سيحكم عليه، إذ لا بد من أن تتشكل في العقل جملة من المدركات. وحين يستجلب المرء الشاهد من القدماء فلا يعني هذا مخالفته للمنطق أو القرآن الكريم أو السنة الشريفة، أو أنه قد صار عبداً للسلف لقوله تعالى : { ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين لــه الهدى .....}(النساء ٤/١١٥). فهذه الآية توضح لنا أن من تبين لــه الرشاد ــ أي الهدى ــ يذعن للحق؛ وهو مطلب عقلي يدل على الحق والعدل، واحترام الآخر، عقلاً وثقافة وانتماءً.

ويؤيد هذا التصور لمفهوم السلفية المبني على المنطق والعقل ما أورده لنا الله سبحانه وتعالى عن المشركين في تقليدهم الأعمى لآبائهم كقوله تعالى : { بل قالوا: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون } (الزخرف ٣٤/٢٢). فالنص القرآني يحذر أشد الحذر من الاتباع الأعمى للسابقين، علماً أن السلفية – في اللغة ــ مصدر مشتق من السّلف وهو المتقدم في الزمان، وسَلَفُ الرجل آباؤه المتقدمون والجمع أسلاف وسُلاّف (١).

فالسلفية في ضوء اللغة العربية، والعقيدة الإسلامية مصطلح لا يحمل في طبيعته ماهية ما ترمي إليه الثقافة الأمريكية المركزية التي شوهت دلالته في ضوء فلسفتها ونشأتها الدينية. وأياً كان منهج السلف في حل مشكلاتهم فهو يستند إلى العقل ولو جرى في إطار النقل للمعارف السابقة؛ لأنهم يجرون عليها

---

(1) لسان العرب (سلف) ــ مصدر سابق.

غير قليل من التغيير. وكذا ننطلق في التعامل معه في حل مشكلاتنا وتبعاً لمنطلقات حياتنا. أي إن السلفية ــ كما نراها في التراث والعقيدة الإسلامية ولغة القرآن ــ منهج فكري إجرائي لمعرفة ما جاء به السّلف. إنها منهج يتعلق بالوسائل للدلالة على الجوانب المعرفية والأدبية والدينية والفنية و..... والمرتبطة بالقيم الإنسانية.

ونكتفي بمثل هذه الرؤى التي تعد دليلاً على فرض الآخر لماهية ثقافته الجديدة على ثقافتنا. فالثقافة الأمريكية ليست مجرد وارث لفلسفة الثقافة الأوربية المركزية فحسب، وإنما هي ثقافة تقود العالم إلى تحطيم مفاهيمه وثقافته لحسابها. وقد وجدت في توظيف المصطلحات ضالتها الكبرى – دون أن تهمل بقية الأمور – فقامت بعملية تزييف كبرى ومقصودة لإشاعة الانحراف الفكري في ثقافات الشعوب؛ وبخاصة الثقافة العربية الحاملة للهوية القومية وكله يؤكد أن العولمة الغربية تعمد إلى الانقضاض على المشروع القومي من داخل عناصره المعرفية.

ومن هنا سنختار مصطلح (الأصولية) ليكون ختام حديثنا في هذا المجال:

٤ ـ الأصولية ـ حقائق وإشكاليات ـ

لا يقل التزييف الدلالي الفكري والسياسي والاجتماعي الذي لحق مصطلح الأصولية (Fundamentalism) عن ذلك التزييف الذي لحق مصطلح الإرهاب والسلفية؛ على اعتبار أن المصطلح يحمل من الدلائل الإبداعية في الثقافة العربية والإسلامية ما لا يكمن في الثقافة الغربية؛ علماً أنه شغل حيزاً واسعاً في كلتيهما.

والأصولية ترجع ــ في لغة العرب ــ إلى الأصول؛ ومفردها الأصْل، مثل الفروع ومفردها الفَرْع.

والأَصْل: أسفل كل شيء وجذره وأساسه ومنشؤه، وأَصُل الشيء يأصل أصالة: ثبت وقوي، وأَصُل الرأي: جاد واستحكم، وأصالة الرأي: جودته وثباته الذي يُبْنَى عليه؛ وأصالة الأسلوب: ابتكاره حتى غدا أساساً يقاس عليه(١).

والأصول: هي القوانين والقواعد التي تبنى عليها العلوم والآداب والفنون والعقائد والأفكار؛ ومن ثم نقول: أصول العقيدة؛ أو أصول الدين؛ وأصول

---

(1) لسان العرب والمعجم الوسيط (أصل).

الفقه، وأصول العلم؛ وأصول القانون، وأصول الفن وأصول الحكم، وفي هذا الإطار سمَّى علي عبد الرازق كتاباً لــه باسم (الإسلام وأصول الحكم).

ومن ثم فالأصولية هي الرجوع إلى الأصل من أي شيء كان قولاً أم فعلاً، أم غيرهما، وهي في التراث الرجوع إلى السنن القولية و الفعلية من العادات أو القوانين، والعقائد والأفكار والأحكام والأشياء... وهي في الإسلام الرجوع إلى أحكام القرآن الكريم والسنة النبوية كما يعتقد به كثير من الباحثين أمثال المفكر (محمد أركون) الذي يرى أن أي تحرر فكري أو اجتماعي إنما يستند إلى المنهج التاريخي في العودة إلى دراسة النص القرآني ولغته؛ فالوعي بالحداثة إنما ينبثق من ذلك (١).

وفي ضوء ذلك كله نرى أن الأصولية في العقيدة والتراث واللغة مصطلح ثري بالدلالات الفكرية البريئة من الدلالات العديدة التي التصقت به اليوم؛ وإن كان قسم منها لا يختلف في دلالته عن محتواه القديم؛ اللهم إلا لك الذي اكتسب مفهوماً سياسياً، وحراكاً فكرياً اجتماعياً واقتصادياً، تبعاً للمثاقفة والواقع البائس الذي تعاني منه الأمة؛ إنه واقع مأزوم بالمفاهيم الغربية الوافدة، التي يعمل أصحابها جاهدين على تغيير مدروس للمفاهيم الموروثة.

ومن هنا تنبثق أول إشكالية تلتصق بدلالة المصطلح، ما جعل المستشرق الفرنسي (مكسيم رودنسون) يعلل سبب عودة العرب والمسلمين إلى القواعد الأولى المتمثلة بالتاريخ القديم ولاسيما تاريخ صدر الإسلام؛ فيقول: "والآن مع استمرار البؤس في عدد من الدول العربية وتعثر التنمية، وسيطرة أمريكا على السلطة السياسية في العالم، والإحساس بذلك، ثم هناك الفشل في الانتصار على الصهيونية... إذا جمعنا كل هذه العناصر نرى أن الظروف ملائمة لكي يندفع هذا الاتجاه إلى الأقصى... فعندما تسوء الأوضاع يجري البحث عن الحلول، وبما أن الحلول السابقة جرّبت، يأتي هذا الفريق ويقترح الحل الإسلامي والقيم الإسلامية، ويجد من يصغي إليه"(٢)

وقال المستشرق الفرنسي (دومينيك ــ شوفالييه) ــ الأستاذ والمؤرخ في جامعة السوربون ــ "إن المشاكل الاجتماعية في هذه البلدان تضافرت

---

(1) هذه الدراسة لا تُعْنَى بالحركة الأصولية نشأة ومبادئ وأعلاماً؛ وإنما تتجه إلى دراسة مصطلح (الأصولية) وحَرْفه عن دلالته العربية علماً بأن من أشهر أعلامها حــسن البنــا (١٩٠٦ ــ ١٩٦٦) ومحمد باقر الصدر (١٩٣٥ ــ ١٩٨٠م).

(2) مجلة الوسط ــ عدد ٩٦ ــ ص ١٤.

وتصادفت مع أزمة الأيديولوجيات المستوحاة من الأيديولوجيات الأوربية في القرن التاسع عشر: القومية أو الاشتراكية وبخاصة الماركسية... يضاف إلى ذلك بعض أنماط الاستهلاك الصناعي الأمريكي الذي أدى إلى انتشار الفساد، وكذلك فشل النخب السياسية الحاكمة في مواجهة إسرائيل، الذي حرك الوعي الإسلام وعزز فرص الإسلاميين"(١).

فهناك كثير من الإحباط والقلق لدى كثير من العرب والمسلمين بسبب ازدياد الفقر وعدد العاطلين عن العمل؛ وولادة الأزمات الاجتماعية والفكرية المتعددة، ولاسيما حين أخفقت الحكومات العربية والنظريات الفكرية في معالجتها، ما أدى إلى إخفاق المشروع النهضوي العربي.

وهذا كله كان وراء نشوء الحركات الأصولية في نظر المستشرق الهولندي (رود ولف بيتزر) حين قال: " جذر المشكلة يمتد إلى الثلاثينيات والأربعينيات من هذا القرن، عندما طرحت المؤسسة الغربية خيارها في العالم العربي على يد أقليات منتقاة، وليس عبر الغالبية الواسعة من السكان؛ متبنية أهدافاً مثل الديمقراطية والليبرالية والاشتراكية، وهي قوالب لم تكن لها جذور أو أصول في المجتمع الإسلامي والعربي"(٢).

وكذلك قال المستشرق الروسي (آرتور سعادييف): "إن الحركات الأصولية هي حركات احتجاج نتجت من خيبة الأمل من نتائج التحديث التي قادتها بعض الأنظمة العربية، وأدت إلى نمو التضخم والبطالة وأزمة السكن، وفي المجال الروحي إلى أزمة الهوية"(٣).

وإلى مثل هذا ذهب الباحث البريطاني (ديرك هوبوود) في مركز الشرق الوسط بجامعة أوكسفورد فقال: "إعادة تأكيد القيم الإسلامية في العالم العربي هي ردّ فعل على فشل الإيديولوجيات الأخرى في حل المشاكل الحاضرة.. وهي أيضاً وسيلة لإعادة تأكيد الشخصية والهوية الأساسية وحمايتها من الأمركة الطاغية التي يتعرض لها نمط الحياة"(٤). ولهذا كله فإن عدداً من المستشرقين يرون الأخذ بمصطلح (الإسلاموية) بدل الأصولية؛ لأنه أكثر دقة

---

(1) مجلة الوسط ــ عدد ٩٦ ــ ص ١٦.

(2) مجلة الوسط ــ عدد ٩٩ ــ ص ٢٠/ ١٢/ ١٩٩٣م.

(3) مجلة الوسط ــ عدد ٩٨ ــ ص٧٠ ــ ١٩٩٣/١٢/١٣م؛ وانظر الديمقراطية والإسلام ــ سليم قندلفت ــ أرواد للطباعة ــ طرطوس ــ سورية ــ ١٩٩٦م ــ ص١٤٩ ــ ١٥٤.

(4) مجلة الوسط ــ عدد ٩٦ ــ ص٦٤ ــ ١٩٩٢/١١/٢٩م وانظر النظام العالمي الجديد: الحاضر والمستقبل ٢٨٩ــ ٢٩٣.

كما قال المستشرق الألماني الدكتور (أوشتاينباخ)(١) ونحو قوله نجده عند المستشرق الفرنسي (جاك بيرك)(٢).

وليس غريباً على السنن الكوني أن تحتمي كل أمة بتاريخها عندما تنتهي حالها إلى خيبات متلاحقة؛ ومن ثم ترجع إلى ما تظن أنه حماية لها وإنقاذ لمصيرها. ومن ثم فإن بعض الحركات الإسلامية كانت ترى في هذا المفهوم أنه رد فعل طبيعي لحل المشكلات المتعاظمة التي تعاني منها المجتمعات العربية وهويتها الوطنية والقومية، فضلاً عما تعانيه البشرية من فساد النظام العالمي الجديد وإهدار حقوق البشرية. ومن ثم بدأ المفهوم يتسع إلى أن أخذ أساليب متطورة في الاتجاهات كلها.

بهذا الفهم يمكن أن يكون عدد من الحركات الإسلامية أصولية على اعتبار السبب والمسبب، أو المقدمات والنتائج وعلى اعتبار الرجوع إلى الأصل. وهذا يؤكد أن مفهوم الأصولية يُعدُّ حصيلة رؤية فكرية واجتماعية ونفسية تنطلق من واقع ملموس؛ وتاريخ ثقافي معرفي يؤسس أنساقه بشرعية الاستجابات للشرط الاجتماعي والقومي، علماً بأن كليهما يؤكد شرط الحرية الذي يشي بالانتماء الثقافي.. ولهذا فلو سألت الغربيين، بل أي أحد في الغرب عن كاتب إسلامي حديث فستكون" إجابة غالبيتهم؛ ربما بأنه جبرّان خليل جبران الذي لم يكن مسلماً"(٣)..

وهذا يعني أن مفهوم الأصولية مفهوم شديد التعقيد غامض غموضاً شديداً إن لم يكن ذا إشكالية كبرى عند الغربيين، ولا سيما ما يتعلق منه بالأصولية الإسلامية، لأنه لا يمكن لديهم (التمييز بين المسلم والمسيحي) من العرب(٤)

هكذا أدرك كثير من الباحثين شرقاً وغرباً أن مفهوم الأصولية عند العرب والمسلمين يختلف كل الاختلاف عن مصطلح الأصولية الذي نشأ في الغرب؛ علماً أن مصطلح الأصولية الإسلامية السياسية لم ينشأ في الثقافة العربية، وإنما نشأ أيضاً في الغرب وأطلقه أصحابه على الحركات الإسلامية المتشددة، باعتبار دلالته المعروفة في ثقافتهم وهو ما مثّل الإشكالية الثانية والكبرى.

---

(1) انظر مجلة الوسط ــ العدد ١٠٢ ــ ص٥٥ ــ ١٩٩٤/١/١٠م. ومجلة كيهان العربي ــ رقم ٣٣٢٤ ــ الملحق ص٦ ــ آذار ١٩٩٥م.
(2) انظر مراجع الحاشية السابقة.
(3) تغطية الإسلام ٣٩.
(4) انظر تغطية الإسلام ٤٢.

ويعترف بهذا المستشرق الروسي (فيتالي ناوومكين) فيقول "مصطلح الأصولية الإسلامية، مصطلح أطلق في الغرب ولا ينطبق بدقة على الحياة الواقعية، ومن الأصح الحديث عن ظاهرة التحرك الإسلامي، أو الإسلام السياسي مع الانحراف نحو التطرف"(١).

وكان أول من نادى بمصطلح الأصولية رئيس تحرير مجلة (New york watchman) حين قال عن الأصوليين "بأنهم أولئك الذين يناضلون بإخلاص من أجل الأصول... إن الأصولية تطلق على الاتجاهات الدينية المتشددة في مسائل العقيدة والأخلاق والمؤمنة بالعصمة الحرفية للكتاب المقدس"(٢).

ومن ثم فمصطلح (الأصولية) مرتبط بالثقافة الغربية ولغتها؛ ولاسيما ما اتصل بكلمة (الراديكالية Radicalism) وأصلها (Radial). وهي كلمة اصطبغت دلالاتها في الغرب بكثير من العنف والتطرف والعرقية والتخلف، إذ عرفها قاموس (لاروس الكبير ١٩٨٤م) بأنها "موقف جمود وتصلّب معارض لكل نمو وتطور"(٣) وهو موقف ينبثق من ارتباط المصطلح بالكاثوليكية كما ذهب إليه لاروس الفرنسي الأكاديمي حين تحدث عن: "موقف بعض الكاثوليكيين الذين يرفضون كل تطور عندما يعلنون انتسابهم إلى التراث". وهذا يشي بأن الموقف الأصولي الجامد والمعادي للعرب لم يكن عاماً بين الكاثوليك في الغرب عامة وأمريكا خاصة(٤)، علماً أن الجمود والتعصب والتطرف بعيد كل البعد عن كاثوليك الشرق. وفي ضوء ذلك نرى أن الجمود والتحجر والعداء للعرب موقف ثابت ومطرد عند البروتستانت الغربيين على الرغم من أنهم حاولوا تدشين الإصلاح الديني في القرن السادس عشر حين صمموا على تحويل التجربة الدينية الخارجية إلى تجربة دينية ذاتية تعزز حرية القرار والاختيار مقابل سلطة التقاليد والتراث الطقسي للدين كما هو حال خبز الذبيحة. ولعل هذا كله يثبت أن الكنيسة البروتستانتية التي قامت بحركة إصلاح ملحوظة في أوربا قبل أمريكا هي التي تبنّت في آنٍ معاً مبدأ الإيمان بالتوراة وكل ما

---

(1) مجلة الوسط ــ عدد ٩٨ ــ تاريخ ١٩٩٣/١٢/١٣ ص٦٩.

(2) انظر تحدي الحركة الصهيونية للقوى العربية والإسلامية ــ د. يحيى علي يحيى الـدجني ــ دار النمير ــ دمشق ــ ١٩٩٧م ــ ص٨٧ ــ الحاشية (٤).

(3) جريدة كيهان العربي رقم ٣٣٢٥ ــ آذار ــ ١٩٩٥م ــ الملحق ص٦. وانظر حقائق الصراع وأوهام التسوية ٦١ ــ٦٢.

(4)انظر النفوذ الصهيوني في العالم ٢٣٢ ــ ٢٣٣. وانظر الفكر المسيحي الكاثوليكي في مواجهة الحداثة ٢١٢ ــ ٢٤٧.

جاء فيه. لهذا فالبروتستانت واليهود يؤمنون بعودة المسيح وبفلسطين أرض الميعاد واعتبار اليهود شعب الله المختار تنفيذاً لكل ما جاء في التوراة المسمى (العهد القديم) (١) فالمسيح لن يعود إلى الأرض قبل عودة شعب الله المختار إلى أرضه.

ومن هنا انتشرت في الأوساط المسيحية الأوربية ثم الأمريكية ما عرف بـ (شهود يهوه) و (المجيئيين) و (السلفية القدرية) و (السبتيين) و (المورمن) وغيرهم. فالكتاب المقدس لهذه الطائفة في طبعته الإنكليزية يثبت ما يلي: " إنني أنا اللورد ــ أي الرب ــ أحكم السموات والأرض من أجل شعبي الإبراهيمي ــ شعبي المختار... اليهود من شعبي الإبراهيمي سوف يملكون ثانية أرض ميراثهم فلسطين، ومنها يحكمون كل الأرض ... أنا اللورد ــ الرب ــ أناديكم في خدمتهم"(٢). وفي ضوء ذلك لاحظت المستشرقة الإسبانية (كارمن رويت) بأن لفظة الأصولية مشوبة ببعض الغموض، فهي أحياناً يراد بها التمسك بمبادئ أخلاقية لا يجوز التخلي عنها، وأحياناً أخرى تأتي رديفة للراديكالية السياسية. ويبدو طبيعياً أن تجد المجتمعات الأصولية هويتها في الأصولية، وأن ترفض الوصاية العقائدية أو الأخلاقية من مجتمعات أخرى أو معتقدات أخرى. وفي هذا السياق تكون الأصولية في الفرع الديني الطالع من جذع الأصالة تتصف بمفهومها الحضاري العام(٣).

ولعل نشوء الأصولية الغربية يعود تاريخياً إلى زمن سقوط غرناطة (١٤٩٢م) وهو التاريخ الذي اكتشف فيه كريستوفر كولومبس أمريكا في (١٤٩٢/٩/١٢م)؛ وكان يؤمن بأنه "رسول الوحي الكتابي الذي ينبىء باستعادة القدس وهداية اليهود"(٤). ثم انتشرت في أمريكا بمثل ما عرفت من قبل في أوربا، إذ تأسس سنة (١٦٢٠م) على يد المهاجرين الجدد الذين دخلوا أمريكا كثير من مبادىء البروتستانتية التي تمدُّ جذورها إلى التوراة بحبال متينة؛ ما جعلهم يتأثرون باليهودية دينياً وتاريخياً وسياسياً. وهنا نبين أن "أول درجة دكتوراه منحتها جامعة هارفرد في العام (١٦٤٢م) كانت حول موضوع

---

(1) انظر النفوذ الصهيوني في العالم ٢٣٤ ــ ٢٣٥ و ٢٤٤ ــ ٢٥٢ و ٣٥٣ ــ ٣٥٦ و ٣٩٧ ــ ٤٠١ ومنابع الإرهاب ٢٠٧ ــ ٢٠٨ و ٢١٩.

(2) الكتاب المقدس ــ ص ٤٣٧ ــ طباعة كنيسة يسوع المسيح لولاية يوتا ــ مدينة سولت ليــك ــ ١٩٨٦م.

(3) مجلة الوسط ــ العدد ٩٩ ــ تاريخ ١٩٩٣/١٢/٢٠م ــ ص ٦٥.

(4) الموقف الأدبي ــ عدد ٤١٨ ــ ص٨٣.

(العبرية هي اللغة الأم)؛ وكان أول كتاب يصدر في أمريكا هو (سفر المزامير) وأول مجلة تصدر حملت عنوان (اليهودي). فقد باتت أمريكا بنظر المستوطنين الجدد (النموذج الروحي للعهد القديم العبري) بل نجدهم يسمون أنفسهم أطفال إسرائيل "Children of Israel"(١).

وبهذا تعزز هذه الاتجاه الثقافي الأصولي على يد المصلحين الدينيين ومنهم (مارتن لوثركنغ ١٤٨٣ ــ ١٥٤٦م) الذي وضع الأسس العريضة للأصولية الأمريكية التي تؤمن بالعودة إلى (العهد القديم) وتتبنى كل نبوءاته فمارتن لوثر كنغ معدود في الإصلاحيين؛ من دون شك، ولكنه فيما يتعلق بتأصيل التعليم اللاهوتي كان معدوداً في الأصوليين الذين يلتزمون بكل ما في الكتاب المقدّس بشقيه القديم والجديد. وقد هيمنت هذه الأصولية على الفكر الأمريكي الديني والثقافي والاجتماعي؛ على الرغم من وجود التيارات الليبرالية أو الاشتراكية والماركسية في بنيته؛ إذ كانت لها السيطرة المطلقة حتى عرفت بالمسيحية الجديدة. وليس التيار المسيحي المتطرف الذي يهيمن على أمريكا اليوم إلا صورة للأصولية البروتستانتية التي يتزعمها في أمريكا القسّ (بات روبرتسون)(٢) مؤسس التحالف المسيحي ــ اليهودي وزعيمه، والذي رشحه الحزب الجمهوري للانتخابات الرئاسية سنة (١٩٨٨م) ثم انسحب ليدعم ترشيح جورج بوش الذي يعدُّ أحد المخلصين للأصولية المسيحية، علماً أن روبرتسون قد نشر عام (١٩٩١م) كتاباً حمل عنوان (النظام العالمي الجديد) وفيه كثير من النبوءات التي تؤدي إلى سيطرة أمريكا على العالم، وتنفذها تنظيمات عديدة سرية وعلنية.

ويعضد هذا كله ما يقوم به القس (جيري فولويل) راعي كنيسة (رود) المعمدانية في ولاية فيرجينيا، وأحد أساتذة جورج بوش، فقد كتب يقول:" إن إعادة بناء إسرائيل عام ١٩٤٨م، وتوسعها في حدود عام ١٩٦٧م في نظر كل مسيحي يؤمن بالكتاب المقدس هو تحقيق لنبوءات العهدين القديم والجديد"، وقال "أعتقد أن الله يستعمل مخلوقاته وسائل لتحقيق برنامجه لهذا الكون. وأنا شخصياً أشعر بمسؤولية كبيرة في تثقيف الشعب الأمريكي حول أهمية دعم

---

(1) هيمنة الأصولية البروتستانتية على السياسة الأمريكية ــ سمير مرقص ــ جريــدة النهــار ــ الأحد ٢١ /٤/ ٢٠٠٢م.

(2) انظر المرجع السابق وحقائق الصراع وأوهام التسوية ٦٠ ــ٦١ والنفوذ الصهيوني في العالم ٢٤٣ و٣٦٤ ــ ٣٨٠.

إسرائيل والشعب اليهودي في كل مكان"(١). وقد جسَّد الرئيس الأمريكي (بيل كلينتون) التربية اليهودية أحسن تجسيد في خطبة لـــه عام (١٩٩٤م) إذ قال: " منذ ثلاثة عشر عاماً وقبل أن أصبح رئيساً للولايات الأمريكية باركني في أثناء مرضي كاهن ولاية (هولي لاند) وتنبأ لي بقوله: (إنك يا بيل ستكون رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية... كن إلى جانب إسرائيل وشعبها المختار كي يبارك الرب أمريكا) لذلك ما زلت أشعر بالوفاء للرب ولإسرائيل" (٢).

ومن هنا يتضح لنا مدى تأثير ثقافة التوراة في الشعب الأمريكي، إذ بلغ من أثر هذه الثقافة أنها تنفذ إرادة إلهية في كل مكان من العالم، ما نتج عنها سياسة جديدة للكون تراها بأنها خطة الله.

وقد "تمت إعادة ربط اليهودية بالمسيحية مما ولّد المسيحية الغربية التي اصطلح على تسميتها (التراث اليهودي المسيحي) في أمريكا خاصة، وهي التي يسميها اليمين المتطرف في أمريكا (الصهيونية المسيحية)"(٣). وفي أمريكا تعمل اليوم منظمة (بناي بريث) أي (أبناء العهد) ويقال لها أيضاً: (حراس العهد) ويقودها وزير الخارجية الأسبق (هنري كيسنجر) ونشاطها مؤثر وملموس لتأييد المجتمع الأمريكي للصهيونية. وإذا كانت قد نشأت عام(١٩٧٥م) في أمريكا فهي تغطي اليوم اثنتين وأربعين دولة في العالم، ويشكل عدد أعضائها نحو (ثلاثين) مليوناً ينبثق منهم الهيئات الماسونية الكبرى.

ثم إن جورج بوش الابن "تعلم من القس (بيلي غراهام) وأن عليه أن يعيش بانتظار المجيء الثاني" ثم علَّمه الدكتور (طوني إيفانز) مؤسس حركة (حراس العهد) "كيف يجب أن ينظر إلى العالم من وجهة نظر الإله". ولهذا يرى (هيل) أنه "ليس من المستبعد أن يكون بوش مصمماً ــ عن وعي أو غير وعي منه ــ على تنفيذ خطة الله، إن سياسته العاتية حيال الشرق الأوسط تدل على هذا وعلى أنه يعتبر مكلفاً بمهمة من الله "وكان قد صرح يوم كان حاكماً لولاية تكساس بأن "الله أراد منه أن يرشح نفسه لمنصب رئاسة الجمهورية"(٤). ومن

---

(1) الموقف الأدبي عدد ٤١٨ ــ ص٨٢. والنفوذ الصهيوني في العالم٢٤٣.

(2) جريدة التايمز الكويتية بالإنكليزية ــ السبت ١٩٩٤/١٠/٢٩م ــ ص٥.

(3) الموقف الأدبي ــ العدد ٤١٨ ــ ص٨٤. وانظر النفوذ الـــصهيوني فـــي العـــالم ٢١ ــ ٢٥ و٢٣٩ ــ ٢٤١ و ٣٩٥ ــ ٤٠٤.

(4) الموقف الأدبي ــ العدد ٤١٨ ــ ص٨٦.

ثم فإن (مات بروكس) رئيس (التحالف اليهودي في أمريكا يقول: " إن جورج دبليوبوش، وبسبب إيمانه الديني العميق يعتقد أن إسرائيل هي وطنه الروحي؛ بقدر ما هي وطن روحي لي أنا اليهودي"(١).

وبناء على ما سبق أخذ عدد كبير من الغربيين يرون أن الأصولية الإسلامية إنما تتقاطع مع مفاهيم الأصولية الراديكالية ثم المسيحية التي تأصلت في أوربا وأمريكا بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، إن لم تتوافق وإياها. ومن هنا برزت الإشكالية الكبرى والأخطر، إذ راح الغرب ينعت العرب والمسلمين بالأصوليين على اعتبار أن الأصولية الإسلامية تجسّد الخطر الأكبر على العالم كله؛ كما يستشف من قول المستشرق الهولندي (يان بروخمان): "ومن الناحية النظرية كل المسلمين أصوليون، كما أن الإسلام هو دين ودولة"(٢).

ثم أصبح كثير من قادة الغرب وسياسييه ينظرون إلى أن الأصولية الإسلامية إنما هي عدوٌّ مفترض لهم. وهذا ما صرّح به (ويلي كلاس) الأمين العام لحلف شمال الأطلسي في مقابلة لـــه مع مجلة ألمانية تسمى (سودويتشه تسايتونغ) فقال: "إن الأصولية الإسلامية تشكل تهديداً للغرب بالقدر الذي كانت تشكله الشيوعية"(٣).

ويوضح هذا كله ما جاء في صحيفة (الانترناشيونال هيرالد تريبيون) التي ازدادت غلواً في عداوتها للإسلام فكتب أحدهم فيها ما يلي: "إن التهديد الإسلامي يشبه تهديد النازية والفاشية في أعوام الثلاثينيات وتهديد الشيوعية في أعوام الخمسينيات"(٤)..

فالغرب اخترع العدو الجديد باسم الأصولية الإسلامية المتشددة ليجري عملية تغيير فكرية واجتماعية كبرى ولينشر كل ما يريده من أفكار وآراء لبسط سلطان الثقافة الغربية ومفاهيمها ومبادئها على الوسط العربي والإسلامي، وقد اختار العقيدة الإسلامية ومفاهيمها لما لها من تأثير كبير في تكوين البنية الفكرية والاجتماعية العربية لتشويه مفاهيمها؛ وجعلها عدواً له. وهو ما أقرت به المستشرقة الإيطالية (إيزابيلا كاميرا دافليتو) إذ قالت: "الغرب كان وما يزال

---

(1) النفوذ الصهيوني في العالم ٣٩٤.

(2) انظر مجلة النبأ ــ العدد ٥١ ــ تشرين الثاني ٢٠٠٠م وتغطية الإسلام ٤٤.

(3) مجلة البلاد ــ العدد ٢٢٢ ــ شباط ١٩٩٥م ــ ص٣٢.

(4) مجلة كيهان العربي ــ رقم٣٣٢٥ ــ آذار ــ ١٩٩٥م ــ الملحق ص٦ ومجلة الــبلاد العــدد ٢٢٢ ــ شباط ــ ١٩٩٥ ــ ص٣٢.

بحاجة إلى عدو حتى يضمن لنفسه خطاً دفاعياً ويظل مترفعاً ومتعالياً على ما تبقى من العالم لسنين طويلة أو حتى لعقود، كان هذا العدو متمثلاً بالشيوعية وبالمعسكر الاشتراكي وعندما انهارت الشيوعة برز لدى الغرب التساؤل التالي: من سيكون عدونا المقبل؟ وإذ به يسحب من خزانة تراكم عليها غبار الزمن صورة العدو التاريخي القديم المتمثل بالعالم الإسلامي"(١).

ثم ألصق كل من الغرب والصهيونية بالعرب والمسلمين مصطلح الأصولية الإسلامية، ثم ربطا بينه وبين الإسلام والعرب، كما صرّحت به المستشرقة الإيطالية (إيزابيلا كاميرا دافليتو) حين قالت: " نحن ــ وعلى الرغم من وجود مظاهر أصولية ــ كثيرة في الديانة المسيحية أو الديانات الأخرى في الغرب ــ لا نسمع حديثاً عن عنف هذه المظاهر الأصولية، في حين نرى هذا المنطق يطبّق على العالم العربي" (٢). وبهذا أُلصقت بالعرب صفات الإرهاب والعنف والتطرف والجمود والتحجر والتخلف وطفق أعدؤهم يروّجون لهذه الصفات بشكل منهجي مدروس فكرياً وسياسياً، وإعلامياً منذ عام (١٩٩١م) حين ظهر (النظام العالمي الجديد)؛ إذ برز معه شنّ حملات مركزة على ما يسمى (الأصولية الإسلامية) من قبل مراكز الأبحاث الأمريكية فضلاً عن القادة الأمريكيين. وهذا ما أوضحه المستشرق الإيطالي (سلفاكوري بونو) إذ قال: " إن أي معرفة موضوعية، وأبسط نظرة إيجابية إلى الموضوع، تقتضي رفض ما سعت أجهزة الإعلام إلى ترسيخه في أذهان الناس من ربط بين الأصولية الإسلامية ومعاني التطرف والعنف حتى الإرهاب، فالأصولية الإسلامية جوهرها الدين وأساسها العودة إلى الجذور والأصول، واعتماد المبادئ الأساسية للإيمان"(٣). وعقدت الندوات ونشرت الكتب التي تربط بين الإسلام والأصولية والإرهاب، فأقام الكونغرس الأمريكي ورشة في شباط (١٩٩٣م) بعنوان "عالمية الإسلام الجديدة" لدراسة الحركات الإسلامية؛ ثم نشر في نيسان (١٩٩٣م) الباحث (يوسف بودانسكي) كتابه بعنوان (الغرب هو الهدف ــ الإرهاب في عالم اليوم) وفيه يتناول ربط الإرهاب بالأصولية الإسلامية(٤).

---

(1) مجلة الوسط ــ العدد ١٠١ ــ ص ٦٠ ــ ٣/١/ ١٩٩٤م.
(2) مجلة الوسط العدد ١٠١ تاريخ ٣/١/١٩٩٤م ــ ص٦٠.
(3) المرجع السابق ــ ص ٦٤.
(4) انظر تحدي الحركة الصهيونية للقوى العربية والإسلامية ٢١٦ ــ ٢١٧ والنفوذ الصهيوني في العالم ٤١٩.

هكذا نجح الغربيون بتزييف دلالة المصطلح وحَرْفه عن مضمونه العربي والتراثي المعروف للعرب والمسلمين، مستغلين الجوانب المتعارضة أو المواقف المختلفة للحركات الإسلامية والقومية والاشتراكية؛ لضرب بعضها بعضاً، وإحداث حالة اجتماعية نفسية سياسية فكرية يرغبون فيها، على اعتبار ما نحن فيه من تخلف وجهل وعجز، وما نشأنا عليه من قابلية الرضا والخضوع، والتبعية فكرياً وتقنياً و..... فالخلط بين الأصولية والإسلامية والعنف والتطرف إنما انبثق مما لدى الغربيين من مفاهيم حول الأصولية. وهو ما يستشف من مقولة المستشرق الروسي (ألكسندر سمير نوف) حين قال: "لا يجوز الخلط بين الأصولية الإسلامية والتعصب والتطرف، لأنها تعبر عن مفهوم أوسع؛ فالأصولية الإسلامية بنواحيها السلبية، إرهاب سياسي وعنف حتى ضد المسلمين أنفسهم"(١).

وحين نجحت المؤسسات الغربية بابتداع (الأصولية المتشددة) وإلصاقها بالعرب والمسلمين وعقيدتهم فإن عمليات العنف التي يرتكبها نفر منهم قد أسهمت هي الأخرى في تشويه الدلالة العربية والإسلامية للمصطلح؛ ولا سيما حين اختلط مفهوم المقاومة والجهاد بمفهوم العنف والقتل. وراح شذاذ الآفاق يحرضون الغرب على العرب باسم الأصولية إذ قال (شمعون بيريز) في مؤتمر صحفي لـــه بهولندا: "إن الأصولية تهدد الاستقرار في معظم الدول العربية"(٢).

إذاً؛ وقع الخلط المدروس في مصطلح الأصولية ودلالته عند الغربيين، وكذلك عميت بصيرة كثير من العرب والمسلمين عن الحقيقة وخلطوا هم أيضاً بين دلالة الإرهاب والعنف ومفاهيم الجهاد ومقاومة الاحتلال الصهيوني، ما جعلهم ينعتون الحركات المقاومة بالحركات الأصولية كما انتهى إليه محمد شحرور الذي تحدث عن المقاومة الإسلامية في لبنان بقوله: "ثمة تجربة جديدة تتم الآن في لبنان لحركة أصولية الأساس والأيديولوجية؛ تحاول أن تبرهن على أن الإرهاب لا محل لـــه عندها، وأن العنف موجّه حصراً باتجاه الاحتلال والاستعمار والاستغلال. وتحاول ترسيخ مكانها في اللوحة السياسية والثقافية من مجتمعها. إنما لا يمكن التنبؤ الآن إلى أي مدى يمكن أن تتعاون هذه

---

(1) المستشرقون والإسلام ــ معالجة منهجية خاطئة ــ إبراهيم محمد جــواد ــ النبــأ ــ تــشرين الثاني ــ ٢٠٠٠م ــ ص ٨/ الإنترنت.

(2) تحدي الحركة الصهيونية للقوى العربية والإسلامية ص ٢١٧.

الحركة مع شرائح أخرى قومية، ومع مذاهب أخرى لها وزن اجتماعي، وفي عالم خارجي غربي وشرقي لا يستطيع أن يسمح بحكم تجربته التاريخية بقيام عمل جماعي من أي نوع تقوده حركة أصولية دينية"(١).

وسأترك التعليق على هذا النص لأنه يعبر عن نفسه وصاحبه وسأشير إلى صرعة الحُمّى التي أصابت الباحثين العرب والمسلمين؛ حين انبروا إلى عقد الندوات والمؤتمرات للبحث في الحركات الإسلامية؛ وطفقوا ينشرون الأبحاث والكتب مطلقين العنان للمصطلحات الحاملة للثقافة الغربية ووصف قسم منها بالأصولية ــ وفق المفهوم الغربي ــ التي غدت قرينة للعنف والقتل والإرهاب والجمود والتحجر والتخلف.(٢)

وأخذ كثير من العرب والمسلمين ــ أفراداً وأنظمة ــ يتحرجون من الوصف بالأصوليين والأصولية، خشية أن ينعتوا بالإرهاب، ومن ثم صاروا أعداء لما جهلوا؛ ولا سيما حين انخرط عدد من الأنظمة في محاربة كثير من المظاهر الدينية، وملاحقة ذوي النزوع الأصولي بحجة محاربة التطرف الأصولي الإسلامي، كما انعقد عليه المفهوم الغربي للأصولية، وإلا أصبحت تلك الأنظمة أصولية أيضاً. ولو سلمنا بما انتهت إليه المفاهيم الغربية لمصطلح الأصولية الذي تبنته حركات عربية وإسلامية عديدة، منها ما يرجع إلى الواقع العربي، ومنها ما يرجع إلى التشويه والتغيير المنظم لـــه من قبل الثقافة الغربية عامة والأمريكية خاصة، إذا تجاهلنا أثر مفهوم الأصولية المسيحية الذي يغاير في منطلقه وجوهره كل ما يتصل بالأصول العربية والدينية الثابتة التي تنبثق من نبذ العصبيات، والدعوة إلى الإخاء الإنساني الذي تتصف به العقيدة الإسلامية، كما تدل عليه النصوص الكثيرة من القرآن الكريم وغيره كقوله تعالى [يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم] (الحجرات ١٣) وقوله: [وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس] (النحل ٩٠/١٦) وقوله: [ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن] (العنكبوت/٤٦)، وقوله: [وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل] (النساء ٥٨/٤)؛ وقولـــه: [إن الله يأمر بالعدل والإحسان] (النحل ٩٠/١٦) وقوله: [فاعف عنهم واصفح، إن الله يحب المحسنين] (المائدة ١٣/٥).

---

(1) الموقع الرسمي للدكتور محمد شحرور ــ دمشق ١١/ ١١ /٢٠٠٠م.

(2) انظر ــ مثلاً ــ الديمقراطية والإسلام ــ ١٣٨ ــ ١٤٠ و ١٤٩ ــ ١٦٢.

لذلك كله ندرك أن مصطلح (الأصولية) قد أصابه تغيير دلالي كبير لا يتفق مع معناه الأصلي في التراث العربي والعقيدة الإسلامية. فقد أريد لــه أن يصبح مشبعاً بالمفاهيم الغربية للأصولية بهدف الانقضاض على الأمة ومشروعها من الداخل، على اعتبار أن المفاهيم تجسد روح الأمة وثقافتها. وحين ينجح الغرب بإيجاد مرجعيات فكرية جديدة لأي مصطلح عربي أو إسلامي؛ ويجعله حاملاً اجتماعياً فإنه يسهل عليه تغيير ما يريد دون معارضة أو مقاومة.

وهذا الفهم للأصولية الإسلامية لا يعني ــ عندنا ــ قتل مبدأ القياس وظاهرة الاجتهاد التي تأصلت في تاريخنا الفكري والديني والسياسي و.. فترسيخ قيم الإسلام إنما تثرى بقيم الثقافة وتنوعها؛ لأنها تستند إلى قيم العقل والعدل والحرية الفردية والجماعية المنضبطة بالقانون الذي يتوافق مع مبادئ الحق وخير البشرية، وما قتل الأمة ومشروعها النهضوي أكثر من التطرف والغلو، وغياب الثقافة العقلية المتنورة.

ونعترف ــ أخيراً ــ بأنه ليس من اليسير أن نحيط بكل المصطلحات التي جرت عليها عملية تحريف وتغيير مرسومة من قبل الثقافة الغربية عامة والأمريكية خاصة، في كل مجالات الحياة ولا سيما السياسية والاقتصادية كما هو مصطلح (الشرق الأوسط) و (العالم العربي)، ومصطلح (الفوضى الخلاقة أو البناءة) الذي تبنته أمريكا والصهيونية.

فالمصطلح يجسد هوية ثقافية، ما يعني أنه يحمل بذاته هوية تمثل طبيعة الأمة التي أبدعته. وإذا كانت الأمة العربية اليوم غير مبدعة للمصطلح، فهذا يؤكد أنها في حال غير سوية. ولا يضيرها في هذه الحال أن تفيد مما لدى الآخر، في الوقت الذي تسعى فيه إلى الحفاظ على ذاتها، من خلال ما تملكه لغاتها من قدرة في قوانينها للتعريب والترجمة. وعلى مراكز البحث المختصة ومجامع اللغة العربية وكل المعنيين في الشأن الفكري والثقافي والعلمي والاجتماعي والاقتصادي أو أي شأن آخر أن يسرعوا ــ كل من موقعه ــ في الانفتاح على ثورة المصطلحات والعلوم والتقنيات و .. وإنتاج المصطلحات المترجمة والمتطابقة مع هوية الثقافة العربية، وإلا فإن تلك المصطلحات أسرعت إلى الألسنة وإلى صفحات الصحف والدوريات والكتب، والانترنت، وشاعت، حتى صعب عند ذلك معالجة الأمر.

وهنا يصبح لزاماً علينا أن نختم هذا القسم برؤية ونتائج وتوصيات.

خامساً ـ أبعاد وتوصيات

إن المتتبّع لكل ما تحدثنا عنه يدرك أننا لم نقلل من أثر المشكلات المتعلقة بالتعريب والترجمة، وما ينتج عنهما من اختلاف في المصطلح وتعدد مسمياته وانقسامها إلى دلالات متباينة أسست لانقسام عربي شديد في الحياة والثقافة؛ انقسامٍ هدد هوية العروبة والانتماء القومي؛ إذ لم يعد الانقسام متركزاً حول استثمار المصطلح وتوظيفه في موضعه الاجتماعي والمعرفي و...... أو حول فقر العربية بالمراجع الحديثة للمصطلحات؛ ولاسيما العلمية والتقنية منها، وإنما غدا الخطر الأبرز في عملية التزييف الكبرى التي تمارسها ثقافة أرباب القوة الفائضة وبخاصة حين تحول الخطر إلى خطر مزدوج يشتمل على اللغة العربية ونظامها وعلى الحامل الاجتماعي لها ولثقافتها(١). فأرباب فلسفة ثقافة التغيير يريدون منا أن ننقض بأيدينا كل ما نملكه أو أن نتهمه بعدم صلاحيته لعدم مواكبة الحاضر أو أنه وسيلة لتكوين مجتمع إرهابي معاد للآخر.

وكذلك تأكد لنا من الحراك الاجتماعي والثقافي المعاصر أننا ما زلنا عاجزين عن توحيد الجهود في ترجمة المفاهيم والمعارف والعلوم والفنون والآداب و .... على الرغم من الخصائص الفريدة التي تتميز بها اللغة العربية من اللغات الأخرى كتلك التي أحيتها دولها كاليابانية والصينية و .....(٢) ولعل من أهم ما تتميز به العربية ما يأتي:

١ ــ القدرة على خلق المصطلحات الكثيرة والمتنوعة لما تتميز به أنظمتها وقوانينها من مرونة وطواعية لتمثل ألفاظ اللغات الأخرى وثقافتها.

٢ ــ الاتساق والتماسك في آليات التعريب والترجمة والتغريب .... وفي آليات الحذف والإضافة والإبدال والقلب و .....

---

(1) اللغة والنحو بين القديم والحديث ــ ص٢٤٦ ــ عباس حسن ــ دار المعارف بمصر ــ ط٢ . ودراسات في تأصيل المعربات والمصطلح ــ ص ١٠٣/١٠٤– حامد صادق قينبي ــ مجلة اللسان العربي ــ العدد ٣١ ــ المغرب.

(2) اللغة العربية والنهضة العلمية المنشودة ــ ٦٠ ــ ٦٢– مرجع سابق.

٣ ــ القوة والحساسية والاتساع التي تتصف بها دون غيرها .... وهذا يجعلها ذات قابلية منفتحة على التعدد والتنوع والاستيعاب لأي مصطلح جديد. فاللغة العربية تعد من أغنى اللغات صوتاً وصرفاً ونحواً، ومفردات وتراكيب وأساليب فضلاً عن اللهجات العامية التي تتوافق في كثير من صيغها مع صيغ الفصحى.

وعلى الرغم من التجارب العديدة التي ظهرت في أماكن شتى والجهود الفردية والجماعية العديدة التي عرضت للمصطلح ومشكلاته وثمراته ونتائجه الايجابية و السلبية والآليات المتبعة في صياغته (١) فإننا ندعو إلى ما يأتي:

١ ــ متابعة الجهود الفردية والجماعية في شؤون المصطلح وتوحيدها تعريباً وترجمة في إطار عربي مؤسسي يشترك فيه المختصون والمستهلكون لــه ....

٢ ــ تصنيف المصطلحات وفق حقولها الدلالية والمعرفية والأدبية والفنية و ..... وفروعها المتعددة ومراعاة التغيير الدلالي لكل مصطلح دون أن تشوه الدلالة الكامنة لــه في ثقافة من الثقافات؛ فإذا كان علينا فهم دلالة اللفظ الأجنبي فينبغي ألا نتنكر لدلالته العربية .

٣ ــ المقاربة الحية الصحيحة بين المصطلحات العربية والعالمية من جهة وبين إبداع المصطلح واستعماله لدى الخاصة والعامة من جهة أخرى. فالحامل الاجتماعي يعد أعظم أداة لانتشار أي مصطلح أو مفهوم.

٤ ــ المواكبة المستمرة لظهور المصطلحات والمفاهيم في المجالات كلها، والفهم الدقيق لها؛ إذ تبين لنا أن العامة كانت أسبق من المؤسسات المختصة في نقل المصطلح من اللغات الأخرى وثقافتها، وربما نقلته بلهجاتها العامية؛ فصعب بعد ذلك التخلص منه، علماً أن هناك لهجات عربية متعددة محلياً وعربياً. ونرى أنه يمكن للمشتغلين في حقل المصطلح أن يفيدوا من المخزون اللغوي للهجات المعروفة على أن يقوموا بإخضاعها للعربية وقوانينها؛ في الوقت الذي يفيدون فيه من اللغات

---

(1) عرض لتلك الجهود على نحو كبير (بحث المصطلح العلمي : إشكالية المــنهج) ـــ ص ٨٤-١٢٧ ــ مرجع سابق.

القديمة، مع الحرص على توحيد المصطلح، وعدم الوقوع في الاختلاف والتباين والتعدد.

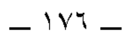
٥ ـــ محاولة تعريب الألفاظ الأجنبية ومصطلحاتها بصيغ عربية مستساغة وسهلة النطق ودقيقة الدلالة وتجنب النافر والبشع والغريب من المصطلحات؛ كما وقع في العديد من المصطلحات التي نفرت العامة من استعمالها في حياتها اليومية.

٦ ـــ وضع الصيغة الأجنبية للمصطلح إلى جانب الصيغة العربية، أياً كان حقله الدلالي أو الفرع الذي يعبر عنه في الإعلام والعلوم والفنون والآداب و.......... وضبط ذلك كله بالشكل التام.

٧ ـــ عدم التخلي عن المصطلح العربي المقابل للمصطلح الأجنبي أو لفظه إذا وجد في العربية قديمة أو حديثة؛ وإلا كان علينا إثبات المصطلح بلفظه الأجنبي وشرح دلالته، علماً أن التراث مخزن عظيم لإبداع المصطلح وصياغته وفق المنهج العربي السليم، وتعميمه في الثقافة العربية. ثم إن اللفظ المعرب على الصورة التي نطق بها العرب أفضل شكل للمصطلح، ولاسيما إذا اكتفي فيه بكلمة واحدة، وعلى المشتغلين بالمصطلحات اللجوء إلى استعمال المعرب المحدث في إطار القديم الذي عرف عند العرب.

تلك هي أهم التوصيات التي تجعل المصطلح محتفظاً بهويته العربية دون أن ينغلق على ثقافتها، أو ينصهر بالثقافات الأخرى، فهوية المصطلح جزء لا يتجزأ من هوية الانتماء للأمة العربية، وهو رأس عملية التغيير في عالم اليوم لأنه خلاصة اللغة والفكر والمشاعر على مختلف الصُّعُد والمجالات.

ولا يمكن لهذه المفاهيم أن تتوحد من دون الاجتماع على الآليات العلمية والموضوعية الصحيحة، واعتمادها أصلاً لتحقيق المشروع القومي، وهي تفضي بنا إلى تصور حتمي لنجاح هذا المشروع، وهو ما ينهض به الفصل الثالث كله.



الفصل الثالث

آليات تحقيق المشروع القومي وتصورات نجاحه

ـ القسم الأول: آليات تحقيق المشروع القومي.

١ ـ الوعي التاريخي للمشروع القومي والالتزام بالقانون:

٢ ـ الهوية القومية والحكومة الإلكترونية:

٣ ـ المشروع القومي بين الديمقراطية وحرية التعبير:

٤ ـ العناصر المشتركة للهوية العربية:

٥ ـ التخلص من الفكر الإنشائي الخطابي:

٦ ـ حالة التخيل الثقافي والقومي:

٧ ـ التوازن بين الثقافي والسياسي:

٨ ـ خطوات العمل العربي المشترك:

القسم الثاني: تصورات نجاح المشروع القومي

١ ـ إخفاق المشروع الصهيوني:

٢ ـ هزائم المشروع الصهيوني:

٣ ـ سقوط ما يسمى بدعوات الحرية:

٤ ـ التجمع العاطفي القومي:

٥ ـ تراجع مد العولمة الأمريكية وانحسارها:

٦ ـ العناية بالدراسات التقنية والإعلامية:

٧ ـ التنسيق البحثي المستمر:

٨ ـ إعادة بناء المشروع القومي وفق القيم الإيجابية:

٩ ـ القراءة النقدية الواعية لمفهوم الأصالة والمعاصرة:

ـ آراء وآفاق ونتائج



ـ آليات تحقيق المشروع القومي:
القسم الأول ـ آليات تحقيق المشروع القومي:

لن يحدث أي نجاح للمشروع القومي إلا بتعميق الوعي في الهوية مفهوماً وعناصر، ومن ثم إزالة أي توهم أو إشكالية تحيط بهما. فهناك التزام عضوي بين وعي المواطن بوطنه وارتباطه بمركزيته الكبرى الممثلة بالقومية والهوية العربية، على اعتبار الهوية الثقافية المتسامحة الجامعة لكل الفئات الاجتماعية الداخلة فيها، ولو كانت من أصول غير عربية.

ولن يتأتى لنا هذا إن لم نقم، فضلاً عما قدَّمناه من تصورات سابقة في غير مكان بما يلي:

١ ـ الوعي التاريخي للمشروع القومي والالتزام بالقانون:

يتجلى المشروع القومي للوجود بوضع القوانين المتطورة المستندة إلى الوعي التاريخي بوجود الأمة العربية ونهضتها المبنية على الانتماء الثقافي والاجتماعي الواحد إلى الهوية العربية. فالنهضة العربية في مراحلها المتعددة باعتبارها حركة تغيير وتجديد وتطوير على الصُّعُد كلها سياسياً وثقافياً وعلمياً واجتماعياً واقتصادياً وإعلامياً و ... أكدت أن الهوية العربية ذات ملامح فكرية وروحية مشدودة إلى وعي حقيقي بالعناصر المشتركة لأمتنا قديماً وحديثاً، وهي عناصر تؤكد انفتاحها على القيم الإنسانية والمبادئ الأخلاقية. ما يعني لنا أن العروبة ليست وهماً؛ ولا أسطورة، ولا فكرة رومانسية؛ وليست عنصرية شوفونية تؤذي كل من انتسب إليها، بل هي هوية حضارية ذات خصوصية اجتماعية وثقافية تتصف بمشترك إنساني يسيطر عليه نزوع العدل والمساواة واحترام الآخر وقبوله والاندماج في ثقافته. ولهذا فإذا كان المشروع القومي يحتاج إلى الوعي التاريخي واستيعاب مفاهيم العيش المشترك لكل الأطياف الاجتماعية والدينية وإلى التمسك بتراثه وخصوصيته الثقافية والاجتماعية فهو أكثر حاجة إلى المثاقفة الوطنية والقومية وفق منهج تنموي متطور يتخلص من

التقليد والمحاكاة والتبعية؛ ويستعيض عنه بنموذج ثقافي معرفي يعتمد العلم والتقانة والكفاءة والمبادرة، ويؤكد المشاركة في الحوار الفكري السياسي على قدم المساواة بين الأطراف المتحاورة، وعلى أساس الاتفاق على المبادئ الكبرى وطنياً وقومياً؛ ويسترشد في نهضته الحديثة بالسعي الجاد والواعي إلى الالتزام بسيادة القانون لتجسيد المشاركة الراقية للمجتمع العربي بأسلوب حضاري من جهة، ومن جهة أخرى للتخلص من الجهل والفقر والفساد. وهذا كله يستدعي اعتماد مبدأ الكفاءة والقدرة في المؤسسات الرسمية والوزارات، ومُحاولة الإفادة من العقول المبدعة ووضعها في المكان المناسب للحد من هجرة العقول والكفاءات.

ومن ثم فإن القوانين تصبح حارسة للقيم والمبادئ الإنسانية، وبانية للديمقراطية على اعتبار أن البرلمانات المنتخبة شرعياً وبشكل حر حريصة على سير الحرية والعدالة في مجراهما الطبيعي، ما يؤدي إلى تحرر الوطن من دائرة التجاذب والمصالح الشخصية للفئات المتكالبة على السلطة ويقضي قضاءً مبرماً على أي تفكير انفصالي تحت أي مسمىً كان، عرقياً أم إقليمياً أم جهوياً.

وبهذا كله يغدو الوعي العلمي المعرفي الديمقراطي محركاً لبنية المشروع العربي ودافعاً لــه إلى التفاعل في بناء حالة التوازن بين الوطني والقومي؛ والاشتراك في التقاسم الحضاري الإنساني.

٢ ـ الهوية القومية والحكومة الإلكترونية:

فتحت الحكومة الإلكترونية مجالات لم تكن معروفة للبشرية؛ ولا سيما حين أعلت من شأن الشبكات الاتصالية والتكنولوجيا المعلوماتية (١)؛ إذ أدت إلى ظهور الفضائيات التي تجاوزت حدود الدول والقارات؛ فقد زاد عدد القنوات الفضائية من دول المجموعة الأوروبية من (٢٥) قناة سنة (١٩٨٠م) إلى (٩٠٠) قناة سنة (٢٠٠٤م) (٢).فالمجتمع العربي ما زال يعيش حالة من تخلف

---

(1) يعد الدكتور نبيل علي أحد الباحثين المتقدمين في مجال الرؤية العربية للمعلومــات والفجــوة الرقمية؛ وقد صدر لــه ثلاثة كتب في سلسلة عالم المعرفة ــ العرب وعصر المعلومات ــ ١٨٤و الثقافة العربية وعصر المعلومات ــ رؤية لمستقبل الخطاب العربي ــ ٢٦٥ وصدر مرة أخرى برقم ٢٧٦ و الفجوة الرقمية ــ رؤية عربية لمجتمع المعرفة ــ ٣١٨.
وهناك كتب أخرى صدرت في هذا المجال وفي السلسلة نفــسها مثــل (المعلوماتيــة عــن الانترنت رقم ٢٣١) و (الآلة قوة وسلطة ــ التكنولوجيا والإنسان ــ رقــم ٢٥٩) وانظــر ندوة مشروع النهضة العربية ٢/٥١ ــ٥٦.

(2) انظر الملحق الإداري لجريدة البعث ــ عدد ٣٠ ــ ص ١٨ تاريخ ٢٠/٢/٢٠٠٦.

معلوماتي كبير؛ إن لم نقل: إنه مأزوم معلوماتياً وعلمياً وصناعياً وزراعياً، فهناك فجوة رقمية (Digital divide) هائلة في صناعة الثقافة الرقمية وترويجها بين العرب؛ فهي متخلفة عن مثيلاتها في الدول المتقدمة المنتجة للتقنيات والمتحكمة فيها، ولا سيما دول الشمال الغنية. ولهذا فإن الأقطار العربية غدت سوقاً استهلاكية لمنتجات الغرب في التقنية والمعلومات وبث القنوات الفضائية، علماً بأن هذه التقنية هي التي تتحكم برقاب دول العالم كلها في الوقت الذي أصبحت فيه جزءاً لا يتجزأ من الفكر الثقافي على اعتبار أن فكر الآلة التقنية والفضائية والانترنت إنما يرتبط بالعقل البشري وتطوره(١)، إذ تحمل في بنيتها البرمجية ومشاريعها التجارية فكرة السيطرة على الإنتاج.

فمهمة العقل العربي تكمن في " ضرورة استغلال تكنولوجيا المعلومات كأداة لتعميق الفكر الثقافي، واستغلاله كأداة لتوطين المعلومات في التربية العربية"(٢) مع توخي الحذر الشديد من خلفيات أصحابها المنتجين لها. فشبكة " الانترنت تتعامل مع جميع عناصر المنظومة الثقافية، سواء بوصفها ـ أي الثقافة ـ تراثاً قومياً أم بوصفها إبداعاً وتعبيراً أم بوصفها منتجة للسلع والخدمات والأصول الرمزية. فالشبكة تساهم في تشكيل وعي الفئات الاجتماعية (وتؤدي) دوراً حيوياً في تكامل منظومة الثقافة مع منظومات التربية والإعلام والاقتصاد، والأهم من ذلك كله أن هذه البنية المعلوماتية الجديدة توفر ـ وربما لأول مرة ـ بيئة مثالية لجوار الثقافات والتهجين الثقافي" (٣).

ثم إن التفاوت الكبير بين الدول في الفجوة الرقمية والإعلام ينتج خلخلة في الفوارق الاجتماعية وازديادها؛ ما يؤدي إلى تحطيم التوازن بين الناس وهوياتهم الثقافية ومرجعياتهم الروحية في الوقت الذي يشي بأن اتساع الفجوة الرقمية اتساعاً شديداً يعني المزيد من التخلف والجهل.

ولهذا نقول: إننا أمة تعاملت على الدوام مع الكلمة، نشراً وقراءة، وبنينا ثقافتنا على أساس ثقافة معرفية تتبنى الكلمة المتجذرة في أبجدية أوغاريت وما كتب على الرُّقُم من حضارة الشام وبلاد الرافدين، ومن ثم كانت هي أساس الوحي الإلهي {اقرأ باسم ربك الذي خلق} (سورة العلق ٩٦/١). وعلينا تلقف

---

(1) الثقافة العربية وعصر المعلومات ١٥٩ وما بعدها.
(2) الثقافة العربية وعصر المعلومات ١٦٦.
(3) الثقافة العربية وعصر المعلومات ١٢٤.

ما يجري في العالم من تطور هذه الكلمة نحو التقنيات فهناك تطور مذهل وفق مفهوم البرمجيات الإلكترونية الحديثة، طباعة ونشراً، لأن ثورة النشر الإلكتروني غدت شيئاً آخر يختلف كل الاختلاف عن الكلمة علماً بأننا مازلنا ــ وللأسف ــ طرفاً غير فاعل في إنتاج البرمجيات التقنية وأدواتها.

ولعل هذا يؤكد لنا أن تحديث الثقافة العربية، والارتقاء بالمشروع القومي لا يعني وراثة ما انتهى إليه عصر النهضة في أوربا وغيرها من دول الشمال أو استنساخ التجارب القومية والثقافية استنساخاً شمولياً. فإذا كانت التقنيات الحديثة وثورة الاتصالات محايدة في جوهرها وقادرة على إنهاض الدول مهما كانت صغيرة فهي وسيلة مهمة وقوية لممارسة التسلط والقهر على الدول الضعيفة؛ إنها الحكومة الإلكترونية العالمية ذات الأذرع الطويلة التي تسهم في إنتاج حضارية كونية جديدة، وتقيم لنفسها أخلاقيات وتشريعات تتوافق مع أربابها الذين يسيطرون عليها، ويتفردون امتلاكها إنها القوة الناعمة الخفية التي تنفذ إلى السيطرة على الدول والشعوب؛ إن لم تتقن التعامل معها.

فخطط التنمية والإصلاح تفرض على الأفراد والحكومات الوعي الكامل بقيمة القوة الناعمة التي توفرها المعلوماتية والانترنت والاتصالات، ووضع الاستراتيجيات الخاصة لاستغلالها على الصعيدين الوطني والقومي، وفي طليعتها دعم مجموعات العمل الإنتاجية بالكوادر المطلوبة لهذا الغرض وتأهيلها التأهيل الإبداعي المتطور.

وعلينا أن نفيد من تجارب الآخرين ــ قديماً وحديثاً ــ مستلهمين مناهجها ومدركين لطبيعة الحكومة الإلكترونية ووظائفها ما استطعنا وعلى مختلف الصُّعُد متذكرين ما فعلته هذه الحكومة باليابان وسنغافورة وماليزيا من تفجر علمي وتطور اقتصادي واجتماعي وعمراني و.....، دون أن نمسخ ذواتنا ونلغي وجودنا، أي علينا وضع العربة وراء الحصان لا أمامه. وكذلك علينا أن نعيد للعروبة وجهها الناصع، فلا بد لنا من أن نخوض غمار التنمية الرقمية وثورة الاتصالات ونحن نربط بينها وبين إرثها الحضاري الذي يمتد إلى عشرة آلاف سنة قبل الميلاد، وأن نجعل لها فضاء إسلامياً وإنسانياً ممتداً في عمق القوميات الأخرى، مفيدين من الكينونة الثقافية الحضارية التي اصطبغت بها العروبة حين تداخلت الثقافة المسيحية المشرقية بالثقافة الإسلامية حتى صارت كل الطوائف ممتزجة في الثقافة العربية. فالعروبة ذات جوهر إسلامي شئنا أم

أبينا وهي ذات امتداد تاريخي وثقافي واسع وكبير قديماً وحديثاً على التقنيات وغيرها.

فإذا أضفنا إلى هذه السمات قدرة الإفادة من ثورة التقنيات والمعلومات و... فإننا نزداد قوة وتأثيراً على صُعُد كثيرة. فالمشروع القومي بحاجة إلى جهود أبناء الأمة، وكثرتهم يعني وفرة القدرة البشرية والطبيعية، ولكن هذه الكثرة تصبح فارغة المضمون والتأثير إن بقيت كما هي اليوم.

فسنغافورة متقدمة تكنولوجياً كاليابان لكن قدرة اليابان البشرية جعلها متنوعة الموارد، ما جعلها تصبح من الدول الثماني الكبار بوساطة التكنولوجيا.

وحين نتخلى عن أي جزء من ذلك فإن الهوية العربية تفقد أجزاء منها، ومن ثم ينهار المشروع القومي الذي نطمح إلى تحقيقه. وإذا كان كل منا يؤمن بأن الديمقراطية قد صارت من المسلمات لدى الشرق والغرب؛ فإننا نؤمن بأن القوة الناعمة للحكومة الإلكترونية تعد أساس الحرية ومفتاح التقدم الاجتماعي والسياسي والمعرفي والاقتصادي والعسكري. والهوية الفاقدة للتقنيات فاقدة للحرية فاقدة للسيادة والمعرفة المسؤولة؛ فاقدة لعناصر التسامح والاعتراف بالآخر والانفتاح عليه بصدق وحيوية.

ومن ثم فالبيت الذي لا تنفتح فيه النوافذ للهواء والشمس ــ كما قال طاغور ــ ينتهي به الأمر إلى الفساد وتخلف أبنائه، وازدياد جهلهم لازدياد عزلتهم.

ولعل تقارير التنمية الإنسانية العربية التي تصدر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي سنوياً يوضح لنا تدني التنمية الاجتماعية والاقتصادية وتخلف البرامج العلمية، والقصور في تحقيق نهضة تقنية عربية. وما زال العرب يستوردونها؛ ولم يقدروا حتى الآن توطينها وإحداث برامج جديدة متقدمة.

فإذا كانت الديمقراطية مطلباً معرفياً كونياً واسعاً لكل من يؤمن بإنسانية الإنسان؛ فإن التقنيات الرقمية الإلكترونية تعد أحد جناحي المعرفة الشمولية. وهي تتعمق في صميم الأنساق المعرفية كلما انفتحت على الثورة المعلوماتية التي حصلت بفضل التقنيات الحديثة؛ هذه التقنيات التي تسود في عصر الاتصالات والفضائيات والانترنت هي التي خلقت ما عرف بمصطلح الفجوة الرقمية (The Digital Divide). ويعني هذا المصطلح التباين أو الفرق بين الدول المنتجة للتكنولوجيا وبين الدول النامية في عصر الصناعة والمعلومات، أو الفرق بين الفقير والغني، أو بين الضعيف والقوي. ومن هنا فالأمة التي

تغلق أرضها في وجه ثورة الاتصالات ولا تفتح نوافذها لها هي أمة مصابة ــ من دون شك ــ بالجمود والتخلف والخروج من التاريخ، وفاقدة لشرط البقاء الموضوعي التقدمي لأن التقنيات غدت حاجة ضرورية كالماء والغذاء؛ وأضحت مصدر القوة الأساسية للتفوق الحضاري في عالم اليوم.

وبهذا صار المشروع القومي أكثر حاجة إلى التقنيات من أي شيء آخر بمثل حاجته إلى الديمقراطية المسؤولة والصحيحة. فالتقنيات هي التي تؤسس للمجتمع المعرفي في مستقبله المتقدم، وبها يخلص نفسه من عوامل الفقر والجهل والتخلف ويصبح الفقير أوفر حظاً، والجاهل أكثر علماً والمتخلف أفضل تقدماً، والضعيف أعظم قوة حينما يستخدم منظومة عصر المعلومات والاتصالات في كتابته وحساباته وتخطيط برامجه، وكل شؤونه المختلفة؛ علماً أن العلاقة بين الديمقراطية والحكومة الإلكترونية ــ اليوم ــ أصبحت حقيقة متكاملة وساطعة لا يجحدها إلا مغفل. فالانترنت والاتصالات الإلكترونية عمّقت مفاهيم الديمقراطية ومجالاتها، ولم يعد بإمكان أحد في الداخل والخارج أن يمنع الناس من استعمال تقنيات الاتصال للتعبير عما يريد. فاليوم ــ في سورية مثلاً ــ يحمل البريد الإلكتروني آلاف الرسائل التي تتعلق بشؤون حساسة وخاصة، قد يصل قسم منها إلى تجاوز الخطوط الحمر... كما ذكرته صحيفة العرب الأردنية ــ تاريخ ــ ١٢/٢/٢٠٠٦م. فالتقنيات الحديثة في عالم الاتصالات والانترنت والحاسوب صارت أدوات يستعملها الأفراد وغيرهم لتعريف الأنظمة والحكومات بما يرغبون فيه، والعكس صحيح. وهذا يعني أن تبادل المعارف والأفكار قد أخذ أشكالاً جديدة مباشرة وسريعة تتكامل مع حرية التعبير ومفاهيم الديمقراطية الشخصية، ولم تعد أي حكومة قادرة على لجم آراء رعاياها.

وإذا كنا نعتقد بأن كثيراً من الناس يمارسون ديمقراطية التقنيات والإنترنت وعالم الاتصالات والفضاء بأشكال رخيصة قد تعود لحداثة التجربة، أو لاستغلال بعض الأفراد والفئات والحركات لها استغلالاً سيئاً على صُعُد سياسية واجتماعية وثقافية، إذا أهملنا الإنتاج الرديء الذي تكدَّس فيها على الصعيد الفني والأدبي، فإنه يتوجب علينا عدم إنكار ما قامت به التقنيات الحديثة من فرض الديمقراطية وحرية التعبير والرأي، ما يمكن أن نسميه بالديمقراطية الإلكترونية.

ثم طفقت الحكومات والإيديولوجيات تحاول السيطرة على كل ما يتعلق بالحكومة الإلكترونية التي تزداد أهميتها في عالم اليوم، باعتبارها حكومة غير سياسية في الأصل، ولكنها تغدو أهم عنصر سياسي وفكري باعتباره الأداة الأكثر أهمية في عالم اليوم التي تتحكم بالتنمية الثقافية قبل التنمية الاقتصادية والتي تعد أداة التواصل الأسهل بين الناس.

فقد صارت الشغل الشاغل لأبناء عصرنا باعتبارها سلاحاً ذا حدّين، بل حدود كثيرة، ما جعلها تحتل مكانة مرموقة في القمة العالمية لمجتمع المعلومات التي انعقدت في كانون الأول (٢٠٠٣م) في جنيف وسيتبعها قمم أخرى.

ولهذا لابد من وضع آليات فعّالة على مستوى الدولة الوطنية والتقدمية لتأسيس حالة من الوعي في استخدام التقنيات والإنترنت تحت سقف القيم الأخلاقية والوطنية والقومية، ولابد من تطوير القوانين والتشريعات التي تواكب التطور التقني لممارسة حق الديمقراطية الإلكترونية بصورة فاعلة ومسؤولة.

وما من أحد منا لم يعد يدرك قيمة التقنيات سياسياً واقتصادياً باعتبارها عوامل تقدم وسيطرة لدى الدول الصناعية، فأمريكا تعمد جاهدة إلى شرذمة العرب عن طريق خدمات الانترنت الموجودة لديها وتتجسس عليهم؛ في الوقت الذي تفتح باباً عريضاً للخدمة الرقمية على الكيان الصهيوني.

وللانترنت مزايا أخرى جديدة في قابل الأيام، فسوف يزداد من خلاله الربط بينه وبين التلفزيون والخلوي النقال. ولعل الهند كانت أكثر وعياً من البلاد العربية لقيمة الحكومة الإلكترونية، مقتدية بهذا السلوك بما فعلته اليابان التي تسيطر اليوم على نسبة ٤٤% من إنتاج الإلكترونيات وصادراتها؛ وهي التي وضعتها في صفّ الدول المتقدمة، حين قاسمت دول الشمال أشكال المعرفة الحديثة، ما جعلها تنتزع عوامل حريتها وارتقاءها انتزاعاً وتجلس في صفوفها الأولى على الرغم مما أصابها من تدمير الحرب العالمية الثانية.

فالتنمية الاجتماعية والاقتصادية مرتبطة هذه الأيام بتقنيات الفضاء والإعلام والاتصالات والانترنت و.. وما دمنا غير قادرين على صناعة هذه التقنيات واستثمارها على نحو أمثل فسنبقى متخلفين، مستعبدين ليس لنا مهمة إلا أن نتحول إلى سوق استهلاكية لها. ومن ثم ستفقد الهوية العربية مضامينها الروحية والثقافية. فإذا كنا نؤكد في كل لحظة حاجتنا إلى الديمقراطية فعلينا أن نؤكد حاجتنا لمنظومة المعلوماتية المتقدمة، وكل منهما يحقق لنا الذات الوطنية والقومية إذا ما استثمرنا وفق قواعد العقل والمنطق المدروس.

ولعل المؤشرات المشجعة على ذلك كله في البلاد العربية ما حصل في قمة تونس ١٦ ــ ٢٠٠٥/١١/١٨م ، وإن أثبتت هذه القمة مدى الفجوة الرقمية بين العرب وغيرهم. فقائمة الدول المنتجة للإلكترونيات والرقميات والبالغة /٥٥/ دولة ليس فيها أي دولة عربية على الرغم مما تقوم به بعض الدول من خدمات في هذا المجال أو ذاك بعد أن أدخلت الانترنت والهاتف النقال إليها كما هو في دول الخليج ومصر وسورية، علماً أنه لم يجر ــ حتى الآن ــ بين الدول العربية المستخدمة للانترنت تنسيق متكامل.

فمصر ــ مثلاً ــ فتحت الانترنت مجاناً للاستخدام، وما زال استخدامه في سورية محدوداً بساعات معينة للأفراد على حين يتصدر التقسيمَ الرقمي وصناعته عدد من الدول الغربية ودول شرق آسيا كالسويد والنرويج والولايات المتحدة الأمريكية وسويسرا وأستراليا وسنغافورة وهولندا واليابان وكندا وألمانيا وهونغ كونغ. ولهذا فإن استمرت الفجوة الرقمية بين العرب وغيرهم على ما هي عليه فسوف تؤدي إلى تشويه الانتماء الوطني والقومي، وستخلف إشكاليات متتالية للهوية العربية التي تسعى إلى التوفيق بين الأصالة والمعاصرة، فالزمان معركتنا والمعرفة سلاحنا كما قال إدوارد سعيد يوماً ما، "فالمعرفة قوة، والقوة معرفة" (١).

ومن هنا فالتحدي الأعظم الذي يواجه المشروع القومي لم يعد يتمثل بتباطؤ تطبيق الديمقراطية وحدها؛ وإنما أخذ يتجلى بمواجهة ثورة التقنيات وصناعة الثقافة الرقمية والمعلوماتية التي شرعت تهيمن على العالم؛ وتفرض شروطها عليه.

فإن لم نحسن التعامل مع القوة الناعمة لما تمتلكه التكنولوجيا الحديثة ونكسر احتكار الآخر لها فإن هويتنا الثقافية سوف تزداد تخلفاً. فالتقنيات الرقمية ــ وإن كانت لا تحمل نمطاً واحداً، وكياناً ثابتاً وتعد في جوهرها محايدة ــ إنما تتصف بمرجعيات تنبثق من طبيعة أصحابها والوظائف التي يسخرونها لها. وحينما تتاح لنا فرصة الإفادة منها واستخدامها في تحديات التنمية والعولمة علينا أن نجعلها تحقق على الدوام توازناً مهماً بين العناصر المادية والروحية، وهو التوازن الذي أدركه أجدادنا من قبل حين اخترعوا الأرقام الغبارية، ونظام حساب الجمل. وهو النظام الذي طوروه إلى شكل من

---

(1) الثقافة العربية وعصر المعلومات ١١.

الرموز التي خدمت الفكر الإنساني؛ ولكننا حين ننظر إلى واقعنا ندرك كم نحن متخلفون.

لقد أدرك أجدادنا أن الهوية الشاملة جامعة لمرجعيات متغيرة ومتطورة تخدم معارفهم وعقائدهم، ما جعلها ترتقي إلى أنموذج حضاري متميز يوحي لنا اليوم بأن العقل العربي المعاصر مازال عاجزاً عن مواجهة المنجزات الحضارية الحديثة التي فجرت ثورة المعلومات بعد أن فجرت الثورة الصناعية والعلمية.

ولكن علينا ألا نخشى هذا التخلف وتلك الثورة العلمية والتقنية لدول عديدة في العالم وأن ننظر إليها باعتبارها شكلاً من أشكال الحداثة في إطار ثورة العقل الإنساني الذي يطور ثقافته وعلومه ومراكزه البحثية وفق الحاجة إليها. ومن ثم فالهوية العربية أحوج ما تكون إلى هذه الحداثة الشاملة لتأصيل ذاتها وارتقائها، مع إيجاد الحلول الموضوعية لما يواجهنا؛ لكيلا تقع أمتنا في دائرة هيمنة أي ثقافة تريد أن تثبت رؤيتها عليها.

ولعل التجارب العربية التي حصلت حتى اليوم في عدد من الدول العربية تؤكد مدى الشفافية في تعزيز التكيف بين الانتماء الثقافي والانفتاح على ثورة المعلومات والتقنيات والفضاءات. فالوعي العربي بثورة التقنيات والعلوم الأساسية والهندسية لم يكن وعياً سكونياً يتشيأ للآخر، إنما سعى إلى التوفيق بينها وبين الهوية العربية في إطار تحديد الأولويات المتناغمة مع خطط التنمية، ما يعني توفير القرارات الاستراتيجية السياسية والإدارية المناسبة في القطاع العام والخاص. ولكن هذا لم يكن كافياً؛ إذ ما زالت منظومة الأبحاث العلمية والتقنية وكل ما يتعلق بها من أنشطة وأدوات متخلفة، ودون الغرض المطلوب. فالتعليم ــ مثلاً ــ لم يرتبط بالتقنيات والانترنت ومراكز الأبحاث والفضائيات المنتشرة في العالم. وما زال الوطن العربي متخلفاً تخلفاً مزرياً إذا ما قيس بدولة مثل ماليزيا. وهناك فقر شديد في البنى التحتية للتقنيات وقصور أشد في الوصول إلى مصادر المعرفة العالمية؛ إذا تجاهلنا غياب التخطيط الاستراتيجي القومي بين الدول العربية، وإذا نسينا ضعف الميزانيات التي توضع لخدمة البرمجيات والبحث العلمي في الدول العربية.

فالفجوة الرقمية التي تحيلنا إلى فجوية تنموية في الموارد الطبيعية والبشرية تقودنا إلى التعامل مع الدول المتحكمة بالتقنيات وشبكة الانترنت والاتصالات؛ وهي التي تعرض علينا ــ في صميم عملية التطوير والتحديث

للمشروع القومي ــ أن ننتقل من خلالها نقلة معرفية تنموية ونوعية. ولعل هذا يفرض علينا ــ أيضاً ــ إحداث منظومة من التشريعات الملبية للتحولات الحديثة في الوقت الذي تحافظ على هويتنا الثقافية والروحية، وتنسيق الجهود الوطنية والقومية على مستوى مراكز التقنية والاتصالات، وتشجيع البحوث العلمية والفنية ونشرها؛ وتعميق الاتصال بالمؤسسات العامة والخاصة المنتجة للإلكترونيات لتطوير شبكات المعلوماتية وتداولها وفق ما يلبي احتياجات المؤسسات الإنتاجية، ثم وضعها بين أيدي المحتاجين من الأفراد والمؤسسات الخاصة.

وهذا ما نحتاج إليه لنرتقي به، مستثمرين عقولنا ومعارفنا لإحداث حكومة إلكترونية عربية تطور هويتنا الحضارية وتتخلص من الجهل، ولا تذوب في الآخر، وإلا فإن الفجوة الرقمية بيننا وبينه سوف تستمر بالازدياد، وسوف يزداد تخلفنا الاجتماعي والمعرفي والاقتصادي و.....

٣ ـ المشروع القومي بين الديمقراطية وحرية التعبير

الحرية هدف للديمقراطية، فالمُستَعْبَدُ المحتل والمقهور العاجز الضعيف والفقير لا يمكنه أن يمارس حريته في وطنه وقومه، ولو كان في أبسط حقوقه بما فيها مبدأ اختيار حياته، أو اختيار من يوكله لتمثيله من دون ممارسة حقيقية لمبدأ الديمقراطية وبشكل دقيق وصحيح. ومن ثم لا يستطيع أن يعبر عما يريد بحرية كاملة؛ إذ تبرز لديه معوقات كثيرة لممارسة حرية الانتخاب والرأي والتعبير والنقاش والتملك والعقيدة، ... وأهم هذه المعوقات فقدان الوعي بمفهوم الديمقراطية والحرية، وأمتنا أحوج ما تكون لتأسيس الوعي بهما؛ دون أن تشعر بعقدة النقص؛ لأنها كانت واحدة من الأمم التي أسست لجوهرهما.

فالديمقراطية " هي مجموعة تقنيات ووسائل تهدف إلى تنظيم التعايش السلمي بين السلطة والحرية في إطار الدولة" والأفراد والمجتمعات والدول وفق مبدأ التوازن النفسي الموضوعي وقيم العدل والاحترام المتبادل(١). إن الديمقراطية مصطلح يجسد هوية الثقافة لكل أمة لتحقيق المساواة والكرامة

---

(1) راجع ما تقدم ص (١٤٧). وانظر العراق الجديد بين الديمقراطية والأمن ــ كنعان خورشيد عبد الوهاب ــ مجلة الحكمة ــ بغداد ــ العدد ٤٠ ــ السنةالثامنة ــ ٢٠٠٥م ــ ص ٥٠- ٥١.

لأبنائها؛ أياً كانت السبل والمعايير التي يتوافقون عليها لممارسة الديمقراطية ومهما كانت المستويات الثقافية والاجتماعية لكل أمة؛ على اعتبار أنها مطلب حضاري إنساني قديماً وحديثاً. لهذا فالحرية مرتبطة بالديمقراطية منذ القديم، وكل من يتذكر قدم الديمقراطية عند اليونان وينسى قدم الديمقراطية وممارستها لدى أبناء بلاد الرافدين والشام، يغفل عن الحقيقة عامداً أو ناسياً أو متجاهلاً؛ فهي تمتد فيها إلى الألف الثالث قبل الميلاد. فهناك ــ مثلاً ــ وثيقة سومرية تثبت أن أهالي (لكش) أطاحوا بحكم سلالة (أورنانش القديم) حين شعروا بأنهم مضطهدون مستغلون، واختاروا حاكماً من أسرة أخرى وهو (أورطاجينا). إذ استطاع هذا الحاكم إعادة النظام والأمن وتثبيت القانون الذي عزز حرية المواطنين وحرية الكلمة. وقد أسس للمرة الأولى في تاريخ البشرية ما يقال لــه اليوم (البرلمان) أو (الجمعية التأسيسية)، وقد مارس الديمقراطية عن طريق مجلسين أحدهما مجلس الشيوخ والآخر مجلس الشعب من المحاربين أو حملة السلاح، ومن ثم يعرض أي أمر يخص شؤون الحرب عليهما، أما المشاريع الكبرى والقرارات الخطيرة فهي تنبثق من مجلس عام لجميع المواطنين(١)، علماً أن مكتبة (آشور بانيبال) " تحتفظ بأول حوار مدوّن لمجالس الشورى التي عرفتها دول المدينة في سومر"(٢). وليست الديمقراطية مقتصرة على الناس بل إن ممارسة السلطة داخل المجتمع الإلهي (السماوي) في مملكة الآلهة ــ كما سماها ــ الكاتب السوفييتي (دياكانوف) تكتسب كثيراً من طوابع الديمقراطية(٣).

ونرى أن فكرة الديمقراطية لدى البابليين والسومريين وغيرهم من أبناء بلاد الرافدين تعدُّ أسبق مما هي عليه عند الإغريق في اليونان القديمة، وإن كانت ديمقراطية بدائية؛ وليس بصحيح ما أشيع ويشاع حتى اليوم شرقاً وغرباً

---

(1) انظر مفهوم الديمقراطية في العراق القديم ــ عبد الرضا الطعان ــ مجلــة آفــاق عربيــة ــ السنة ١٤ ــ العدد ٦ حزيران ١٩٨٩ ــ ص ٢٩ وندوة مشروع النهضة العربيــة ١/١٧٥ و ٢٥٩ ــ ٢٦١.

(2) انظر جريدة صوت الشعب ــ العدد ــ ١٣١ ــ ص ١٢ ــ دمشق ١٨/ ٢٠٠٦/٣/٢٥م.

(3) المرجع الأسبق رقم ــ ٢.

من أن الإغريق أول من عرف الديمقراطية ومارسها قولاً وفعلاً في الحقوق السياسية والمسائل التشريعية وغيرها(١).

فالديمقراطية في العهد اليوناني ثم الروماني استفادت من تجارب الحضارات القديمة للمنطقة العربية وطورت نفسها فغدت تعني حكم الشعب بالشعب ومن أجل الشعب. فالشعب باعتباره مصدر القانون وأساس شرعية الحكم كان ممكناً وقابلاً للتطبيق في منطقة يقال لها (أغورا) في اليونان؛ لأن عدد المقترعين كان محدوداً. وهذا الفهم للديمقراطية يختلف عما نجده من ماهية المصطلح في الثقافة الأوربية التي نهلت كثيراً من مبادئ الثورة الفرنسية التي أعلنتها سنة (١٧٨٩م)؛ إذ قلبت مفاهيم الحق الإلهي إلى صالح حقوق الإنسان المتمثلة في الحرية والعدالة والمساواة؛ ما عزز الحرية الذاتية وحرية الاختيار الفردية. وقد تبعها عدد من الثورات أكدت ذلك كله، أهمها ثورة (١٨٣٠م) التي تبعها ثورتان في (١٨٤٨م) و (١٨٧١م) ــ وهذه كانت في كمونة باريس ــ وكلها كانت ترفع شعار مبادئ حقوق الإنسان وحرية الاعتقاد.

ففكرة حكم الشعب بالشعب لم تعد صالحة بحكم سنة التكاثر؛ وإنما تطورت في الثلث الأول من القرن التاسع عشر في أوربا لتصبح قائمة على انتخاب تمثيلي بوساطة فئة قليلة تنتخب من قبل الشعب. ومن ثم ولد البرلمان الفرنسي إثر الثورة الفرنسية وانبثق البرلمان البريطاني مع الانقلاب الصناعي سنة (١٨٣٢م). ثم تتابعت الأحداث التي أدت إلى انقطاع الصلة بين الشعب والأعضاء الممثلين لــه بعد لحظة النجاح؛ فضلاً عن إهمال الاتجاه الآخر الذي رسب في عملية الاقتراع التمثيلي. ولهذا كله فالمعنى الحق للديمقراطية لم يتحقق تبعاً لما ذهب إليه أحد علماء فلسفة التنوير الفرنسية المفكر الفرنسي (جان جاك روسو ــ ١٧١٢ ــ ١٧٧٨م) الذي آمن بمبادئ الحرية والعدالة والمساواة. فهو يرى أن الديمقراطية الحقيقية لم توجد أبداً، نظراً للتفاوت في الثروات والتفاوت في النفوذ، ولغياب القيم المطلقة لدى الإنسان الغربي، على اعتبار أنه يؤكد نزعته الانفرادية، ولا سيما حين جعل نفسه مركز الأشياء ومعيارها،(٢).

---

(1) انظر الديمقراطية وحقوق الإنسان: مع الرافدين نبدأ ــ د. ثناء محمد صالح عبــد الــرحيم ــ مجلة الحكمة ــ الصادرة عن بيت الحكمة ــ بغداد ــ العدد ٤٠ ــ السنة الثامنــة ــ ٢٠٠٥م ــ ص ٤٦ ــ ٤٧ وندوة مشروع النهضة العربي ٢٦١/١.

(2) انظر الديمقراطية والإسلام ــ ٨٨ ــ ٩٢ والإسلام ــ الخطاب العربي وقــضايا العــصر ــ ص ٥٨.

إننا إذ نؤصّل ماهية الديمقراطية مثبتين الكشف عن حقيقتها التاريخية لدى الأمم القديمة والحديثة نؤكد من جديد أن منهج المصطلح يختلف في الثقافة العربية والإسلامية عما هو عليه في الثقافات الأخرى، وإن كانت الماهية واحدة ــ فضلاً عن اختلاف لفظ المصطلح نفسه باعتباره مفهوماً غربياً يهدف إلى إدخال الحرية " في العلاقات السياسية، أي في علاقة الأمر والطاعة" كما ذهب إليه (بوردو)(١). ثم إن أياً منهما يختلف اليوم في مفهوم الإدارة الأمريكية بزعامة بوش الابن؛ فهما أكثر تعقيداً في ثقافة الهيمنة الأمريكية، وبخاصة حين ابتليت بازدواج المعايير. ولهذا فهي ــ مفهوماً ــ شيء وباعتبارها ممارسة وطنية أو قومية أو إنسانية شيء آخر.

فالديمقراطية الغربية ــ ولا سيما الأمريكية ــ نفعية خادعة، وفي أحسن الأحوال هي ديمقراطية ضعيفة ومزيفة تتراجع من سيئ إلى أسوأ في العالم الذي نشأت فيه فضلاً عن أنها ديمقراطية سياسية تسعى ــ غالباً ــ إلى تحقيق مصالح معينة أما الديمقراطية التي مارستها الإدارات الأمريكية منذ النصف الثاني من القرن العشرين فهي تختلف كل الاختلاف عن تلك التي تبناها الأمريكان في وثيقة الاستقلال الأمريكي الذي وقد في (١٧٧٦/٧/٤م)، والتي تضمنها الدستور الأمريكي. فالمؤسسون لأمريكاــ ولا سيما الرئيس الثالث فيهم (توماس جيفرسون) ــ كانوا يرون أن الناس "قد خلقوا متساوين" وأن "خالقهم وهبهم حقوقاً معينة لا يجوز التفريط بها". ومن ثم تضمن الدستور الأمريكي مبدأي الديمقراطية والحرية، ثم عبر عن الحفاظ على حقوق المواطن الأساسية مثل حرية التجمع والعبادة والتعبير والصحافة... ([٢])

ونرى أنه إذا وقع خطأ في ممارسة الديمقراطية لدى أمة من الأمم فإنها ــ في ضوء التجارب الإنسانية والمناهج الثقافية والتربوية العلمية والأخلاقية ــ سرعان ما تجنح إلى تصحيح ذاتها من خلال ممارسة التداول السلمي لأي سلطة؛ وهذا هو التغيير المطلوب.

وإذا كانت الأمة العربية والإسلامية ــ وبكل أشكالها القديمة والحديثة خلافة ودولة جمهورية أو ملكية أو إماراتية ــ تختلف في قليل أو كثير في

---

(1) انظر الديمقراطية وحقوق الإنسان ص ٥٠.

([2]) انظر موقع (كلنا شركاء) ــ ٢٠٠٦/٧/٥م ــ عيد الاستقلال ومبادئ أمريكا الراسخة ص ٤٢ ــ ٤٥.

ممارسة الديمقراطية بمفهومها الغربي وأدواته المنهجية لديه فإنها فهمت محتواها الحقيقي على الصعيد الفكري والسياسي والاجتماعي والأخلاقي ــ وإن كان لفظ المصطلح غربياً ــ وأدركت أن الإنسان حر مذ خلقه الله؛ فهو حر بالفطرة؛ ثم كفلت هذه الحرية العقائد والشرائع والقوانين على الأسس المعروفة اليوم و على الأسس التي عرفتها الثورة الفرنسية التي عمت مبادئها أوربا كلها. وأدركت أمتنا ــ ومنذ القديم ــ أن الظالم المستبد يريد انتزاع هذه الحرية منه ليجعله تابعاً ومستعبداً يحقق لـــه كل مصالحه كما نستشفه من مقولة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) حين خاطب بها محمد بن عمرو بن العاص ــ وأبوه والي مصر آنذاك ــ بعد أن استقدمه من مصر إلى المدينة وكان قد أجلسه في دائرة القضاء جنباً إلى جنب مع ذلك المصري الذي ادّعى عليه (١). ولهذا فالعبودية ــ كما قال أحد المتصوفة يوماً ــ لا تكون إلا لله؛ أما الحرية فتعني أن تكون لله عبداً ولغيره نداً ومساوياً لـــه في الخَلْق والمكانة.

فالنص القرآني نفسه لا يلغي وجود الإنسان الآخر وإنما يكرمه ويحاوره على أساس المساواة الكاملة معه سواء كان كافراً أم مشركاً أم منافقاً أم كان من أهل الكتاب باعتباره إنساناً مكرماً؛ لقولـــه تعالى: { لقد كرمنا بني آدم} (الإسراء ٧٠/١٧) وقولـــه: { إنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين} (سبأ ٢٤/٣٤). ولهذا لم يفرض الإيمان على المخالف في العقيدة ولو كان مشركاً بل عليه احترامه وإذا حاوره فينبغي أن يكون حواره معه موضوعياً دون إكراه أو قسر لقوله تعالى: { وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه...} (التوبة ٦/٩) وقوله: { لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي} (البقرة ٢٥٦/٢) وقولـــه: {فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر} (الكهف ٢٩/١٨) وقولـــه: { ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن} (النحل ١٢٥/١٦). إذاً فأساس الديمقراطية في القرآن مبني على الحوار مع الآخر والاعتراف به على أساس الاختلاف والتعدد. ويعضد هذا المبدأ ما جاء في الحديث (اختلاف أمتي رحمة) (٢).

---

(1) تاريخ عمر بن الخطاب ٦٣ ــ ٦٤.

(2) الجامع الصغير ٣٩/١ الحديث رقم ــ ٢٨٨ (والحديث ثابت في التراث العربي، أيــاً كانــت درجة صحته؛ إذ يستفاد منه في فضائل الأعمال).

ولهذا قال عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ) (لو لم يختلفوا لم تكن رحمة)، ففي الاختلاف سعة واحترام للآخر أياً كان مذهبه أو جنسه أو منزلته.

ومن هنا نعرض لجوهر مبادئ الديمقراطية التي مارسها رسول الله (ε) وصحابته الكرام، وأخلصوا في تطبيقها سلوكاً وفعلاً. ولا شيء أدل على هذا من مواقف النبي الكريم الكثيرة، ومنها موقفه من مشركي قريش الذين آذوه وأخرجوه من مكة؛ فعفا عنهم لما دخلها في عام الفتح (٨ هـ)؛ وكان من قبل قد وقف محاوراً لهم في صلح الحديبية المشهور سنة (٦ هـ)، وأحداث كتابة ذلك الصلح أشهر من أن نعرض لها فقد محا الرسول الكريم بكمه الشريف كلمة رسول الله التي رفض سهيل بن عمرو كاتب المشركين إثباتها في كتاب الصلح، على اعتبار أنهم لو كانوا يؤمنون به رسولاً لما قاتلوه. وقد سار على منهجه خليفته أبو بكر (τ) في حكم الرعية كما توحيه عبارته حين خاطب المسلمين إبان توليته: (قد وليت عليكم ولست بخيركم؛ فإن أحسنت فأعينوني؛ وإن صدفت فقوموني...) (١) فهي تثبت مدى التطابق في ماهية الحرية والديمقراطية بين الحاكم والمحكوم. وهذا فهم متقدم لجوهر الديمقراطية نحتاج إليه دائماً بين الحكومات والمواطنين؛ لأنه يجسّد الفهم الصحيح للحرية المسؤولة التي يمارسها الحاكم والناس على السواء، وهي السبيل الدقيق إلى تصحيح ما يقع من أخطاء كما جرى في حكاية تلك المرأة التي راجعت عمر بن الخطاب في موضوع المغالاة في المهور، فتراجع عن أمر كان أبرمه، وكذلك نراه في وصية الإمام علي τ للأشتر النخعي حين ولاه مصر وأمره باحترام رعيته قائلاً لــه: (ولا تكوننَّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم؛ فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخَلْق)(٢).

ونستخلص مما تقدَّم ماهية نظرية التعدد في ثقافة الناس وعقائدهم، فالاختلاف الفكري أساس بيان الرشد والهدى، وهو ما أسسه النص القرآني كما في قوله تعالى: { ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم في ما آتاكم} (المائدة ٥/٤٨) وقولــه { ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم} (هود ١١/١١٧-١١٨) كما نستخلص مبدأ عمل الحكومة وفق مبدأ ديمقراطي يستند إلى الحوار والاختيار ومراقبة عمل الحاكم لئلا يستبد بأمر الناس.

---

(1) إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء ١٨.

(2) شرح نهج البلاغة. ١٢٠/٤.

ومن خلال التصور السابق نفهم ــ أيضاً ــ جوهر مفهوم التعددية عند الشافعي (ت ٢٠٤هـ) حين قال: (الرأي عندنا كذا وعند السادة المالكية بخلافه)؛ وهو فهم يؤسس للتعدد الفقهي الذي ينتهي إلى الحوار بين الأفكار في صميم الوحدة المتجانسة، ولا يعني بأي حال من الأحوال الخلاف حول جوهر المبدأ والعقيدة.

ونقول: إذا كان مصطلح (التعددية) قد ظهر لفظاً في انكلترا في العصر الحديث، فإنه نظام متأصل في عقيدة العرب والمسلمين وحياتهم وثقافتهم؛ وهو يستند إلى الحرية في الاعتقاد، وفق مبدأ الحوار القائم على المساواة واحترام الآخر. ولعل أول حوار مسيحي إسلامي ما ذكرتهُ كتب السيرة النبوية في المسجد النبوي مع أساقفة نجران ويهود المدينة(١)، وما فعله ــ من بعدُ ــ عمر بن الخطاب مع مسيحيي بيت المقدس وعهده المشهور لهم(٢). فالاختلاف أو التعدد حقيقة بشرية لا ينكرها إلا جاهل، بيد أن المطلوب من البشرية أن تراعي هذا التعدد في إطار التنوع الذي يثري حياتها ويطورها وفق التنافس الحر والشريف.

وبناء عليه؛ فالحرية لدى أبناء أمتنا تنطلق من حوار موضوعي يعترف بعقائد الآخرين وأنبيائهم وبثقافتهم ومذاهبهم، ويبقى الدين لله وحده؛ لقولــه تعالى: { شَرَعَ لكم من الدين ما وَصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك، وما وَصَّيْنا به إبراهيم وموسى وعيسى، وأن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه} (الشورى ١٣/٤٢)، وقولــه تعالى: { إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين مَنْ آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أَجْرهم عند ربهم ولا خَوْفٌ عليهم ولا هم يحزنون} (البقرة ٦٢/٢).

وفي ضوء ما تقدم نرى أن حرية التعبير التي مورست لدى كثير من المفكرين والمجتهدين في التراث العربي تؤكد صورة احترام الآخر، ولم تقع في عبادة الرأي؛ ما يعني ــ لدينا ــ أن حرية التعبير هي الوجه الأعظم والجامع لأنماط الحرية في الفكر والثقافة والأدب والفن والسياسة والتربية والعقيدة والنقاش، والصحافة والإعلام، وبها تمارس كل ضروب الحرية، أياً كان شكل التعبير عنها، شريطة ألا تنقلب إلى عملية فوضى وهدم لقيم الحرية الاجتماعية والأخلاقية. وما من أحد يماري في أن مذهب أبي حنيفة

(1) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٢٢٢/٢ ــ ٢٣٣.
(2) انظر معجم البلدان (بيت لحم).

(٨٠ – ١٥٠ هـ) يمثل التفسير بالرأي، وهو يؤكد التطبيق الحقيقي لحرية التعبير والرأي والعقيدة؛ وهي حرية لا تهدد عقائد الآخر ولا تلغيه. ثم هذا ما نشأ عليه المجتمع العربي على مدى الزمان، فعاشت الطوائف جنباً إلى جنب، وعنيت بتربية احترام الآخر والانفتاح عليه، تحاوره وتناقشه ولا تلغيه، لأنها أدركت أن حرية التعبير والرأي والنقاش تؤدي إلى خير الناس، ولم يفكر أبناء العربية يوماً في أن تكون هذه الحرية اعتداء على الآخر ولم يجعلوها جدلاً فارغاً لإثبات فكرة على حساب فكرة مضادة واستئصالها. فهذا الأسلوب لا يؤسس إلا منهج الاستبداد والاستبعاد، على حين أن حرية التعبير إنما تبتغي بناء المجتمع المعرفي الأفضل من خلال إثراء معارفه وثقافته عن طريق الحوار. وقد يتساءل متسائل: هل يعني هذا أن التاريخ العربي الفكري والسياسي مُنَزَّه عن فكرة إلغاء الآخر والاستبداد به؟. والجواب: حتماً؛ لا؛ وأمتنا تعتورها مشكلات كثيرة قديماً وحديثاً مثلها مثل بقية الأمم؛ و تاريخنا قد ابتلي في بعض مراحله بعدد من الفرق التي أخذت تلغي الآخر وتنال من عقيدته وترفض كل ما ينادي به لمجرد اجتهاده في نص من النصوص القرآنية، أو لمخالفته إياها في الرأي. ويمثل هذا التيار جماعة الخوارج الذين حكّموا ظاهر النص القرآني بكل رأي وموقف؛ ثم انتهوا إلى أن فكرة الاختلاف في الرأي هي التي تجسد مفهوم الاختلاف في العقيدة والحق ذاته، ما جعلهم يُكفرون كل من لم يوافقهم الرأي، ولم يقبلوا توبته بل عمدوا إلى قتله بالسيف باعتباره مرتداً وكافراً. وكانت هذه الجماعة قد فرضت رأيها على الإمام (علي) لقبول التحكيم ولما قبل بمنهج التحكيم، وانتهى رأي لجنة التحكيم إلى ما انتهت إليه سواء كان حكمها صائباً أم خاطئاً فإنها انقلبت على الحكم، ثم أرادت فرض رأيها من جديد على الإمام، وفي الحالين كانت تمارس رأياً استبدادياً أحادي الاتجاه؛ حين قدَّمت الإسلام على غير ما بني عليه، وأظهرت المسلمين بأنهم متخلفون مشوهو الفكر والثقافة، يستندون إلى أحادية الفكر.

وكذلك نرى شيئاً من هذا الإلغاء في الخطاب العربي المعاصر الذي ابتلي ببعض التيارات الفكرية والدينية والسياسية المتشددة التي لم تستفد من مضامين حرية التعبير عن الرأي والنقاش والتدين في العقيدة والتراث، ولم تقم الحوار على أساس قوله تعالى: { ادفع بالتي هي أحسن} (فصلت ٣٤/٤١)، والدفع هنا الحوار، وإنما أقامته على أساس الاختلاف والإقصاء والتسلط وإلغاء حرية الرأي أو التعبير بكل أنماطه؛ وتبني تكفير الآخر، فبقي منهجها منهجاً أحادي الاتجاه على اعتبار أنها لم تمارس الديمقراطية إلا من خلال رؤيتها الذاتية؛ لما

تؤمن به من مبادئ وأفكار جعلتها الحكم الفصل في كل شيء؛ وكل من يخالفها يتعرض للإيذاء؛ وقد نسيت هذه التيارات وأعداء الأمة جميعاً أن مفهوم التعددية وقبول الآخر إنما ظهرا في الإسلام من خلال النص القرآني والحديث الشريف ومن خلال الممارسة الفعلية للدولة الإسلامية ــ غالباً ــ إذ اصطنعت لنفسها مبدأ الحريات الثقافية والفكرية والدينية والمذهبية والسياسية، وفق العناصر المحركة لمصلحة الأمة ووفق عملية تثقيف مستمرة تؤكد أهمية التعددية التي ترسخ هوية الأمة وأهدافها ومبادئها.

ولعل ذلك التصور للتيارات الفكرية العربية قد امتزج بالنزوع الفردي، وكلاهما كان وراء إخفاق التجارب الديمقراطية والقومية معاً؛ سواء أكان ذلك متمثلاً بنزوع الحكام أم الدول. وهذا يوحي بأن الشخصية العربية المتكاملة لن تتحقق مهما كانت فعالية الانتماء الواحد لأبناء العروبة ومهما تأججت نفوسهم بمشاعر الهوية العربية؛ لأن الفردية الطاغية للذات والأنظمة والدول لا تتطور إلا باتجاه الاستبداد والهيمنة والاستعباد والإلغاء والكبت والإحباط، و فقدان الحرية بكل أنماطها.

ويستوي في هذه الأنماط الاتجاه الداخلي الانفصالي الذي حرص على مصالحه مع الاتجاه الخارجي الذي استغل التربة الخصبة التي تستجيب داخلياً لرغباته، فسارع إلى بسط سلطانه عليه تحت مزاعم الديمقراطية المفقودة وشرع يرسي ماهية الديمقراطية وأسلوبها وفق المصالح الخاصة التي تبناها.

وفي هذا المقام يمكن أن نستجلب الخطاب الأمريكي الذي صم آذان العالم بالدعوة إلى الحرية والديمقراطية، وركز اتجاهه نحو العرب والمسلمين مستغلاً سيطرته على سوق الإعلام العالمي؛ إذ يملك ما يزيد على ٨٠% من شبكة الاتصالات والقنوات الفضائية[1] . وقد خص الأرض العربية بمحطة إعلامية تلفزيونية سماها (الحرة) في مطلع عام (٢٠٠٣م)، وكان قد أنشأ قبلها بقليل قناة إذاعية سماها (سوا) فضلاً عن القنوات التلفزيونية الأمريكية الأخرى التي تبث أنباءها من مناطق عربية عديدة مثل (CNN). فازدواجية المعايير لا تكمن في المواقف الأمريكية السياسية ــ فقط ــ وإنما تكمن أيضاً في حرية التعبير منطلقة من آراء السياسيين والمثقفين الأمريكيين وفي طليعتهم الرئيس الأمريكي بوش الابن الذي أعلن بعد أحداث الحادي عشر من أيلول (من ليس معنا فهو

---

(1) انظر تصدعات في القلعة الأمريكية ٩٢ ــ ٩٩.

ضدنا)، ومن ثم نعت كل مخالف لرؤيته بالإرهابي والديكتاتوري المستبد، وبأنه خطر على السلام الدولي، وعلى الحرية والديمقراطية([1])

وقد طالت دعوة بوش الظالمة الأفراد والأنظمة والجماعات المناهضة للسياسة الأمريكية، ولا سيما حين ساندته تقنيات حديثة ووسائل إعلام متطورة تهلّل ليل نهار للحرية والديمقراطية على حين تعادي حرية الآخر المغاير. ولا شيء أدل على كذبها من أنه لم يعد هناك أحد لم يعرف أن إدارة بوش ضغطت بكل ثقلها لكي يغير الإعلاميون بقناة الجزيرة القطرية سياستهم في تغطية الأحداث التي يمارسونها أو مارسوها في العراق وأفغانستان؛ ولما أخفقت هذه الضغوط هدَّد بوش بقصف القناة. وهذا ما بينه لنا النائب البريطاني (بوريس جونسون) رئيس تحرير مجلة (سبكتيتور) حين مورس ضغط كبير عليه من قبل حكومته؛ في الوقت الذي لوحت بسجنه؛ ما جعله يهددها بنشر تفاصيل المذكرة السرية المتعلقة بخطة الرئيس الأمريكي بوش لقصف القناة والتي اتفق عليها مع رئيس الوزراء البريطاني بلير.

وما يحدث من الإعلام الأمريكي والأوربي تحت مزاعم حرية التعبير وحرية الرأي والانفتاح على الآخر واحترامه إنما يوحي بالعجب العجاب.. فبدل أن يمارس الإعلام حرية التعبير لتطبيق مبادئ العدالة والمساواة واحترام سيادة الأفراد والشعوب فهو يمارس ذلك لتسويق صورة أمريكا وتحسينها لديهم وفق أضاليل وأكاذيب لا حصر لها. فالإعلام ــ بما فيه الانترنت ــ يغمض عينيه عن جرائم أمريكية كثيرة ترتكب هنا وهناك؛ وهو ما يعرف بالمسكوت عنه ليمرر ما يريد، علماً أنه يدعي ممارسة الحرية، فالقناة التلفزيونية (الحرة) تصرخ ليل نهار منادية بحرية الرأي والتعبير، بيد أنها لا تذكر شيئاً عن جرائم المحتل الأمريكي في سجن (أبو غريب) وبقية السجون السرية الثمانية عشر ومنها (سجن الرصافة وسجن أربيل للنساء، وسجن السهيلة وبغداد والحلة والكوت وبابل وكربلاء والنجف وتكريت و...) إذا نسينا سجن (غوانتانامو) الذي تحتجز فيه الإدارة الأمريكية (٤٩٠) سجيناً منذ كانون الثاني سنة (٢٠٠٢م)؛ ولم توجه الاتهام إلا إلى عشرة فقط، أحيل سبعة منهم إلى المحاكم العسكرية.

([1]) انظر تصدعات في القلعة الأمريكية ١٣٠ ــ ١٥٢.

فإذا تجاوزنا احتلال أمريكا لخليج (غوانتانامو) سنة (١٨٩٨م) باعتباره أرضاً كوبية فإننا لن نتجاوز ديمقراطية إدارتها التي ترى في هؤلاء السجناء أسرى حرب، بل تصنفهم أعداء مقاتلين وتمارس بحقهم كل أنواع العهر السياسي وكل أنماط الإرهاب النفسي والجسدي. ولن ننسى أنماط التعذيب التي يمارسها الجنود البريطانيون في البصرة كما ذكرته مجلة (نيوز أوف ذي وورلد)(١)؛ ولن نغفل عن الإشارة إلى السجون البشعة والفاقدة لكل الشروط الإنسانية التي أحدثها الكيان الصهيوني لتعذيب الشعب العربي الفلسطيني.

وكل من يتصدى لفضح ذلك فإن إدارة بوش وبلير تسلط حقدها وشرها عليه وتتهمه بالإرهاب وتصدر أوامر بسجنه إن لم تزهق حياته. وليس هناك أحد منا يجهل تلك الصور التي نشرتها الصحف والقنوات الفضائية لبعض ما جرى في سجن (أبو غريب) وهي صور تظهر أبشع ما في الوجود من صنوف التعذيب الوحشي للعراقيين ومنها صورة رجل قُطع رأسه عنه، وآخر أصيب بجروح في رأسه وقد قطع طرف لـــه؛ وثالث يبدو بقية من مخلفات بشرية، و... وهناك رجل عارٍ معلق من قدميه إلى سرير مرتفع؛ وآخر موثق ومقنع يهدده كلب شرس إن لم يكن قد نهش لحمه الحي، وهناك رجال عارون يُعْبَثُ بهم من قبل الجنود الأمريكيين ذكوراً وإناثاً. وهذا المنهج نفسه ما زال يمارسه الجيش الصهيوني بحق الفلسطينيين؛ وفق ما نقلته جريدة القدس بتاريخ ٢٠٠٣/١/٥م ثم الدستور الأردنية بتاريخ ٢٠٠٤/١/٨م. ومما جاء فيها أن الصهاينة كانوا يطلقون الكلاب على جثث شهداء نابلس الذين بلغوا (١٨) شهيداً بعد أن دمرت آلتهم الحربية الهمجية البيوت وعاثت فيها فساداً خلال تسعة عشر يوماً من الحصار والدمار.

ثم عاد التلفزيون الأسترالي (إس بي إس) بتاريخ ٢٠٠٦/٢/١٤م فعرض صوراً جديدة لما يفعله المحتل الأمريكي والبريطاني بالسجناء العراقيين من تعذيب جسدي ونفسي من سجن (أبو غريب) وغيره ثم تناقلتها وسائل الإعلام العالمية يوم ٢/١٥ /٢٠٠٦م ومابعده، مما أثار الإدارة الأمريكية على التلفزيون والصحف التي نشرت ذلك وقرعت الحكومة الأسترالية التي سارعت إلى تخفيف غضب الإدارة الأمريكية.

فأية ديمقراطية أو حرية تعبر عنها أمريكا؟ هل هي الديمقراطية التي سلف الحديث عنها أو هي التي عبرت عنها وزيرة خارجية أمريكا كونداليزا رايس

---

(1) مجلة الطلائع ــ الصادرة عن قوات الصاعقة ــ العدد ١٤٢٧ ــ تاريخ ٢٠٠٦/٢/٢٢م.

حين قالت: "يجب أن تحصل مبادئ الديمقراطية على دعم القوة لكل أشكاله السياسية والاقتصادية والمعنوية والعسكرية أحياناً"؟(١) ، أو هل هي التي عبرت عنها في قولها:

"الهدف من سياسة حكمنا اليوم هو المساعدة على تكوين دول ديمقراطية ومحكومة بطريقة جيدة، وتكون قادرة على تلبية احتياجات مواطنيها، وتتصرف بشكل مسؤول ضمن النظام العالمي"؟ أو هل هي الديمقراطية التي تعلمها جورج بوش الأب ثم الابن من الوزير الصهيوني ناثان شارانسكي المغالي في نازيته، وكلاهما اعترف بأنهما تتلمذا على أفكار هذا الصهيوني التي بثها في كتابه (دفاع عن الديمقراطية)، وكل منهما وجّه الناس إلى قراءته، وفيه دعا إلى "ضرورة تدخل الدول الحرة من أجل ضمان نشر الديمقراطية التي تحكمها أنظمة مستبدة، وبصفة خاصة في الشرق الأوسط... باستثناء إسرائيل"(٢). أما الأستاذ الآخر لكليهما والذي يعد بمنزلة الأب الروحي لهما فهو الزعيم الديني العنصري المتصهين (بات روبرتسون). وهو يرأس منظمة (التحالف المسيحي) وتضم (١٠) ملايين عضواً ولديه شبكة تلفزيونية تبشيرية (CBN) تبث دعايتها للأصولية المسيحية بأكثر من (١٨٠) لغة بما فيها العربية. وكان بات روبرتسون قد عقد مؤتمراً صحفياً في القدس المحتلة في تشرين الأول (٢٠٠٤م) تحدث فيه عن مخطط الشيطان الذي يعمل عليه مسلمون يسعون من خلاله إلى تقويض (مخطط الرب) م حذّر بوش الابن من أنه إذا أقر بأي حق للفلسطينيين في (القدس) فإن مساندة الإنجيليين لــه ستتوقف(٣).

وأية ديمقراطية وحرية وعدت بهما الشعب العراقي؟!! فبعد أن احتل جيشها أراضيه في (٩ /٤/ ٢٠٠٣م) امتلأت بالإبادة الجماعية للمدنيين والأبرياء إذ بلغ عدد القتلى العراقيين حتى (٢٠٠٦/٤/١م) ما يزيد على (٣٠٠) ألف مواطن، فضلاً عن سرقة التراث بشكل منظم، وتهديم ما لا يمكن حَمْله كما حصل في تفجير المساجد والمزارات وغيرها. ولهذا كله فليس ما يجري في ديار العرب والمسلمين من قبل المحتل الأمريكي إلا استبداداً وقهراً ومزيداً من المقابر الجماعية والإرهاب النفسي يمارسه على الحكام والناس على

---

(1) انظر جريدة السفير / تاريخ ١/١٠/ ٢٠٠٥م.
(2) انظر مجلة فتح ــ (العدد ٥٦٢ ــ ص ٣٥ ــ ٣٦) ــ ١/ ٣/ ٢٠٠٦م.
(3) انظر جريدة الشرق ــ قطر ــ مقال (في تفضيل كيري على بوش ــ وبالعكس) الخميس (١٤/ تشرين الأول/ ٢٠٠٤م).

السواء؛ لأن الهجمات المنظمة التي تنال هذا المكان المقدس أو ذاك ليست إلا شكلاً مدروساً في إطار مشروع أمريكي صمم للوصول بالعراق إلى الحرب الأهلية التي تحقق لــه أهدافه في تطبيق ما يسمى (الشرق الأوسط الكبير) . فإذا كانت ممارسة بعض الحكام المستبدين من العرب لم تنتج إلا ثقافة عربية مأزومة ومجتمعاً مشوهاً من الطغاة والعبيد فإنها تظل أقل سوءاً من الممارسة الوحشية للجيش الأمريكي وإدارته، علماً بأننا نرفض الأمرين معاً.

ولما كان مجتمعنا ــ اليوم ــ يصر على مناقشة مفاهيم الحرية والإصلاح كلها، بما فيها مفاهيم التجديد والتطوير بكل أسمائها وأشكالها لأنه أكثر المجتمعات حرصاً على التخلص من كل حاضنة ثقافية مستبدة ومتخلفة كان علينا ــ أيضاً ــ توضيح ما الذي تريده منا أمريكا؟.

إننا نريد – حقاً – عقلنة خطابنا، وخلق المجتمع الثقافي المرتبط عضوياً بالحرية والديمقراطية لإشاعة قيم الخير وإعلاء كرامة الإنسان ومكافحة الظلم والاستبداد من أي مكان أتى، وأياً كان قرب صاحبه منا أو بعده عنا ..... لكننا لا نريد أن نصبح مجرد حامل اجتماعي لفلسفة المفاهيم الغربية، مهما قيل عن مفهوم التطور الدائري لحركة التاريخ الإنساني، ونحن ندرك ــ قبل غيرنا ــ أن السنن التاريخي ينفي وجود حضارة مستقلة بذاتها، أو معزولة عن غيرها ..... لأن اتجاه أي تطور حضاري متصل بدوائر حضارية أخرى تصاعدياً وأفقياً في الزمان والمكان والمعرفة.

ونرى أن أي متتبع للثقافة الأمريكية الجديدة في شأن الديمقراطية يدرك أنها ليست إلا ديمقراطية القلة من أصحاب رأس المال والاحتكار العالمي، لأن الحرية التي تتبناها العولمة الأمريكية وتدعو إليها في صميم ديمقراطيتها تتناقض مع تحرير قوة العمل وحرية الشعوب – كما قال كارل ماركس (١٨١٧– ١٨٨٣م) في يوم ما –. ولهذا كله فإن رأس المال يقوم على تسخير المستضعفين والفقراء ومواردهم البشرية والطبيعية لصالحه.

فالتناقض الأساسي في نظام العولمة الأمريكية تناقض صارخ بين الشكل الاجتماعي للإنتاج الذي تسيطر عليه مؤسسات ضخمة وبين حقيقة الديمقراطية والحرية والتعدد الاقتصادي لدول العالم؛ إذا نسينا أن المجتمع الأمريكي ــ بطبيعته المركبة من أجناس مختلفة ــ يتقاسم حبّ المال والرغبة في السيطرة على أدواته الجالبة لــه، ما جعل وزير الخارجية الفرنسي السابق (كان توكفيل) يقول في كتابه (الديمقراطية في أمريكا): " إني لا أعرف شعباً يحتل فيه حب

المال حيزاً كبيراً من قلوب الناس أكثر من هذا الشعب شعب يشكل تجمعاً من المغامرين والمضاربين"، ولا شيء أدل عليه من احتلال النفط عنده المرتبة الأولى ووضعها فوق الأخلاق(١).

ومن ثمة فرأس المال ينتهي إلى الظلم والاستبداد شاء أربابه أم أبوا، على حين أن الحرية إنما تتجسد بتحرير سوق العمل، والشعوب من رأس المال ... فإذا كانت الشركات الاحتكارية العالمية الكبرى هي التي تقود العولمة الأمريكية فكيف يمكنها أن تحقق الديمقراطية لهذه الشعوب ولسوق العمل فيها ؟!. ومن ثم فإن الأكثرية المالكة للإنتاج بعيدة عن إرادة القرار في حين أن القلة القليلة المسيطرة على الشركات الكبرى هي التي تتخذ القرار. فشأن الديمقراطية الأمريكية شأن غيرها من المزاعم الكاذبة حول العدل والمساواة والسلام. ومن ثم فالديمقراطية مؤسسة على مقاييس " القدرية الواضحة لتفوق العرق الأبيض ... بل إن الديمقراطية في المجتمعات الطبقية يجب أن تكون ديكتاتورية الإمبريالية؛ أي الرأسمال المعولم"(٢).

ثم إن ماهية الديمقراطية التي تتبناها العولمة إنما تحمل في طياتها مفاهيم الاستغلال والسيطرة، وإنشاء الحكومات المحلية التابعة لمصالحها؛ مهما سوقتها للشعوب بألوان جذابة ومغرية؛ إنها ديمقراطية القلة المسيطرة على الاقتصاد والشركات والموارد الكبرى، ولعل هذا ما انتهى إليه المؤلف الأمريكي الدكتور (مايكل بارنتي) في كتابه (ديمقراطية للقلة) ــ وهو من أصل إيطالي ويعيش في (بيركلي) بولاية كاليفورنيا الأمريكية ــ وفيه ألقى الضوء على غياب تام للحديث عن مفهوم الرأسمالية في المجتمع الأمريكي على حين هو كذلك ــ ثم عَرَّف القراء بالمؤسسات المتعددة كالكونغرس والمحكمة العليا، والرئاسة، والأحزاب والانتخابات وغيرها؛ ثم يفند كل قضية تعرض لها.

ويماثله الباحث (إريك فروم) الذي يعد ــ أيضاً ــ من أفضل من ناقش في كتابه (الديمقراطية في المجتمع الحديث) كثيراً مما يتعلق بمفاهيم الديمقراطية وممارستها، ومنها أن "الملكية في الشركات الكبيرة هي اليوم في أيدي مئات

---

(1) أمريكا اللقيطة ــ مجدي إبراهيم محرم ــ كانون الثاني ٢٠٠٤م ــ الانترنت.

(2) انظر جريدة قاسيون ــ دمشق ــ العدد ٢٦٧ ــ ٢/ آذار /٢٠٠٦م وانظر الديمقراطية والإسلام ــ سليم فندلفت ــ أرواد للطباعة ــ طرطوس ــ سورية ــ ط١ ــ ١٩٩٦ ــ ص٦٨ و ٨٤ ــ٨٦.

الآلاف من الأفراد..." ومن ثم لهم الحق في تحديد سياسة المشروع وتعيين الإدارة.(١).

إن مفاهيم الديمقراطية – في إطار التصور الأمريكي ــ ذات اتجاه ثقافي عولمي يتلاعب بعواطف المحتاجين وعقول المستضعفين لإحداث عملية تغيير تلقائية، وهي في حقيقتها عملية تغيير قسرية تستند إلى تزييف المفاهيم وإلى فلسفة القوة الفائضة وإلى صنائعها من الأنظمة التي آلت إلى حالة من التشرذم والتمزق والتخلف، فضلاً عن أنها لم تتخل عن ظلم شعوبها وإفقارها وتجهيلها و .....

ولعل ذلك كله يثبت لنا أن الديمقراطية الأمريكية ما هي إلا ديمقراطية القطب الواحد المهيمن على مقدرات الشعوب وتغيير هويتها ومفاهيمها وتبني مفاهيمه وثقافته؛ إنها ديمقراطية القلة القليلة من النخبة المسيطرة على الشركات الاحتكارية كيفما تأطرت في الحزب الجمهوري أو حزب المحافظين أو غيرهما([٢])

وكذا يقال في كل من حالف أمريكا من دول الغرب ذات الأحزاب اليمينية الإيديولوجية التي انحازت إلى المفاهيم الأمريكية وتفسيراتها للحرية والديمقراطية ولم تعترف بما يملكه الآخر المغاير، بل راحت صحف عديدة لديها تُزري بثقافته وعقيدته مستغلة مبدأ حرية التعبير الذي تقدمه أوربا بكل انتماءاتها الفكرية على حين أن حرية الغرب ذاتها قد أعلت من قيمة الإنسان على حساب أي أمر آخر،ما جعلها ترى أن (الحرية الفردية) أعظم منجزات الفكر الغربي باعتبارها حرية تتجاوز القيم الدينية والأخلاقية. ولا شيء أدل على هذا كله مما عرف في الغرب حول (الثورة الجنسية) المنبثقة عن ثورة الطلبة سنة (١٩٦٨م) والتي أدت إلى إسقاط تدريجي للقيم الدينية والضوابط الأخلاقية، ما أدى إلى الاعتراف القانوني في هذه الدولة أو تلك بالانحلال الجنسي، بكل أنماطه ومنها (الزواج المثلي). ومن ثم فلا عجب ــ بعد الذي تبين لنا ــ أن يُعْلي (نيتشه) بكل صراحة من مفهوم إرادة الإنسان ويعلن (أن الله قد مات)، على اعتبار أن أوربا فَصَلَت بينها وبين العقيدة المسيحية، بل عمدَ بعض الأوربيين إلى السخرية من السيد المسيح، إذ سقط عندهم كل ما لــه علاقة بالمقدسات والحرمات.

---

(1) جريدة الأسبوع الأدبي عدد٩٩٢– ص٥ ــ تاريخ ٤/٢/٢٠٠٦م.

(2) انظر العولمة والأمركة ٢٦٧ ــ ٢٦٩.

ويبدو لي أن الإساءة إلى العرب المسلمين والسخرية بثقافاتهم وعقائدهم، والتعرّض للإسلام ونبيه الكريم بالاستهزاء لم يكن إلا نيلاً من الوجود العربي والإسلامي، وهويته، لا يعادلـــه إلا ما لقيته الديانة المسيحية في الغرب من إهانات لمقدساتها تحت المسمى نفسه: مبدأ حرية التعبير قولاً وفعلاً عن الحرية الفردية. فالذين مارسوا فعل السخرية ــ وفق هذا المبدأ ــ أسقطوا احترام الآخر أينما كان وكيفما كانت عقيدته؛ ولم يتورعوا من الاعتداء الصريح على مقدساته ورموزه الفكرية والدينية، وهذا كله يوحي بأن الصدام لا يكمن بين المسيحية والإسلام وإنما يكمن بين المفاهيم التي اعتنقها متطرفون يمينيون غربيون وبين المعتقدات الدينية والفكرية للشعوب. وهذا لا شك فيه؛ بل نذهب إلى أكثر من هذا لنقول: إن صدام المفاهيم وفق ما جرى في الماضي والحاضر بين الغرب والشرق يؤكد في الوقت نفسه أن الذهن الغربي ملوث بتأثيرات صهيونية كبيرة تخرجه عن مقولة: إن الصدام صدام مفاهيم فقط.

ولا شيء أدل على هذا مما ذكرته قناة الجزيرة في (٢/١/٢٠٠٦م)؛ إذ عرضت سرداً لما نشرته الصحف الغربية من إساءات للدين الإسلامي وأهله منذ عام (٢٠٠٠م)، وهو سرد فصلنا في بنوده وأضفنا إليها، ومنها:

١ ــ تشرين الثاني ٢٠٠٠م ــ نشرت صحيفة (كالاغاري صن) الكندية مقالة زعمت فيها أن الإسلام يحض على قتل اليهود.

٢ ــ تشرين الثاني ٢٠٠٣م ــ صعّدت فرنسا حملتها لمنع الحجاب الإسلامي في المدارس وأماكن العمل وأقّرته قانوناً؛ ولم تأبه للتظاهرات البرلمانية والشعبية التي عارضت ذلك؛ بما فيها احتجاج خمسين نائباً في الكونغرس الأمريكي وقعوا خطاباً بواشنطن بتاريخ (١١/٢/٢٠٠٤م) عبروا فيه عن قلقهم لهذا الإجراء وسلموه للسفير الفرنسي(١).

٣ ــ كانون الثاني ٢٠٠٤م ــ نعت البريطاني (نيك جريفن) عضو الحزب الوطني البريطاني الإسلام بأنه عقيدة فاسدة، ويخلو من أي مساحة للتسوية الضرورية في مجتمع حر ولا يتفق والديمقراطية.

٤ ــ تشرين الثاني ٢٠٠٤م ــ اتّهم المخرج الهولندي (فان غوخ) في فيلم لـــه الإسلام بأنه يضطهد المرأة.

٥ ــ أيار ٢٠٠٥م ــ وصفَ المذيع الأمريكي (مايكل غراهام) من محطة إذاعية في واشنطن الإسلام بأنه منظمة إرهابية، وأنه في حالة حرب مع

---

(1) مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية (كير) في ١١/٢/٢٠٠٤م ــ الانترنت.

الولايات المتحدة، ويجدر بالولايات المتحدة ضَرْب مكة المكرمة بالسلاح النووي.

٦ ــ تموز ٢٠٠٥م ــ سخر الممثل الكوميدي الأمريكي (جاكي ميسون) في برنامج للمذيع (جيم بوهانون) من الإسلام، ووصفه بمنظمة تشجع على القتل والكراهية والإرهاب.

٧ ــ أيلول ٣٠/٩/ ٢٠٠٥م ــ نشرت الصحيفة الدانمركية (جيولاندز بوستن) رسوماً كاريكاتيرية تسخر من الرسول الكريم، وهي الرسوم التي أثارت غضبة الشعوب العربية والإسلامية، وحكوماتها، فأدت ــ مثلاً ــ إلى ما انتهت إليه من حرق للسفارة الدنمركية ثم النرويجية في دمشق، وهذا الاحتجاج أنسى الناطق الرئاسي الأمريكي (سكوت ماكليلان) الجريمة الشنعاء التي ارتكبتها الصحيفة الدنمركية؛ ما جعله يقول: " نقف تضامناً مع الدنمرك والحلفاء الأوربيين في معارضة التصرفات العنيفة في سورية اليوم" على اعتبار أن هذه التظاهرات ــ كما زعم رئيسه ــ لا تحدث إلا بموافقة الحكومة(١).

٨ ــ تشرين الثاني ٢٠٠٥م ــ وقع هجوم على مسجد في فيينا، ودنست المصاحف فيه.

٩ ــ كانون الأول ٢٠٠٥م ــ وصف المذيع الأمريكي (بول هارفي) من محطة شيكاغو الإذاعية الإسلام بأنه يشجع على القتل.

١٠ ــ كانون الثاني ٢٠٠٦م صحيفة نرويجية تعيد نشر الرسوم الكاريكاتيرية التي تسخر من الرسول الكريم، وتظهره بمظهر غير لائق بدعوى حرية التعبير.

١١ ــ كانون الثاني ٢٠٠٦م ــ استهزأ المذيع الأمريكي (بيل هاندل) من محطة (تلفزيون نت ورك Television net work) بالمسلمين في حادث (منى) ووصفهم بقطعان الماشية.

ولا ننسى في هذا المقام ما قام به العديد من الإعلاميين الغربيين اليمينيين الذين دعموا الصحف الدنمركية والنرويجية؛ ونشروا الصور الساخرة بالرسول الكريم في نيوزلنده وإسبانيا وإيطاليا وفرنسا ولا سيما صحيفتها (لاسوار). وشاركت الصحف الأمريكية في دعم حرية التعبير الغربية المضللة مثل جريدة (واشنطن تايمز) فضلاً عن استقالة رؤساء تحرير جريدة (نيويورك تايمز)

---

(1) جريدة سيريانيوز ٥/٢/٢٠٠٦م.

احتجاجاً على قرار عدم نشر الرسوم تلك واحتجاجاً على تصريح الناطق الرسمي باسم الخارجية الأمريكية (جاستين هيغينز) الذي أدان فيه الإساءة للمعتقدات الإسلامية؛ ووصف ما جرى بأنه خطأ فادح؛ ثم شدد على حرية الصحافة الملتزمة باحترام الآخر واحترام معتقداته، في إطار ما كفلته شرعة حقوق الإنسان ومنطلقات الفكر الليبرالي الذي تتغنى به أوربا وأمريكا.

ولعل هذا لا ينسينا ــ أيضاً ــ ما قالته ملكة الدنمرك (مارغريت الثانية) التي اعتلت العرش سنة ١٩٧٢م حين أطلقت شرارة الحقد على الإسلام، إذ رأت في تصريح لها أنه من الضروري "أخذ التحدي الذي يشكله الإسلام على محمل الجد على الصعيدين المحلي والعالمي". كما ذكرته الصَّحَفية (انيليس بيستروب) في كتابها الذي حمل اسم (مارغريت).

ويضاف إليه ما قام به الكاتب (سلمان رشدي) الهندي الأصل الذي لجأ إلى الغرب وأصدر في دار نشر مملوكة لليهود في منتصف عام (١٩٨٩) قصة خيالية بعنوان (آيات شيطانية) انتقد فيها المسلمين وشوه فيها عدداً من النصوص القرآنية للوصول إلى غايته، لهذا عَدَّها الإمام الخميني ــ رحمه الله ــ إلحاداً وتكفيراً فأصدر فتواه حينها بجواز إعدامه(١).

ومن يُمعن في ذلك كله يتضح لــه ما رأيناه من أن هناك عداء متأصّلاً للعرب والمسلمين في ذهن المتطرفين الغربيين؛ لا يماثله إلا استهزاء العديد من الغربيين بالسيد المسيح تحت مزاعم حرية التعبير؛ وهي الحرية التي جردت المسيحية في الغرب من كل حرمتها وقداستها، وكأني بهذه الحريّة تتجه إلى النيل من العقيدتين الإسلامية والمسيحية على حين لم تتجه يوماً ما إلى أي رمز يهودي!!.

ولكي نناقش القضية برمتها علينا أن نتذكر تلك المؤلفات القديمة والحديثة التي ظهرت في الغرب، وأكثرها يثبت أن الذهن الغربي قد تلوث بالعداء للعرب والمسلمين منذ القديم. ويعترف بهذا العداء بعض المفكرين الغربيين الأحرار مثل المفكر الغربي كارل ياسبرس حين قال: " لقد وضع الغرب أساسه من البداية، منذ زمن اليونان على التضاد والمواجهة بين الغرب والشرق"(٢).

---

(1) انظر مجلة فتح (عدد ٥٦٢ ــ ص ٣٠ ــ ٣١) ــ ٢٠٠٦/٣/١م.
(2) انظر مجلة فتح (عدد ٥٦٢ ص ٣٢) ــ تاريخ ٢٠٠٦/٣/١م.

وفي هذا المقام نذكر ــ على سبيل المثال ــ بعض الباحثين الغربيين المعادين للعرب والمسلمين ومنهم (وليم موير ١٨١٩ ــ ١٩٠٥م) الذي كتب كتابين الأول (حياة ماهومت "محمد" ١٨٥٨ ــ ١٨٦١م) والثاني (الخلافة: سمّوها وانحطاطها وسقوطها ١٨٩١م)، وفيهما رأى أن الرسول الكريم والقرآن المجيد "أكثر أعداء الحضارة والحرية"(١). أما اللورد البريطاني (كرومر) فقد طعن في الدين الإسلامي وزعم في تقرير لــه عام (١٩٠٦م) أنه دين لا يصلح لهذا العصر؛ فرد عليه أحمد شوقي بقصيدة منها هذا البيت: (٢)

من سبَّ دين محمد فمحمد متمكن عند الإله رسولا

ولعل ما يؤكد تلوث الذهن الغربي بالعداء للعرب والمسلمين ما نجده من اعتراف بعض المنصفين من الغربيين أمثال البروفسور (وليم بيكر) ــ وهو أستاذ بكلية الحقوق في لوس أنجلوس ــ فقد أصدر كتابه (نحو تأصيل أيديولوجي للحوار بين الأديان ــ المشترك أكثر مما نعتقد)، وفيه شدّد على العناصر المشتركة بين الأديان في الوقت الذي أظهر الآثار السيئة للصهيونية في تلويث الذهن الغربي. وكان هذا الباحث منصفاً حين ركز على ما يجري في الغرب من حوار تأسس على أوجه الافتراق بين الأديان، وليس على وجوه الاتفاق ما أدى بالغربيين إلى الفوضى وإهانة الآخر. وقد كشف المؤلف عن حرب الدعاية الإعلامية والفكرية الضارية ضد العرب والمسلمين، وما للتأثير الصهيوني من سيطرة على بنية التربية الثقافية الغربية فقال: "لقد تلقينا على مقاعد الدرس في أمريكا أن الإسلام يكرس لكراهية السيد المسيح من خلال إنكار صلب المسيح، وقد كان هذا المعنى من البداهة بحيث لا يفكر أحد بتجاوزه، مع أن التأمل البسيط يكشف لك أن إنكار حادثة الصلب لم يكن أبداً بدافع الكراهية أو التخالف بقدر ما كان بدافع زيادة احترام للسيد المسيح (عليه السلام) والاعتقاد بعصمة الله تعالى ومعونته بحيث لا يمسه سوء"(٣).

وفي ضوء ذلك كله علينا أن نتساءل مرة أخرى: هل القضية تمثل مواجهة بين المقدس وحرية التعبير؛ أو أن هناك ذاكرة ثقافية وعلامات سياسية عالمية،

---

(1) الاستشراق ــ إدوارد سعيد ١٦٨. وراجع ما تقدم في الفصل الأول / القسم الرابع من الفئـــة الأولى ــ إشكالية وعي التراث/ وانظر تحدي الحركة الصهيونية للقوى العربية والإســـلامية ٢٠٠ــ ٢٠٣.

(2) الشوقيات ١/١٧٦.

(3) على باب قرن جديد ــ د. محمد الحبش ــ ص ١٤٠ ــ دار التجديد ــ دمشق ــ د/ت.

وفي رأسها الأطماع الصهيونية للسيطرة على العالم؟. ونرى أن الصهاينة قد نجحوا من خلال الجماعات اليهودية المنتشرة في أوربا وأمريكا في جعل ثقافتهم ثقافة لهما، وقد ازداد تأثيرهم في أواخر القرن العشرين، ثم تجلى هذا التأثير بعد انتصار بوش الابن في ولايته الثانية إذ التفت جماعات أصولية مسيحية أمريكية متصهينة بلغت عشرة ملايين حول البيت الأبيض يقودها بات روبرتسون وجيري فولويل وفرانكلن غراهام، وآخرون؛ وقد آمنت هذه الجموع بمسيح ليس مسيح النصرانية السمح، ولكنه المسيح الذي يدعو إلى حرب مقدّسة على أساس الأرض التوراتية؛ ومن ثم أخذت توزع بياناً يقضي بدعم الكيان الصهيوني ودولته المزعومة(١).وبوش نفسه وقف خطيباً أمام (منظمة الصندوق الوطني الديمقراطي) يوم السادس من تشرين الأول عام (٢٠٠٥م) وتحدث عن ثقافة الضحيّة؛ باعتبارها ثقافة تتوجه إلى لوم الغربيين والأمريكيين لتقاعسهم عن مساندة اليهود، ثم راح يتهم العرب والمسلمين باللاسامية على حين تجاهل أو نسي أن الشعب العربي الفلسطيني كان الضحية الكبرى للممارسات الغربية والصهيونية.

ويعدُّ القسّ (جيري فولويل) من أشهر زعماء اليمين المسيحي في أمريكا؛ وهو من حَرّض بوش الأب على القيام بحرب الخليج، ثم حرّض بوش الابن على القيام بحربه في أفغانستان والعراق، وكان واحداً ممن يرى أن معاداة الله هي معاداة للشعب اليهودي؛ إذ قال: "الشيطان هو عدو الله؛ والله قد اختار الشعب اليهودي وباركه لأنه عائلته المختارة، لذلك أشعر بمسؤولية كبيرة في تثقيف الشعب الأمريكي حول أهمية دعم إسرائيل والشعب اليهودي في كل مكان، وأنا أدرب آلاف الدعاة والوعّاظ الدينيين لحمل المسؤولية نفسها". ثم قال: "إن الأيديولوجية الإسلامية من حيث الأساس سوف تبقي الدول العربية في صدام مع الغرب، ولهذا لا يمكن أن يكون هناك تعايش مسيحي ــ إسلامي، مثل التعايش المسيحي ــ اليهودي".(٢) وذلك يذكّرنا بما قاله القس البروتستانتي (جوزيف برستلي ١٧٣٣ ــ ١٨٠٤م). ذات يوم مخاطباً جماعة من اليهود: " آمل أن يضع إله السماء، إله إبراهيم وإسحق ويعقوب الذي نعبده

---

(1) انظر مجلة فتح (عدد ٥٦٢ ــ ص ٣١) ٢٠٠٦/٣/١م وانظر الأصول المسيحية وجذور الموقف الأمريكي من إسرائيل ــ صبحي حديدي ــ ٢٧/نيسان/٢٠٠٤م ــ (الانترنت). ومقال (في تفضيل كيري على بوش ــ وبالعكس)ــ جريدة الشرق القطرية ــ الخميس ١٤/١٠/٢٠٠٤م. .

(2) الموقف الأدبي ــ العدد ٤١٨ ــ ص ٨١ ــ ٨٢ و ٨٧.

ــ نحن المسيحيين ــ كما تعبدونه أنتم حدّاً لمعاناتكم، وأن يجمعكم ويعيد توطينكم في وطنكم أرض كنعان" (١).

وكذلك قدم رئيس لجنة العلوم التاريخية في الفاتيكان (المونسنيور والتر براندمولر) مذكرة إلى البابا يطلب فيها تبرئة (يهودا الأسخريوطي) من عملية بيع السيد المسيح إلى جنود الرومان بثلاثين من قطع الفضة.

ولذلك كله نرى أن التأثير الصهيوني في الذهن الغربي كان كبيراً إذ سعى إلى زرع الفتنة والخلاف بين الشعوب لتمكين الصهاينة من السيطرة على العالم واستغلال خيراته. وما من أحد يجهل ما جاء في بروتوكولات حكماء صهيون، وفي أقوال حاخامات اليهود التي أدت دورها في إرساء الكراهية بين المسيحية والإسلام؛ وقد ازدادت هذه الكراهية بنشوء الأصولية المسيحية اليهودية في أوربا،(٢)؛ ثم نشطت الجماعات اليهودية في أمريكا وسمَّمت أفكار الناس أساتذة وطلاباً ورجال دين؛ وغرست في نفوسهم كراهية الإسلام والرسول الكريم كما جاء في إجابة بعض منهم:" الإسلام هو لعبة من ألعاب القمار مثل البريدج، المسلمون طائفة غريبة يرتدي أفرادها الأقنعة ويقتلون الزنوج، النبي محمد هو مؤلف قصص ألف ليلة وليلة؛ والمسلم يركع كل يوم عدة مرات مصلياً لجَمله"(٣). هذه الأصولية هي التي بذرت في الثقافة الغربية فكرة عودة مملكة إسرائيل إلى فلسطين، ومن ثم سعت إلى تأييد كل ما يفعله الصهاينة. لهذا فرحت الكنيسة البروتستانتية والإنجيلية الغربية والأمريكية باحتلال فلسطين عام (١٩٤٨م) وبما انتهت إليه حرب (١٩٦٧م) من نتائج، ورأت أن أي عداء لدولة إسرائيل إنما هو عداء لنبوءات التوراة، وما أعداؤها من العرب والمسلمين وأحرار العالم إلا أعداء لله. ولست في صدد الحديث التفصيلي عن الأصولية المسيحية؛ فهناك عدد من الدارسين تناولوا مثل هذا الجانب، وفصّلوا القول فيه؛ ولكني في معرض إثبات ما قامت به من تأهيل الفكر الغربي وتلويثه للوقوف في وجه المشروع القومي العربي، لا سيما حين أصرت الأصولية المسيحية على وصم العرب بأنهم متوحشون يسعون إلى رمي بني إسرائيل في

---

(1) انظر الأصولية المسيحية في التاريخ وأشهر دعاتها ــ مصطفى لطفي ــ ٢٠٠٦/١/٢٦م ــ (الانترنت).

(2) راجع ما تقدم من هذا البحث ــ هوية المصطلح ــ الأصولية ص (١٥٦) وانظر منابع الإرهاب ١٧١ ــ ١٧٣ و ١٧٥ ــ ١٨١ وتصدعات في القلعة الأمريكية (التأثيرات التلمودية) ٥٣ ــ ٦٥.

(3) انظر تحدي الحركة الصهيونية للقوى العربية والإسلامية ــ ص ٨٣.

البحر. ولعل معظم الدعاة من الأصوليين المسيحيين في الغرب ولا سيما من الطائفة البروتستانتية كانوا يدعون إلى عودة اليهود إلى فلسطين. وفي هذا المقام نتذكر قصيدة الفردوس المستعاد للشاعر الإنكليزي (جون ملتون ١٦٠٨- ١٦٧٤م) ومنها:

لعل الله يعرف الوقت المناسب

سيشق لهم البحر وهم عائدون مسرعين جذلين إلى وطنهم

كما شق البحر الأحمر ونهر الأردن عندما عاد آباؤهم للأرض الموعودة

ولم يشترك المسيحيون العرب في هذا التصور عن فكرة العودة في الأصولية المسيحية؛ وعادوها بضراوة، ومنهم المفكر المسيحي اللبناني نجيب عازوري (١).

وبهذا كله وضعت الأصولية الغربية ولا سيما الأمريكية كل ما هو مسيحي أمام كل ما هو إسلامي وعربي... ونؤكد مرة أخرى أن هذا الفهم لم يكن عاماً في الذهن الغربي، فكثير من المتنورين أدركوا الفرق بين الغربيين المتطرفين المعادين للعرب والمسلمين وبين المسيحية؛ في الوقت الذي أدركوا مفهوم السلطة الكنسية الممثلة بالكرادلة؛ ولا سيما حين صارت سلطة استبدادية.

وفي هذا المقام نتذكر أن الحرب التي شنها (مارتن لوثر كنغ ١٤٨٣- ١٥٤٦م) على سلطة الكرادلة ــ وهو أول من ثار عليها في الغرب ــ لم تكن على المسيحية وإنما على المتسلطين عليها ممن تاجر بالدين لحساب منافعه الخاصة. وعلى الرغم من أنه كان زعيم حركة الإصلاح الديني لكنه ظل يؤكد أهمية العهد القديم (التوراة) في الحياة الروحية المسيحية، في الوقت الذي كان يؤمن بنبوءات التوراة، ما جعله يدعو إلى إعادة اليهود إلى أرض الميعاد(٢)..

ومَن يمعن فكره في هذا الموقف يدرك أن ثورة الصحف الغربية ومحطاتها الإذاعية والتلفزيونية على الدين الإسلامي ليست مشابهة لثورة مارتن لوثر كنغ؛ وإنما تتجه إلى النيل من العرب والمسلمين، والإساءة إليهم من خلال رموزهم الدينية؛ باعتبارها السلعة الأكثر رواجاً لتخويف الغرب من الإسلام

---

(1) انظر في كل ما تقدم منابع الإرهاب.

(2) انظر المرجع السابق وحقائق الصراع وأوهام التسوية قراءة في فكر أبو خالد العملة ــ مأمون الحسيني ــ دار كنعان للدراسات ١٩٩٨م. ص ٦٠ ــ ٦٢ والنفوذ الصهيوني في = العالم بين الحقيقة والوهم ــ د. طلال ناجي ــ مركز دراسات الغد العربي ــ ط١ ــ ٢٠٠٤م ص ٢٤٤ ــ ٢٥٠..

والعرب، وهنا يتبادر إلى ذهننا سؤال مهم: هل بوسع صحف الغرب وإعلامه وفضاءاته أن تتجرأ على أي رمز صهيوني؟ كيف يمكن لهذه الصحف أن تنصف الباحث الفرنسي (روبير فوريسون) حين صدر عام (١٩٧٩م) بحقه حكم بالسجن لمدة ثلاثة أشهر وغرامة (٥٠٠٠) فرنك ودفع تعويضات أخرى قدرها (١٠٠٠) فرنك، وأُجبر على نشر الحكم على نقته في الصحف الفرنسية حين اتهمته الجمعيات اليهودية بتزوير التاريخ في كتابه (الأكذوبة التاريخية)؟!.

وأين هي حرية التعبير وكرامة الإنسان حين يقول الفرنسي اليهودي (لامبير): " إن كل الأديان عدا الدين العبراني هي ديانات مخادعة ومعيبة، ومهينة للقيم الإنسانية، ومذلة للرب نفسه"؟!)١) وأين كانت حرية التعبير حين شك المفكر الفرنسي روجيه غارودي بصحة المحرقة المزعومة والمسماة بالهولوكوست في كتابه (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية) فحوكم بموجب قانون (غايسو) الذي صدر عام (١٩٩٠م) ؟!! وهو ينص على معاقبة كل من ينكر تَعُرُّض اليهود للمحارق النازية. وفيه فَنَّد مزاعم أكذوبة المحرقة التي سوّغت أخلاقياً لتأسيس الكيان الصهيوني، واستنزاف الخزينة الأوربية ولا سيما الألمانية. وهنا نشير إلى أن هذا الكيان قد وضع شرطاً أساسياً لتوحيد ألمانيا سنة (١٩٩٠م) وهو الاعتذار عن جرائم النازية بحق اليهود. وكذلك نتساءل: لِمَ سارعت المحاكم الفرنسية إلى محاكمته تحت سمع العالم وبصره، ومن ثم زجته في السجن مع أنها تغمض عينيها عن كل أمر يتعلق بإهانة العرب والمسلمين؟ وها هي ذي المحاكم النمساوية في فيينا تصدر حكماً في تاريخ ٢٠/٢/٢٠٠٦م بالسجن لمدة ثلاث سنوات على المؤرخ البريطاني (ديفيد إيرفنغ) لأنه شكك في صحة الأرقام المذكورة حول محرقة الهولوكوست.

هكذا غدا التعرض للهولوكوست جريمة كبرى في نظر الغربيين على حين يتجاهلون المأساة الكبرى التي سببوها للشعب العربي الفلسطيني الذي لم يتعرض لهم يوماً ولم يكن سبباً في يوم من الأيام لما يعرف عن المحرقة اليهودية؛ ولكن أوربا وأمريكا أرادت منه أن يدفع ثمن جريمة لم يرتكبها، فأيُّ ظلم أعظم من هذا الظلم؟ وأي استلاب أكبر من هذا الاستلاب؟! ولذلك كله نرى أن الصهيونية نجحت منذ عام (١٩٤٥م) بابتزاز دول العالم، وقرنت إنكار المحرقة أو التقليل من أعداد من أحرق فيها بإنكار السامية ومعاداتها حتى

---

(1) منابع الإرهاب ٩٤. وانظر فيه ١٠١ ـ ١١٥.

صارت أكذوبة الهولوكست ذريعة للتدخل في شؤون أوربا والعالم كله، والشواهد على ذلك كثيرة، تحدث عنها كثير من الدارسين والباحثين(١).

ولهذا فالتعرض للسامية يعني الموت نفسه لأنها الأسطورة التي أثرت في الفكر الغربي، وأسست لقيام إسرائيل الكبرى(٢) ولذلك تساءل السيد (محمد حسين فضل الله) في ذكرى عاشوراء يوم الخميس (١٠ محرم/١٤٢٧م) قائلاً: " لماذا لا يقبل الغرب مجرد التشكيك بأرقام المحرقة فيما يتصل باليهود ويعتبر الإساءة إلى الإسلام مقبولة ويضعها في دائرة حرية التعبير؟".

ويرى (فضل الله) أنها الحرب الجديدة على الإسلام بعد حرب الغرب على المسيحية.

وإذ نتناول هذه المسألة فلسنا ممن يتذرع بالمقدس لإلغاء حرية التعبير كما تأسست لمراحل طويلة، لأننا ممن يؤمن بأن هذه الحرية مطلب عربي وإنساني؛ فما قتل كرامة الإنسان ومروءته أكثر من تقييد حرية العقيدة والتملك والاختيار والرأي والنقاش والتعبير. وهي الحرية المؤصلة فطرياً في الإنسان؛ والمؤسسة في العقيدة الإسلامية ذاتها، كما أشرنا إليه، ولكننا ننظر إلى المسألة من خلال الاستبداد بمنطق المبدأ نفسه، وعلى اعتبار ما يمارسه الأوربيون من حرية الرأي والتعبير في بلادهم؛ إذ يجوز لهم ما لا يجوز لبقية الشعوب. ومن ثم فكثير من الغربيين لا يقيمون وزناً لحرية غيرهم ولا يحترمونهم؛ إما لعنصرية شوفونية كامنة في نفوس المتطرفين منهم، وإما لافتقارهم إلى الرؤية الواضحة والشاملة لعقائد الآخر وثقافته وموروثاته وعاداته.... وفي الحالين فإن حرية التعبير تفقد جوهرها الحر والأصيل، دون أن ننكر وجود غربيين متنورين ومعتدلين كما أشرنا إليه في العديد من الآراء التي صدرت هنا وهناك بما فيها الآراء والمواقف الغربية الأخيرة التي سارعت إلى امتصاص غضب الشارع الإسلامي، ومنها ما رأيناه في التصريحات التي صدرت عن الأمين العام للأمم المتحدة كوفي عنان، ووزير خارجية بريطانيا جاك سترو؛ ووزيرة خارجية النمسا باعتبار بلادها رئيسة للاتحاد الأوربي، ورئيس ائتلاف أحزاب الوسط

---

(1) انظر ــ مثلاً النفوذ الصهيوني في العالم ٢٦٣ ــ ٢٦٤ وحقائق الصراع وأوهام التسوية ٣٥-٣٨، وجريدة البعث ــ (الصهاينة والهولوكوست) ــ العدد ١٢٨٢٤ ــ دمشق في ٢٠٠٦/٣/٧م ــ ويعد ما ذكرناه إشارة إلى كثير من الدراسات والكتب التي تحدثت عن معاداة السامية، فهي أكثر من أن تحصى.

(2) مفهوم السامية واللاسامية ــ ندرة اليازجي ــ جريدة الأسبوع الأدبي ــ العدد ٩٩٤ ــ ٢٠٠٦/٢/١٨م. وانظر منابع الإرهاب ٨١-٨٢ و ٣٢٩.

الإيطالي (رومانو برودي). وما تقع زيارة (خافير سولانا) في (١١/٢/٢٠٠٦م) للمنطقة العربية إلا في هذا الاتجاه، على حين نثمن تلبية الشباب الدنمركي لدعوة الشباب العربي؛ إذ جاء وفد شبابي دنمركي إلى دمشق يوم الجمعة (٢٤/٣/٢٠٠٦) وأجرى حواراً موضوعياً مع اتحاد الطلبة العرب والسوريين لتعميق مبادئ التسامح والإخاء الإنساني بين العرب والغرب، كما نثمن استنكار الفاتيكان لما جرى من نشر تلك الرسوم الكاريكاتيرية الساخرة بالرسول الكريم الذي جاء رحمة للناس جميعاً وحمل مبادئ التسامح والأخوة بين البشر كافة، فقد أكد

(المونسنيور مايكل لويس فتزجيرالد) ــ وهو يمثل أعلى سلطة بعد البابا ــ في مقابلة صحفية مع (لاريبوبليكا) يوم الأحد ٣١/١/٢٠٠٦. قائلاً: " ما من شك أنه أعقبت نشر الرسوم ردة فعل عنيفة على جميع المستويات ضد تصرف؛ فيه قلة احترام للإسلام". ويبدو أن هذا الرأي لم يرْض كثيرا من الغربيين ولا سيما العاملين في الصحافة إذ رأى (ستيفن ريشتر) رئيس تحرير صحيفة (غلوباليست) على الانترنت أن هناك من يحاول إملاء ما نكتبه وننشره وتساءل: هل يتدخل الفاتيكان في منشوراتنا؟!. وهنا نتساءل: ألم يسمع أمثال هؤلاء بمنع الحكومة الفرنسية لتلفزيون (المنار) من البث من أراضيها؟ وهو المنع الذي فرضته حكومة بوش الابن عليه وعلى إذاعة (النور)، إذ منعت بثهما في أراضيها بتاريخ ٢٤/٣/٢٠٠٦م، ووضعتهما في قائمة (اللائحة السوداء)، بعد أن اتهمتهما بالإرهاب الفكري.

وفي ضوء ما تقدم نرى أن حرية التعبير أخذ وعطاء، وتبادل للأفكار والرؤى والمعلومات، إنها حوار هادئ وموضوعي بعيد عن الاستهزاء والتعصب والجمود والاستئصال للآخر؛ حوار حضاري لا ينتهي إلى الجلبة والصراخ والضرب والقتل والتخريب.

وبناء على ذلك فإن العرب والمسلمين حين يحتجون على الرسوم الساخرة بقُدْس الأقداس لديهم إنما يحتجون على ما تعرض لـــه دينهم أو عقيدتهم من إساءة باعتباره حاملاً لثقافتهم؛ ومن ثم يحتجون على الإساءة إلى مبدأ حرية التعبير نفسه؛ لأنه سخّر للنيل من العرب والمسلمين قاطبة، فأي واحد منهم لم يهدد حرية ذلك الرسام الذي يحتمي بالقوانين الغربية، وإنما ينتصر لمبدأ حرية التعبير الذي لا يجوز لأحد ــ من خلاله ــ أن يلغي الآخر وينعته بالنعوت البذيئة والقاسية؛ علماً بأن هناك فرقاً كبيراً بين الأذى النفسي والمعنوي الذي

تعرض لـــه العرب والمسلمون في فلسطين وأفغانستان والعراق وفي الرسوم الساخرة وغيرها؛ وبين الأذى الذي لحق اليهود وبعض الأثاث في هذه السفارة أو تلك؛ فأقام الغرب الدنيا ولم تقعد؛ وكأن قول الشاعر الآتي ينطبق على مثل هذه الحالة:

قتل امرئ في غابة جريمة لاتغتفر
وقتل شعبٍ آمنٍ جريمة فيها نظر

وبناء على ما تقدم فكل من وقف إلى جانب الشعب العربي والأفغاني من أحرار العالم ومن العرب والمسلمين، وكل من احتج على تلك الرسوم والآراء إنما يدافع عن الهوية الحضارية الإنسانية التي صانها إعلان حقوق الإنسان العالمي الذي صدر عن الجمعية العمومية لعام (١٩٤٨م)(١). وينص هذا الإعلان على أن "الاعتراف بالكرامة المتأصلة في جميع أعضاء الأسرة البشرية وبحقوقهم المتساوية الثابتة هو أساس الحرية والعدل والسلام في العالم". وتنص الفقرة الثانية من المادة السادسة والعشرين على أنه "يجب أن تهدف التربية إلى إنماء شخصية الإنسان إنماء كاملاً؛ وإلى تعزيز احترام الإنسان والحريات الأساسية وتنمية التفاهم والتسامح والصداقة بين جميع الشعوب والجماعات العنصرية أو الدينية". أما الفقرة الثانية من المادة التاسعة والعشرين فتقول: "يخضع الفرد في ممارسة حقوقه وحرياته لتلك القيود التي يقررها القانون فقط، لضمان الاعتراف بحقوق الغير وحرياته واحترامها..." ثم تبنت لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة بتاريخ (٢٠٠٥/٤/١٢م) قراراً يتضمن محاربة تشويه الأديان ولا سيما الإسلام. ولهذا فإن كل من ينال منها إنما ينال من وجود الإنسان الحر وثقافته، ومن ثم فإن العربي الحر يقف في وجه هيمنة الآخر عليه، لئلا يلغيه أو يستأصله من الدورة الحضارية. ولا نأتي بجديد إذا أوضحنا أن ما يجري في الغرب وما يقدمه من فتات لهذه الدولة أو تلك لتسويق الديمقراطية الغربية إنما يقع في دائرة سيطرته عليها. ولا شيء أدل على هذا من تصريح رئيس لجنة الشؤون الخارجية في برلمان الدانمرك

---

(1) انظر النظام العالمي الجديد: الحاضر والمستقبل ترجمة نافع أيوب لـــبّس ــ اتحـــاد الكتـــاب العرب ــ دمشق ٢٠٠٠م ــ الفصل الخامس عشر: حقوق الإنسان ٤٠١ ــ ٤٢٣ والأعمـــال القومية ٤١٣ ــ ٤١٦.

(ستين غاد) متذرعاً بتصدير الديمقراطية إلى العرب مستعيناً على إشاعتها بينهم بالمساعدات والهبات التي تقدمها بلاده لبعض الدول العربية والإسلامية؛ إذ بلغت نحو مليار كورون سويدي (١٣٤ مليون يورو) عام ٢٠٠٥م. فقال: "من المهم المساعدة في إرساء الديمقراطية في دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بهدف وقف الإرهابيين، ومن المهم جداً ــ أيضاً ــ أن تكون هناك إصلاحات لكي لا نواجه نزاعات ومواجهات كبرى في حوض المتوسط في غضون سنوات"(١).

وإذا كنا نرى أن حرية الرأي والتعبير والنقاش والفن في الصحافة أو الإعلام أو أي منبر آخر تمثل القيمة الإنسانية الكبرى، وهي أساس الديمقراطية الحق، فهل يعني هذا الأساس الاعتداء على حرية الآخر والاستهزاء بثقافته وعقيدته والسخرية من رموزه التي يحترمها؟ ألا يمكن للديمقراطية أن تشيع في الوطن العربي من دون مساعدة الغرب المبطنة بالأهداف البعيدة؛ على اعتبار أن لهذه المساعدات هدفاً أبعد من ذلك كله يتجسد في تبعية الوطن العربي لكل ما هو غربي؟.

وفي هذا الشأن لا ننكر وجود عدد من العرب الذين عميت بصيرتهم عن الحقيقة؛ ولم يكتشفوا أن نماذج المساعدات الغربية ــ اقتصادياً وسياسياً، وتقنياً ــ هي التي سحقت الكرامة الإنسانية تحت مبادئ الليبرالية... فمن يتغنى بهذه المبادئ كما يصورها الغرب الاستعماري متغافلاً عن مراميها الخفيّة فإنما يقع في وهم كبير ومزيف، علماً أن أمتنا أول من يتمسك بمبدأ حرية التعبير النزيه القائم على الانفتاح على الآخر وقيمه وثقافته. فالقيم الإنسانية لحرية التعبير تستند إلى قيم المساواة في المنزلة والكرامة، والاحترام المتبادل وفق مفهوم التعدد، والإنصاف والعدل... وتستند إلى تبني مؤسسات إعلامية وفضائيات تمارس مسؤولية وطنية وقومية في التعبير عن مبادىء الديمقراطية والعدالة تحت سيادة القوانين. فالإعلام المكتوب والمقروء والمسموع يفترض أن يمارس مفاهيم الحرية دون الوقوع بعبادة الذات أو الأفراد، ولا الوقوع في الهوى، والانحراف. فالإعلام الحر الشريف يعمد إلى تحليل منهجي لأي موضوع فكري أو سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي، فيقف عند السلبيات ليكشف مساوئها، ويظهر الإيجابيات ليعزز أثرها في المجتمع. وعلى الإعلام بكل

(1) الإسلام ودول الكونسيسيون ــ سامي حسن الحمش ــ (كلنا شــركاء) ـــ ٥/٢/٢٠٠٦م ــ الانترنت.

أشكاله؛ فضلاً عن الحاسوب والانترنت؛ أن يمارس منهجاً متقدماً وأساليب حضارية في برامجه المتنوعة الحرة والموجهة، وعليه أن يهذب ثقافة الناس وأن يرتقي بنوازعهم في الجدل والتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم... وألا يقع في التعبير الرخيص تحت مزاعم حرية التعبير، فما هدم الأوطان والمروءات إلا انقلاب حرية التعبير إلى الفوضى والانحراف والاستبداد. فالإعلام الحر والمسؤول أمام سيادة القانون يعزز أشكال الممارسة الديمقراطية لخلق روح الانتماء الشريف إلى الوطن والأمة(١)، وهو انتماء بعيد عن التعصب والفئوية والعشائرية والطائفية والمذهبية.

وفي ضوء ذلك كله نذهب إلى أن المساس بعقائد الأمة وثقافتها وثوابتها الوطنية والقومية تحت مبدأ حرية التعبير لا يعني إلا التعرض لهويتها ووجودها بالأذى، والانقضاض على مشروعها القومي. وإذا كان العرب والمسلمون يشعرون بأنهم مستهدفون في مشروعهم النهضوي من قبل المتطرفين في الغرب فعليهم أن يمارسوا ديمقراطيتهم وحرية التعبير بما ربوا عليه من تسامح وإخاء ومساواة وإنصاف، واحترام للآخر؛ لأن التاريخ لا يرحم الحاقدين والانفعاليين والمترددين والمستهترين بالقيم العليا للإنسانية فالقيم الروحية للهوية العربية الثقافية أكدت عمق النزعة الإنسانية بين الناس؛ في ضوء مبادئ العدل والمساواة وتكافؤ الفرص؛ ورفع الحواجز بين الفقراء والأغنياء، واقتلاع جذور النزوع العنصري بين السادة والعامة؛ وأبعدت عنهم روح الاستغلال والاستبعاد، ولا سيما أن العقيدة الإسلامية حرّمت كل أساليب الطمع والجشع والفساد والظلم والقهر و ...

ولذلك فنحن نحتاج إلى تربية روحية تتمسك بمبدأ (حرية السفينة) ومعاييرها الخلاقة التي تبني ولا تهدم، تربية تتجذر فيها المثُل والقيم العليا في الحياة والسلوك؛ تربية روحية تعلي من طبيعة الإنسان الخيرة. وهذا يفرض على أبناء الأمة الإسراع إلى تكوين منابر الثقافة العربية في قلب المدينة الغربية وثقافتها؛ وإطلاق برامج ترجمة مكثفة للتعريف بهذه الثقافة ومرجعياتها الروحية التي تقوم على مبادئ إنسانية تعلي من كرامة الإنسان في الوقت الذي تحرص فيه على حرية المجتمع؛ لئلا تصبح الحرية الفردية تدميراً للحريات العامة. وعليهم ألا ينسوا لحظة واحدة أن المشروع القومي النهضوي إنما

---

(1) انظر العراق الجديد بين الديمقراطية والأمن ـــ كنعان خورشيد عبد الوهاب ـــ مجلة الحكمـــة ـــ العدد ٤٠ ـــ تموز ٢٠٠٥م ص ٥٠- ٥٢- ٥٥- ٥٦.

يتأسس في إطار التكامل مع الآخر، وفي إطار عملية تنمية تتكامل فيها حرية الفرد مع حرية المجتمع من خلال المواطنة المتكافئة. ثم عليهم أن يقوموا بتعرية الفكر اليهودي الصهيوني الذي لوث الثقافة الغربية؛ فالمشاركة في بناء الحضارة الإنسانية تستند إلى القيم الإنسانية وتفعيل الحوار الخَلاق العادل والعاقل.

فالديمقراطية هي أفضل طريق لتوحيد الأمة والحفاظ على حريتها وبناء نهضتها ورقيها في مختلف المجالات، وعلى كل الصُّعد الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية فالحرية لا تمارس إلا بمزيد من الحرية المسؤولة. ما يعني أنها " تحتاج إلى تأسيس في الوعي العربي المعاصر... لأنه ليس هناك من بديل للديمقراطية إلا الاستبداد والدكتاتورية" (١). فالديمقراطية تقوم " بدور الحارس الذي يحول دون تحوّل نظام الحكم إلى حكومة مركزية تمتلك كل السلطة" وهي دون غيرها تتيح للناس ممارسة حرية التعبير وممارسة معتقداتهم وعاداتهم وشؤونهم في الحياة كلها في إطار المعايير الأخلاقية والإنسانية وفي ظل قانون يستند إلى العدل والمساواة؛ ما يجعلنا نحتاج إلى تربية ديمقراطية تحقق لنا النزوع الأخلاقي والإنساني الحر.

إننا نؤمن بأن ممارسة الديمقراطية هي التي تسمح بالتغيير السلمي للسلطة وإدارة المؤسسات المختلفة واقتلاع العنف وفق المصلحة العامة (٢). فالديمقراطية لا تنمو ولا تترعرع إلا بوجود " وعاء حضاري واستعداد عقلي ومناخ ثقافي اجتماعي يسوده احترام العقل والحرية وكرامة الإنسان على صعيد المعايير القيمية، وعلى صعيد النشاط الإنساني متعدد الوجوه" (٣). فكل تقدّم إنساني لا يحدث إلا باستعمال الوسائل الإنسانية التي تدل على أن الإنسان هو الغاية؛ وليس الوسيلة؛ فالغاية الشريفة يجب أن يتوصل إليها الناس بوسيلة شريفة؛ وإلا تشوهت؛ وانحرفت عن غايتها النبيلة، بعكس ما ذهب إليه مكيافيلي في مبدئه الشهير: (الغاية تبرر الوسيلة). فالمشكلة الكبرى التي دنَّست الديمقراطية الأمريكية أينما طبقت تتجلى في دعوتها المزعومة إلى حرية الإنسان واحترامه، على حين تمارس قتل الإنسان وتوقع عليه كل أصناف

---

(1) انظر العراق الجديد بين الديمقراطية والأمن ــ ص ٥٠- ٥٢- ٥٥- ٥٦.

(2) انظر الأعمال القومية ٤٢٩ ــ ٤٤١ و ٤٨٧ ــ ٥٠٧ والعراق الجديد بين الديمقراطية والأمن ــ ص ٥٠- ٥٢- ٥٥- ٥٦.

(3) انظر العراق الجديد بين الديمقراطية والأمن ــ ص ٥٠- ٥٢- ٥٥- ٥٦.

التعذيب الوحشي في سجون العراق، وغوانتانامو؛ إنها حرية تمارس في ضوء المنفعة الأمريكية الخالصة.

٤ ـ العناصر المشتركة للهوية العربية:

تؤكد العناصر المشتركة الجامعة للهوية العربية ومشروعها القومي على صعيد اللغة ــ التراث ــ العادات ــ التربية ــ الأخلاق والقيم ــ الآمال والآلام ــ التاريخ أن انتماء العرب ــ أينما كانوا ــ إلى هوية واحدة حقيقة لا يماري فيها أحد، إنها بدهية تاريخية ثقافية واجتماعية، لا تحتاج إلى إثبات أو برهنة، إنها نموذج العيش المشترك الذي تأصل في حياتنا وحاراتنا؛ إنها وجدان إنساني رفيع، وإن كنا قد رأينا في بعض الأنظمة السياسية تمارس خلاف ذلك في بعض المجالات الفكرية والتربوية والعلمية. فنظام التعليم والتربية وما يجري في كثير من المواقع الفكرية والثقافية أشغلنا بقضايا متخيلة في إيديولوجيا واضعي المناهج. إذ كانت هذه المناهج تؤطر وفق آليات وأهداف تخدم هذا النظام أو ذاك أو أنها تراعي مصلحة الآخر المغاير وكأنها تستشعر التناقض بين ثقافة العروبة وبين العناصر المكونة لها عرباً أم غير عرب. ولهذا علينا عدم الاشتغال بتلك الاختلافات المصطنعة؛ والاشتغال الجدي بمصير الأمة ومشروعها القومي المستند إلى إعادة النظر في مناهجنا ومعارفنا وتاريخنا بشكل يقود إلى التعبير عن شخصيتنا الحضارية. فتحصين المشروع القومي يبدأ من البيت والمدرسة لبناء جيل علمي واع يعمق ثقافة الحوار فيما بينه؛ ثقافة تنطلق من اللحمة الوطنية لكل الأطياف؛ وتستند إلى لغة ثقافية نقدية تنتهي إلى ممارسة سياسة تعتمد على منطلق فكري منظم ومتكامل وتتخلص من التربية القمعية والفئوية والرومانسية و....

ومن ثم إذا كنا نريد للمشروع القومي أن يتطور ويصمد أمام المشاريع المضادة لــه فعلينا أن نعتمد مناهج علمية وتقنية تعتمد المراجعات النقدية المستمرة، وتقوي القيم الخلقية والإنسانية وفق سياسة الحوار الفاعل، وتشجيع المبادرات والإبداع.

فما قتل الثقافة والإبداع إلا الحامل لها، ولا سيما إذا كان متخلفاً لا يستطيع التلاؤم والتكيف وإقامة التوازن بينه وبين الآخرين؛ أو إذا كان حاملاً لنزوع إقليمي انفصالي نتيجة نمو النزوع العرقي العنصري الناتج عن أسباب داخلية

وخارجية، ما يجعله غير قادر على تحقيق العدل والتعاون بينه وبين الآخر في الوقت الذي لا يستطيع أن يحافظ فيه على خصائصه الذاتية. ولعل من أبرز ما ينبغي أن نعنى به من العوامل المشتركة أن نسعى جادين إلى إتقان اللغة العربية باعتبارها وعاء الثقافة والفكر والعلوم والفنون والمشاعر، ما يدفعنا إلى إيلاء وزارة التربية والثقافة و التعليم العالي ولا سيما الأقسام الأدبية واللغوية وأقسام التاريخ والإعلام والشريعة في جامعاتنا اهتماماً عالياً بها، دون أن نهمل بقية المؤسسات الفكرية والعلمية والبحثية الرسمية والخاصة.

فإذا كان المشروع القومي قد أخذ يتراجع أمام أسباب ثقافية وسياسية كثيرة بدأت بالمناهج ومَرَّت باللغة وانتهت إلى تقنيات الإعلام فها هو ذا يُحَاصَر اليوم من قبل ثقافة العولمة الغربية من كل اتجاه، وخاصة حين طفقت تلصق بالعرب تهمة الإرهاب. فالعولمة الغربية انتهت إلى هجمة إمبريالية أمريكية صهيونية شرسة على كل ما هو عربي ثم إسلامي لتشويه حوامل الهوية والقومية.

ونرى أن الغرب قد نجح ــ على نحو ما ــ في جعل كل ما نملك من مشاريع قومية ومفاهيم أخلاقية قابلاً للتفاوض عليه؛ ومازال غسل أدمغتنا مستمراً لتصبح الثوابت الوطنية والقومية والمفاهيم الأخلاقية سلعاً قابلة للاتجار والبيع، بما فيها العقيدة والحرية والمواطنة والانتماء، فضلاً عن استشراء القيم السلبية في سلوكنا وحياتنا كالنفاق والغش والكذب والتهور، والتسرع، والأنانية، والكسل والخمول و... ولكننا نرى أن هذا حالة مؤقتة وليست دائمة. فأي تقدم وطني قومي إنما يولد من رحم التمسك بالقواسم المشتركة للأمة وقيمها الأصيلة، والعناصر الدافعة لها للتخلص من الجهل والفقر والتجزئة والقضاء على كل مخلفات النظام الاستعماري الذي سيطر على مقدرات الأمة وثرواتها ردحاً من الزمن. فالمشروع القومي العربي المتطور يستنهض من ركام الواقع البائس المشتت والعاجز والمتناقض؛ وسيصبح البعد الثقافي الوجه المشرق في ذلك المشروع، وفي طليعته اللغة الماسكة للهوية العربية.

وحين نشدد على العنصر اللغوي فإننا نراه أنه الجانب الأهم في عملية التواصل والتعاون بين أبناء الدول العربية لا يضاهيه إلا العنصر الجامع لـــه والممثل بالتاريخ والثقافة المشتركة لما يشكلانه من جوهر الحياة الثقافية والفكرية والحضارية في وقت باتت فيه اللغة الإنكليزية وثقافتها تسيطران على كثير من جوانب الحياة والفكر والعلوم.

ولهذا فإن أزمة الثقافة العربية ــ اليوم ــ تعدُّ في أكثر وجوهها أزمة ثقافية ولغوية قبل أن تكون أزمة سياسية وعلمية وتقنية تلعب عليها الاثنيات والأعراق، ولاسيما حين طفت على السطح مشكلة المساواة بين العناصر الاجتماعية، وتفاوت درجة المواطنة، واختلال المعادلة القانونية بين الحركات الفكرية والسياسية.

ولعل الجهود الحثيثة التي تقوم بها تلك المؤسسات المشار إليها أو مجامع اللغة العربية أو المؤسسات الثقافية العربية المختلفة واتحادات الكتاب العرب لم تنتقل من مرحلة الوظائف الدفاعية إلى مرحلة الإبداع والابتكار؛ مرحلة التفاعل الحقيقي المستند إلى التقدم الثقافي والعلمي الذي يلبي حاجة المجتمع إلى كل ما هو جديد. فهناك شحن داخلي وخارجي ينال من اللغة المشتركة لغة القرآن لصالح اللغات المحلية والخارجية تحت مزاعم كثيرة؛ وليس لــه هدف إلا النيل من الهوية القومية.

وما يقال في اللغة والتاريخ المشترك يمكن أن يقال في العناصر الأخرى.

وبهذا فنحن في أمة تعتورها مشكلات شتى وثغرات كثيرة على صعيد الممارسة السياسية التي قفزت فوق الواقع الاجتماعي واللغة والتاريخ المشترك، وأصبحت الإشكالية الكبرى للأمة إشكالية سياسية. فالحكومات العربية لم تستطع حَلَّ ما يعترضها وطنياً وقومياً، إذا لم نقل: إنها كانت سبباً فيها، كما حدث في العراق أيام حكم صدام حسين الذي جعل مفهوم الحكم الذاتي أمراً واقعاً، وكأنه لم يستطع حل المسألة الكردية في إطار الثقافة العربية المتسامحة والإنسانية. ونرى أن بعض الحكام والساسة والمثقفين لم يستطيعوا فهم التركيبة السكانية للمجتمع العربي، ولا التنوع الطائفي والإثني، ولم يدركوا كيف يتفاعل المجتمع الأوربي مع العديد من الأعراق المهاجرة إلى أراضيه... ولذلك كان الحكام العرب سبباً في معضلات الهوية العربية على الرغم من وجود العوامل المشتركة الكثيرة لسكانها أياً كان حجم تنوعهم وتمايزهم، ما جعل بعض أبناء الإثنيات والطوائف يتخلون عن واجبهم تجاه الهوية الثقافية العربية؛ إذا لم يمارسوا نحوها فعلاً انفصالياً.

فهناك أحداث ونكبات ألمَّت بالمنطقة في لبنان والسودان والعراق عجز فيها المثقفون القوميون عن مجابهة الانحراف الداخلي للأعراق والطوائف، نتيجة للانحراف السياسي ومن ثم انكسروا أمام الضغوط الخارجية التي وقفت إلى جانب هذا الفريق أو ذاك، وبخاصة أن المثقفين لم يعودوا يتشبهون بالأنبياء، ولم يعد

الساسة يتمثلون بالصالحين. فعدد منهم ــ وهو غير قليل ــ صار يسعى إلى تحقيق منافعه الضيقة على حساب انتمائه القومي؛ وكان حقه أن يسعى في إطار تدريجي إلى التوافق بين حاله وما عليه من خلال التنوع والتعدد وفق توازن واحترام متبادل قائم على الحوار والتفاعل إلى تحقيق التكامل الاجتماعي القومي الشمولي. وهذا يعني أنه علينا الإسراع الجاد والصادق إلى خلق مناخ ثقافي سياسي لإيجاد توافق حقيقي بين أبناء الأمة فيما بينهم أولاً وبينهم وبين أنظمة دولهم وأحزابها وحركاتها السياسية والفكرية على الصعيد النظري والتطبيقي ثانياً.

٥ ـ التخلص من الفكر الإنشائي الخطابي:

إن الدخول الحقيقي في الفكر الفلسفي التطبيقي المعتمد على التجريب وتبني مبادئ الاتفاق لا الاختلاف، ورفض الاستجابة لنزوات الحكام والأنظمة القطرية التي تشوه الانتماء القومي الصحيح يعتمد على التخلص من الفكر الإنشائي الخطابي. فالعقل العربي ما زال ــ على الأغلب ــ عاجزاً عن الوصول إلى مستوى العصر والتسلح بأدواته المعرفية والمنهجية والتقنية، وهو ما يتبين لنا من سيادة الاتجاهات الفردية والرؤى الجزئية في مفاهيمنا ومفاهيم الأحزاب السياسية ومواقفها العملية فضلاً عن أنها ظلت متأطرة في مبادرات ذاتية، ما جعلها تمارس جوهر القضية القومية ممارسة سطحية وسريعة وآنية.

لذلك كله ما زالت الأحزاب السياسية ــ مثلاً ــ تعالج أسباب تخلف الأمة وتأخرها من خلال الوصف الظاهري، ولم تدرس الظاهرة ذاتها باعتبارها بنية اجتماعية متخلفة لقرون عديدة، منذ أن فقد العرب حسّ المبادرة ودورهم الحضاري الريادي.

فبرامج التغيير الحقيقية والفاعلة تعتمد أدوات التحليل الدقيق للموروث والواقع والوافد، وتبتعد عن حالة الحلم والخطابات النارية الطنانة؛ سواء كانت قومية أم إسلامية أم ليبرالية أم أي اتجاه آخر. فإذا كانت الثقافة نتاجاً اجتماعياً مدنياً، فإن المشروع القومي نتاج ثقافي تاريخي اجتماعي سياسي اقتصادي يقوم على ثوابت دقيقة الملامح وخصائص مشتركة تمثل ماهية العروبة وهويتها على اعتبار ما تنهض به البحوث المعرفية والعلمية في مجالاتها المتنوعة المستندة إلى التجربة والاستقراء والاستنباط والتحليل. فنحن من دون شك نملك خطاباً قومياً سياسياً وأدبياً وخلقياً من نوع ما، ولكنه خطاب ــ كما نعتقد ــ لم يخضع للتجربة الوحدوية الشمولية في العصر الحديث؛ إذ اقتصر على التجارب الضيقة المعدودة في النصف الثاني من القرن العشرين. وإذا كان بعض

المشاريع الوحدوية والتحررية على تنوع مرجعياتها السياسية والإيديولوجية قد أخفق فإننا نعتقد بإمكانية تشخيص الأسباب التي أدت إلى إخفاق هذه المشاريع، واستخلاص النتائج المرجوة على صعيد المنهج والممارسة والفكر والهدف للوصول إلى وعي حقيقي لكيفية إعادة بناء مشروعنا القومي. فصياغة هذا المشروع وإنجازه يحتاج إلى آليات كثيرة منهجية ومعرفية وعلمية وتقنية واقتصادية واجتماعية وسياسية وفنية وأدبية. ثم على المشروع القومي الإفادة من الحراك الفكري الاجتماعي السياسي في بلدان كثيرة لخلق جبهة ثقافية مقاومة لنزوع الهيمنة والاستغلال الأمريكي- الصهيوني، بل تشكيل جبهة عربية مقاومة على مختلف الصُّعد، ولا سيما الصعيد الثقافي. فالحس العربي المشترك ما زال يعبر عن نفسه بأشكال متعددة لدى كثير من المؤسسات العربية العلمية والثقافية والسياسية، فضلاً عما يجري في الشارع العربي.

٦ ـ حالة التخيل الثقافي والقومي:

يتجلى المشروع القومي ـــ حتى الآن ـــ من خلال العيش في حالة التخيّل الثقافي والقومي ولا سيما النظري. ولذا فعلينا الانطلاق من شعور الناس وواقعهم، وجعل حس الجماهير الصادق أساس القرار السياسي والفكري لتكوين رأي عام مدروس بعناية، وتبني موقف عملي يسعى إلى التخلّص من حالة التخيل المثالية والطوباوية. وهذا يحتاج منا إلى واتباع منهج علمي دقيق ومؤثر في الحياة والمجتمع للقضاء على الشقاق والنفاق؛ وتكوين جيل مؤمن بثوابته الوطنية والقومية؛ جريء على التصدي للفساد والإفساد مهما كانت منزلة صاحبه، لا يغلّب مصلحته الفردية على المصلحة العامة؛ بل يسعى إلى التوازن بينهما؛ وإقامة الحدود القانونية الضابطة لكل انحراف.

ولعل الفئات المثقفة والمتسلحة بالوعي والعزيمة وصدق الانتماء الوطني والقومي تتحمل مسؤولية النهوض القومي أكثر من غيرها لأن قدر الأمة مرهون بها قبل عامة الناس، سواء كانت تلك الفئات من العلميين الأكاديميين أم من المربين أم من القادة والسياسيين؛ أم من الأدباء والكتاب والفنانيين و.... وهذا ما كان مؤسساً في الخلافة الراشدة حين وقف أبو بكر (τ) في بداية تسلّمه للخلافة فقال: "قد وُلِّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن صدفت فقوِّمُوني..."(١). فالحس الجماعي القومي للجماهير العربية لم يكن في يوم ما كاذباً وكذلك كان إحساسها بالشعور القومي، من دون أن نشكك في قدرة

---

(1) إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء ١٨.

العرب الحضارية على صنع مستقبلهم على مرارة واقعهم. ولعل وعي الفكر العربي المعاصر والحديث لجملة التجارب يُؤكد الحقيقة الحضارية للهوية العربية، على الرغم من استمرار التجزئة، وعدم نجاع الأساليب العربية في مواجهة آلة التدمير والقتل التي تمارسها الصهيونية والإمبريالية العالمية التي تتمثل اليوم بالهجمة الأمريكية الشرسة على العرب، متزية بزيّ العولمة ومحاربة الإرهاب.

وإذا استطاع الوعي العربي دراسة الواقع العربي اليوم بكل تجلياته ووضعه فعليه أن ينتقل إلى تحليله ووضع الآليات المعرفية والمنهجية للتخلص من حالة العجز والتغريب والتبعية والنخبوية.

ولهذا على مثقفي تلك الفئات وقادتها التخلّص من الحالة النخبوية التي وقعوا في أتونها وأتون النجومية، ولا سيما حين انزووا في بروجهم العاجية لا يظهرون إلا كما يظهر نجوم السينما، لهذا خلصوا من كل ما يقولونه إلى الخطاب النظري الذي ابتعد عن الواقع العملي. ومن ثم أصبحوا كاذبين في أقوالهم وأفعالهم؛ وبخاصة حين نأوا بأنفسهم عن التطبيق الفعلي. فبعضهم ــ إذا لم نقل أكثرهم ــ يقول ما لا يفعل، وأكثر تحليلاتهم تقع في مطب الكذب أو النفاق أو الانتهازية أو الانحراف والزيف والغموض. ثم إن تحليل قسم منهم للعديد من الأفكار، والنظريات يحتاج أحياناً إلى فك طلاسمه، لما فيه من غموض وتعقيد؛ أياً كان التيار الذي ينتمي إليه ليبرالياً أم اشتراكياً، أم قومياً أم إسلامياً، و ... وسواء كان من المطبّعين مع الكيان الصهيوني أم كان مقاوماً لكل مشاريع التطبيع والتسوية. فالأمة اليوم أحوج ما تكون إلى وعي جمعي عربي يخلص النخب الثقافية والأدبية والعلمية والفنية من حالة إثبات الذات الفردية إلى حالة إثبات الانتماء القومي الذي يقف في وجه المشاريع الأمريكية الداعمة للمشروع الصهيوني. وكلها تعمل بأسلوب منهجي منظم لتحطيم " الشخصية العربية وشل حركتها وتغيير سماتها الإيجابية، وتحويلها إلى سمات سلبية تسهم في تخلف المجتمع واضطرابه وتناقصه وعدم استقراره، إضافة إلى تشويه الصورة الحقيقية للشخصية العربية وتزوير هويتها الناصعة، وتعمّد الإساءة لها... لكي تكون الشخصية هامشية وتابعة وضعيفة لا تقوى على تغيير المجتمع والمشاركة في عملية نهوضه وتقدمه الاجتماعي والحضاري"([1]). لهذا

([1]) تأثير الغزو الثقافي على سلوك الشباب العربي ــ ٢٢٩.

فهي أحوج ما تكون إلى التخلص من مأزق الانتماءات الإثنية التي ألقت بظلالها الكبرى على مسيرة العمل القومي، ولا سيما أن الغرب الصهيوني قد استغل موضوع الإثنيات والطوائف للانقضاض على فكرة الأمة الواحدة، علماً أن القومية لم تكن يوماً من الأيام عنصرية أو منغلقة(١).

ومن هنا لا بد من إبراز السمات المشتركة التاريخية بين الإثنيات والطوائف التي تعيش على الأرض العربية لخلق حالة تماثل وتقارب بينها مستفيدة من ظاهرة العيش المشترك والممتد لآلاف السنين، لتفويت الفرصة على كل ما يقوم به المشروع الصهيوني والإمبريالية الأمريكية. فالفكر العربي العلمي قادر على أن يخرج حالة الإثنيات والطوائف من مرحلة طفولتها المبكرة كما ظهرت على نحو ما في الدعوات الإقليمية هنا وهناك إلى حالة نوعية تتكامل بالوسط المحيط بها وتعتمد مبدأ المواطنة وفق معايير العدل والمساواة وتكافؤ الفرص. ولا شيء أدل على هذا من أن الحضارة المصرية التي أنتجت بنيات فكرية ثقافية اجتماعية في مرحلة من المراحل لم تتوقف عندها، وكذلك هي الحضارة في بلاد الشام والرافدين، والمغرب العربي. وإنما نمت وتطورت في رحم التحرك الثقافي الاجتماعي لتكون الشخصية الثقافية والإنسانية للأمة العربية وفق العناصر المشتركة التي كونتها، علماً أن هناك أدلة تاريخية ثقافية ودينية تردّ انتماء هذه الحضارات كلها إلى بنية اجتماعية واحدة. ويؤكد هذا كله ظاهرة التوحيد؛ وتماثل العادات والتقاليد، وتطابق منهجية التفكير، واستخدام أرقام واحدة.

وإذا كان هناك بعض الباحثين لا يرتاحون لفكرة التوحيد، أو ما يطلق عليها الفكر الغيبي فإني أنظر إليها من جهة دلالتها على المشترك الثقافي الاجتماعي بين أبناء الحضارات السالفة الذكر؛ باعتبار إرجاعها إلى بنية أصلية واحدة، ما يدعونا إلى استغلالها أحسن استغلال لإعادة بعث الأمة والحفاظ على وحدتها، والعمل على تقدمها. وبهذا يتجاوز المشروع القومي حالة التخيل المضلل لمفهوم العروبة، ولا سيما حين عمل بعض القوميين على استئصال كل ما هو غير عربي، أو دمجه قسراً في الهوية العربية.

---

(1) انظر الأعمال القومية ١٠١ وما بعدها و٢٧٧ ــ ٢٨٣.

٧ ـ التوازن بين الثقافي والسياسي:

لعل من أعظم الخير للمشروع القومي أن يسعى وفق منهج معرفي وموضوعي إلى إعادة التوازن بين ما هو ثقافي وبين ما هو سياسي، ومن ثم تقديم الثقافي على السياسي، وتعميق التواصل الثقافي والفكري والسياسي والاجتماعي بين المثقفين والمؤسسات السلطوية المختلفة. أي إن خَلْق المثقف السياسي يرقى بتقدم المشروع القومي؛ بمعنى أن يصبح المثقف سياسياً مبدعاً للفكر وخلاقاً للمشاعر الجميلة دون استعلاء أو أنانية. وأرى أن الأكثر إفادة منه أن يكون السياسي مثقفاً منتمياً إلى وطنه وأمته لأنه صاحب القرار. وحين يكون قراره ثقافياً فإنه يغدو أكثر فاعلية في عملية الإصلاح والتطوير والارتقاء. فالسياسي المثقف هو الذي لا يسفّه معتقدات مجتمعه وقيمه ومفاهيم انتمائه إلى القومية؛ وإنما يسعى إلى تطويرها، ولا يعمد إلى القطيعة مع تراثه وثقافته ومعتقداته وعاداته، ولا يرى في الماضي إلا الشر والاقتتال والظلم والاستبداد والفقر والعجز. فالماضي فيه من الخير أكثر مما فيه من الشر؛ والمثقف الذكي من يتعظ بكليهما ويفيد منهما. ولهذا فتأسيس الرؤية الحضارية للمشروع القومي لا تعني قبول ثقافة الآخر، كيفما اتفق، على حين يزاول عملية هدم منهجية لمكوناته الثقافية التراثية التي قدمها الأجداد، مهما كانت الأخطاء التي وقعوا فيها..

ومن هنا علينا أن ننهض بالمؤسسات التربوية والعلمية والثقافية والبحثية والمعلوماتية والإعلامية من خلال تبادل الخبرات الجماعية التي ترسم الاستراتيجية القومية، ليس على خلفية المشهد المؤلم، بل على أساس البحث المعرفي المعمّق والمنضبط بمنهج واضح ودقيق يلتزم بالحرية واحترام الآخر في إطار الحوار الحضاري البنّاء الذي يستجيب للثوابت الثقافية العربية المشكّلة للهوية الواحدة. ومن ثم العمل الجاد والدؤوب على إحلال الفكر القومي محلّ الفكر السياسي؛ لأن الفكر السياسي الأحادي الاتجاه أو المتطرف كان السبب الأهم في انكسار المشروع القومي. ومن ثم فكل إخفاق سياسي لأي دعوة قومية يؤدي ــ بالضرورة ــ إلى إخفاق الفكر القومي.

٨ ـ خطوات العمل العربي المشترك:

هناك خطوات كثيرة مهمة على طريق العمل العربي المشترك لتحقيق المشروع القومي ثم بناء الأمن القومي على أساس الهوية الثقافية الواحدة. لذا يتوجب على المسؤولين وأصحاب القرار في كل مجال إدراك الواقع العربي

وتحليله ووضع الحلول العلمية والعملية المدروسة والمنسقة مؤسساتياً لكل قضاياه، في إطار ما تتميز به الثقافة العربية من خصائص تتفاعل مع التراث وتنفتح على الثقافات الجديدة وتتبادل معها الخبرات وفق ظاهرة التأثر والتأثير التي تنتج ثقافة متطورة تؤصل الذات ولا تنصهر بالآخر. وهي خطوات تتأطر بأشكال كثيرة منها:

أ ــ ما نصبو إليه من وحدة اقتصادية عربية أخذ يتجه إلى خطوات ملموسة في السوق العربية المشتركة، وإن كانت بطيئة. فنجاح المشروع القومي يستند إلى الإصلاح الاقتصادي وتنميته وتطويره، والتحرر من التسلط الخارجي أياً كانت أشكاله أساس النهوض المستقبلي، ومهما كانت القدرة الاقتصادية القطرية فإنها تظل ضعيفة في إحداث التنمية المطلوبة. وليس هناك من أحد يجهل أن التنمية الاقتصادية الغربية تسعى اليوم إلى حالات من الاندماج الواسع للشركات الكبرى، وهو الاندماج الذي يحقق الوحدة الاقتصادية بين دول أوربا، ثم الوحدة السياسية. أما الدول الصغيرة أو المجزأة فستظل ضعيفة مستهلكة وغير قادرة على مواجهة الاقتصاديات الكبرى. فالسياسية الاقتصادية الهادفة والمتفاعلة بين قطر وآخر تؤدي إلى زيادة الاستثمار الوطني والقومي، ومن ثم تقضي على البطالة والفقر؛ وتحدث نوعاً من التوافق الاجتماعي الذي يعدُّ ضرورة للمشروع القومي. ولعل الأحداث التي وقعت في النظامين الرأسمالي والشيوعي حتى القرن العشرين تؤكد أن الفكرة القومية لم تضعف، بل أدت إلى نضجها وتطورها اقتصادياً وثقافياً، كما هو عليه الحال في أوربا وجنوب شرق آسيا.

ب ــ تحقيق نوع من التضامن العربي الشعبي فضلاً عن المؤسسات التي تلتقي على صعيد التنظيمات السياسية والفكرية والعلمية والمؤتمرات المتعددة سياسياً وفكرياً وعلمياً وإعلامياً وفنياً.

فمن الواجب على المفكرين والمثقفين والفنانين والأدباء والكتاب والأحرار أينما كانوا إيجاد جبهة موحدة للقوى العربية الشعبية والفكرية، جبهة تعدُّ بكل قوة ووعي لإيجاد استراتيجية لمقاومة المشروع الصهيوني ــ الأمريكي؛ وعليها أن تبدأ بالإعلام والتربية والتعليم. ولسنا نشك لحظة واحدة بأنّ المؤتمر القومي العربي الذي عقد مؤتمراً لــه في دمشق ١١- ١٢ /١١/٢٠٠٥م وقد حضره (٢٧) عضواً من (١٧) بلداً عربياً يقوم بمثل ذلك. وكذلك الشأن في مؤتمر الأحزاب العربية الذي يعقد مؤتمره

الرابع في دمشق بين ٤ ــ ٢٠٠٦/٣/٦م بعد أن أصبح عدد الأحزاب التي انضمت إليه (١١٠) أحزاب تمثل (١٦) بلداً عربياً كما صرح أمينه العام ــ آنذاك ــ عبد العزيز السيد. وكان مؤتمر الأحزاب العربية قد تأسس سنة (١٩٩٦م) وكانت الأحزاب التي دخلت فيه (٦٦) حزباً مثلت (١٢) بلداً عربياً.

ج ــ محاولة إحداث جبهة عربية ثقافية وأدبية واجتماعية و... مشتركة بين المؤسسات الرسمية الفكرية والثقافية والعلمية، فضلاً عن وجود المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم (أليكسو) ومن ثم تكوين جبهات واحدة للأطر الصغرى المتجانسة؛ أو المتماثلة نفسياً وفكرياً وسياسياً وإعلامياً وفنياً ولغوياً وتربوياً، وعلمياً وصناعياً وزراعياً و... فهي ضرورة ملحة أياً كانت النتائج التي تتوصل إليها.

د ــ انعقاد دورات متتالية وجامعة للبرلمانات العربية، ومن ثم السعي إلى تشكيل البرلمان العربي الانتقالي الذي عقد دورته الأولى في مقر الجامعة العربية في القاهرة مساء الأربعاء ٢٠٠٥/١٢/٢٨م)، مقراً بتشكيل لجنة البرلمان العربي الموحد ومقره سورية من (٢٢) عضواً لصياغة النظام الداخلي للبرلمان.

هــ ــ استمرار الجامعة العربية بأداء دورها العربي الجامع، على الرغم من الأزمات التي تتعرض لها في بعض الأزمان والأماكن، وعليها أن تطور آلياتها الثقافية والاقتصادية قبل آلياتها الإدارية وعليها أن تتخلص من مهمتها الحاضنة للتجزئة والأنظمة الحريصة على الدولة القطرية وأن تتنبه مع القادة والمفكرين على التمزيق المدروس والمنهجي الذي يحدث في كل قطر عربي. فهناك زرع للفتنة بين أبنائه وفق الأشكال المهيئة للتمزيق والتفتيت، ففي السودان والعراق ــ مثلاً ــ يركز أعداء المشروع القومي على إثارة الفتنة الطائفية والعرقية؛ وفي سورية ومصر ولبنان يركزون على إثارة الفتنة الطائفية والمذهبية وفي جزيرة العرب يذهبون إلى تأجيج المذهبية؛ ولا سيما أن الأرض باتت ملائمة لكل هذه الفتن الظالمة.

و ــ انعقاد مؤتمرات القمة العربية، التي تزيل كثيراً من الفرقة بين العرب، فعلى الرغم من أن مؤتمرات القمة لم تنتج حتى اليوم إلا الخيبات فإنها آلية عربية جامعة على نحو ما، ولا يجوز إهمالها، أو التخلي عنها.

ولعل ما يدعونا إلى التفاؤل بنجاح المشروع القومي وتحقيقه مهما طال الزمن ما نورده في القسم الثاني عن تصوراتنا لنجاح المشروع القومي.

القسم الثاني ـ تصورات نجاح المشروع القومي:

تعدُّ المشكلة القومية عصية على الحل إذا حوكمت وفق الآفاق النظرية المعاصرة للخطاب العربي السياسي؛ ووفق التحولات الشاملة لثورة المعلومات وشبكة الاتصالات ووفق الأحداث العالمية التي تقع اليوم.

وهي تحولات قد توحي بتعميق الأزمة النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية على الساحة العربية، بيد أن المقاربة الموضوعية العلمية والمنهجية التي نشهدها في غير ما قطر عربي ــ على انفرادها، أحياناً ــ تدفع بالباحثين والدارسين إلى تعزيز المضامين المعرفية والعلمية والإعلامية والاقتصادية والأخلاقية التي تؤكد ثبات المشروع القومي الحامل للهوية العربية؛ واتجاهه إلى منظومات عربية تتصف بالتقدم والكفاءة؛ وهي التي تدعونا إلى تلمس تحقيق المشروع القومي وانتصاره، كما تضعنا على أعتاب مواجهة حقيقية وصعبة مع المشروع الصهيوني الذي أعاق المشروع القومي ومنعه من التحقيق، ولكن سنة التاريخ تؤكد انتصار هذا المشروع لأمور كثيرة منها:

١ ـ إخفاق المشروع الصهيوني:

قد تبدو القومية العربية اليوم تابعة للأساس الإيديولوجي السياسي لكثير من التيارات الفكرية في الوقت الذي تأثرت فيه بعدد من النظريات الغربية؛ ما جعلها عاجزة أمام المشروع الصهيوني. ولهذا سلّمت الحكومات العربية بحق (إسرائيل) في احتلال أراضي (١٩٤٨م)، على الأقل وفق قرار قمة بيروت عام (٢٠٠٢م) القاضي بالاعتراف بإسرائيل وإقامة علاقات طبيعية معها، مقابل الانسحاب من كل الأراضي المحتلة سنة (١٩٦٧م) وقيام دولة فلسطينية مستقلة عاصمتها القدس الشريف علماً أن الكيان الصهيوني قد دفنه منذ صدوره لعدم اعترافه به. وقد وافقت على قبول التعويض لمن لا يريد العودة من لاجئي النكبة؛ كما وافق عدد منها على مشاريع توطينهم في أراضيها. ويؤكد ذلك كله العديد من الأحداث والتسويات المستمرة التي جرت بين بعض العرب والكيان الصهيوني منذ النكبة. ومهما كان وضع الحكومات العربية مزرياً، ومهما كان الفعل السياسي الرسمي سيئاً فإننا ــ ومهما كانت حالة الاستجداء والاستخذاء مرة ــ نرى أن هذا الكيان سيتلاشى من داخله تحت مطرقة ما يتبناه من مبادئ عنصرية مكونة لــه، وما ينفذه على الأرض من أفعال إجرامية ولا أخلاقية وسلوكات عنصرية مقيتة ليس على الصعيد الخارجي فقط، بل على صعيد اليهود أنفسهم. وقد يكون الكيان الصهيوني المدعوم بالاستعمار الأوربي القديم

والنظام العالمي الجديد وعلى رأسه أمريكا قد حقق بعض النجاحات في إقامة علاقات دبلوماسية مع بعض الأنظمة العربية دون شعوبها، وما زال يعمل على توسعتها، ولكنه أخفق في إقامة دولته التوراتية المزعومة، حين انكفأ هذا المشروع إلى داخل فلسطين المحتلة. ثم انكفاء المشروع مرّة ثانية إلى داخل ما يسمى بالأمن الإسرائيلي الذي أصبح الجدار العازل رمزاً لــه، على الرغم من أنه جدار عنصري مزّق الأرض الفلسطينية. فالجدار سيلتهم ــ من دون شك ــ (١٦٤٨٣) دونماً من الأراضي الفلسطينية المحتلة، وسيشكل منطقة أمنية تمتد على طول غور الأردن، والضفة الغربية، وسيقسم الأراضي الفلسطينية إلى ثماني مناطق أو أربعة وستين معزلاً، وسيهدد المعادلة الديمغرافية[1] ، ولكنه يؤكد في الوقت نفسه أن نظرية الأمن الإسرائيلي القديمة قد أخفقت في أهدافها؛ وإن كانت الأطماع الصهيونية متجذرة في نفوس أبنائها؛ ما جعلهم يغيرون أساليبهم لتحقيق ما يسمى اليوم بالشرق الأوسط الكبير.

وأياً ما يكن الأمر فإننا نرى أن نظرية (الوعاء Melting pot) التي يصنع فيها اليهودي الجديد ــ كما أراد بن غوريون ــ قد سقطت؛ لانعدام وجود تجانس حقيقي بين يهود الشرق وأفريقية وبين يهود بقية العالم ولا سيما الغرب، فضلاً عن أن اليهود الأصليين يعدُّون قلة بالقياس إلى اليهود المهاجرين من بقاع الدنيا إلى فلسطين، إذ ينتمون إلى خمسين قومية إن لم تكن أكثر.

ولعل هذا كله لا ينسينا انبثاق نزعة تحررية من الأفكار الصهيونية لعدد من اليهود العرب ولا سيما المثقفين منهم؛ وانبثاق نزعة تحررية لكثير من عرب الداخل والعمل على توثيق صلاتهم بإخوتهم في الضفة الغربية والقطاع، فلم يرضوا أن يكونوا مواطنين من درجة أدنى في مناطق (١٩٤٨م).

وتؤكد الأحداث التي تجري في داخل فلسطين المحتلة أن الكيان الصهيوني سوف يصر على سياسته في تهويد فلسطين المحتلة. وإذا كان لا بد من وجود دولة فلسطينية فهي لا تزيد عما ورد في مشروع رئيس وزراء الكيان السابق مناحيم بيغن الذي اعتمده (الكنيست الإسرائيلي) في (١٩٧٧/١١/٢٨م) بصورة (الحكم الإداري الذاتي) للسكان ليس غير، علماً أن هناك أصواتاً صهيونية

([1]) انظر مجلة فتح ــ العدد (٥٦٥) ــ (٢٠٠٦/٦/١٤م) ــ ص ٢٨ ــ ٣٠.

أخذت تنادي بوجود دولة فلسطينية في الضفة الغربية وطاع غزة، فضلاً عن وجود خيارات أخرى([1]).

وكيفما قلّبنا الأمر فالدولة الفلسطينية المزمع إنشاؤها في الضفة الغربية وقطاع غزة قد أصبحت شبه واقع، وهو واقع لا مندوحة عنه للكيان الصهيوني ومن يؤيده في الغرب بحكم سياسة القبول بالأمر الواقع، كما روج لها الغرب والكيان الصهيوني. ثم إن العالم كله لا يمكن أن يغمض عينيه عن الآلام التي يعاني منها الشعب العربي الفلسطيني الصامد في أرضه جرّاء القتل المنهجي الذي يتعرض لـــه من قبل الصهاينة فضلاً عن اختلاف المفهوم الديني بين الصهاينة من اليهود وبين المتدينين اليهود، ومن ثم بروز ظاهرة الهجرة المعاكسة.

فالجراح التي تنزف كل يوم على بطاح فلسطين ـــ وإن تبلدت كثير من المشاعر كلما رأت مناظرها المرعبة على شاشة التلفاز ـــ إنما تبعث الحياة في الهوية القومية؛ فتتأجج مشاعر أبنائها، وتسعى إلى النهوض محاولة التخلص من العجز الذي أصيبت به، ولو كان بوساطة الدعم لحركات مقاومة الاحتلال الصهيوني. ونرى أن التجربة الصهيونية الحديثة لتكوين دولة إنما هي تجربة فاقدة للحياة على المدى المنظور على الرغم مما تخلقه الصهيونية من العناصر المشكلة للدولة كاللغة والتاريخ اليهودي المشترك، والمطامع الواحدة للجماعات اليهودية في العالم. ولعل الأساطير والخرافات التي أسست لوجود الكيان الصهيوني مثل (أرض الميعاد) و (أرض بلا شعب) ودعمتها أوربا بكل قوتها، للتخلص من الجماعات اليهودية سوف تنهار أمام الوعي المتعاظم للشرفاء في العالم؛ فضلاً عن وضوح الرؤية عند القوميين العرب، وهي تتجلى ببطلان الدعاوى الصهيونية.

وعلى الرغم من سيل الهجرات اليهودية إلى فلسطين المحتلة؛ والممارسات الوحشية التي قام بها الصهاينة في إبادة جماعية لكثير من القرى، وتهجير أبناء قرى أخرى فإن الاستيطان الصهيوني الكولونيالي لم يستطع أن يلغي الوجود العربي الفلسطيني، إذ ثبت أن هناك شعباً في فلسطين؛ شعباً يسكنها منذ آلاف السنين، في الوقت الذي ثبت أن أكثر اليهود الذين احتلوا فلسطين إنما تركوا

([1]) انظر استراتيجية المشروع الصهيوني في المنطقة العربية ـــ (ملحق البعث الفكري ـــ ١١ ـــ ١٣).

بلادهم وجاؤوا ليقتلعوا شعباً من أرضه([1])، وفق المشروع التدميري للصهيونية وأفكارها. ولم تستطع الهجرات الكثيرة والمنظمة، ومهما كانت الإغراءات الصهيونية لليهود أن تغيّر المعطيات الديمغرافية للتنمية السكانية، إذ كانت المرأة الفلسطينية أهم معادلة في هذا المعمل السكاني العظيم. لهذا فدولة الكيان الصهيوني تمارس وجودها ومستقبلها بالإرهاب والقتل الجماعي للشعب الفلسطيني العربي وتحول "الدم إلى وسيلة سياسية عاكسة أسوأ فظاعات الميكيافلية، وتؤجج النار في نظرية هنتنغتون حول صدام الحضارات" كما ذهب إليه المؤرخ اليهودي (طوني جات Tony Judt) الأستاذ في جامعة نيويورك. وقد كتب (جدعون سامت) في صحيفة هآرتس بتاريخ (٢٠٠٤/٣/٢٦م) متحدثاً عن الانهيار القيمي والأخلاقي في داخل الكيان الصهيوني([2]).

وإذا كانت المعادلة الديمغرافية شديدة التعقيد فإن الكيان الصهيوني لم يستطع صَهْر ما يزعمه من مكونات ثقافية وتاريخية ولغوية بالمكونات الحضارية للعالم، لأن هذا الكيان يبنى على نظريات تلمودية تتبنى العنصرية البغيضة باعتبار أبنائه يمثلون شعب الله المختار؛ علماً أن أكذوبة أرض الميعاد المزعومة قد جمّعت الصهاينة من بقاع شتى من العالم. وهو تجميع غير قابل للحياة؛ على اعتبار الصهيونية العرقية المنتمية إلى العنصر الأوربي ستديم سيطرتها على بقية الصهاينة من الأعراق الأخرى؛ ما يؤدي في النهاية إلى تخلخل البناء الاجتماعي والثقافي، فضلا عن زيادة أعداد العرب الفلسطينيين الذين يعيشون داخل الخط الأخضر منذ عام ١٩٤٨م.

وإذا كانت النسبة الأكبر للجماعات اليهودية موجودة في أوربا وأمريكا إذ يشكلون نسبة ٧٥% فإن هذا الجماعات غير متجانسة ثقافياً ونفسياً، فضلاً عن عدم التجانس بينهم وبين بقية يهود العالم. فإذا عرفنا أن كثيراً منهم قد تمسك بموطنه الأصلي في فرنسا أو إيطاليا أو بولندا أو ألمانيا أو... على الرغم من الإغراءات الخادعة للهجرة إلى أرض الميعاد فإنه ينبغي علينا أن ندرك أن أعداد المهاجرين اليهود قد تناقص في المجيء إلى فلسطين بعد افتضاح أكاذيب الوكالة الصهيونية المنظمة للهجرة والممولة لها، علاوة على أسباب أخرى. وعلينا أن ندرك وجود هجرة معاكسة من فلسطين المحتلة إلى دول أوربا

([1]) انظر القدس والاستعمار الكولونيالي ١٠ وما بعدها و٢٩ ــ ٣٠.

([2]) انظر صحيفة تشرين العدد (٩٥٥١) تاريخ ٢٠٠٦/٥/٢م مقال (شيخوخة مشروع الغزو الصهيوني) د. خير الدين عبد الرحمن.

وأمريكا، ولاسيما مع انطلاقة انتفاضة الأقصى في (٢٨/٩/٢٠٠٠م) وما زالت مستمرة حتى الآن مع وجود أسباب أخرى من أبرزها ازدياد البطالة والتشاؤم، وارتفاع الأسعار وضعف الدخل، وتقليص الخدمات الاجتماعية وفقدان الأمن، ما جعل الصهيوني (سلفان شالوم) ــ يوم كان وزيراً للمالية سنة ٢٠٠٣م ــ يرغب في رفع قضية على وزير المالية الذي سبقه (يعقوب نتمان) لأنه أخفى ما تمر به إسرائيل من أزمة اقتصادية واجتماعيةللمهاجرين إليها. فقد ادّعى كثير من المهاجرين السوفييت أنهم يهود يريدون القدوم إلى دولة الكيان، على حين ليسوا يهوداً، وإنما يلجؤون إلى هذه الأكذوبة للمجيء إلى إسرائيل ثم الهجرة إلى بلدان الغرب.

وقد بيّنت الإحصاءات العديدة أن هناك تفكيراً جدياً بالهجرة من دولة الكيان تصل نسبتها بين الشباب من فئة أعمار (١٨ ــ ٢٩ سنة) إلى الربع، وإلى ١٦% من فئة أعمار (٣٠ ــ ٣٩)، فهناك أكثر من (٦٠) ألف إسرائيلي قدموا طلبات للهجرة إلى ألمانيا منذ مطلع عام (٢٠٠٢م)، علماً بأن الذين هاجروا من داخل الكيان منذ تأسيسه حتى الآن عادل نحو (٦٠٠) ألف نسمة.(١).

ولهذا ستزداد الهجرة المعاكسة للصهاينة من فلسطين إلى الخارج، ما يعني لنا أن المشروع الصهيوني الذي قام بدور كبير في إعاقة المشروع القومي العربي الصهيوني قد أخذ ينهزم. وفي ضوء ذلك كله يتوع الكاتب اليهودي (جلعاد عجمون) المقيم في لندن بأن (إسرائيل) سوف تزول في العام (٢٠٥٢م)([٢])

ولعل ما يجري في أوربا ــ اليوم ــ من توسيع وحدتها لتضم دول أوربا الشرقية سيكون في نهاية المطاف في صالح الوحدة العربية؛ ووحدة الثقافة العربية؛ مهما كان موقف بعض دول أوربا معادياً لها تحت وطأة مصالحها، أو تبعيتها للهيمنة الأمريكية. وكذلك سترغم الأحداث الجارية في العالم الرأسمالي أبناء الأمة العربية على تجاوز النظام الاستهلاكي وتبعيته للغرب، لإحداث نهضة عربية فاعلة تؤكد قدرتها على خلْق النموذج العربي المبدع والحر.

---

(1) انظر نشرة وزارة الخارجية دولة فلسطين ــ الدائرة السياسية ــ دراسات في الصحف العربية والعالمية ــ صحيفة الرأي /حزيران ٢٠٠٣م/ وشيحان / تموز ٢٠٠٣م/ والقدس والاستعمار الكولونيالي ص ٢٨ ورهان المليون السابع ــ اليهود والهجرة الصهيونية حتى (٢٠٢٠).

(2) انظر صحيفة تشرين (العدد ٩٥٥١) بتاريخ ٢/٥/٢٠٠٦م.

٢ ـ هزائم المشروع الصهيوني:

لم يعد خافياً على القاصي والداني أن المشروع الصهيوني وضع وجهاً لوجه مقابل المشروع القومي؛ وكانت أوربا ثم أمريكا قد دعمت المشروع الصهيوني لإعاقة تقدم المشروع القومي واستمرار العرب متخلفين عاجزين تابعين. ولكن المشروع الصهيوني أصيب بهزائم عديدة، منها هزيمته في جنوب لبنان حين اندحر الجيش الصهيوني في ٢٠٠٠/٥/٢٥م، وهرب جارّاً أذيال الهزيمة بعد أن تأكد من سقوط أوهامه في الذراع الإسرائيلية الممثلة بالجيش والتي ظن أنها القوة التي لا تقهر. فالمقاومة الوطنية اللبنانية أكدت بانتصارها على جيش الكيان الصهيوني أن المقاومة الشعبية قادرة على إلحاق الهزيمة بأي قوة احتلال؛ وأنها أقصر السبل لتحرير الأرض والإنسان، في الوقت الذي زرعت بذور الشجاعة والثقة في نفوس أبناء الأمة، واستعدادهم للتخلص من كل عوامل القهر والتخلف، كما أوضحت بما لا يقبل الشك أن النظام السياسي العربي يمكنه إنقاذ نفسه إذا عمّق صلته بالمقاومة الوطنية والقومية الشعبية. لهذا راحت الصهيونية العالمية المدعومة بالقرار الأمريكي والأوربي تقود حركة سياسية وثقافية وإعلامية وعسكرية شرسة لتصفية المقاومة في لبنان، وفي فلسطين، وفي كل بلد عربي يعارض سياسة الهيمنة الأمريكية. ومن ثم عملت على وصم المقاومة بالإرهاب وطفقت قوتها تزرع الخوف في العالم بحجة محاربة الإرهاب. وصدرت القرارات الأممية العديدة التي تستجيب لرغبات الإدارة الأمريكية والصهيونية كالقرارات (١٥٥٩) و(١٦٣٦) و(١٦٨٠) وكلها موجهة إلى المقاومة العربية عامة واللبنانية خاصة لتصفيتها. ولكن المقاومة اللبنانية التي جاءت ممثلة لضمير الشعب اللبناني والعربي ولضمير الأحرار في العالم أثبتت قدرتها على مواجهة الغطرسة الصهيونية والأمريكية وبعض دول أوربا، وما زالت تمتلك زمام المبادرة، وتحوز كل عناصر القدرة على الصمود وتحدي قوى الهيمنة والبغي، وهو الصمود الذي يذكرنا بمواقف الشعب العربي في مصر. وكان المشروع الصهيوني قد سقط سقوطاً ذريعاً في عملية التطبيع التي قدمتها لــه اتفاقية كامب ديفيد عام (١٩٧٩م) على طبق من ذهب. فالشعب المصري كان متقدماً على حكومته، ولم يستجب للتطبيع مع الصهاينة على الرغم من فرض سفارة صهيونية على قاهرة المعز.

وبهذا ضرب أمثولة كبرى للشعب العربي الذي يدرك أن الصهاينة ما زرعوا في الأرض العربية إلا ليكونوا رأس حربة للمشاريع الاستعمارية الغربية؛ وآخرها مشروع أمركة العالم. وليست اتفاقية كامب ديفيد، واتفاقية وادي عربة إلا حلقة في المشروع العربي الصهيوني الساعي إلى السيطرة على العرب ومقدراتهم. وما مشروع الشرق الأوسط الكبير عنا ببعيد، وهو المشروع الذي كتبت عنه الكتب المتعددة ورأت فيه أنه جزء لا يتجزأ من مشاريع الهيمنة الأمريكية([1]).

ويمكن أن نسجل للشعب الفلسطيني حيويته الرائعة في ٢٠٠٦/١/٢٥م حين سجَّل ضربة كبرى للمشروع الصهيوني. فعلى الرغم من سياسة القتل والإرهاب والتهجير والإفقار والتجويع التي يمارسها الكيان الصهيوني بحق الشعب الفلسطيني فقد وقف هذا الشعب صامداً في وجه تلك السياسات الإجرامية الوحشية، واختار نهج المقاومة الذي تمثله منظمة (حماس) وفق برنامجها الذي طرحته، فانتصر الشعب العربي، وانتصر نهج المقاومة، وسقط نهج الاستسلام والاتفاقيات المشبوهة.

ويؤكد انتصار (حماس) في الانتخابات الأخيرة أن الشعب العربي الفلسطيني لم يستسلم للغطرسة الصهيونية المتوحشة التي تفننت في تعذيبه وقتله وإبادته وتهجيره وتجويعه. لقد ضرب الأمثولة الكبرى على الصمود ومقاومة الظلم والقهر وسياسات التدمير والقتل، وصَبَر على المحنة والمآسي وعذابات السجون؛ وقدَّم آلاف الشهداء من أبنائه البررة ليبقى مزروعاً كالطود الشامخ في أرضه، يفديها بكل غالٍ ونفيس، ما يعني أنه اختار الوجود والحياة الحرة الكريمة، وتمسك بالانتماء الوطني والقومي الشريف، وطرد من نفسه كل صنوف المهانة والذل والإبعاد والنفي، إنه يتشبّث بتراب وطنه دون يأس أو خوف أو قلق أو تردد، لأنه اختار نهج المقاومة باعتباره نتيجة وحيدة من نتائج طريق الآلام المروعة خلال القرن العشرين.

وفي هذا المقام لا يمكن للمرء أن يتغافل عن الحراك الوطني والسياسي والفكري والاجتماعي في العديد من بلدان العالم، وهو حراك فاعل ومهم، لأنه يعد جزءاً لا يتجزأ من نضال الشعوب للحفاظ على استقلالها وحريتها، فضلاً عن أنه يساند حركات التحرر في الوطن العربي. ولا شيء أدل على هذا كله

([1]) انظر مثلاً كتاب (الشرق الأوسط الكبير) للدكتور غازي حسين.

مما يجري في أمريكا الجنوبية من مواقف نضالية تقف في وجه الهيمنة الأمريكية كمواقف كوبا بقيادة (كاسترو) وفنزويلا بقيادة (شافيز).

٣ ـ سقوط ما يسمى بدعوات الحرية:

أصبح جلياً للعالم كله أن دعوات الحرية وإشاعة الديمقراطية التي تتبناها الإدارة الأمريكية في احتلالها للعراق تحت ذرائع تخليصه من الاستبداد والطغيان وإشاعة الحرية والديمقراطية فيه قد سقطت؛ فضلاً عن سقوط كذبتها التي دارت حول تخليصه من أسلحة الدمار الشامل. ولعل الخطاب الذي ألقاه الكاتب المسرحي البريطاني الكبير (هارولد بينز) يوم الأربعاء (٢٠٠٥/١٢/٧م) في الأكاديمية السويدية في (استوكهولم) بمناسبة منحه جائزة نوبل للآداب عام (٢٠٠٥م) أحد الشواهد على عظمة الأكاذيب التي مارستها الإدارة الأمريكية في حربها على العراق فقال: "إن الولايات المتحدة لم تكتف بالكذب لتبرير حربها على العراق، بل إنها كانت تتبنى كل الديكتاتوريات العسكرية الظالمة في العالم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.. إن جرائم الولايات المتحدة هي جرائم منظمة مبرمجة، ثابتة؛ شريرة، وهي مستمرة دون إدانة؛ والمأساة أن هناك ستار أمن التكتم العالمي يغطي على هذه الجرائم باسم الدفاع عن الديمقراطية". ثم خاطب أحرار العالم قائلاً: "عليكم يا أحرار العالم أن تفضحوا هذه الجرائم في وجه المسؤولين الأمريكيين. لقد مارست إدارة بوش تلاعباً مخجلاً، وأوهمت العالم أنها تستخدم قوتها العسكرية الطاغية من أجل الدفاع عن مبادئ وقيم إنسانية كبيرة، في حين أنها كانت تكرس هيمنتها، وغطرستها، ومصالحها الضيقة... غزو العراق هو قرصنة ونموذج فاضح من إرهاب الدولة المعاصر، تنكر فاجع لكل القيم والقوانين والمشروعات الدولية؛ ومن الواجب أن يطالب كل أحرار العالم بمحاكمة (بوش) و(بلير) أمام محكمة جنائية دولية"([1]).

وقد كشف استطلاع للرأي أجرته صحيفة (لوميان كوليج/ زغبي) في (٢٠٠٦/٢/٢٨م) بين الجنود الأمريكان أن نسبة (٧٦%) ترى أن إقامة النموذج الديمقراطي في العراق لم تكن سياسة صحيحة بل كانت السبب الأساسي

([1]) جريدة البعث ــ العدد (١٢٩١٠) الأحد (٢٠٠٦/٦/٢٥) مقال (الكراهية بضاعة من صنع أمريكا وتصديرها) ــ نعيم محمد قداح.

للحرب. كما يعتقد (٤٨%) من سكان الولايات المتحدة ــ ووفق استطلاع لجريدة (واشنطن بوست) وقناة (إي بي نيوز) في (٣١/١/٢٠٠٦م) بأن الولايات المتحدة وحلفاءها أخفقوا في إقامة حكومة ديمقراطية، ونجحوا في تشكيل العراق تشكيلاً إثنياً وطائفياً، في الوقت الذي تقوم فيه قواتهم بعمل رديء على مختلف الصُعد[1] . فالحراك الملحوظ للاحتلال الأمريكي العسكري والسياسي كان سيئاً للغاية في العراق، وقد ظهر على حقيقته، إذ تجلّى بأنه فعل استئصالي لكل ما هو عربي ولا سيما حين جلب المحتل الأمريكي فيالق الموت التي بلغ عددها من المرتزقة (١٦) ألفاً جندوا لإغراق العراق بالدماء وإبادة الوجود العربي فقد جاء ليسرق النفط، ويزرع القواعد العسكرية وينصّب الأتباع، ويقضي على أمل العرب بالتقدم والتطور، من أجل إقامة مشروع الشرق الأوسط الكبير. وحين استطاع الاحتلال كسر الدولة العراقية ــ أي ــ إنه كسر الدولة القطرية المتركزة في نظام صدام حسين ــ فإنه لم يستطع كسر العروبة ولم ينجح في قتل إرادة المقاومة لدى الشعب العراقي، فما زالت مستمرة حتى اليوم وقد مضى عليها أكثر من ثلاث سنوات ونصف. فالاحتلال الأمريكي ظهر بوجهه القبيح للقضاء على العروبة ومفاهيمها لحساب أعدائها فكانت النتائج كالآتي:

أ ــ تأسيس للطائفية والعرقية دستورياً وسياسياً وواقعياً، وتحقق ذلك كله في تبني الدستور الذي صُوِّت عليه يوم (١٥/١٠/٢٠٠٥م) ثم وزعت المناصب الحكومية تحت إشراف السفير الأمريكي (زلماي خليل زاده) وفق الحصص الطائفية في الحكومات المتتابعة حتى ١٣/٥/٢٠٠٦م. علماً أن الحكومة الأخيرة لم تخرج إلى النور حتى الشهر السادس وقد مضى على لعبة الانتخابات البرلمانية ما يزيد على سبعة أشهر. وكانت أمريكا قد نفخت في تكوين جماعات طائفية جديدة لم تكن موجودة، وعلى الرغم مما جرى فإن الشعب العراقي قد ازداد وعيه لمقاومة مشروع أمركة العراق؛ وتنصيب وكلاء لأمريكا فيه.

ب ــ ازدياد للفقر؛ والجهل؛ على غنى العراق بموارده الطبيعية، ولا سيما البترول الذي كان الكاسب الأول فيه من الحرب العراقية هو المحتل الأمريكي وحلفاؤه، فقد وصل سعر البرميل عام ٢٠٠٥م إلى الستين

([1]) انظر تصدعات القلعة الأمريكية (التحولات المتصارعة في الاستراتيجية الجديدة) ١٥٤ ــ ١٧٥.

دولاراً، وذهب مردوده إلى جيب المحتل لا إلى جيوب أبناء الشعب العراقي أما الكاسب الثاني فهو السجون العراقية التي زادت نفقات إنشائها على (١٠٠) مليون دولار حتى مطلع الشهر الخامس عام ٢٠٠٦م. وقد اكتشف الشعب العراقي والعربي وأحرار العالم ذلك كله وأخذ يتصدى للزيف والكذب الذي تمارسه أمريكا في العراق.

جـ ــ استبداد وظلم أكبر مما كان من قبل، ومن ثم ازدياد للقتل باسم الديمقراطية والحرية إذ بلغ عدد القتلى العراقيين حتى ٢٠٠٦/٤/١م ما يزيد على (٣٠٠) ألف عراقي، عدا الجرحى والمشوهين. فالفلسفة المستمرة لأمريكا في العراق وغيره قائمة على القتل والإبادة الجماعية فلم يعد أحد يجهل ما يقوم به جيش الاحتلال الأمريكي في العراق، بل إن بعض ضباطه وجنوده يعترفون صراحة بالممارسات الوحشية للجيش الأمريكي. وهي ممارساتٍ تتجلى بإبادات جماعية لعائلات بأكملها، وقتلها بدم بارد. ولا شيء أدلّ عليه من قتل جنود المارينز لـــ (٢٤) مدنياً عراقياً في تشرين الثاني لعام (٢٠٠٥م) في حديثه، ومثلها في الإسحاقي، فضلاً عن مذابح الرمادي وبعقوبة والفلوجة و...([1]).

وهي السياسة الوحشية نفسها التي يمارسها جيش الاحتلال الأمريكي في أفغانستان، وجيش الاحتلال الصهيوني في فلسطين. فالإدارة الأمريكية التي أمعنت في غيّها وظلمها، وراحت تطور ترسانة أسلحتها؛ من طائرات وصواريخ وبارجات حربية، وتقنيات عسكرية وفضائية؛ وتنشر جيوشها في البحار والمحيطات، وتزرع قواعدها المتقدمة في أراضٍ عديدة من العالم لم تنجح في التخلص من مأساتها الداخلية، إذ زادت البطالة فيها؛ بمثل ما زاد التضخم والعجز في ميزان المدفوعات الذي وصل إلى (٥٢٠) مليار دولار، وربما يصل في السنوات العشر القادمة إلى (١٨٠٠) مليار دولار، كما أن الدولار قد تراجع أمام العديد من العملات... وحين زادت مأساتها الداخلية فقد زادت كراهية الشعوب لها، وربما امتدت هذه الكراهية بسبب أفعالها السيئة إلى الأمريكيين أنفسهم. وكان بإمكان الإدارة الأمريكية بعد سقوط الاتحاد السوفييتي أن تعمد إلى إسعاد أبنائها، ومساعدة الشعوب في التخلص من أزماتها الاقتصادية والاجتماعية. ولكن هذه الإدارة عدوة لشعبها، وعدوة للبشرية ولا

([1]) انظر تصدعات القلعة الأمريكية (تجارة مقارعة الإرهاب) ١٤٥ ــ ١٥٣.

سيما حين تسخر المواثيق الدولية ومبادئ حقوق الإنسان لخدمة مصالحها، ومن ثم تزرع القتل والرعب في كل مكان من أجلها، إنها تعيش على دماء الشعوب، وكأنها غدت الوريث الشرعي لكل الأنماط الاستعمارية المتوحشة. وزادت على ذلك أنها تقوم بعمليات الإبادة المنهجية تحت مزاعم الحرية والديمقراطية.

إن فلسفة القتل المنظم والجماعي الذي نراه في فلسطين والعراق فلسفة قديمة باقية منذ وجود الاستعمار القديم المتمثل بالاستعمار الروماني للمنطقة العربية، ثم الأوربي في العصور الوسطى التي تمثلت بجيوش الفرنجة الجرارة التي احتلت بلادنا مدة مئتي عام، ثم عاودت الكرة في الاستعمار الأوربي منذ عهد نابليون بونابرت الذي احتل مصر عام (١٧٩٨م) (١). وهو مَنْ أمر بإطلاق النار على كل عربي يمتطي الخيل؛ ثم أعدم (٨٠٠٠) أسير على أسوار عكا. فمنهجية التدمير والإبادة الجماعية متأصلة في نفوس المستعمرين منذ القديم في كل مكان(٢)، وهي كذلك متوطنة في نفوس أعضاء الإدارة الأمريكية اليمنية، الذين لا يتورعون عن الكذب والتضليل وتزييف الحقائق تحت أي مسمىً إنساني. ولهذا فهم لا يعرفون أي معنى للقيم والمبادئ التي تنادي بالعدل والمساواة والتسامح، وإذا عرفوا شيئاً من التسامح فإنما يمثل مفاهيمهم الغربية المستندة إلى تسامح الغربي القوي ذي المكانة الرفيعة المتسلطة على ذوي المكانة المتواضعة. وبناء على ذلك كله كان نهج المقاومة ـــ وبكل أشكاله ـــ طريق الشعوب المستضعفة الفقيرة المتطلعة إلى الحرية والتقدم والازدهار في أمريكا الجنوبية (فنزويلا وكوبا والبرازيل والمكسيك و....) وفي أفريقية (السودان وأوغندا والصومال) وفي آسيا (إيران وكوريا الشمالية والهند و....) هو النهج الأصيل الذي تبناه الشعب العربي في فلسطين والعراق ولبنان لإسقاط مشاريع الهيمنة والإبادة الوحشية، وسرقة خيرات الوطن العربي.

ولعل ذلك كله يجعلنا نقول: حين تحارب أمريكا الإرهاب؛ فإنما تزرع الإرهاب وحين تريد القضاء على الهويات القومية إنما تزرع الفتنة والطائفية والمذهبية والعشائرية، وحين تسيطر على ثروات الشعوب لمصالح بعض شركاتها فإنها تبذر الجوع والفقر في العالم، فضلاً عما في بلادها ما يجعلها في نهاية تسقط بسبب ذلك كله.

---

(1) راجع ما تقدم ص ٩٠ ـــ ٩٢.

(2) انظر الأعمال القومية ١٦٥ ـــ ١٧٠.

٤ ـ التجمع العاطفي ـ القومي:

يتأجج التجمع العاطفي القومي في النفس العربية كلما تعرضت الأمة لأزمات كبرى؛ وهو يتجلى بأشكال شتى من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي في تمازج إنساني رائع بين ما هو وطني وما هو قومي، إذ تصبح الوحدة الوطنية الداخلية جزءاً أصيلاً في صميم الوحدة القومية، كما هو في قضية فلسطين والاحتلال الأمريكي للعراق في (٢٠٠٣/٤/٩م) وغيرهما من القضايا العربية. فالأوهام الكاذبة التي أسست لها الصهيونية وأججت أوراها دوائر الاستعمار الغربية، وأسهمت في إنمائها بعض أنظمة الدول القطرية العربية قد هزمت جميعها؛ وبقيت الفكرة القومية متركزة في نفس كل مواطن عربي؛ ما جعل المشاعر والأفكار لأبناء الأمة العربية تتركز حول قضاياها الوطنية والقومية، لينتصر الجوع على الحصار والطغيان؛ والدم على الدبابة والطيارة والصاروخ؛ والحلم والأمل بوحدة الأمة على التيئيس والتجزئة. وليس بصحيح ما يشاع عن تهديد العروبة للأعراق الداخلية في الدول الوطنية على الرغم من الحرب المسعورة الممزقة للنسيج الاجتماعي الثقافي والديني لأبناء كل دولة؛ لأن العروبة ثقافة متسامحة، وذات معطيات أخلاقية وإنسانية تبعدها عن العنصرية والانغلاق. فالهوية القومية لم ترفض يوماً ما الانتماء الوطني بكل أطيافه وأعراقه، وإنّما أطّرته في شكل مشروع ثقافي اجتماعي يعزز الروح المتآلفة بين أبناء الأمة، وهو ما تسعى إليه دائماً. وهذا لا يمنع وقوع بعض التجارب السياسية الخاطئة هنا وهناك من هذا الحزب أو ذاك، أو من هذه الحكومة أو تلك، وهي تجارب أدت إلى التجاذب العرقي أو الطائفي كما حدث في لبنان والعراق والسودان؛ ولكنها ستظل تجارب محدودة؛ لأن الشعب نفسه سيدرك الخطأ الفادح لكل من تبنى ذلك، علماً أن المثقفين والمخلصين فيها استطاعوا تجاوز الانحراف الذي حدث في غير مكان. فالعروبة قبل أن تكون شعوراً إنسانياً فهي ثقافة أصيلة تتعالق مع الانتماء الوطني وحقوق الإنسان، لا تلغيه ولا تدعو إلى التنازل عنه.

ومن هنا تصبح الهوية العربية الوعاء الأوسع للمواطنة الممثلة في الهوية الوطنية، ليس على أساس إحلال هوية مكان أخرى وإنما على أساس التكامل البعيد عن التعصب والإقليمية. أما من يغذّي العصبية الضيقة للأقطار العربية؛ أو الانتماءات العرقية في داخل كل منها بحجة الأخطاء التي تقع من بعض التيارات السياسية القومية، ولا سيما الحاكمة فإنما يعمد إلى تشويه الحقيقة

التاريخية الأصيلة للعوامل المشكلة للانتماء العربي ثقافة وتطلعاً إلى العيش المشترك. أي إن الأمة العربية تتماهى في طبيعتها وغاياتها بالوطن، ومشاعر أبنائه أياً كانت الأعراق الداخلية فيه. ومن ثم فالمركزية الثقافية العربية تمثلت في فلسطين بادئ ذي بدء، ثم اتخذت بعداً فكرياً سياسياً في مصر بعد مجيء ثورة يوليو (٢٣/ تموز/ ١٩٥٢م) وتبنيها لمفاهيم العروبة والقومية وتعمّقت بنشوء الأحزاب والحركات القومية كحزب البعث ــ مثلاً ــ، ما يجعلها تظهر بشكل مستمر كلما تعرّضت الأمة للخطر الخارجي، وفي كل مرة تظهر فيها تثبت الهوية العربية قدرتها على الصمود وتظهر حيويتها الرائعة في مواجهة الاستبداد والاستعمار. فالشعب العربي عبَّر في مواقف عديدة عن وعيه العالي بقضية وجوده وهويته؛ وأدرك أن تخاذل بعض الأنظمة لا يعمي بصيرته عن الحقيقة. ولهذا فإن هذا الشعب يسهم دائماً في دعم أبناء العروبة المقهورين في كل مكان. ولا شيء أدل على هذا كله مما مارسه هذا الشعب من دعم مادي ومعنوي لثورة الجزائر في ستينيات القرن العشرين؛ أو ما يمارسه من دعم مادي ومعنوي للشعب الفلسطيني؛ وليست حماسته في دعم صموده في أرضه بالتبرعات التي جرت في سورية بين (٢٩/٤/و ١١/٥/٢٠٠٦م) أو في مصر أو غيرها إلا تأكيداً لحيوية الشعب العربي ووعيه لمسؤوليته التاريخية. وقد بلغت التبرعات السورية في هذه المدة المحدودة ما يزيد على ستة عشر مليون دولار.

وتبقى المأساة الكبرى التي ابتليت بها العروبة هي تبعية كثير من الأنظمة العربية للغرب وغيره من الدول العظمى ــ وهي التي تظهر على حقيقتها المرة في المآزق الكبرى للأمة ــ وسقوط كثير من المثقفين في حبال الدعوات الغربية والأمريكية المزيفة والمضللة. ومن أبرزها تلك التي اصطبغت بصبغة الديمقراطية وتبني قيام ما يسمى بالمجتمع المدني الذي يحقق دولة القانون والحرية؛ بيد أن الارتقاء في آليات التوحيد على عدد من الصُّعد السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والثقافية قد تراجع، إذا لم يكن قد أخفق. ولا يقل عنه منزلة في التأثير السلبي غياب الاتفاق على صيغ مشتركة لمشروع المجتمع المدني؛ بل إن الدعوات إليه اليوم قد أصيبت بالبلبلة والتشوه والتمزق والضعف في غير ما مكان، إذا سلمنا بأن العديد من أصحابها ليسوا مرتبطين بدوائر الهيمنة الغربية. وهذا كله تجسّد في جماعات مدنية شتى على الساحة العربية كما هو في بعض أقطاب جماعة (١٤) آذار في لبنان اليوم. فالإدارة الأمريكية وبعض أنصارها في الغرب يولون أهمية بالغة لمؤسسات المجتمع

المدني لتكون عامل تغيير للحكومات والأنظمة العربية التي لا يرغبون فيها، ويكيلون لها كل أصناف التهم للإجهاز عليها. إننا نريد للمجتمع المدني أن يقوم بمهمته الوطنية التقدمية في البناء والتحرر، وخلق الإبداع لا أن يصبح وسيلة لتنفيذ أغراض مشبوهة([1]) وحين نتحدث عن هذه المأساة لا ننسى عدم الاتفاق القومي على حلّ عادل للقضية الفلسطينية. ونرى أن هذه المآسي ـــ على مرارتها ـــ عمّقت التصاق الجماهير بهويتها القومية وأخذت تتربص بتلك الحكومات التي باعت القضية القومية، وتنكرت لعملية الإصلاح والتطوير.

ولهذا كله فليس هناك أحد لم يعد يلحظ أن المشروع القومي مازال ثابتاً على الرغم من التهديد الخطير الذي تواجهه الحركات القومية العربية هنا وهناك لكنها لم تتكسر ـــ حتى الآن ـــ أمام الجراح الكثيرة، ولا بد لليل أن ينجلي.

٥ ـ تراجع مَدِّ العولمة الأمريكية وانحسارها:

ابتليت العولمة ذات الرأس الأمريكي الواحد بانتكاسة كبرى حين أخذت الثقافات الأخرى بالتململ والتحرك لمواجهة العولمة باعتبارها نمطاً جديداً من السيطرة الأمريكية على العالم وثقافاته. فالعولمة في بداية نشأتها كانت عولمة مثالية رجت فيها كثير من دول الشمال الخير لها، وكذلك ظنّت فيها دول الجنوب أن مصالحها ستتحقق على نحو أفضل، من خلال تنمية اقتصادية وثقافية وعلمية واجتماعية وتقنية تستند إلى التقاسم المشترك بينها وبين الدول الغنية كما تخيلته منذ مؤتمر (دافوس) في سويسرا عام (١٩٧١م). ونحن العرب أحوج ما نكون إلى مفاهيم متطورة تعزز ثقافة الحوار والتعاون مع الآخر وتتكامل معه لأن طبيعتنا توافق ذلك.

وحين أخذت الدول القوية، ولا سيما دول الشمال الثماني، تفتش عن مصالحها؛ وبدأت التكتلات الاقتصادية الكبرى تتشكل على نحو ما، أدرك عدد منها أن العولمة صارت تعني الأمركة. وظهر هذا التصور بوضوح في كثير من الكتابات والآراء شرقاً وغرباً، إذ غدا المطلوب من الدول أن تتكيف مع الاتجاه الأمريكي، ولا سيما بعد أحداث (١١/٩/ ٢٠٠١م). فالعالم الذي يشهد التفرد الأمريكي في القرارات الدولية، ويدرك تأثير الإدارة الأمريكية في توجيه المنظمات الدولية ويتفهّم ما ترمي إليه هيمنتها على منابع الثروات العالمية بدأ

([1]) انظر كتاب المجتمع المدني، لمؤلفه توفيق المديني، ففيه كفاية لنا عن كل ذلك.

يستفيق على أكذوبة الحرية والعدالة التي ينشدها بوش وزمرته في البيت الأبيض.

فهناك دول عديدة تضررت من مفاهيم العولمة الأمريكية سياسياً واقتصادياً بل راحت هويتها وثقافتها تعاني خطراً حقيقياً من هيمنة الثقافة الأمريكية، ما جعل هذه الدول تعيد حساباتها مع الإدارة الأمريكية لتعرف مكانها في التأثير الدولي من جهة، وفي نسبة تحقيق مصالحها من جهة أخرى.

وإذا كانت فرنسا وبريطانيا تمثل هذا الاتجاه على نحو ما فإن هناك دولاً أخرى دخلت في سوق المنافسة العالمية اقتصادياً وعسكرياً وعلمياً وتقنياً. وهي تسعى إلى أن تكون لها مكانة على خارطة العالم كالصين والهند، فضلاً عن أن روسيا شرعت تنظم حياتها من جديد بعد انفراط عقد الاتحاد السوفيتي، وتراجع مواقفها في كل مكان من العالم لكي تستعيد مصالحها التي فقدتها.

ولعل هذا كله لا ينسينا عدداً من الدول الأخرى التي أخذت تطور أشكال التعاون فيما بينها سياسياً واقتصادياً واجتماعياً لتحافظ على هويتها وثقافتها خشية الذوبان في العولمة الأمريكية الطاغية والمستعبدة. ولعل دول أمريكا اللاتينية كالبرازيل وفنزويلا، ودول البحر الأبيض المتوسط كإيطاليا وإسبانيا أحسن مثال على هذه اليقظة.

وفي الوقت الذي نشأت فيه عولمة من نوع آخر تتجلى في معارضة الفقراء والبسطاء لمفاهيم العولمة الاقتصادية الجديدة كانت كراهية النظام العالمي الجديد ذي الرأس الأمريكي الواحد تنتشر. ولكن هذه المعارضة لم تبق محصورة بالشعوب والفقراء بل انتقلت إلى التكتلات السياسية والاقتصادية في غير ما كان من العالم في أوربا وأمريكيا وآسيا وأفريقية. وأخذت مصالحها تتناقض مع العولمة الأمريكية، ما يعني تغير قواعد العلاقات التي نشأت عليها العولمة في بادئ الأمر، ما سينتهي بها إلى التراجع ثم الانكسار. وهذا ليس جديداً في عمر الدول والامبراطوريات الاستعمارية قديماً وحديثاً. وقد أثبتت الدراسات الغربية قبل غيرها هذه الحقيقة التاريخية. وأرى أن الدول العربية ــ على عجز حكوماتها ــ قد أدركت حقيقة العولمة الأمريكية بمثل ما أدركت قدرتها الاقتصادية والثقافية ما أدى بها إلى الدخول في تحالفات عربية ودولية لتحقيق مصالحها. وهذا كله يعني أن نهوض الأمة إنما يستند إلى قدراتها الذاتية وامتلاك أسباب القوة سياسياً وعلمياً وثقافياً واقتصادياً وعسكرياً وتقنياً،

واستثمارها في أحسن المناهج التطبيقية للوقوف في وجه العولمة وللحفاظ على هويتها وثقافاتها، وهو ما يساعد الهوية العربية على الثبات والتطور.

٦ ـ العناية المسؤولة بالدراسات التقنية والإعلامية:

بدأت الحكومات العربية والعديد من المؤسسات تولي عنايتها بالدراسات التقنية والإعلامية والاتصالية واستخدام مناهجها على شكل جيد يوفق بين الاتجاه المادي والروحي. وإحداث الرؤى العلمية لتحقيق تنمية تقنية تواكب التحولات الاجتماعية والمعرفية و ... فالتقنية ــ اليوم، وعلى الأغلب ــ هي التي توجه البنى المعرفية والقيم الاجتماعية والإنسانية؛ وفق ما أشرنا إليه في آليات تحقيق المشروع القومي.

ونضيف إلى ذلك كله أن التقنيات والمعلوماتية ووسائل الاتصال والفضائيات أخذت تجتذب أكثر شرائح المجتمع ثقافياً واقتصادياً، وهي تؤمن القدر الكافي من المعلومات، فضلاً عن زيادة المردود الاقتصادي لكل من يتعامل معها.

وهذا كله فرض على العديد من الدول العربية وعلى مؤسسات فيها وضع سياسة مبرمجة لصناعة البرمجيات والفضائيات وإتقان استخدامها في مختلف المجالات العلمية والمعرفية والاقتصادية والأدبية، وإن وقع عدد منها في أشكال المشاريع التجارية الاستهلاكية التي تستنزف موارد الخزينة، وتفقر جيوب الفقراء؛ لأن التجار والمرتزقة هم الذين يتبنون ــ اليوم ــ في الوطن العربي أغلب ما يتعلق بهذا المجال الحيوي والفعّال. لذلك لابد من وضع القوانين الناظمة لــه ليكون عامل تطوير وتقدم في التنمية الاجتماعية والاقتصادية والعلمية. ولهذا لابد من إحداث شركات وطنية وقومية متعاونة لإنتاج البرمجيات التي تخدم تلك التنمية.

٧ ـ التنسيق البحثي المستمر:

لعل من أكثر ما ينبغي الالتزام به بين الدول العربية على مختلف الصُّعُد والمؤسسات الحكومية والمدنية للوصول إلى مناهج متقدمة إنما هو اعتماد البحث العلمي النقدي الجاد والتنسيق المستمر بينها للوصول إلى مشروع نظري متطور وقابل للتطبيق يعيد زمام المبادرة إلى أبناء الأمة. وهذا يتطلب من كل دولة عربية زيادة الوعي بأهمية البحث العلمي وبناء مراكزه المتطورة، وتزويدها بالخبرات والأدوات اللازمة وإيجاد المناخ الملائم للقدرات المتخصصة والكفاءات العلميّة والحفاظ عليها من الهجرة إلى الخارج وتشجيع

الإبداع والمبدعين في المجالات المختلفة المعرفية والعلمية والتقنية والأدبية والنقدية والفنية، ومنح الجوائز الرفيعة للموهوبين والمتميزين والمخترعين. وقد نما في نفس كل مواطن عربي مسؤولاً كان أم مواطناً عادياً رغبة التحرر من حالة التخلف والجهل، ثم ضجر من الركود العلمي وتقليد الآخرين في كل شيء؛ فضلاً عن تململه من الموضة الفكرية الموسمية للمؤتمرات العلمية التي تَنْفَضُّ توصياتها بانفضاض زمانها، ويجف حبرها في داخل الأدراج.

وإذا كان الحديث في هذا المجال ذا شجون خاصة فإننا نرى حساً عالياً يؤمن بتقدم أمتنا ونجاح مشروعها النهضوي، ويرجو أن تتكامل مشاريعها المعرفية والعلمية، وأن تسعى جادة وفق مفهوم الإدارات الجماعية وفريق العمل الجماعي الواحد إلى التنسيق فيما بينها لإحداث نهضة فكرية وعلمية متجانسة وغير متضاربة. وهنا تقع المسؤولية الكبرى على أصحاب القرار من جهة، وعلى المؤسسات العلمية والتربوية والثقافية والإعلامية والفنية و... من جهة أخرى. وقد أدرك عدد من هذه الجهات بأن النجاح ينطلق من تضافر جهودها لإرساء حالة وطنية وقومية متقدمة بعيدة عن التقليد والتكرار والاستلاب؛ وساعية إلى المثاقفة الحرة والمتساوية مع العالم المتقدم، وبعيدة عن التنظير، وعاملة على إنتاج البحوث التطبيقية التي توضع في خدمة المجتمع العربي.

وإذا كنا لا ننكر وجود بعض المراكز البحثية هنا وهناك في الوطن العربي وفي مجالات شتى كمراكز البحوث الهندسية والعلوم الأساسية والفضائية والزراعية، والسياسية، والاستراتيجية والثقافية والإعلامية، والعلمية والقانونية والاجتماعية واللغوية و.. فضلاً عن تعدد الجامعات الخاصة والرسمية... فإن ذلك كله مازال عاجزاً عن تحقيق التكامل الوطني والقومي، إذ لم تتوافر لـــه سياسة التكامل والتفاعل فيما بين الدول، ومازالت الميزانيات الموضوعة في خدمتها غير كافية لإنجاحها. فما يخصص لها حتى اليوم لا يذكر بأي حال من الأحوال إذا ما قيس بالميزانيات التي تخصصها الدول التي قامت بنهضتها مثل سنغافورة. فالبحث العلمي المستمر والمتكامل هو الأداة الأولى للنهضة العربية الحقيقية والشاملة. وفي صميم هذا فإن فلسفة التنمية البحثية هذه ينبغي أن يظل الإنسان هدفها ورأس المال فيها، وعليها دائماً أن تطور خبراته ومعارفه في أي مجال كان. ولعل هذا كله لا ينسينا وجود هيئات وطنية وقومية تختص بالبحث العلمي وتعنى به، على الرغم من ضعف التنسيق فيما بينها، وقلة تبادل المعلومات ولا سيما في الأبحاث الزراعية. ومن ثم يجب

أن تتجاوز ذلك وأن تسترشد بما انتهت إليه تجارب دول العالم المتقدمة في هذا المجال؛ وبخاصة تلك التي أقامت نهضتها على أساس البحث العلمي كاليابان وألمانيا، فنهضت من تحت ركام الحرب العالمية الثانية التي دمرت كلاً منهما.

٨ ـ إعادة بناء المشروع القومي وفق القيم الإيجابية:

إن إعادة بناء المشروع القومي يستلزم من أبنائه التحلي بالقيم الإيجابية المادية والروحية الأصيلة فيه في الوقت الذي تتبنى الدول العربية الانفتاح على تحليل دقيق للتجارب القومية والدولية ودراستها بشكل علمي من قبل مثقفيها وساستها. فقد أدرك جميعهم، من خلال الأحداث العظيمة والمتسارعة في العالم، ومن خلال معاناتهم الشديدة مع الثقافات الوافدة وقيمها، أن مبدأ الانفلات من البرامج العلمية العقلية والمنهجية المدروسة والدقيقة قد أدى إلى مزيد من الفوضى والانحدار، وتبين لهم أن الابتعاد عن القيم الجمالية والأخلاقية قد أضرّ بالمشروع النهضوي الوطني والقومي.

ثم إن الإشكالية المركبة التي وقع فيها العرب قاطبة تتجسد في مسألة الاستلاب والتبعية والتقليد للآخر، فضلاً عن وقوعهم في المباشرة والعفوية، ما جعل العديد منهم يعيد التفكير والتخطيط لمعرفة مكانه في الفضاء المحيط به عربياً ودولياً على مختلف الصُّعُد السياسية والثقافية والاقتصادية والتقنية والعلمية و... إذ لا يمكن الوصول إلى التقدم والازدهار من دون تبني مثل هذه القيم التي غدت مناهج ومعايير لعملية الإصلاح والنهضة.. وبمعنى آخر بدأت الحكومات والأنظمة تعيد برامجها السياسية والثقافية والعلمية، فضلاً عن الأحزاب والحركات السياسية، وفق رؤية متطورة ومناهج علمية إيجابية تلبي طموحات أربابها، في الوقت الذي تخدم فيه المجتمع العربي. فالمصالح الملحة للدول العربية فرضت عليهم تطوير الجامعة العربية، وتبني العديد من المنظمات العربية الرسمية والشعبية، علماً أن الأحزاب والحركات القومية بدأت حراكاً سياسياً وثقافياً متقدماً. ولعل ما يجري في الجامعة العربية ومؤسساتها من إصلاح وتطوير وإقامة السوق العربية المشتركة، أو ما تقوم به الأحزاب من تنسيق بينها كالمؤتمر القومي العربي ومؤتمر الأحزاب العربية، وملتقى الحوار الثوري العربي الديمقراطي يقع في هذا الاتجاه من تبني القيم الإيجابية للنهوض بالمشروع القومي. فهناك اعتراف بوجود أزمة داخلية وخارجية في المشروع القومي العربي النهضوي، وهناك مواقف واعية أخذت تحلل ذلك؛ ابتداء من حقيقة المواطنة في داخل الكيان الوطني ثم القومي، وانتهاء بثقافة

العولمة (الأمركة) التي طرحت على العالم متغيرات كبيرة في كل مجال من مجالات الحياة، إذا أهملنا قضايا أخرى مهمة في حياتنا مثل بروز ظاهرة التكتلات الكبرى الاقتصادية والسياسية، وصعود نجم التجمعات التقنية والفضائية الكبرى في العالم؛ من خلال الشركات التي تبنّت مفهوم اقتصاد السوق. فالمشروع النهضوي القومي لن يتخلص من أزماته الراهنة بالمسحة العاطفية الإيديولوجية أو بالمعارف المغيبة ولا بالوصف الظاهري للأمور وإنما يحتاج إلى تحليل عميق يشخص واقع المجتمع العربي وتياراته الفكرية والسياسية والاجتماعية وتجاربها ثم امتلاك زمام المبادرة إلى المضي في عملية التقدم والبناء والتحرر.

٩ ـ القراءة النقدية الواعية لمفهوم الأصالة والمعاصرة:

إن التحولات الفكرية والاجتماعية والسياسية التي يشهدها العالم اليوم دفعت بالعرب إلى الحضور المكثف على الساحة الدولية في إطار جماعي، وهو ما نشهده في كثير من المحافل الدولية كالأمم المتحدة ومنظمة اليونسكو. ولهذا فإن العرب يسعون إلى التوفيق بين أصالتهم الفكرية الروحية وبين مفاهيم المعاصرة المتعددة ويمارسون ــ على نحو ما ــ تعميق ثقافة الحوار فيما بينهم وبين الآخر، وعلى مختلف الصُّعُد، ويعيد كثير من الدارسين النظر في البنى المعرفية والعلمية والتقنية لتطويرها وتجديدها، في الوقت الذي أخذوا يتعاملون فيه مع التراث تعاملاً علمياً ولا ينظرون إليه نظرة الجامد أو المقدس.

ليس عند العرب من سبيل إلا التخلص من القناعات السطحية الموروثة حول العديد من المفاهيم والعادات والأحكام، وتعميق الأصيل والإنساني فيها. لهذا فالفكر القومي يحاول أن يجري مراجعة ذاتية مستمرة لدراسة التجارب القومية والإفادة منها، في محاولة حثيثة تؤدي إلى تحقيق التوازن بين الأصالة والحداثة، بما فيها محاولة تبني الحضارة التقنية المعاصرة أياً كانت أشكالها. فالمفكرون والمثقفون وكل فرد مستنير لا يخشون المعاصرة أياً كان نمطها بما فيها العولمة ذات الرأس الأمريكي الحاد والساعي إلى الهيمنة على العالم؛ لأنهم نشؤوا على التمدّن الاجتماعي فيما بينهم على اختلاف عقائدهم، واتفقوا على جملة من العادات والتقاليد والأخلاقيات التي لا تتناقض مع الأديان الثلاثة.

فلديهم القوة العظيمة لحل أي مشكلة تواجههم مهما كان النزاع بينهم حاداً؛ ومهما كان الصراع بينهم وبين الآخر دموياً، فمبدأ التسامح والعدالة والسلام والاحترام المتبادل من أبرز سماتهم.

وحين يتخذ العرب شعار التوفيق بين الأصالة والمعاصرة فإنهم يؤسسون مفاهيم التقدم والارتقاء، في إطار الحفاظ على الخصائص الذاتية، دون أن ينصهروا في الآخر المغاير؛ ودون أن يقعوا في حالة الاستلاب والتبعية الاجتماعية والفكرية والنفسية. إنهم يرون من خلال قراءتهم المنطقية لتراثهم نفسه أن أي ثقافة على وجه الأرض لا يمكن أن تعيش معزولة بذاتها؛ لأن انعزالها يعني موتها، ما جعلهم ينفتحون على الثقافات الأخرى قديماً وحديثاً. ومن هنا يأتي اتصالهم بالثقافة الغربية دون أن يجدوا في ذلك غضاضة، فأرسلوا البعثات تلو البعثات إلى الغرب منذ مطلع القرن التاسع عشر للإفادة من خبراته وعلومه. وليس هناك شك عند أحد من العرب مثقفين وقادة، وساسة ومواطنين في أن الإنصات الواعي لصيغة الحوار بين الأصالة والمعاصرة على الصعيدين الداخلي والخارجي قدْ قوَّى مفهوم المشاركة الفاعلة في بناء الأمة وتقدمها وتطورها، على ما يشوب عملية الإصلاح والتطوير من خلل واضطراب في داخل كل قطر من أقطار الوطن العربي.

إن التنمية الشاملة والمستدامة لا تحتمل التأجيل، وهي بمثل ما تحتاج إلى تطوير الأنظمة الداخلية لها، فهي بحاجة إلى تعزيز التنوع الثقافي المعرفي التقني الذي يدفعها قُدماً إلى الأمام. وحين يفكر أصحاب القرار بذلك يدركون أن عناصر التنمية مرتبطة بالأصالة المعززة لكيان أمتهم وهويتها بمثل ما ينفتح على العالم المعاصر الذي تتفجر فيه المعارف والعلوم والتقنيات و.. باختراع جديد كل لحظة.

فالدول الصغيرة، والتكتلات البشرية الضيقة بحاجة إلى مواكبة ما يجري في القرية الكونية والاندماج بها دون أن تفقد أصالتها.

ولا مراء لدينا بأن منهج التوفيق والتكامل بين الأصالة والمعاصرة ليس جديداً في حياة الأمة؛ فهو منهج ثقافي أخلاقي عرفه العرب منذ القديم، وأقرَّ به الباحثون الغربيون قبل غيرهم؛ كما هو عند المؤرخ الفرنسي (غوستاف لوبون) في كتابه (حضارة العرب).

وفي ضوء ما تقدم كله فإننا نؤمن بأن الأدوات المنهجية والمعرفية المتطورة والناضجة قد فرضت نفسها على أبناء الأمة العربية، فأخذوا يقرؤون كل ما يملكونه من فكر وثقافة، وفلسفة وتراث وعلوم وآداب وفنون، وما يمارسونه من عادات وتقاليد.. نقول أخذوا يقرؤون ذلك قراءه نقدي تحليلية واعية تنطلق من الواقع وفهمه واستيعاب مشكلاته وقضاياه، وهي قراءة يغلب

عليها التوفيق بين الأصالة والمعاصرة. فقد آمن العرب جميعاً أن التجديد والتطوير والإصلاح الجذري للأنظمة والحياة ضرورة وجودية تنفتح على رؤية واضحة وواعية للذات والكون. ويدلنا على هذا كله أن المجتمع العربي نجح حتى الآن في حراسة كثير من مبادئه وقيمه، وحافظ على هويته العربية، وازداد تمسكه بها على الرغم من شيوع ظاهرة الطائفية والعشائرية، والإقليمية، والنزعات الانفصالية هنا وهناك. وكذلك نجح في تطوير عدد من المجالات العلمية والتربوية والنقدية والفكرية و.. في المدارس والجامعات ومراكز البحث العلمي والطاقة، ومراكز الدراسات الاستراتيجية والإعلامية وغيرها، على الرغم من استنزاف قدراته بهجرة الكفاءات العلمية، والقوى العاملة المدربة إلى الخارج، فضلاً عن هجرة العقول المبدعة التي لم تحظ بالرعاية الكافية، بعد أن أنفقت الأوطان على ذلك كله الأموال الطائلة.

وبناء على ما تقدم كله فإن المشروع القومي يحتاج إلى التخلص من الوعي العربي المنشق على نفسه؛ سواء أكان هذا في وعيه للتراث أم في وعيه لثورة العلوم والمعلومات والاتصالات والانترنت وكل ما ينتج عنهما من معارف وأفكار لإنتاج ذاته المتطورة وعليه أن يقضي قضاءً مبرماً على جنوح التيارات الفكرية والثقافية والعلمية والأدبية،... نحو الاتجاه السياسي، فَحَلّ مشكلات الأمة من خلاله، دون غيره قد زاد مشكلاتها، وأوقعها في أزمة حقيقية.

هكذا تنتهي رحلة الشوق المعرفية مع المشروع القومي العربي، وقد استقر عند ضفاف الفكر الذي يرى بعين الحقيقة العارفة أنه سيتحقق عاجلاً أم آجلاً.

ولنختم هذه الرحلة بعدد من الآراء والنتائج فيما يأتي:

ـ آراء وآفاق ونتائج:

إن الاختلاف حول الفكرة القومية ــ الهوية العربية أدى إلى تحولها شيئاً فشيئاً إلى فكرة سياسية قبل أن تصبح فكرة اجتماعية ومعرفية، وإن أضحت لدى الجماهير حركة عاطفية عظيمة، ثم تأجج الخلاف حول الفكرة السياسية؛ ما ألحق حَيْفاً كبيراً بالفكرة القومية؛ علماً أن الفكرة القومية في الأصل تستند إلى العناصر الثقافية التراثية دون أن تتصف بالحراك الاجتماعي المنظم والحقيقي. ثم أخذ الحامل الاجتماعي القومي يتكون سياسياً في نطاق الدولة العثمانية بدليل مشروع محمد علي في مصر، وبقية المشاريع في البلدان العربية الأخرى، وأخذ يتجذر في الوسط الفكري السياسي على حساب الاجتماعي إبّان مواجهة الاستعمار الأوربي ــ الصهيوني الذي لا يخفى على أحد. ولعل ذلك كله حول الفكرة القومية إلى فكرة سياسية بأيدي الحركات الفكرية ثم الأحزاب والأنظمة السياسية على اختلاف تياراتها ومبادئها ومذاهبها. ومن ثم غدا النظام السياسي نظاماً خلافياً ما يعني أن المشروع القومي حُمِّل كل مقومات التدهور السياسي الذي قاد إلى انكسار الفكر القومي، ومن ثم لم يتحقق أي نوع من الأمن العربي، على وجود الشعور العاطفي القومي النبيل في نفوس العرب كافة واتفاقات الدفاع المشترك، فضلاً عن وجود الجامعة العربية منذ أربعينيات القرن العشرين.

وبناء على ما أشرنا إليه وجدنا إشكالية كبرى أخذت تنداح في ديار العروبة حول ماهية الهوية الجامعة للشعب في الأمة العربية باعتباره ينتمي إلى ثقافة واحدة وإلى أمة واحدة. ولعل فيما قاله الدكتور طيب تيزيني ما يفيدنا في هذا الاتجاه، ومنه "إذا ما حددنا هوية شعب أو أمّة ما بالفضاء اللغوي والبنية الاثنية العامة والنظم السوسيو ثقافية ــ وهي ذات انتماء تاريخي مفتوح ومتحرك ــ فإن الهوية الثقافية العربية هي تجلٍّ ثقافي خصوصي لتلك القومية العامة. ومن ثم فإن من يعرض لهذه يعرض لتلك ضمن آلية التجادل بين العام والخاص. ومن هنا يصحّ القول بأن التحدي الذي تواجهه الثقافة العربية هو كذلك تحدّ للهوية القومية العربية، وذلك أنها ــ أي الأولى ــ تمثل الوعي

الذاتي للثانية. من هنا وفي ضوء ذلك نلاحظ أن أكبر تحدّ تواجهه الثقافة العربية راهناً يقع منها في العمق، أي في هويتها"(١).

ومن أخطر المفاهيم المرتبطة بالمشروع القومي كله ما كان من أمر مفاهيم التحرر الوطني والقومي التي أصابها عدد من التحولات الفكرية والسياسية عند عدد من المثقفين والمفكرين والكتاب فضلاً عن المفاهيم الأخرى التي تشكل أفكار الأمة، وترتقي بمشاعرها، في الوقت الذي تستطيع من خلالها قراءة تراثها قراءة صحيحة ونموذجية؛ ما أدى بثقافة الآخر إلى التغلب على الثقافة القومية، ولا سيما ثقافة العولمة التي تعمل على تغيير منهجي مدروس للمفاهيم العربية والإسلامية.

ولهذا فقد انهمك أبناء كل قطر على نحو ما فيما يعرف بالتحرر الوطني والمعرفي والعلمي من إسار التخلف والجهل بعد أن تحرر من قيد الاستعمار الأوربي المباشر، فانغمس في حياته المستقلة حتى تشكل سياج قوي حول ما يتعلق بمسألة التحرر السياسي الوطني، وبطء العمل في تحقيق الوحدة العربية.

وكنا نعتقد أن الوحدة لا تنفصل عن الحرية، دون أن يضيرنا تقدم أحدهما على الآخر؛ باعتبارهما الطريق الواضحة إلى القومية العربية القوية، وإلى ممارسة التحديث الاجتماعي والثقافي بكل توازن وفاعلية. وهذا ما أثبتهتاريخ الصراع العربي ــ الصهيوني منذ احتلال الصهاينة لفلسطين عام (١٩٤٨م) أن التحرر الوطني لا ينعزل عن وحدة العرب وتضامنهم، ولكن اكتشافنا أن هناك أمرين قد ضاعا في غمرة محاربة الغزو الاستعماري الصهيوني ثم الإمبريالي؛ وهما:

١ ــ حرية المواطن الحقيقية؛ إذ فقد المواطن كثيراً من حريته في ممارسة حياته الفكرية والسياسية والاجتماعية لحساب قضية التحرر الوطني الذي دخل في صميم الفكر السياسي. ثم صار كل شيء مرهوناً بقضايا التحرر على صُعُد عديدة فضاقت الحركة الديمقراطية؛ إذا لم تفقد في كثير من الأقطار العربية. فقد فقدت الثورة الاجتماعية وجهها الأصيل حين عاشت على حالات حالمة من السلم ومحاربة الغزو الخارجي، ما جعل الاستبداد يعشش ويفرخ في جنبات الأوطان. ولهذا ضاعت حرية المواطنة وحقوقها، في الوقت الذي ضاعت فيه التنمية الداخلية وسعادة الإنسان.

---

(1) التحديات التي تواجه الثقافة العربية راهناً ــ د. طيب تيزيني ــ جريدة البيان ــ عدد(٦١٠٥) ــ تاريخ (٦ /٣/ ١٩٩٧م).

٢ ــ انكسار مفهوم الأمن القومي الموحَّد شيئاً فشيئاً على الرغم من انعقاد الاتفاقات الأمنية القومية على صعيد عربي ممثلاً بالجامعة العربية أو معاهدة الدفاع المشترك، أو الوحدة الاقتصادية، أو انعقاد المؤتمرات الجامعة للاتحادات العربية في مجالات شتى. فالمشروع القومي قوبل بالاستشراق ثم بالاستعمار الأوربي الصهيوني فلم يستطع أن يواجه حالة الإحباط والتفكك والتراجع على الرغم من اتقاد العاطفة القومية في نفوس العرب قاطبة إبان ستينيات القرن العشرين. ثم أخذ النظام العالمي الجديد الذي ظهرت بداياته منذ مطلع سبعينيات القرن نفسه يشدد قبضته على العالم، ما زاد العرب إحباطاً في تشكيل مشروعهم القومي الديمقراطي.

ولعل أكبر مسؤولية تقع على المشروع القومي عدم عنايته الكبرى بالإعلام والانترنت ما جعل الفجوة الرقمية تزداد بين العرب والعالم المتمدن، فسقط المشروع القومي ــ أو كاد ــ أمام الحكومة الإلكترونية التي تتحكم بمصائر البلاد والعباد. فكلنا يعرف أن الإعلام أو الفضائيات أو الانترنت يمارس اليوم عملية غسل دماغ للأجيال العربية الناشئة حتى بات كثير منهم لا يعرف إلا القليل عن القومية العربية. فقد تراجعت الثقافة العربية في أذهانهم، بعكس الأجيال السابقة التي تربت على مفهوم العروبة، وقد أسهمت وسائل الإعلام القُطْرية مرئية ومسموعة ومكتوبة بالتأثير السلبي في الأجيال الشابة حين تبنت برامج عديدة ــ تحت مزاعم التحرر ــ ما أدت إلى ازدياد الهوة بينهم وبين القيم الأخلاقية والمفاهيم النبيلة للقومية العربية، ولا سيما حين استغلت الثقافة الغربية، ولا سيما العولمة الأمريكية حاجة الشباب واندفاعه إلى طلب العلم والمعرفة.

ولما كانت الأهداف كبيرة والدراسات الفكرية والثقافية كثيرة في مؤسسات الوطن والأمة؛ فقد سعينا جاهدين إلى صياغة آمالنا المشروعة والسامية في مختلف المجالات والآراء التي نتبناها في المعرفة والفكر والثقافة واللغة والنقد والأدب والفن؛ وفي السياسة والصحافة والتقنية والاقتصاد لتحقيق المشروع القومي المستند إلى الرؤية المعرفية وأهدافها النبيلة باعتبارها شكلاً ثقافياً من أشكال العمل الدؤوب على الأرض؛ للوصول إلى تبني عقيدة فكرية قومية تفيد من تجارب الماضي، عقيدة فكرية نجتهد في تطبيقها في حياتنا لتوحيد ماهية المصطلحات والمفاهيم الفكرية والسياسية والاجتماعية، وباعتبارها المفتاح إلى مقاومة ثقافة التغيير التي هبت وتهب من كل اتجاه؛ آخرها ثقافة العولمة؛

مقاومة تمارس الصدق في القول وفي العمل وتتخلى عن الكلام للكلام والتنظير الفارغ. فما قتل أمتنا إلا الكلام الأجوف الذي يتبناه أصحابه لمجرد التفاخر به، والإدلاء بسطوتهم فيه دون أن يكون لـــه حظ واقعي من التطبيق... فترف الكلام عند المثقفين غدا مادة يتبارزون بها، لينال أحدهم من الآخر، أو ليترفع عليه..... ولعل ما زاد الطين بلّة شيوع ظاهرة التعصب الإثني داخل المجتمع العربي على الرغم من وجود ثقافة عربية مشتركة.

فإذا تجاوزنا ذلك كله لم نغفل عن حقيقة أن المشروع الصهيوني الذي أخذ يتآكل من الداخل والخارج نتيجة عوامل موضوعية متعددة قد أخذ يحدد ذاته بمشروع الشرق الأوسط الكبير المدعوم أمريكياً وأوربياً.

وإذا كانت هناك هزائم لحقته في أمكنة شتى في لبنان والعراق وغيرهما فإنه لن يتراجع أو يزول خطره من دون آليات محكمة منهجية وعلمية ومعرفية وسياسية وعسكرية وتقنية، وحينذاك يمكن أن يتحقق المشروع القومي.

تلك هي رؤيتنا لأبرز نتائج دراستنا، ونرجو الله أن نكون وفِّقنا في تقديم ما هو مفيد.

JJJ

قائمة المصادر والمراجع

١ ــ الآلهة التي تفشل دائماً ــ إدوارد سعيد ــ ترجمة حسام الدين خضور ــ دار الكتاب العربي ــ القاهرة والتكوين للطباعة ــ دمشق ــ د/ت.

٢ ــ إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء ــ محمد الخضري ــ نشر مكتبة دار الدعوة ــ حلب ــ ط١ ــ ١٣٩٨هـ.

٣ ــ أثر الدخيل على العربية الفصحى، مسعود بوبو، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٢.

٤ ــ أحاديث وحوارات، نعوم تشومسكي، دار الرضا، دمشق ــ تشرين الأول ــ ٢٠٠٢.

٥ ــ الاختراق الصهيوني للعراق، خالد الناشف، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥.

٦ ــ الأدب في عالم متغير، شكري محمد عياد، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧١.

٧ ــ استراتيجية المشروع الصهيوني في المنطقة العربية ــ سامي جميل الخطيب (ملحق البعث الفكري ــ العدد ٤٥ ــ الاثنين ٢٠٠٦/٦/٥م).

٨ ــ الاستشراق ــ المعرفة ــ السلطة ــ الإنشاء، إدوارد سعيد، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط٤، ١٩٩٥.

٩ ــ الاستشراق والمستشرقون ــ مصطفى السباعي ــ المكتب الإسلامي ــ بيروت ــ ١٩٧٩م.

١٠ ــ الإسلام ــ الخطاب العربي وقضايا العصر ــ محاورات فكرية، وحيد تاجا، فصّلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب، ط١، ٢٠٠٠.

١١ ــ الإسلام والتمييز العنصري ــ صلاح الدين الأيوبي ــ دار الأندلس ــ بيروت ــ ١٩٧٢م.

١٢ ــ الإسلام ودول الكونسيسون، سامي حسن الحمش، نشرة كلنا شركاء، تاريخ ٢٠٠٦/٢/٥ (الانترنت).

١٣ ــ الإسلام والمستشرقون ــ دار المعرفة ــ دمشق ــ ١٩٨٥م.

١٤ ــ إشكاليات الفكر العربي المعاصر ــ محمد عابد الجابري ــ مركز دراسات الوحدة العربية ــ بيروت ط٤ ــ ٢٠٠٠م.

١٥ ــ الاصطلاح، مصادره ومشاكله وطرائق توليده، يحيى عبد الرؤوف جبر، مجلة اللسان العربي، المغرب، العدد ٣٦.
١٦ ــ الأصول المسيحية وجذور الموقف الأمريكي من إسرائيل ــ صبحي حديدي ــ الانترنت ٢٧/٤/٢٠٠٤م.
١٧ ــ الأصولية المسيحية في التاريخ وشهر دعاتها ــ مصطفى لطفي ــ الانترنت ٢٦/١/٢٠٠٦م.
١٨ ــ إعاقة الولايات المتحدة للديمقراطية ــ نَعُّوم تشومسكي ــ مركز دراسات الوحدة العربية ــ بيروت ــ ١٩٩١م.
١٩ ــ الأعمال القومية ــ د. عبد الله الدائم ــ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ بيروت ــ ٢٠٠٢م.
٢٠ ــ أعمال المؤتمر الثالث للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، القاهرة، ٩ ــ ١٥/١٢/١٩٥٧.
٢١ ــ أفكار لزمن قادم ــ منصور إبراهيم ــ دار الشموس ــ دمشق ــ ١٩٩٩م.
٢٢ ــ الإمبراطورية الأمريكية، كلود جوليان، دار الحقيقة، بيروت.
٢٣ ــ أمريكا اللقيطة، مجدي إبراهيم محرم، الانترنت، ك٢، ٢٠٠٤.
٢٤ ــ أمريكا المستبدة، ميشيل بنييون موردن، ت: حامد فرزات، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠١.
٢٥ ــ الأمة العربية ــ د. سمير أمين ــ مكتبة مدبولي ــ القاهرة ــ ١٩٨٨م.
٢٦ ــ الأمير، ميكيافيللي، وزارة الثقافة، دمشق ــ د/ ت.
٢٧ ــ البعث والتراث ــ ميشيل عفلق ــ دار الحرية ــ بغداد ــ ١٩٧٦م.
٢٨ ــ بعض قضايا الفكر العربي المعاصر ــ جلال فاروق الشريف ــ وزارة الثقافة ــ دمشق ــ ٢٠٠٤م.
٢٩ ــ تاج العروس، المرتضى الزبيدي، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٠٢ ــ ١٣٠٦هــ.
٣٠ ــ تاريخ عمر بن الخطاب ــ جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي ــ دار الرائد العربي ــ بيروت ــ ط٢ ــ ١٤٠٥هــ/١٩٨٥م.
٣١ ــ تأثير الغزو الثقافي على سلوك الشباب العربي ــ إحسان الحسن ــ أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية ــ الرياض ــ ١٩٩٨م.
٣٢ ــ التحديات التي تواجه الثقافة العربية راهناً، طيب تيزيني، جريدة البيان العدد ٦١٠٥ تا ٦/٣/١٩٩٧، الإمارات العربية المتحدة.

٣٣ ــ التبشير والاستعمار ــ مصطفى الخالدي وعمر فروخ ــ المكتب الإسلامي ــ بيروت ــ ١٩٧٩م.
٣٤ ــ تحدي الحركة الصهيونية للقوى العربية والإسلامية ــ د. يحيى علي يحيى الدجني ــ دار النمير ــ دمشق ــ ١٩٩٧.
٣٥ ــ الترجمة إلى العربية، محمد ديداوي، مجلة اللسان العربي، العدد ٢٥.
٣٦ ــ تصدعات في القلعة الأمريكية ــ تحليل استشرافي استراتيجي ــ د. خير الدين عبد الرحمن ــ اتحاد الكتاب العرب ــ دمشق ــ ٢٠٠٦م.
٣٧ ــ التصورية والمصطلح، نيدوبتي وولفغانغ، مجلة اللسان العربي، العدد ٣٦، المغرب.
٣٨ ــ تعريب المصطلح العلمي (إشكالية المنهج)، قاسم السارة، مجلة عالم الفكر، مج١٩، ع ٤، الكويت، ١٩٨٩
٣٩ ــ التغريب في اللغة العربية، إبراهيم السامرائي، مجلة عالم الفكر، مج١٠، ع٤، الكويت، ١٩٨٠.
٤٠ ــ تغطية الإسلام ــ إدوارد سعيد ــ ترجمة محمد كرزون ــ دار نينوى ــ ٢٠٠٦م.
٤١ ــ التناص وإشاريات العمل الأدبي، صبري حافظ، مجلة ألف، سنوية، العدد ٤، القاهرة ١٩٨٤.
٤٢ ــ الثقافة العربية وعصر المعلومات، نبيل علي، عالم المعرفة، العدد ٢٧٦، الكويت.
٤٣ ــ الجامع الصغير من حديث البشير النذير، السيوطي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار خدمات القرآن، القاهرة، د/ ت.
٤٤ ــ الجهود اللغوية في المصطلح العلمي الحديث، محمد علي الزركان ، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٨.
٤٥ ــ الحاسوب (هذا الطفل الذي ولد كبيراً)، أسامة أمين الخولي ، عالم الفكر، المجلد ١٨، العدد ٣، الكويت، ١٩٨٧.
٤٦ ــ حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط٧، ١٩٩٣.
٤٧ ــ حقائق الصراع وأوهام التسوية ــ مأمون الحسيني ــ دار كنعان للدراسات والنشر ــ دمشق ــ د/ت.
٤٨ ــ الخطاب الإسلامي المعاصر ــ محاورات فكرية ، وحيد تاجا، فصّلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب، ط١، ٢٠٠٠.
٤٩ ــ الخطاب العربي المعاصر (دراسة تلية نقية) ــ محمد عابد الجابري ــ المركز الثقافي العربي ــ الدار البيضاء ودار الطليعة ــ بيروت ــ ١٩٨٨م

٥٠ ــ دراسات في تأصيل المعربات والمصطلح، حامد صادق قينبي، مجلة اللسان العربي، العدد ٣١، المغرب.
٥١ ــ دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب، شحادة الخوري، دار طلاس، دمشق، ط١، ١٩٨٩.
٥٢ ــ دراسات لغوية، حسين نصَّار، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١.
٥٣ ــ الديمقراطية والإسلام ــ سليم قندلفت ــ أرواد للطباعة ــ طرطوس ــ سورية ــ ١٩٩٦م.
٥٤ ــ الديمقراطية وحقوق الإنسان: مع الرافدين نبدأ ــ د. ثناء محمد صالح عبد الرحيم ــ مجلة الحكمة ــ بغداد ــ العدد ٤٠ ــ السنة الثامنة ــ ٢٠٠٥م.
٥٥ ــ الديمقراطية والنظام العالمي الجديد ــ هانز كوشلر ــ ترجمة سمير أحمد ــ مركز الدراسات الدولية ــ بغداد ــ ٢٠٠٠م.
٥٦ ــ ديوان أبي الطيب المتنبي، مصطفى السقا وزميلاه، دار المعرفة، بيروت ــ د/ ت.
٥٧ ــ ديوان عمرو بن كلثوم، علي أبو زيد، دار سعد الدين، دمشق، ط١، ١٩٩١م.
٥٨ ــ رهان المليون السابع ــ اليهود والهجرة الصهيونية حتى ٢٠٢٠ ــ كارم يحيى ــ المركز العربي للدراسات الاستراتيجية ــ دمشق ــ ٢٠٠٦م (العدد ٥٣ ــ كانون الثاني ــ من سلسلة دراسات قضايا استراتيجية).
٥٩ ــ سقوط الحضارة ــ كولن ولسن ــ ترجمة أنيس زكي حسن ــ دار الآداب ــ بيروت ــ ط٤ ــ ١٩٨٧م.
٦٠ ــ السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت د. ت.
٦١ ــ الشخصية التونسية، البشير بن سلامة، مؤسسة بن عبد الله، تونس، ١٩٧٤.
٦٢ ــ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، دار الأندلس، بيروت، د/ ت.
٦٣ ــ الشرق الأوسط الكبير ــ د. غازي حسين ــ اتحاد الكتاب العرب ــ دمشق ــ ٢٠٠٥م.
٦٤ ــ الشوقيات، أحمد شوقي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٩٧٠.
٦٥ ــ صدام الحضارات، صموئيل هنتنغتون، ت: طلعت الشايب، بيروت،ط٢، ١٩٩٩.

٦٦ ــ الصهاينة والهولوكست ــ جريدة البعث السورية ــ دمشق ــ العدد ١٢٨٢٤ ــ تاريخ ٧/٣/٢٠٠٦م.
٦٧ ــ الطوفان (عولمة الاقتصاد)، خالد محمد غازي، دار الهدى للنشر، القاهرة، ٢٠٠٠.
٦٨ ــ الظاهر والمدفون في بلد الزيتون، عبد الحميد مشلح، مطبعة دار عكرمة، دمشق، ٢٠٠١.
٦٩ ــ العراق الجديد بين الديمقراطية والأمن ــ كنعان خورشيد عبد الوهاب ــ مجلة الحكمة ــ بغداد ــ العدد ٤٠ ــ السنة الثامنة ــ ٢٠٠٥م.
٧٠ ــ العرب والفكر التاريخي ــ عبد الله العروي ــ المركز الثقافي العربي ــ بيروت ــ ط٣ ــ ١٩٩٢م.
٧١ ــ على باب قرن جديد، محمد الحبش، دار التجديد، دمشق، د/ ت.
٧٢ ــ علوم القرآن، عدنان محمد زرزور، المكتب الإسلامي، دمشق/ بيروت، ط٢، ١٩٨٤.
٧٣ ــ العمل الثقافي المشترك، عبد الله أبو هيف، صحيفة تشرين، العدد ٩٢٤٩ تا ١٥/٥/٢٠٠٥، دمشق.
٧٤ ــ العولمة والأمركة ــ موفق النقيب ــ دار الرائي ــ دمشق ــ ٢٠٠٤م.
٧٥ ــ العولمة والهوية الثقافية، سليمان خلف، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد ١٦، الكويت، ١٩٩٧م.
٧٦ ــ عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ابن أبي شامة المقدسي، تحقيق: أحمد البيسومي، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩١.
٧٧ ــ الفتح القسيّ في الفتح القدسي، العماد الأصفهاني، تحقيق: محمود محمد صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، د/ ت.
٧٨ ــ قراءة في ملحمة جلجامش، فراس سواح، العربي للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٨٧.
٧٩ ــ فصل الدين عن الدولة ــ إسماعيل الكيلاني ــ المكتب الإسلامي ــ بيروت ــ ١٩٨٠م.
٨٠ ــ الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي ــ محمد البهي ــ مكتبة وهبة ــ القاهرة ــ ١٩٧٥م.
٨١ ــ الفكر المسيحي الكاثوليكي في مواجهة الحداثة ــ د. حسن بن خميس القرواشي ــ كلية العلوم الإنسانية ــ تونس ــ ٢٠٠٥م.
٨٢ ــ في الأدب الحديث ــ عمر الدسوقي ــ مطبعة الرسالة ــ عابدين ــ القاهرة ــ ١٩٩٤م.

٨٣ ــ القدس والاستعمار الكولونيالي (العروبة في مواجهة الجدار الديمغرافي) ــ علي بدوان ــ اتحاد الكتاب العرب ــ دمشق ــ ٢٠٠٦م.
٨٤ ــ قلب الطاولة، ديانا جبور، صحيفة الثورة، العدد ١٢٧١١، تاريخ ٢٣/٥/٢٠٠٥، دمشق.
٨٥ ــ الكتاب المقدس ــ طباعة كنيسة يسوع المسيح لولاية يوتا ــ مدينة سولت ليك ــ ١٩٨٦م.
٨٦ ــ اللامنتمي ــ كولن ولسن ــ ترجمة أنيس زكي حسن ــ دار الآداب ــ بيروت ــ ١٩٨٥م.
٨٧ ــ لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ١٩٥٥ ــ ١٩٥٦.
٨٨ ــ لماذا أخفقت النهضة العربية ــ د. محمد وقيي و د. أحميدة لنيفر ــ دار الفكر ــ دمشق ــ ٢٠٠٢م.
٨٩ ــ اللغة العربية والحاسوب، نبيل علي، مجلة عالم الفكر، مج١٨، ع٣، الكويت ١٩٨٧.
٩٠ ــ اللغة العربية والنهضة العلمية المنشودة في عالمنا الإسلامي، كارم السيد غنيم، مجلة عالم الفكر، مج١٩، ع٤، الكويت ١٩٨٩.
٩١ ــ اللغة والنحو بين القديم والحديث، عباس حسن، دار المعارف، مصر، ط٢.
٩٢ ــ المجتمع المدني ــ توفيق المديني ــ اتحاد الكتاب العرب ــ دمشق ــ ١٩٩٧م.
٩٣ ــ محاضرات في الصهيونية ــ د. طلال ناجي ــ مؤسسة الرؤى للطباعة ــ دمشق ــ ٢٠٠٢م.
٩٤ ــ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، تحقيق: عبد الله إبراهيم الأنصاري وزملائه، الدوحة، ط١، ١٩٧٧م.
٩٥ ــ المسبار في النقد الأدبي د. حسين جمعة ــ اتحاد الكتاب العرب ــ دمشق ــ ٢٠٠٣م.
٩٦ ــ المستشرقون والإسلام: معالجة منهجية خاطئة ــ إبراهيم محمد جواد ــ النبأ ــ تشرين الثاني ــ الانترنت ــ ٢٠٠٠م
٩٧ ــ مستقبل الثقافة في مصر، طه حسين ــ دار المعارف ــ القاهرة ــط٢ ــ١٩٩٧م.
٩٨ ــ المسيحية والعرب ــ نقولا زيادة ــ قدس للنشر والتوزيع ــ دمشق ــ ط٢ ــ ٢٠٠٠م.
٩٩ ــ المصطلح الصوتي بين الترجمة والتغريب، محمد حلمي هليل، مجلة اللسان العربي، العدد ٢١، المغرب.

١٠٠ ــ معجم البلدان ــ ياقوت الحموي ــ دار صادر ــ بيروت ــ ١٩٧٧م.
١٠١ ــ المعجم الشامل لمصطلحات مجمع اللغة العربية (دار التقنية والهندسية) عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١٩٩١،١.
١٠٢ ــ معجم مصطلحات العربية في اللغة العربية والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٩.
١٠٣ ــ المعجم الفلسفي ــ د. جميل صليبا ــ دار الكتاب اللبناني ــ بيروت، ودار الكتاب المصري ــ القاهرة ــ ١٩٧٩م.
١٠٤ ــ المعرب من الكلام الأعجمي، أبو منصور الجواليقي، تحقيق: محمد أحمد شاكر، دار الكتب، القاهرة، ط٢، ١٩٦٩.
١٠٥ ــ مفاهيم نقدية، رنييه ويليك، ت: محمد عصفور، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ١١٠، ١٩٨٧، الكويت.
١٠٦ ــ مفهوم الديمقراطية في العراق القديم ــ عبد الرضا الطعان ــ مجلة آفاق عربية ــ السنة ١٤ ــ العدد ٦ ــ حزيران ــ ١٩٨٩م.
١٠٧ ــ مفهوم السامية واللاسامية، ندرة اليازجي، جريدة الأسبوع الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، العدد ٩٩٤، ٢٠٠٦/٢/١٨، دمشق.
١٠٨ ــ مقالات في النقد الأدبي، ت. س. إليوت، ترجمة: لطيفة الزيات ــ مكتبة الأنجلو المصرية ــ القاهرة، د/ ت.
١٠٩ ــ مقاومة العولمة ــ مجلة الكاتب العربي ــ الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب ــ عدد (٦٥ ــ ٦٦) تموز/ كانون الأول ــ دمشق ــ ٢٠٠٤م.
١١٠ ــ مقدمات لدراسة المجتمع العربي، هشام شرابي، الأهلية للتوزيع والنشر، بيروت، ١٩٧٧.
١١١ ــ مقدمة ابن خلدون ــ تحقيق علي عبد الواحد وافي ــ طبعة لجنة البيان العربي ــ ١٩٥٧ ــ ١٩٦٢م.
١١٢ ــ الملل والنحل ــ للشهرستاني ــ دار المعرفة ــ بيروت ــ ١٩٧٥م.
١١٣ ــ منابع الإرهاب ــ موفق النقيب ــ دار الرائي ــ دمشق ــ ٢٠٠٥م.
١١٤ ــ من العروبة إلى العروبة: أفكار في المراجعة ــ عبد الإله بلقزيز ــ العالمية للكتاب ــ ط١ ــ ٢٠٠٣م.
١١٥ ــ نحن والتراث، محمد عابد الجابري، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، ١٩٨١.

١١٦ ــ ندوة مشروع النهضة العربية للقرن الحادي والعشرين ــ المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ــ وزارة التعليم العالي ــ دمشق ــ ٢٠٠٢م.
١١٧ ــ النزاعات الأهلية العربية ــ مركز دراسات الوحدة العربية ــ بيروت ــ ١٩٩٧م.
١١٨ ــ نظام الطائفية: من الدولة إلى القبيلة ــ برهان غليون ــ المركز الثقافي العربي ــ بيروت ــ ١٩٩٠م.
١١٩ ــ النفوذ الصهيوني في العالم بين الحقيقة والوهم ــ د. طلال ناجي ــ مركز دراسات الغد العربي ــ ٢٠٠٤م.
١٢٠ ــ النقد الذاتي ــ علال الفاسي ــ دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ــ بيروت والقاهرة وبغداد ــ ١٩٦٦م.
١٢١ ــ نهاية التاريخ والإنسان الأخير، فرنسيس فوكوياما، ترجمة: فؤاد شاهين وجميل قاسم ورضا الشايبي، مركز الإنماء القومي، بيروت،١٩٩٣.
١٢٢ ــ النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود الطناجي، مؤسسة إسماعيليان، قم (إيران)، ١٣٤٧هــ.
١٢٣ ــ النهضة العربية الثانية ــ تحديات وآفاق ــ تحرير غسان عبد الخالق ــ مؤسسة عبد الحميد شومان ــ عمّان ــ ٢٠٠٠م.
١٢٤ ــ هموم المثقفين، زكي نجيب محمود، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٨١.
١٢٥ ــ هوامش على موضوع الحرية، علي عقلة عرسان، جريدة الأسبوع الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، العدد ٩٥٨، ٢١/٥/٢٠٠٥.
١٢٦ ــ الهويات والتعددية اللغوية، عز الدين المناصرة، دار مجدلاوي للنشر، عمان، ٢٠٠٤.
١٢٧ ــ الهوية، ألكس ميكشيللي، ت: علي واصف، دار الوسيم، دمشق،١٩٩٣.
١٢٨ ــ الهوية الثقافية العربية والتحديات التي تجابهها، غسان عبد الخالق، مؤسسة عبد الحميد شوحان، عمان ــ ٢٠٠٠.
١٢٩ ــ الهوية القومية في الخطاب الحداثي العربي، محمد لطفي اليوسفي، مجلة الكاتب العربي، تموز/ كانون الأول ٢٠٠٤، الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، تموز/ ك١، ٢٠٠٤، دمشق.

١٣٠ ــ هيمنة الأصولية البروتستانتية على السياسة الأمريكية ــ سمير مرقص ــ جريدة النهار ــ بيروت ــ الأحد ٢٠٠٢/٤/٢١م.
١٣١ ــ الوعي القومي ــ قسطنطين زريق ــ دار المكشوف ــ ط٢ ــ ١٩٤٠م.
١٣٢ ــ يقظة العرب ــ جورج أنطونيوس ــ ترجمة ناصر الدين الأسد وحسان عباس ــ دار العلم للملايين ــ ط٧ ــ ١٩٨٢م.

أبرز المجلات والصحف والانترنت

١ ــ مجلة الأمن والحياة ــ جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية ــ الرياض ــ العدد ٢٨٣ ــ كانون الثاني ــ ٢٠٠٦م.
٢ ــ مجلة الطلائع ــ قوات الصاعقة ــ دمشق ــ العدد ١٤٢٧ ــ تاريخ ٢٠٠٦/٢/٢٢م.
٣ ــ مجلة الوسط ــ العدد ٩٦ ــ ١٩٩٣/١١/٢٩م. والعدد ٩٨ ــ ١٩٩٣/١٢/١٣م. والعدد ٩٩ ــ ١٩٩٣/١٢/٢٠م. والعدد ١٠١ ــ ١٩٩٤/١/٣م. والعدد ١٠٢ ــ ١٩٩٤/١/١٠م.
٤ ــ مجلة البلاد ــ العدد ٢٢٢ ــ شباط ١٩٩٥م.
٥ ــ مجلة فتح ــ دمشق ــ العدد ٥٦٢ ــ تاريخ ٢٠٠٦/٣/١م.
٦ ــ الموقف الأدبي ــ اتحاد الكتاب العرب ــ دمشق ــ العدد ٤١٨ ــ٢٠٠٦م.
٧ ــ جريدة سيريانيوز ــ دمشق ــ ٢٠٠٦/٢/٥م.
٨ ــ جريدة صوت الشعب ــ دمشق ــ العدد ١٣١ ــ ٢٠٠٦/٣/٢٥م.
٩ ــ جريدة كيهان العربي ــ رقم ٣٣٢٤ ــ الملحق ــ آذار ــ ١٩٩٥ والعدد ٣٣٢٥ ــ الملحق ــ آذار ــ ١٩٩٥م.
١٠ ــ جريدة التايمز الكويتية ــ باللغة الإنكليزية ــ السبت ١٩٩٤/١٠/٢٩م.
١١ ــ جريدة الأسبوع الأدبي ــ اتحاد الكتاب العرب ــ دمشق ــ العدد ٩٩٢ ــ تاريخ ٢٠٠٦/٢/٤م.
١٢ ــ جريدة قاسيون ــ دمشق ــ العدد ٢٦٧ ــ تاريخ ٢٠٠٦/٣/٢م.
١٣ ــ الملحق الإداري لجريدة البعث ــ العدد ٣٠ ــ تاريخ ٢٠٠٦/٢/٢٠م.
١٤ ــ جريدة السفير ــ بيروت ــ تاريخ ٢٠٠٥/١٠/١م.
١٥ ــ جريدة الشرق ــ قطر ــ الخميس تاريخ ٢٠٠٤/١٠/١٤م.
١٦ ــ جريدة تشرين ــ دمشق ــ العدد ٩٥٥١ ــ تاريخ ٢٠٠٦/٥/٢م.
١٧ ــ صحيفة الرأي الأردنية ــ حزيران ٢٠٠٣م.
١٨ ــ صحيفة شيحان الأردنية ــ تموز ــ ٢٠٠٣م.
١٩ ــ مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية (كير) ــ الانترنت ــ ٢٠٠٤/٢/١١م.
٢٠ ــ موقع مجلة النبأ ــ العدد ٥١ ــ تشرين الثاني ــ ٢٠٠٠م ــ الانترنت.

٢١ ــ الموقع الرسمي للدكتور محمد شحرور ــ دمشق ــ ٢٠٠٠/١١/١١م ــ الانترنت.
٢٢ ــ نشرة وزارة الخارجية ــ دولة فلسطين ــ الدائرة السياسية ــ الانترنت.

ملاحظة:

وهناك دوريات أخرى ومواقع انترنت غير مذكورة في هذا الجدول، وقد أشير إليها في أسفل الصفحات.

الفهرس

الموضوع | الصفحة